الْمَضَاجِعِ ﴾، قال: « قيام العبد من الليل » (١).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنَان الواسطى، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا فِطْر بن خليفة، عن حبيب بن أبى ثابت، والحكم، وحكيم بن جُبَيْر، عن ميمون بن أبى شبيب، عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبى ﷺ فى غزوة تبوك فقال: « إن شئت أنبأتك بأبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وقيام الرجل فى جوف الليل »، ثم تلا رسول الله ﷺ: **﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾**.

ثم قال: حدثنا أبى، حدثنا سويد بن سعيد، حدثنا على بن مُسْهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن شَهْر بن حَوْشَب (٢)، عن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ: « إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء مناد فنادى بصوت يُسمعُ الخلائق: سيعلم أهل الجمع اليوم مَن أولى بالكرم. ثم يرجع فينادى: ليقم (٣) الذين كانت **﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾** الآية، فيقومون وهم قليل » (٤).

وقال البزار: حدثنا عبد الله بن شَبِيب، حدثنا الوليد بن عطاء بن الأغر، حدثنا عبد الحميد بن سليمان، حدثنى مصعب، عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: قال بلال (٥) لما نزلت هذه الآية: **﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾** [الآية] (٦)، كنا نجلس فى المجلس، وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء، فنزلت هذه الآية: **﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾**.

ثم قال: لا نعلم روى أسلم عن بلال سواه، وليس له طريق عن بلال غير هذه الطريق (٧).

وقوله: **﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** أى: فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم فى الجنات من النعيم المقيم، واللذات التى لم يطلع على مثلها أحد، لَمَّا أخفوا أعمالهم (٨) أخفى الله لهم من الثواب، جزاء وفاقا؛ فإن الجزاء من جنس العمل.

قال الحسن [البصرى] (٩): أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين، ولم يخطر (١٠) على قلب بشر. رواه ابن أبى حاتم.

قال البخارى: قوله: **﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾** الآية: حدثنا على بن

---

(١) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٤، ٦٥).

(٢) فى ت: « وروى ابن أبى حاتم بإسناده ».

(٣) فى ت: « لتقم ».

(٤) ورواه إسحاق بن راهويه فى مسنده، وأبو يعلى فى المسند الكبير كما فى المطالب العالية (٤/ ٣٧٣) من حديث أسماء بنت يزيد رضى الله عنها.

(٥) فى ت: « وقال البزار بإسناده عن بلال قال ».

(٦) زيادة من ت، ف.

(٧) مسند البزار برقم (٢٢٥٠) « كشف الأستار »، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٠): « فيه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف ».

(٨) فى ت، ف، أ: « أعمالهم كذلك ».

(٩) زيادة من أ.

(١٠) فى ت: « ولا يخطر ».

عبد الله، حدثنا سفيان ، عن أبى الزِّناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : « قال الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر » . قال أبو هريرة : فاقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾.

قال : وحدثنا سفيان ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة قال : قال الله مثله (١). قيل لسفيان : روايةً ؟ قال : فَأَىُّ شىء ؟

ورواه مسلم والترمذى من حديث سفيان بن عيينة ، به (٢) . وقال الترمذى : حسن صحيح .

ثـم قال البخارى : حدثنا إسحاق بن نصـر ،حدثنا أبو أسامة ، عن الأعمش ،حدثنا (٣) أبو صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذُخْراً منْ بَله مـا أُطْلعتَم عليه » ، ثـم قـرأ : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

قال أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، قرأ أبو هريرة : « قُرَّات أَعْيُنٍ ». انفرد به البخارى من هذا الوجه (٤) .

وقـال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن همام بن مُنَبِّه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى قال : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

أخرجاه فى الصحيحين من رواية عبد الرزاق (٥) . ورواه الترمذى فى التفسير ، وابن جرير ، من حديث عبد الرحيم بن سليمان ، عن محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ بمثله . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٦) .

وقال حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أبى رافع ، عن أبى هريرة (٧)،رضى الله عنه ، قال حمـاد: أحسبـه عن النبـى (٨) ﷺ قال :« مـن يدخل الجنة ينعم لا ييأس ،لا تبلى ثيابه ،ولا يفنى شبابه ،فى الجنة ما لا عين رأت ،ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

(١) فى ف ، أ : « تعالى » .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٩٧) .
(٣) فى ف ، أ : « عن » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٠) وفى البخارى « رواية أبى معاوية » بعد الحديث المتقدم .
(٥) المسند (٢/ ٣١٣) وصحيح البخارى برقم (٨٤٩٨) من طريق عبد الله عن معمر به ، ولم أجده فى الصحيحين من رواية عبد الرزاق .
(٦) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٢) وتفسير الطبرى (٢١/ ٦٦) .
(٧) فى ت : « وروي مسلم عن أبى هريرة » . (٨) فى ت : « رسول الله » .

رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة ، به (١) .

وروى (٢) الإمام أحمد : حدثنا هارون ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى أبو صخر ، أن أبا حازم حدثه قال : سمعت (٣) سهل بن سعد الساعدى ، رضى اللّه عنه ، يقول : شهدت من رسول اللّه ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة ، حتى انتهى ، ثم قال فى آخر حديثه : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ، ثم قرأ هذه الآية :﴿ **تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ [يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا]** (٤) ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **يَعْمَلُونَ** ﴾.

وأخرجه مسلم فى صحيحه عن هارون بن معروف ، وهارون بن سعيد ، كلاهما عن ابن وهب، به (٥) .

وقال ابن جرير : حدثنى العباس بن أبى طالب ، حدثنا معلى بن أسد ، حدثنا سلام بن أبى مطيع ، عن قتادة ، عن عقبة بن عبد الغافر ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول اللّه ﷺ ، يروى عن ربه ، عز وجل ، قال : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر » . لم يخرجوه (٦) .

وقال (٧) مسلم أيضا فى صحيحه : حدثنا ابن أبى عمر وغيره ، حدثنا سفيان ، حدثنا مُطَرِّف بن طَرِيف وعبد الملك بن سعيد ، سمعا الشعبى يخبر عن المغيرة بن شعبة قال : سمعته على المنبر ـ يرفعه إلى النبى ﷺ ـ قال : « سأل موسى ، عليه السلام (٨) ربه عز وجل: ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال: هو رجل يجىء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أى رب ، كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِكٍ من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب . فيقول : لك ذلك ، ومثله ، ومثله ، ومثله ، ومثله، فقال فى الخامسة : رضيت رب . فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله (٩) ، ولك ما اشتهت نفسك ولَذّت عينك. فيقول : رضيت رب . قال : رب ، فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أرَدتُ ، غَرَسْتُ كرامتهم بيدى، وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع (١٠) أذن ، ولم يخطر على قلب بشر » ، قال : ومصداقه من كتاب اللّه :﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ .

ورواه الترمذى عن ابن أبى عمر ، وقال : حسن صحيح ، قال : ورواه بعضهم عن الشعبى، عن المغيرة ولم يرفعه ، والمرفوع أصح (١١) .

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٦) .
(٢) فى أ : « وقال » . (٣) فى ت : « وروى مسلم أيضا عن » .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٥) المسند (٥/ ٣٣٤) ، وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٥) .
(٦) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٧) .
(٧) فى ت : « وروى » . (٨) فى ت: « ﷺ » .
(٩) فى ف ، أ : « وعشرة أمثاله معه » . (١٠) فى ف « تستمع » .
(١١) صحيح مسلم برقم (١٨٩) ، وسنن الترمذى برقم (٣١٩٨) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا جعفر بن منير المدائنى ، حدثنا أبو بدر شجاعُ بن الوليد ، حدثنا زياد ابن خَيْثَمَة ، عن محمد بن جُحَادة ، عن عامر[(١)] بن عبد الواحد قال : بلغنى أن الرجل من أهل الجنة يمكث فى مكانه سبعين سنة ، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد أنَى لك أن يكون لنا منك نصيب ؟ فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا من المزيد . فيمكث معها سبعين سنة، ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد أنى لك أن يكون لنا منك نصيب ، فيقول: من أنت ؟ فتقول : أنا التى [(٢)] قال الله : ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾.

وقال ابن لَهِيعة : حدثنى عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جُبَير قال : تدخل عليهم الملائكة فى مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس فى جناتهم ، وذلك قوله : ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾، ويُخبرُون أن الله عنهم[(٣)] راض .

وقال ابن جرير : حدثنا سهل بن موسى الرازى ، حدثنا الوليد بن مسلم ،عن صفوان بن عمرو،عن أبى اليمان الهوزنى ـ أو غيره ـ قال : الجنة مائة درجة ،أوّلها درجة فضة وأرضها فضة،ومساكنها فضة ، [وآنيتها فضة] [(٤)] وترابها المسك . والثانية ذهب ،وأرضها ذهب ، ومساكنها ذهب ،وآنيتها ذهب ،وترابها المسك .والثالثة لؤلؤ ،وأرضها لؤلؤ ،ومساكنها اللؤلؤ ، وآنيتها اللؤلؤ،وترابها المسك . وسبع وتسعون بعد ذلك ،ما لا عين رأت ،ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ثم تلا هذه الآية :﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[(٥)].

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا معتمر بن سليمان ، عن الحكم بن أبان ، عن الغِطْرِيف ،عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس [(٦)] ،عن النبى ﷺ ،عن الروح الأمين قال : «يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ،ينقص بعضها من بعض ، فإن بقيت حسنة [واحدة] [(٧)] وسع الله له فى الجنة » ، قال : فدخلت على « يزداد » فَحَدَّثَ بمثل هذا الحديث ، قال : فقلت : فأين ذهبت الحسنة؟ قال : ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** ﴾[الأحقاف : ١٦].قلت : قوله تعالى : ﴿ **فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** ﴾ ، قال : العبد يعمل سراً أسَرّه إلى الله ، لم يُعلم به الناس ، فأسَرَّ الله له يوم القيامة قُرَّة أعين [(٨)] .

﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)**

---

(١) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم عن عباس » .
(٢) فى أ : « أنا من الذين » .
(٣) فى ت : « عليهم » .
(٤) زيادة من ت ، ف ،أ ، والطبرى .
(٥) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٦) .
(٦) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس » .
(٧) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبرى .
(٨) تفسير الطبرى (٢١/ ٦٧) .

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن عدله [وكرمه] (١) أنه لايساوى فى حُكمه يوم القيامة من كان مُؤمناً بآياته متبعاً لرسله ، بمن كان فاسقا ، أى : خارجا عن طاعة ربه مكذبا لرُسُله إليه (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ [الجاثية : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [ص : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [الحشر : ٢٠] ؛ ولهذا قال تعالى : ههنا : ﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ** ﴾ أى : عند الله يوم القيامة .

وقد ذكر عطاء بن يَسَار والسُّدِّى وغيرهما : أنها نزلت فى على بن أبى طالب ، وعقبة بن أبى مُعَيط ؛ ولهذا فَصَّل حكمهم فقال : ﴿ **أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ أى : صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها (٣) ، وهى الصالحات ، ﴿ **فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ** ﴾ أى : التى فيها المساكن والدور والغرف العالية ، ﴿ **نُزُلاً** ﴾ أى : ضيافة وكرامة ﴿ **بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا** ﴾ أى : خرجوا عن الطاعة ، ﴿ **فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا** ﴾ كقوله : ﴿ **كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا** ﴾ الآية [الحج : ٢٢] .

قال الفُضَيل بن عياض : والله إن الأيدى لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم .

﴿ **وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ** ﴾ أى : يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخا .

وقوله : ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ [لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ]** (٤) ﴾ قال (٥) ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها ، وما يحل بأهلها مما يبتلى الله به عباده ليتوبوا إليه . وروى مثله عن أبى بن كعب ، وأبى العالية ، والحسن ، وإبراهيم النَّخَعى ، والضحاك، وعلقمة ، وعطية ، ومجاهد ، وقتادة ، وعبد الكريم الجَزَرى ، وخَصِيف .

وقال ابن عباس ـ فى رواية عنه ـ :يعنى به إقامة الحدود عليهم .

وقال : البراء بن عازب ، ومجاهد ، وأبو عبيدة : يعنى به عذاب القبر .

وقال النسائى : أخبرنا عمرو بن على ، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن إسرائيل ، عن أبى

---

(١) زيادة من أ .

(٢) فى ت ، ف : « لرسل الله » .

(٣) فى ت : « قلوبهم بلقاء الله ومقتضاها » .

(٤) زيادة من ت .

(٥) فى ت : « وقال » .

إسحاق ، عن أبي الأحوص وأبي عبيدة [١] ، عن عبد اللّه : ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال : سنون أصابتهم [٢] .

وقال عبد اللّه بن الإمام أحمد : حدثني عبيد اللّه بن عُمَر القواريري ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن شعبة ، عن قتادة ، عن عَزْرَة [٣] ، عن الحسن العُرَني ، عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أبي ليلى[٤] ، عن أبي بن كعب في هذه الآية :﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ قال: المصيبات [٥] والدخان قد مضيا ، والبطشة واللزام [٦] .

ورواه مسلم من حديث شعبة ، به موقوفا نحوه [٧] . وعند البخاري عن ابن مسعود ، نحوه[٨].

وقال عبد اللّه بن مسعود [٩] أيضا ، في رواية عنه : العذاب الأدنى : ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم .

قال السُّدِّي وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غَرِموا [١٠] ، ومنهم من جمع له الأمران .

وقوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي : لا أظلم ممن ذَكَّرَه اللّه بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها ، كأنه لا يعرفها .

قال قتادة ، رحمه اللّه : إياكم والإعراض عن ذكر اللّه ، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرّة ، وأعوز أشد العوَز [١١] ، وعظم من أعظم الذنوب .

ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك : ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي : سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

وقال ابن جرير : حدثني عمران بن بكار الكلاَعي ، حدثنا محمد بن المبارك ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا عبد العزيز بن عبيد اللّه ، عن عَبادة بن نُسَيّ ، عن جنادة بن أبي أمية [١٢] ، عن معاذ ابن جبل قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « ثلاث من فعلهن فقد أجرم ، من عقد [١٣] لواء في غير حق ، أو عق والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره ، فقد أجرم ، يقول اللّه تعالى : ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ »[١٤] .

---

(١) في ت : « وروى النسائي بإسناده » .
(٢) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٣٩٥) .
(٣) في ف ، أ : « عررة ».
(٤) في ت : « وروى عبد الله بن الإمام أحمد » .
(٥) في ت ، أ : « المضمار » .
(٦) زوائد المسند (٥/١٢٨) .
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٧٩٩) .
(٨) صحيح البخاري برقم (٤٨٢٠) ولفظه : « مضي خمس : الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام » .
(٩) في ت : « وعن ابن مسعود » .
(١٠) في ت : « هزموا » .
(١١) في ت ، أ : « وأعور أشد العورة » .
(١٢) في ت : « وروى ابن جرير بإسناده » .
(١٣) في ت : « اعتقد » ، وفي أ : « أعقد » .
(١٤) تفسير الطبري (٢١/٦٩) .

ورواه ابن أبى حاتم ، من حديث إسماعيل بن عياش ، به ، وهذا حديث غريب جداً .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٣) وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه آتاه الكتاب وهو التوراة .

وقوله : ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾: قال قتادة : يعنى به ليلة الإسراء [(١)] . ثم روى عن أبى العالية الرِّياحى قال : حدثنى ابن عم نبيكم ـ يعنى ابن عباس ـ قال : قال رسول ﷺ : « أريتُ ليلة أسرى بى موسى بن عمران ، رجلا آدم طُوَالا جَعْداً ، كأنه من رجال شَنُوءة . ورأيت عيسى رجلا مربوع الخلق ، إلى الحمرة والبياض ، مبسط الرأس ، ورأيت مالكا خازن النار والدجال ، فى آيات أراهن اللّه إياه »،﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾، أنه قد رأى موسى ، ولقى موسى ليلة أسرى به [(٢)] .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا الحسن بن على الحُلْوانى ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة ، عن أبى العالية ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ فى قوله :﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ، قال : جُعل موسى هُدى لبنى إسرائيل ، وفى قوله : ﴿ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ﴾، قال : من لقاء موسى ربه عز وجل [(٣)] .

وقوله : ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أى : الكتاب الذى آتيناه ﴿ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ، [كما قال تعالى فى سورة الإسراء :﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلا ﴾ [الإسراء: ٢] .

وقوله :﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ ، أى : لما كانوا صابرين على أوامر اللّه وترك نواهيه وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به ، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر اللّه ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . ثم لما بدلوا وحَرّفوا وأوَّلوا ، سلبوا ذلك المقام ، وصارت قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا عمل صالحاً ، ولا اعتقاد صحيحاً [(٤)] ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا [(٥)]﴾ قال قتادة وسفيان : لما صبروا عن الدنيا : وكذلك قال الحسن بن صالح .

قال سفيان: هكذا كان هؤلاء ،ولا ينبغى للرجل أن يكون إماماً يُقْتَدى به حتى يتحامى عن الدنيا .

قال وَكِيع : قال سفيان : لابد للدين من العلم ، كما لابد للجسد من الخبز .

(١) فى ت : « الأسرى » .

(٢) انظر الأثر عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء وتخريجه هناك .

(٣) المعجم الكبير للطبرانى (١٢/ ١٦٠) ،وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٠) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٤) فى ت : « فلا عملاً صالحاً ولا اعتقاداً صحيحاً » .

(٥) فى ف ، أ : « ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب » .

وقال ابن بنت الشافعي : قرأ أبي على عمي ـ أو : عمي على أبي ـ سئل سفيان عن قول علي، رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ألم تسمع قوله : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ ، قال : لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً . قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين .

ولهذا قال تعالى](١) :﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ [وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأَمْرِ] (٢) فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ [الجاثية : ١٦ ، ١٧] ، كما قال هنا :﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أي : من الاعتقادات والأعمال .

﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾ .

يقول تعالى : أو لم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية ، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل ، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ؟ ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم : ٩٨] ؛ ولهذا قال : ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي: وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها ، ذهبوا منها،﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ [الأعراف : ٩٢] ، كما قال :﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل : ٥٢]،وقال :﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٥ ، ٤٦] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي : إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم ، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل (٣) متظاهرة.

﴿ أَفَلا يَسْمَعُونَ ﴾أي : أخبار من تقدم ، كيف كان أمرهم ؟

وقوله : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾: يبين تعالى لطفه بخلقه ، وإحسانه إليهم في إرساله الماء إما من السماء أو من السيح ، وهو : ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجه إليه في أوقاته ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾،وهي [الأرض] (٤) التي لا نبات فيها ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[الكهف :٨]، أي : يَبَساً لا تنبت شيئاً .

(١ ، ٢) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٣) في ت ، أ : « دلالات » .
(٤) زيادة من ت ، أ .

وليس المراد من قوله :﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ أرض مصر فقط ، بل هى بعض المقصود ، وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست [هى] (١) المقصودة وحدها ، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية ، فإنها فى نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها ، فيسوق الله إليها النيل بما يتحمله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة ، وفيه طين أحمر ، فيغشى أرض مصر، وهى أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء، وذلك الطين أيضاً لينبُتَ الزرع فيه ، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور فى غير بلادهم ، وطين جديد من غير أرضهم ، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود ابتداء .

قال ابن لَهيعة ، عن قيس بن حجاج ، عمن حدثه قال : لما فُتحت مصر ، أتى أهلُها عمرو بن العاص ـ [وكان أميرًا بها] (٢) ـ حين دخل بؤونة من أشهر العجم ، فقالوا : أيها الأمير ، إن لنيلنا سُنَّة لا يجرى إلا بها . قال : وما ذاك ؟ قالوا : إذا كانت ثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عَمَدنا إلى جارية بكْر بين (٣) أبويها ، فأرضينا أبويها ، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى هذا النيل . فقال لهم عمرو : إن هذا ما لا يكون فى الإسلام ، إن الإسلام يهدم ما كان قبله . فأقاموا بؤونة والنيل لا يجرى ، حتى هموا بالجلاء ، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه : إنك قد أصبت بالذى فعلت ، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابى هذا ، فألقها فى النيل. فلما قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر ، أما بعد. . . فإنك إن كنت إنما تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله أن يجريك . قال : فألقى البطاقة فى النيل ، وأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً فى ليلة واحدة ، وقطع الله تلك السُنَّة عن أهل مصر إلى اليوم . رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائى الطبرى فى كتاب « السنة » له (٤) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴾ ،كما قال تعالى : ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا . [مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ] (٥) ﴾ [عبس : ٢٤ ـ ٣٢] ؛ ولهذا قال ههنا :﴿ أَفَلا يُبْصِرُونَ ﴾.

وقال ابن أبى نَجيح ، عن رجل ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ قال : هى التى لا تُمطر إلا مطرا لا يغنى عنها شيئا ، إلا ما يأتيها من السيول .

وعن ابن عباس ، ومجاهد : هى أرض باليمن .

وقال الحسن ، رحمه الله : هى قرى فيما بين اليمن والشام .

وقال عِكْرِمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسُّدِّىّ ، وابن زيد : الأرض الجرز : التى لا نبات فيها

---

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) زيادة من ت . (٣) فى أ : « من » .

(٤) كتاب السنة للالكائى برقم (٦٦) « قسم كرامات الأولياء » : حدثنا محمد بن أبى بكر ، حدثنا محمد بن مخلد ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنا عبد الله بن صالح ، عن ابن لهيعة به ، وهو مرسل .

(٥) زيادة من ت ، ف ، أ .

وهى مغبرة .

قلت : وهذا كقوله : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس : ٣٣ ـ ٣٥] .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار وقوعَ بأس الله بهم ، وحلول غضبه ونقمته عليهم ، استبعادا وتكذيباً وعناداً : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ ﴾ ؟ أى : متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتاً تُدَال علينا ، ويُنتَقم لك منا ، فمتى يكون هذا ؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين ! قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ أي : إذا حَل بكم بأس الله وسَخَطه وغضبه في الدنيا وفى الأخرى ، ﴿ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٣ ـ ٨٥] ، ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتحُ مكة فقد أبعد النَّجْعة ، وأخطأ فأفحش ، فإن يوم الفتح قد قَبِل رسولُ الله ﷺ إسلام الطلقاء ، وقد كانوا قريباً من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم ؛ لقوله : ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل، كقوله تعالى : ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٨] ، وكقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم : ١٥] ، وقال : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة : ٨٩] ، وقال : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ [الأنفال : ١٩] .

ثم قال : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أى : أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، كقوله : ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٠٦] ، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك ، وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد .

وقوله : ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾ أى: أنت منتظر ، وهم منتظرون ، ويتربصون بكم الدوائر ، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ [الطور : ٣٠] ، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله ، فى نصرتك وتأييدك ، وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك وفى أصحابك ، من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل،[والله أعلم] (١) .

[آخر تفسير سورة « الم السجدة »] (٢)

(١) زيادة من ف .

(٢) زيادة من ت .

تفسير سورة الأحزاب

[وهى] (١)مدنية .

قال [عبد الله بن] الإمام أحمد (٢) : حدثنا خلف بن هشام ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عاصم ابن بَهْدَلَة ، عن زِرٍّ قال : قال لى أُبَىّ بن كعب : كَأَين تقرأ سورة الأحزاب ؟ أو كَأين تعدها ؟ قال : قلت : ثلاثاً وسبعين آية . فقال: قَط ! لقد رأيتها وإنها لتعادل « سورة البقرة » ، ولقد قرأنا فيها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، نكالاً من الله ، والله عليم (٣) حكيم » (٤) .

ورواه النسائى من وجه آخر ، عن عاصم ـ وهو ابن أبى النجود ، وهو ابن بَهْدَلَة ـ به (٥) . وهذا إسناد حسن ، وهو يقتضى أنه كان (٦) فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضاً ، والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣) ﴾ .

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فَلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى . وقد قال طَلْق بن حبيب : التقوى: أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، مخافة عذاب الله .

وقوله : **﴿ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾** أى: لا تسمع منهم ولا تستشرهم ، **﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾** أى: فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم فى أقواله وأفعاله. ولهذا قال: **﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾** أى: من قرآن وسنة ، **﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾** أى: فلا تخفى عليه خافية ، **﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾** أى: فى جميع أمورك وأحوالك ، **﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ**

---

(١) زيادة من ت ، أ .

(٢) فى هـ : « قال الإمام أحمد : إنما قاله عبد الله بن أحمد » ، وفى ت ، ف ، أ : « قال الإمام أحمد » وأثبتنا ما بين القوسين ليستقيم السياق ، والذى فى المسند : « حدثنا عبد الله ، حدثنا خلف » .

(٣) فى ت ، أ : « عزيز » .

(٤) المسند (٥/ ١٣٢) .

(٥) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٧١٥٠) .

(٦) فى أ : « أنه قد كان » .

وَكِيلاً﴾ أى: وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأناب إليه .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) ﴾.

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوى أمراً حسياً معروفاً ،وهو أنه كما لايكون للشخص الواحد قلبان فى جوفه ،ولا تصير زوجته التى يظاهر منها بقوله :أنت علَى كظهر أمى أماً له ،كذلك لايصير الدَّعىّ ولداً للرجل إذا تبنَّاه فدعاه ابنا له،فقال: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾،كقوله: ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾[المجادلة :٢] .

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾: هذا هو المقصود بالنفى ؛فإنها نزلت فى شأن زيد بن حارثة مولى النبى ﷺ ،كان النبى ﷺ قد تبناه قبل النبوة ،وكان يقال له :« زيد بن محمد » ،فأراد اللّه تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله : ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾،كما قال فى أثناء السورة :﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ،وقال ههنا:﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ يعنى :تبنيكم لهم قول لايقتضى أن يكون ابنا حقيقيا ،فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ،فما يمكن أن يكون له أبوان ،كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾: قال سعيد بن جبير :﴿يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ أى : العدل .وقال قتادة : ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ أى: الصراط المستقيم .

وقد ذكر غير واحد: أن هذه الآية نزلت فى رجل من قريش ،كان يقال له: « ذو القلبين » ،وأنه كان يزعم أن له قلبين ،كل منهما بعقل وافر .فأنزل اللّه هذه الآية رداً عليه .هكذا روى العَوْفى عن ابن عباس .قاله مجاهد ،وعكرمة ،والحسن ،وقتادة ،واختاره ابن جرير .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ،حدثنا زهير ،عن قابوس ـ يعنى ابن أبى ظَبْيَان ـ أن أباه حدثه قال :قلت لابن عباس :أرأيت قول اللّه تعالى (١) :﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾،ما عنى بذلك ؟قال :قام رسول اللّه ﷺ يوماً يصلى ،فخَطَر خَطْرَة ،فقال المنافقون الذين يصلون معه: ألا ترون له قلبين ،قلباً معكم وقلباً معهم؟فأنزل اللّه،عز وجل: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾(٢).

---

(١) فى ف : « عز وجل » .
(٢) المسند (١/ ٢٦٧) .

وهكذا رواه الترمذى عن عبد اللّه بن عبد الرحمن الدارمى ،عن صاعد الحرانى ـ وعن عبد بن حميد ،عن أحمد بن يونس ـ كلاهما عن زهير ،وهو ابن معاوية ،به . ثم قال :وهذا حديث حسن. وكذا رواه ابن جرير ،وابن أبى حاتم ،من حديث زهير ،به (١) .

وقال عبد الرزاق :أخبرنا مَعْمَر ،عن الزهرى ،فى قوله : ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** ﴾ قال: بلغنا أن ذلك كان فى زيد بن حارثة ،ضُرب له مثل ،يقول : ليس ابن رجل آخر ابنك (٢) .

وكذا قال مجاهد ،وقتادة ،وابن زيد :أنها نزلت فى زيد بن حارثة .وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ** ﴾ :هذا أمر ناسخ لما كان فى ابتداء الإسلام من جواز إدعاء الأبناء الأجانب ،وهم الأدعياء ،فأمر [الله] (٣) تعالى برد نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة ،وأن هذا هو العدل والقسط .

قال البخارى ،رحمه الله: حدثنا مُعَلى (٤) بن أسد ،حدثنا عبد العزيز بن المختار ،حدثنا موسى ابن عقبة قال :حدثنى سالم عن عبد اللّه بن عمر ؛أن زيداً بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ،ما كُنّا ندعوه إلا زيد بن محمد ،حتى نزل القرآن : ﴿ **ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ** ﴾.

وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى ،من طرق ،عن موسى بن عقبة ،به (٥) .

وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه ،فى الخلوة بالمحارم وغير ذلك ؛ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبى حذيفة :يا رسول الله ،كنا (٦) ندعو سالما ابنا ،وإن اللّه قد أنزل ما أنزل،وإنه كان يدخل عَلَيّ ،وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئاً ،فقال ﷺ: « أرضعيه تحرمى عليه » الحديث(٧) .

ولهذا لما نسخ هذا الحكم ،أباح تعالى زوجة الدعي ،وتزوج رسول اللّه ﷺ بزينب بنت جحش زوجة(٨) زيد بن حارثة ،وقال : ﴿ **لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ،وقال فى آية التحريم : ﴿ **وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ** ﴾ [النساء : ٢٣]،احترازاً عن زوجة الدعىّ ، فإنه ليس من الصلب ،فأما الابن من الرضاعة،فمنزل منزلة ابن الصلب شرعاً ،بقوله ،عليه السلام(٩) فى الصحيحين: « حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب»(١٠). فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحبيب ،فليس مما نهى عنه فى هذه الآية ، بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذى ،من حديث سفيان الثورى ،عن سلمة بن كُهَيْل ،

(١) سنن الترمذى برقم (٣١٩٩) وتفسير الطبرى (٢١/ ٧٤) .
(٢) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٩٢) . (٣) زيادة من ت ،ف ،أ . (٤) فى ف : « يعلى » .
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٢) وصحيح مسلم برقم (٢٤٢٥) وسنن الترمذى برقم (٣٢٠٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٣٩٧).
(٦) فى ت ، ف ،أ : « إنا كنا » .
(٧) الحديث فى صحيح مسلم برقم (١٤٥٣) عن عائشة ،رضى الله عنها .
(٨) فى ف : « مطلقة » . (٩) فى أ : « ﷺ » .
(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٤٥) من حديث عائشة ،رضى الله عنها .

عن الحسن العُرَنى، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بنى عبد المطلب على حُمُرَات لنا من جَمْع، فجعل يَلْطَخ أفخاذنا ويقول: « أُبَيْنِىّ لا ترموا الجمرة (١) حتى تطلع الشمس »(٢). قال أبو عُبَيد وغيره: « أُبَيْنِىّ »: تصغير بنى (٣). وهذا ظاهر الدلالة، فإن هذا كان فى حجة الوداع سنة عشر، وقوله: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ﴾ فى شأن زيد بن حارثة، وقد قتل فى يوم مؤتة سنة ثمان، وأيضاً ففى صحيح مسلم، من حديث أبى عَوَانة الوضاح بن عبد الله اليَشْكُرى، عن الجَعْد أبى عثمان البصرى، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال لى رسول الله ﷺ: « يا بُنى ». وراوه أبو داود والترمذى (٤).

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾: أمر [الله] (٥) تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم، إن عرفوا، فإن لم يعرفوا (٦) آباءهم، فهم إخوانهم فى الدين ومواليهم، أى: عوضاً عما فاتهم من النسب. ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عُمرة القضاء، وتبعتهم ابنة حمزة تنادى: يا عم، يا عم. فأخذها على وقال لفاطمة: دونَك ابنة عَمِّك فاحتمليها (٧). فاختصم فيها على، وزيد، وجعفر فى أيّهم يكفلها، فكل أدلى بحجة (٨)؛ فقال على: أنا أحق بها وهى ابنة عمى، وقال زيد: ابنة أخى. وقال جعفر بن أبى طالب: ابنة عمى، وخالتها تحتى ـ يعنى أسماء بنت عميس. فقضى النبى (٩) ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم». وقال لعلى: « أنت منى، وأنا منك». وقال لجعفر: « أشبهت خَلْقى وخُلُقى». وقال لزيد: « أنت أخونا ومولانا » (١٠).

ففى هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها: أنه، عليه الصلاة والسلام (١١)، حكم بالحق، وأرضى كلاً من المتنازعين، وقال لزيد: « أنت أخونا ومولانا »، كما قال تعالى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن عيينة بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال أبو بكْرَة: قال الله، عز وجل: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾، فأنا ممن لا يُعرَف أبوه، وأنا من إخوانكم فى الدين. قال أبى: والله إنى لأظنه لو علم أن أباه كان حماراً لانتمى (١٢) إليه.

(١) فى ف: « جمرة العقبة ».
(٢) المسند (١/ ٣١١) وسنن أبى داود برقم (١٩٤٠) وسنن النسائى (٥/ ٢٧٠) وسنن ابن ماجة برقم (٣٠٢٥).
(٣) فى ت، ف، أ: « ابنى ».
(٤) صحيح مسلم برقم (٢١٥١) وسنن أبى داود برقم (٤٩٦٤) وسنن الترمذى برقم (٤٨٣١).
(٥) زيادة من ت، أ. (٦) فى أ: « يعلموا ».
(٧) فى ت، أ: « فاحتملتها ». (٨) فى أ: « بحجته ». (٩) فى أ: « فقضى بها النبى».
(١٠) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٦٩٩) من حديث البراء، رضى الله عنه.
(١١) فى ف: « ﷺ ».
(١٢) فى ت: « لانتسب ».

وقد جاء فى الحديث: « من ادعى لغير أبيه، وهو يعلمه، كفر (١) » (٢). وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد، فى التبرى من النسب المعلوم؛ ولهذا قال: ﴿ **ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ** ﴾.

ثم قال: ﴿ **وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ** ﴾ أى: إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه فى الحقيقة خطأ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع؛ فإن الله قد وضع الحرج فى الخطأ ورفع إثمه، كما أرشد إليه فى قوله آمراً عباده أن يقولوا: ﴿ **رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾ [البقرة ٢٨٦]. وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: « قال الله: قد فعلت » (٣). وفى صحيح البخارى، عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا اجتهد الحاكم فأصاب، فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ، فله أجر » (٤). وفى الحديث الآخر: « إن الله رفع عن أمتى الخطأ والنسيان، وما يُكرَهُون (٥) عليه ».

وقال هاهنا: ﴿ **وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ أى: وإنما الإثم على من تعمد الباطل كما قال تعالى (٦): ﴿ **لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ** ﴾. وفى الحديث المتقدم: « من ادعى إلى غير أبيه، وهو يعلمه، إلا كفر ». وفى القرآن المنسوخ: « فإن (٧) كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم ».

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عن عمر أنه قال: بعث الله (٨) محمداً ﷺ، بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فرجم رسول الله ﷺ، ورجمنا بعده. ثم قال: قد كنا نقرأ: «ولا ترغبوا عن آبائكم [فإنه كفر بكم ـ أو: إن كفراً بكم ـ أن ترغبوا عن آبائكم] (٩) »، وإن رسول الله ﷺ قال: « لا تطرونى [كما أطرى] (١٠) عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا: عبده ورسوله» (١١). وربما قال مَعْمَر: « كما أطرت النصارى ابن مريم » (١٢).

ورواه فى الحديث الآخر: « ثلاث فى الناس كفر: الطَّعْن فى النَّسبَ، والنِّياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم » (١٣).

﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦)** ﴾.

---

(١) فى أ: « وهو يعلمه إلا كفر ».
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٥٠٨) من حديث أبى ذر، رضى الله عنه، بلفظ مقارب.
(٣) صحيح مسلم برقم (١٢٦) من حديث ابن عباس.
(٤) صحيح البخارى برقم (٧٣٥٢).
(٥) فى أ: « والأمر يكرهون ». (٦) فى ف: « الله ». (٧) فى أ: « فإنه ».
(٨) فى ت: « إن الله بعث »، وفى ف: « إن الله، عز وجل، بعث ».
(٩، ١٠) زيادة من ت، ف، والمسند.
(١١) فى ف، أ: « أنا عبد الله وقولوا عبد الله ورسوله ».
(١٢) المسند (١/٤٧).
(١٣) المسند (٥/٣٤٢) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٩٣٤) كلاهما عن أبى مالك الأشعرى بلفظ: « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية =

قد علم اللّه تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته، ونصحَه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم مُقَدّماً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء : ٦٥] . وفى الصحيح: «والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين »[١]. وفى الصحيح أيضاً أن عمر، رضى اللّه عنه، قال: يا رسول اللّه، واللّه لأنت أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى. فقال: « لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك» : فقال: يا رسول اللّه [٢]، لأنت أحب إلى من كل شىء حتى من نفسى. فقال: « الآن يا عمر » [٣] .

ولهذا قال تعالى فى هذه الآية: ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾.

وقال البخارى عندها[٤]: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا [محمد بن] [٥] فُلَيح، حدثنا أبى، عن هلال بن على، عن عبد الرحمن بن أبى عَمْرَة، عن أبى هريرة، رضى اللّه عنه، عن النبى ﷺ قال: « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة. اقرؤوا إن شئتم: ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾، فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عَصَبَتُه مَن كانوا. فإن ترك دَيْناً أو ضَياعاً، فليأتنى فأنا مولاه». تفرد به البخارى [٦].

ورواه أيضاً فى « الاستقراض » وابن جرير، وابن أبى حاتم، من طرق، عن فليح، به مثله[٧]. ورواه الإمام أحمد، من حديث أبى حصين، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن رسول اللّه بنحوه [٨] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، عن معْمَر، عن الزهرى فى قوله تعالى: ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾ عن أبى سلمة، عن جابر بن عبد اللّه، عن النبى ﷺ كان يقول: « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأيما رجل مات وترك ديناً، فإلى. ومن ترك مالاً فلورثته[٩] » . ورواه أبو داود، عن أحمد ابن حنبل [١٠]، به نحوه.

وقوله: ﴿ **وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ** ﴾ أى: فى الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا

= لا يتركوهن: الفخر فى الأنساب » ثم ذكر هذه الثلاث .

(١) صحيح البخارى برقم (١٤) .

(٢) فى أ : « فقال: واللّه يا رسول اللّه » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٦٣٢) .

(٤) فى ف ، ت ، أ: « عند هذه الآية الكريمة » .

(٥) زيادة من ت ، ف ، أ ، والبخارى .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٨١) .

(٧) صحيح البخارى برقم (٢٣٩٩) وتفسير الطبرى (٢١/٧٧) .

(٨) المسند (٢/٣٣٤) .

(٩) فى ف : « فهو لورثته » .

(١٠) المسند (٣/٢٩٦) وسنن أبى داود برقم (٢٩٥٦) .

تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع، وإن سمى بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين، كما هو منصوص الشافعى فى المختصر، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم. وهل يقال لمعاوية وأمثاله: خال المؤمنين؟ فيه قولان للعلماء. ونص الشافعى على أنه يقال ذلك. وهل يقال لهن: أمهات المؤمنات، فيدخل النساء (١) فى جمع المذكر السالم تغليباً؟ فيه قولان: صح عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: لا يقال ذلك. وهذا أصح الوجهين فى مذهب الشافعى، رحمه الله(٢).

وقد روى عن أُبى بن كعب، وابن عباس أنهما قرآ: « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم »، وروى نحو هذا عن معاوية، ومجاهد، وعِكْرِمة، والحسن: وهو أحد الوجهين فى مذهب الشافعى. حكاه البغوى وغيره، واستأنسوا عليه بالحديث الذى رواه أبو داود:

حدثنا عبد الله بن محمد النفيلى، حدثنا ابن المبارك، عن محمد بن عَجْلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعَلِّمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه »، وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الروث والرِّمّة.

وأخرجه النسائى وابن ماجه، من حديث ابن عجلان (٣).

والوجه الثانى: أنه لا يقال ذلك، واحتجوا بقوله: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ**﴾: وقوله: ﴿**وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ**﴾ أى: فى حكم الله ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ**﴾ أى: القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار. وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التى كانت بينهم، كما قال ابن عباس وغيره: كان المهاجرى يرث الأنصارى دون قراباته (٤) وذوى رحمه، للأخوة التى آخى بينهما رسول الله ﷺ، وكذا قال سعيد بن جبير، وغير واحد من السلف والخلف.

وقد أورد فيه ابن أبى حاتم حديثاً عن الزبير بن العوام، رضى الله عنه، فقال: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى بكر المصعبى ـ من ساكنى بغداد ـ عن عبد الرحمن بن أبى الزِّناد، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن الزبير بن العوام قال: أنزل الله، عزوجل، فينا خاصة معشر قريش والأنصار: ﴿**وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ**﴾، وذلك أنا معشرٌ قريش لما قَدمنا المدينة(٥)، قَدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نِعْمَ الإخوانُ، فواخيناهم ووارثناهم. فواخى أبو بكر خارجة بن زيد، وآخى عمر فلانا، وآخى عثمان بن عفان رجلاً من بنى زُرَيق، سعد الزرقى، ويقول بعض الناس غيره. قال الزبير:

(١) فى ف، أ: « فيدخل النساء فيه ». (٢) فى ت: « رضى الله عنه ».
(٣) سنن أبى داود برقم (٨) وسنن النسائى (١/ ٣٨) وسنن ابن ماجة برقم (٣١٣).
(٤) فى ت: « أقاربه ». (٥) فى ت: « لما قدمنا إلى المدينة ».

وواخيت أنا كعب بن مالك، فجئته فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى، فوالله يا بنى، لو مات يومئذ عن الدنيا، ما ورثه غيرى، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة، فرجعنا إلى مواريثنا .

وقوله: ﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا﴾ أى: ذهب الميراث، وبقى النصر والبر والصلة والإحسان والوصية .

وقوله: ﴿كان ذلك في الكتاب مسطورًا﴾ أى: هذا الحكم، وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الأول، الذى لايبدل، ولا يغير. قاله مجاهد وغير واحد. وإن كان قد يقال (١): قد شرع خلافه فى وقت لما له فى ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأزلى (٢)، وقضائه القدرى الشرعى .

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن أولى العزم الخمسة، وبقية الأنبياء: أنه أخذ عليهم العهد والميثاق فى إقامة دين الله، وإبلاغ رسالته، والتعاون والتناصر والاتفاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]. فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم، وكذلك هذا. ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم، وهو من باب عطف الخاص على العام، وقد صرح بذكرهم أيضاً فى هذه الآية، وفى قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فذكر الطرفين والوسط، الفاتح والخاتم، ومن بينهما على [هذا] (٣) الترتيب. فهذه هى الوصية التى أخذ عليهم الميثاق بها، كما قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ [وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ](٤)﴾، فبدأ فى هذه الآية بالخاتم؛ لشرفه ـ صلوات الله [وسلامه] (٥) عليه ـ ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله [وسلامه] (٦) عليهم .

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة الدمشقى، حدثنا محمد بن بكار، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنى قتادة، عن الحسن (٧)، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، فى قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ الآية: قال النبى ﷺ: «كنت أول النبيين فى الخلق

(١) فى ت، ف: «وإن كان تعالى».
(٢) فى ت: «إلى ما هو جار فى قدره الأول»، وفى ف: «إلى هو جار فى قدره الأزلى».
(٣) زيادة من ف. (٤) زيادة من ت، ف. (٥، ٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ت: «روى ابن أبى الدنيا».

وآخرهم فى البعث، [فَبُدِئَ بى] (١) قبلهم » (٢) سعيد بن بشير فيه ضعف .

وقد رواه سعيد بن أبى عروبة ،عن قتادة مرسلاً ،وهو أشبه ،ورواه بعضهم عن قتادة موقوفاً، فالله أعلم .

وقال أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن على، حدثنا أو أحمد، حدثنا حمزة الزيات، حدثنا على بن ثابت ،عن أبى حازم (٣)، عن أبى هريرة قال :خيار ولد آدم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى ، وعيسى ،ومحمد ،وخيرهم محمد ﷺ أجمعين (٤). موقوف ،وحمزة فيه ضعف (٥) .

وقد قيل : إن المراد بهذا الميثاق الذى أخذ منهم حين أخرجوا فى صورة الذّر من صلب آدم، كما قال أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أُبى بن كعب قال: ورفع أباهم آدم، فنظر إليهم ـ يعنى: ذريته ـ وأن فيهم الغنى والفقير، وحسن الصورة، ودون ذلك، فقال: رب، لوسويتَ بين عبادك؟ فقال: إنى أحببت أن أشكر. وأرى فيهم الأنبياء مثل السرج، عليهم كالنور، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة، فهو الذى يقول اللّه تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ [وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ]** (٦)﴾ الآية وهذا قول مجاهد أيضاً .

وقال ابن عباس: الميثاق الغليظ: العهد .

وقوله: ﴿ **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ** ﴾، قال مجاهد: المبلغين المؤدين عن الرسل .

وقوله: ﴿ **وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ أى: من أممهم ﴿ **عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ أى: موجعاً، فنحن نشهد أن الرسل قد بَلَّغُوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين، الواضح الجلى، الذى لا لبس فيه، ولاشك، ولا امتراء، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين، فما جاءت به الرسل هو الحق، ومن خالفهم فهو على الضلال .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين، فى صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق، وذلك فى شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح

---

(١) زيادة من ت ، ف ، والدلائل والكامل .

(٢) ورواه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص(٦) وابن عدى فى الكامل (٣/ ٣٧٣) وتمام فى الفوائد برقم (٣ ١٠٠) من طرق عن سعيد بن بشير عن قتادة به، وفى إسناده علتان :

الأولى: الحسن البصرى مدلس وقد عنعن .

الثانية: سعيد بن بشير ضعيف وقد خولف، خالفه أبو هلال وسعيد بن أبى عروبة كما ذكره المؤلف فقالا: عن قتادة مرسلاً ، ا . هـ. مستفادًا من السلسلة الضعيفة برقم (٦٦١) للشيخ ناصر الألبانى .

(٣) فى ت: « وروى أبو بكر البزار بإسناده » .

(٤) مسند البزار برقم (٢٣٦٨) « كشف الأستار » .

(٥) فى ت: « موقوف ضعيف » .

(٦) زيادة من ت ، ف .

المشهور.

وقال موسى بن عُقْبة وغيره كانت فى سنة أربع .

وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفراً من أشراف يهود بنى النضير، الذين كانوا قد أجلاهم رسول اللّه ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم: سلام بن أبى الْحُقَيْق، وسلام بن مِشْكَم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشراف قريش، وألّبوهم على حرب رسول اللّه[1] ﷺ ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة. فأجابوهم إلى ذلك، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً . وخرجت قريش فى أحابيشها ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب، وعلى غطفان عُيَينة بن حصن بن بدر، والجميع قريب من عشرة آلاف، فلما سمع رسول اللّه ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلى الشرق [2]، وذلك بإشارة سلمان الفارسى، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا، ونقل معهم رسول اللّه ﷺ التراب وحفَر، وكان فى حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات .

وجاء المشركون فنزلوا شرقى المدينة قريباً من أحد، ونزلت طائفة منهم فى أعالى أرض المدينة، كما قال اللّه تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، وخرج رسول اللّه ﷺ ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف، وقيل: سبعمائة، وأسندوا [3] ظهورهم إلى سَلْع ووجوههم إلى نحو العدو، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجالة والخيالة أن تصل إليهم، وجعل النساء والذرارى فى آطام المدينة، وكانت بنو قريظة ـ وهم طائفه من اليهود ـ لهم حصن شرقى المدينة، ولهم عهد من النبى ﷺ وذمة، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حُيَىّ بن أخطب النَّضَرى [اليهودى] [4]، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد، ومالؤوا الأحزاب على رسول اللّه ﷺ، فعَظُم الخَطْب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال اللّه تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾.

ومكثوا محاصرين للنبى ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، إلا أنهم لايصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ودّ العامرى ـ وكان من الفرسان الشجعان المشهورين فى الجاهلية ـ ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول اللّه ﷺ خيل المسلمين إليه، فلم [5] يبرز إليه أحد، فأمر عليا فخرج إليه، فتجاولا ساعة، ثم قتله على، رضى اللّه عنه، فكان علامة على النصر .

ثم أرسل اللّه، عز وجل، على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية، حتى لم تبق [6] لهم خيمة ولا شىء ولا تُوقَد لهم نار ، ولم يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، كما قال اللّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾[7] .

قال مجاهد: وهى الصبا، ويؤيده الحديث الآخر: « نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور » .

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن المثَنَّى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود، عن عِكْرِمة قال: قالت

---

(١) فى ف : « النبى » .
(٢) فى ف : « المشرق » .
(٣) فى ت ، ف : « فأسندوا » .
(٤) زيادة من ت .
(٥) فى ت ، ف: « فيقال » .
(٦) فى ت: « يبق » .
(٧) بعدها فى ف: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ .

الجنوب للشمال ليلة الأحزاب: انطلقى ننصر رسول الله ﷺ. فقالت الشمال: إن الحرة لا تسرى بالليل. قال: فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصبا (١).

ورواه ابن أبى حاتم، عن أبى سعيد الأشَجّ، عن حفص بن غياث، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس، فذكره.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا يونس، حدثنا ابن وَهْب، حدثنى عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن عبد الله بن عمر قال: أرسلنى خالى عثمان بن مَظْعون ليلة الخندق فى برد شديد وريح إلى المدينة، فقال: ائتنا بطعام ولحاف. قال: فاستأذنت رسول الله ﷺ، فأذن لى، وقال: « من أتيت من أصحابى فمرهم يرجعوا ». قال: فذهبت والريح تسفى كل شىء، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبى ﷺ، قال: فما يلوى أحد منهم عنقه. قال: وكان معى ترس لى، فكانت الريح تضربه علىّ، وكان فيه حديد، قال: فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفى، فأنفدها (٢) إلى الأرض (٣).

وقوله: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾: وهم الملائكة، زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف، فكان رئيس كل قبيلة يقول: يا بنى فلان إلىّ. فيجتمعون إليه فيقول: النجاء، النجاء. لما ألقى الله تعالى فى قلوبهم من الرعب.

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القُرَظِىّ قال: قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم يا بن أخى. قال: وكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجهد. قال الفتى: والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا. قال: قال حذيفة: يابن أخى، والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هُوِيًّا من الليل، ثم التفت فقال: « مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟ - يشرط له النبى ﷺ أنه يرجع - أدخله الله الجنة ». قال: فما قام رجل. ثم صلى رسول الله ﷺ هُوياً من الليل ثم التفت إلينا، فقال مثله، فما قام منا رجل. ثم صلى رسول الله ﷺ هُوياً من الليل ثم التفت إلينا فقال: « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله أن يكون رفيقى فى الجنة ». فما قام رجل من القوم؛ من شدة الخوف، وشدة الجوع، وشدة البرد. فلما لم يقم أحد، دعانى رسول الله ﷺ. فلم يكن لي بد من القيام حين دعانى فقال: « يا حذيفة، اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يفعلون، ولا تُحْدِثَنّ شيئا حتى تأتينا ». قال: فذهبت فدخلت [فى القوم] (٤)، والريح وجنود الله، عز وجل، تفعل بهم ما تفعل، لا تُقِرّ لهم قِدْراً ولا ناراً ولا بناءً، فقام أبو سفيان فقال: يامعشر قريش، لينظر امرؤ مَنْ جليسه. قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى، فقلت: من أنت؟ فقال: أنا فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكُرَاع والخُفّ، وأخلفتنا بنو قُرَيظة، وبلَغَنا عنهم الذى نكره، ولقينا من هذه الريح الذى ترون (٥). والله

(١) تفسير الطبرى (٢١/ ٨٠).

(٢) فى أ: « فابعدها ».

(٣) تفسير الطبرى (٢١/ ٨٠).

(٤) زيادة من ت، ف، أ، والسيرة النبوية.

(٥) فى أ: « ما ترون ».

ما تطمئن لنا قدر ، ولا تَقُوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فإنى مُرْتَحل ، ثم قام إلى جَمَله وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقَالَه إلا وهو قائم. ولولا عهد رسول اللّه ﷺ إلى : « ألا تحدث شيئاً حتى تأتينى » ثم شئتُ ،لقتلته بسهم .

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول اللّه ﷺ وهو قائم يصلى فى مِرْط لبعض نسائه مُرَحل ، فلما رآنى أدخلنى بين رجليه ، وطرح على طرف المرْط ،ثم ركع ،وسجد وإنى لفيه ،فلما سلم أخبرته الخبر ،وسمعت غَطَفان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم (١) .

وقد رواه مسلم فى صحيحه من حديث الأعمش ،عن إبراهيم التيمى ،عن أبيه قال: كنا عند حذيفة بن اليمان ، رضى اللّه عنه ، فقال له رجل : لو أدركت رسول اللّه ﷺ ،قاتلتُ معه وأبليتُ. فقال له حذيفة :أنت كنتَ تفعل ذلك ؟ لقد رأيتُنا مع رسول اللّه ﷺ ليلة الأحزاب فى ليلة ذات ريح شديدة وقُرّ ،فقال رسول اللّه ﷺ :« ألا رجل يأتى بخبر القوم ، يكون معى يوم القيامة ؟ » . فلم يجبه منا أحد ، ثم الثانية ،ثم الثالثة مثله. ثم قال :« يا حذيفة ،قم فأتنا بخبر من القوم » . فلم أجد بدًّا إذ دعانى باسمى أن أقوم ، فقال: « ائتنى بخبر القوم ، ولا تَذْعَرْهم عَلَىّ » . قال : فمضيت كأنما أمشى فى حَمام حتى أتيتهم ، فإذا أبو سفيان يَصْلى ظهره بالنار ،فوضعت سهما فى كَبِد قوسى،وأردت أن أرميَه ،ثم ذكرتُ قولَ رسول اللّه ﷺ : « لا تَذْعَرْهم عَلَىَّ » ،ولو رَمَيْته لأصبته . قال:فرجعت كأنما أمشى فى حَمّام ، فأتيت رسول اللّه ﷺ ، ثم أصابنى البرد حين فَرَغتُ وقُررْتُ فأخبرتُ رسول اللّه ﷺ ، وألبسنى من فضل عَبَاءَة كانت عليه يصلى فيها ،فلم أزل نائما حتى الصبح،فلما أن أصبحت قال رسول اللّه ﷺ :« قم يا نومان (٢) » (٣) .

ورواه يونس بن بُكَيْر ، عن هشام بن سعد ،عن زيد بن أسلم: أن رجلاً قال لحذيفة ، رضى اللّه عنه :نشكو إلى اللّه صحبتكم لرسول اللّه ﷺ ؛إنكم أدركتموه ولم ندركه ،ورأيتموه ولم نره .فقال حذيفة :ونحن نشكو إلى اللّه إيمانكم به ولم تروه ،واللّه لا تَدْرى يا بن أخى لو أدركتَه كيف كنتَ تكون . لقد رأيتنا مع رسول اللّه ﷺ ليلة الخندق فى ليلة باردة مَطِيرة . . . ثم ذكر نحو ما تقدم مطولاً (٤) .

وروى بلال بن يحيى العَبْسى ، عن حذيفة نحو ذلك أيضاً (٥) .

وقد أخرج الحاكم والبيهقى فى « الدلائل » ،من حديث عكرمة بن عمار ،عن محمد بن عبد اللّه الدؤلى ،عن عبد العزيز ابن أخى حذيفة قال :ذَكَر حذيفة مشاهدهم مع رسول اللّه (٦) ﷺ ،فقال

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣١) .

(٢) فى أ : « نوام » .

(٣) صحيح مسلم برقم (١٧٨٨) .

(٤) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٤٥٤) من طريق أحمد بن عبد الجبار ، عن يونس بن بكير به .

(٥) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٣١) ومن طريقه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/ ٤٥٠) عن موسى بن أبى المختار ،عن بلال العبسى ،عن حذيفة .

(٦) فى ت : « مع النبى » .

جلساؤه : أما واللّه لو شَهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا . فقال حذيفة : لا تمنوا ذلك . لقد رأيتُنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعُود ، أبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتَت علينا قطّ أشدّ ظلمةَ ولا أشد ريحاً ، في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وهى ظلمة ما يرى أحدنا إصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون النبى ﷺ ويقولون : « إن بيوتنا عورة وما هى بعورة » . فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، ويأذن لهم فيتسللون ، ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك ، إذ استقبلنا رسول اللّه ﷺ رَجُلاً رجلاً حتى أتى عَلَىّ وما عَلَىّ جُنَّة (١) من العدو ولا من البرد إلا مِرْط لامرأتى ، ما يجاوز ركبتى . قال : فأتانى ﷺ وأنا جَاثٍ على ركبَتىَ فقال: « من هذا؟» فقلت : حذيفة . قال : « حذيفة » . فتقاصرتُ بالأرض (٢) فقلت : بلى يا رسول اللّه ، كراهية أن أقوم . [قال : قم] (٣) ، فقمت ، فقال : « إنه كائن فى القوم خبر فأتنى بخبر القوم » ـ قال : وأنا من أشد [الناس] (٤) فزعاً ، وأشدهم قُرّاً ـ قال : فخرجت ، فقال رسول اللّه ﷺ : «اللهم ، احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته». قال : فواللّه ما خلق اللّه فزعاً ولا قرّا فى جوفى إلا خرج من جوفى ، فما أجد فيه شيئا . قال : فلما وليت قال : «يا حذيفة ، لاتُحدثَنّ فى القوم شيئاً حتى تأتينى» . قال : فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم تَوَقَّدُ ، وإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار، ويمسح خاصرته ، ويقول: الرحيلَ الرحيلَ ، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فانتزعت سهماً من كنانتى أبيض الريش ، فأضعه فى كَبِد قوسى لأرميه به فى ضوء النار ، فذكرت قول رسول اللّه ﷺ : « لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتينى » ، [فأمسكت] (٥) ورددت سهمى إلى كنانتى ، ثم إنى شَجَّعت نفسى حتى دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس منى بنو عامر يقولون : يا آل عامر ، الرحيلَ الرحيلَ ، لا مُقام لكم. وإذا الريح فى عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً ، فواللّه إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وَفَرَسْتُهُمُ (٦) الريح تضربهم بها ، ثم خرجت نحو النبى ﷺ ، فلما انتصفت فى الطريق أو نحوا من ذلك ، إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك (٧) مُعْتَمّين ، فقالوا : أخْبر صاحبك أن اللّه تعالى كفَاه القوم. فرجعت إلى رسول اللّه ﷺ ، وهو مشتمل فى شملة يصلى ، فواللّه ما عدا أن رجعت رَاجَعَنى القُرُّ وجعلت أقَرْقفُ ، فأومأ إلى رسول اللّه ﷺ [بيده] (٨) وهو يصلى ، فدنوت منه ، فأسبل على شملته. وكان رسول اللّه ﷺ إذا حَزَبَه أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم ، وأخبرته أنى تركتهم يترحلون(٩) ، وأنزل اللّه تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ﴾(١٠) .

وأخرج أبو داود فى سننه منه : كان رسول اللّه ﷺ : إذا حزبه أمر من حديث عكرمة بن عمار، به (١١) .

---

(١) فى أ : « جنبة » .
(٢) فى ت : « إلى الأرض » .
(٣) زيادة من ت ، ف ، والدلائل .
(٤ ، ٥) زيادة من ت ، ف : والدلائل .
(٦) فى ت ، ف : « وفرشهم » .
(٧) فى ف: « نحواً من ذلك » .
(٨) زيادة من ت ، ف ، والدلائل .
(٩) فى أ : « يرتحلون » .
(١٠) دلائل النبوة للبيهقى (٣/ ٤٥١).
(١١) سنن أبى داود برقم (١٣١٩) .

وقوله : ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أى : الأحزاب ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾: تقدم عن حذيفة أنهم بنو قريظة ، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أى : من شدة الخوف والفزع ، ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾.

قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين ، وأن الله سيفعل ذلك (١) .

وقال محمد بن إسحاق فى قوله : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾: ظن المؤمنون (٢) كل ظن ، ونجم النفاق حتى قال مُعَتِّب (٣) بن قشير ـ أخو بنى عمرو بن عوف ـ : كان محمد يَعدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط .

وقال الحسن فى قوله : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾: ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدا وأصحابه يستأصلون (٤)، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

وقال (٥) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عاصم الأنصارى ، حدثنا أبو عامر (ح) وحدثنا أبى، حدثنا أبو عامر العقدى ، حدثنا الزبير ـ يعنى : ابن عبد الله ، مولى عثمان بن عفان ـ عن رُتَيْج ابن عبد الرحمن بن أبى سعيد ، عن أبيه ، عن أبى سعيد قال : قلنا يوم الخندق : يا رسول الله، هل من شىء نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال ﷺ : « نعم ، قولوا : اللهم استر عوراتنا، وآمن رَوْعاتنا » . قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح ، فهزمهم بالريح .

وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل ، عن أبى عامر العقدى (٦) .

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا (١٣)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال ، حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون فى غاية الجهد والضيق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم : أنهم ابتُلوا واختُبروا وزُلزلوا زلزالاً شديداً ، فحينئذ ظهر النفاق ، وتكلم الذين فى قلوبهم مرض بما فى نفوسهم : ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ أما المنافق، فنجم نفاقه، والذى فى قلبه شبهة أو

(١) تفسير الطبرى (٢١/ ٨٣) .
(٢) فى ت : « ظن المنون » .
(٣) فى أ : « معقب » .
(٤) فى ت : « سيستأصلون » .
(٥) فى ت : « وروى » .
(٦) المسند (٣/ ٣) .

حَسيكَة، ضَعُف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس فى نفسه ؛لضعف إيمانه ،وشدة ما هو فيه من ضيق الحال .وقوم آخرون قالوا كما قال اللّه :﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ يعنى : المدينة ، كما جاء فى الصحيح :« أريت [فى المنام] (١) دارَ هجرتكُم ، أرض بين حَرّتين فذهب وَهْلى أنها هَجَر، فإذا هى يثرب» (٢)،وفى لفظ : « المدينة » .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد :حدثنا إبراهيم بن مهدى ، حدثنا صالح بن عمر ، عن يزيد ابن أبى زياد ،عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ،عن البراء ، رضى اللّه عنه ، قال :قال رسول اللّه ﷺ: « من سَمَّى المدينة يثرب ،فليستغفر اللّه ،هى طابة ،هى طابة » (٣) .

تفرد به الإمام أحمد ، وفى (٤) إسناده ضعف ، واللّه أعلم .

ويقال : إنما كان أصل تسميتها « يثرب » برجل نزلها من العماليق ، يقال له :يثرب بن عبيل بن مهلابيل بن عوص بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح . قاله السهيلى ، قال :وروى عن بعضهم أنه قال:إن لها [فى التوراة] (٥) أحد عشر اسما :المدنية ،وطابة ،وطيبة ،والمسكينة، والجابرة،والمحبة ،والمحبوبة ،والقاصمة ،والمجبورة ،والعذراء ،والمرحومة .

وعن كعب الأحبار قال : إنا نجد فى التوراة يقول اللّه للمدينة : ياطيبة ،وياطابة ،ويامسكينة ، [لا تقلى الكنوز ،أرفع أحاجرك على أحاجر القرى] (٦) .

وقوله:﴿ لا مُقَامَ لَكُمْ ﴾أى :هاهنا ،يعنون عند النبى ﷺ فى مقام المرابطة،﴿ فَارْجِعُوا ﴾أى :إلى بيوتكم ومنازلكم.﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ ﴾: قال العوفى ،عن ابن عباس :هم بنو حارثة قالوا: بيوتنا نخاف عليها السَّرَق .وكذا قال غير واحد .

وذكر ابن إسحاق : أن القائل لذلك هو أوس بن قَيظىّ ،يعنى :اعتذروا فى الرجوع إلى منازلهم بأنها عَورة ،أى :ليس دونها ما يحجبها عن العدو ، فهم يخشون عليها منهم .قال اللّه تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ أى : ليست كما يزعمون ، ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ أى : هَرَباً من الزحف .

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً (١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (١٧) ﴾ .

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾: أنهم لو

(١) زيادة من ت ، ف ، والبخارى .
(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٠٣٥) من حديث أبى موسى ،رضى اللّه عنه .
(٣) المسند (٤/٢٨٥) .
(٤) فى ت : « ففى » . (٥) زيادة من ت ، ف ، أ . (٦) زيادة من ف ، أ .

دَخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة ، وقُطر من أقطارها ،ثم سئلوا الفتنة ،وهى الدخول فى الكفر ،لكفروا سريعاً . وهم لا يحافظون على الإيمان ،ولايستمسكون به مع أدنى خوف وفزع .

هكذا فسرها قتادة ،وعبد الرحمن بن زيد ،وابن جرير ،وهذا ذم لهم فى غاية الذم .

ثم قال تعالى : يذكرهم بما كانوا عاهدوا اللّه من قبل هذا الخوف ، ألا يولوا الأدبار ولا يفروا (١) من الزحف ، ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ﴾أى : وإن اللّه سيسألهم عن ذلك العهد ،لابد من ذلك .

ثم أخبرهم أن فرَارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ،ولا يطول أعمارهم ،بل ربما كان ذلك سببا فى تعجيل أخذهم غرّة ؛ولهذا قال : ﴿ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾أى : بعد هَرَبكم وفراركم ،﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾ [النساء : ٧٧] .

ثم قال : ﴿ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى : يمنعكم ، ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ أى : ليس لهم ولا لغيرهم من دون اللّه مجير ولا مغيث(٢).

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) ﴾.

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب ،والقائلين لإخوانهم ،أى: أصحابهم (٣) وعُشَرائهم وخلطائهم ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أى : إلى ما نحن فيه من الإقامة فى الظّلال والثمار،وهم مع ذلك ﴿ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أى : بخلاء بالمودة ، والشفقة عليكم.

وقال السُّدى : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أى : فى الغنائم .

﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أى : من شدة خوفه وجزعه ، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ أى : فإذا كان الأمن،تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً ، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية فى الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون فى ذلك .

وقال ابن عباس : ﴿ سَلَقُوكُم(٤) ﴾ أى: استقبلوكم .

---

(١) فى ت ، ف : « ألا يولون ولا يفرون » . (٢) فى ت ، ف ، أ : « من دون الله وليًا مجيرًا مغيثًا » .

(٣) فى ت : « أى لأصحابهم » .

(٤) فى أ: «سلقوكم بألسنة » .

وقال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم ، وأسوأه مقاسمة : أعطونا ،أعطونا ،قد [١] شهدنا معكم . وأما عند البأس فأجبن قوم ،وأخذله للحق .

وهم مع ذلك أشحة على الخير ، أى :ليس فيهم خير ،قد جَمَعُوا الجبن والكذب وقلة الخير، فهم[٢] كما قال فى أمثالهم الشاعر [٣] :

أفى السّلم أعْيَاراً [٤] جَفَاءً وغلْظَةً وَفى الحَرْب أمْثَالَ النِّسَاء العَوَارِكِ

أى : فى حال المسالمة كأنهم الحمير . والأعيار : جمع عير ،وهو الحمار . وفى الحرب كأنهم النساء الحُيَّض ؛ولهذا قال تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ أى: سهلا هينا عنده .

﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلا قَلِيلاً (٢٠)﴾.

وهذا أيضا من صفاتهم القبيحة فى الجبن والخوف والخور ، ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾، بل هم قريب منهم ،وإن لهم عودة إليهم﴿ وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ أى: ويَوَدّون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون [٥] حاضرين معكم فى المدينة بل فى البادية، يسألون عن أخباركم ،وما كان من أمركم مع عدوكم ،﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلا قَلِيلا﴾ أى: ولو كانوا بين أظهركم، لما قاتلوا معكم إلا قليلاً ؛لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم .

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيماً (٢٢)﴾.

هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله وأحواله ؛ولهذا أمر الناس بالتأسى بالنبى [٦] ﷺ يوم الأحزاب ، فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه، عز وجل ،صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين ؛ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا فى أمرهم يوم الأحزاب : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أى: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ؟ ولهذا قال :﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾.

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم ، وجَعْله العاقبةَ حاصلةً لهم فى

---

(١) فى أ : « فقد » . (٢) فى ت : « فيهم » .
(٣) البيت لهند بنت عتبة ،وهو فى السيرة النبوية لابن هشام (٦٥٦/١) .
(٤) فى ت : « أعيار » . (٥) فى ت : « لا يكونوا » . (٦) فى ت : « برسول الله » .

الدنيا والآخرة ،فقال :﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.

قال ابن عباس وقتادة : يعنون قوله تعالى فى « سورة البقرة » : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة : ٢١٤] .

أى هذا ما وعدنا اللّه ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذى يعقبه النصر القريب ؛ ولهذا قال : ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.

وقوله :﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾:دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس (١) وأحوالهم ،كما قاله جمهور الأئمة : إنه (٢) يزيد وينقص . وقد قررنا ذلك فى أول « شرح البخارى»،ولله الحمد والمنة .

ومعنى قوله : ﴿وَمَا زَادَهُمْ ﴾ أى :ذلك الحال والضيق والشدة [ما زادهم] (٣) ﴿إِلا إِيمَانًا﴾ باللّه،﴿وَتَسْلِيمًا﴾ أى : انقيادا لأوامره ،وطاعة لرسوله .

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) ﴾.

لما ذكر عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذى كانوا عاهدوا اللّه عليه لايولون الأدبار ،وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق و﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾،قال بعضهم : أجله .

وقال البخارى : عهده . وهو يرجع إلى الأول .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا﴾ أى : وما غيروا عهد اللّه ، ولا نقضوه ولا بدلوه .

قال البخارى :حدثنا أبو اليمان ،أخبرنا شعيب ،عن الزهرى قال : أخبرنى خارجة بن زيد بن ثابت ،عن أبيه (٤) قال : لما نسخنا الصُحُف (٥) ،فَقَدْتُ آيةً من « سورة الأحزاب » كنت أسمع رسول اللّه ﷺ يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خُزَيْمَةَ بن ثابت الأنصارى ـ الذى جعل رسول اللّه ﷺ شهادته بشهادة رجلين ـ : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

---

(١) فى ف : « بالنسبة إلى إيمان الناس » . (٢) فى ت : « أن الإيمان » . (٣) زيادة من ت .

(٤) فى ت : « روى البخارى عن زيد بن ثابت » . (٥) فى ت ، أ : « المصحف » .

انفرد به البخارى دون مسلم . وأخرجه أحمد فى مسنده ،والترمذى والنسائى ـ فى التفسير من سننيهما ـ من حديث الزهرى ، به [١] . وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

وقال[٢] البخارى أيضا : حدثنا محمد بن بشار ،حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى ،حدثنى أبى،عن ثُمَامَةَ ،عن أنس بن مالك قال: نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر :﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[٣] .

انفرد به البخارى من هذا الوجه ،ولكن له شواهد من طرق أخر .قال الإمام أحمد :

حدثنا هاشم بن القاسم ،حدثنا سليمان بن المغيرة ،عن ثابت [٤] قال :قال أنس :عمى أنس بن النضر سُميت به ، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر ،فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيِّبْتُ [٥] عنه ، لئن أرانى الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ لَيَرَيَنَ الله ما أصنع . قال: فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ [يوم] [٦] أحد ، فاستقبل سعدَ بن معاذ فقال له أنس [٧] : يا أبا عمرو،أين.واهاً لريح الجنة أجده دون أحد ،قال :فقاتلهم حتى قُتل قال:فَوُجد فى جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ،فقالت أخته ـ عمتى الرُّبَيِّع ابنة النضر [٨] ـ : فما عرفتُ أخى إلا ببنانه . قال : فنزلت هذه الآية :﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾. قال : فكانوا يُرَون أنها نزلت فيه ،وفى أصحابه .

ورواه مسلم والترمذى والنسائى ،من حديث سليمان بن المغيرة ،به [٩] .ورواه النسائى أيضا وابن جرير ،من حديث حماد بن سلمة ،عن ثابت ،عن أنس ،به نحوه [١٠] .

وقال [١١] ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سِنان ،حدثنا يزيد بن هارون ،حدثنا حميد ،عن أنس أن عمه ـ يعنى : أنس بن النضر ـ غاب عن قتال بَدر ،فقال :غُيِّبتُ عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين ،لئن الله أشهدنى قتالاً للمشركين،لَيَرَيَنّ الله ما أصنع . قال : فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال :اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى : أصحابه ـ وأبرأ إليك مما جاء هؤلاء ـ يعنى :المشركين ـ ثم تقدم فلقيه سعد ـ يعنى : ابن معاذ ـ دون أحد ، فقال : أنا معك . قال سعد : فلم أستطع أن أصنع ما صنع .قال :فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف ، وطَعنَةَ رمحٍ ،ورمية سهم.وكانوا [١٢] يقولون :فيه وفى أصحابه [نزلت] [١٣] :﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾.

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٤) والمسند (١٨٨/٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٠٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠١) .
(٢) فى ت : « روى » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٣) .
(٤) فى ت : « روى الإمام أحمد » . (٥) فى ت : « غبت » . (٦) زيادة من ف ، والمسند .
(٧) أنس بن النضر . (٨) فى ت : « عمة الربيع بنت النضر » .
(٩) المسند (١٩٣/٤) وصحيح مسلم برقم (١٩٠٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٠٠) .
(١٠) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٤) وتفسير الطبرى (٩٣/٢١) .
(١١) فى ت: « وروى » . (١٢) فى ت ، ف ، أ : « وطعنة برمح ورمية بسهم فكانوا » .
(١٣) زيادة من ف .

وأخرجه الترمذى فى التفسير عن عبد بن حميد، والنسائى فيه أيضا، عن إسحاق بن إبراهيم، كلاهما، عن يزيد بن هارون، به (١) . وقال الترمذى : حسن . وقد رواه البخارى فى المغازى عن حسان بن حسان، عن محمد بن طلحة بن مُصَرِّف، عن حميد، عن أنس، به (٢) ، ولم يذكر نزول الآية . ورواه ابن جرير، من حديث المعتمر بن سليمان، عن حميد، عن أنس، به (٣) .

وقال (٤) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن الفضل العسقلانى، حدثنا سليمان بن أيوب بن سليمان ابن عيسى بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، حدثنى أبى، عن جدى، عن موسى بن طلحة، عن أبيه طلحة قال : لما أن رجع النبى ﷺ من أحد، صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وعَزَّى المسلمين بما أصابهم، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ **رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**(٥) ﴾ . فقام إليه رجل من المسلمين فقال : يا رسول الله، من هؤلاء ؟ فأقبلتُ وعَلَيّ ثوبان أخضران حَضْرَمِيَّان فقال: « أيها السائل، هذا منهم » .

وكذا رواه ابن جرير من حديث سليمان بن أيوب الطَّلْحى، به (٦) . وأخرجه الترمذى فى التفسير والمناقب أيضا، وابن جرير، من حديث يونس بن بُكَيْر، عن طلحة بن يحيى، عن موسى وعيسى ابْنى طلحة، عن أبيهما، به(٧) . وقال : حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث يونس .

وقال أيضا : حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى، حدثنا أبو عامر ـ يعنى: العقدى ـ حدثنا إسحاق ـ يعنى : ابن طلحة بن عبيد الله ـ عن موسى بن طلحة قال : [دخلت على معاوية، رضى الله عنه، فلما خرجت، دعانى فقال : ألا أضع عندك يابن أخى حديثا سمعته من رسول الله ﷺ ؟ أشهد لَسَمِعت رسول الله ﷺ يقول : « طلحة ممن قضى نحبه » (٨) .

ورواه(٩) ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عبد الحميد الحِمَّانى، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة الطَّلْحى، عن موسى بن طلحة قال] (١٠) : قام معاوية بن أبى سفيان فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « طلحة ممن قضى نحبه » (١١) .

ولهذا قال مجاهد فى قوله : ﴿ **فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ** ﴾ قال : عهده، ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ** ﴾ قال : يوما

(١) سنن الترمذى برقم (٣٢٠١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٣) .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٠٤٨) .
(٣) تفسير الطبرى (٢١/ ٩٣) .
(٤) فى ت : « وروى » .
(٥) بعدها فى ت ، ف ، أ : « فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً » .
(٦) تفسير الطبرى (٢١/ ٩٤) .
(٧) سنن الترمذى برقم (٣٢٠٣) .
(٨) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٢٠٢) من طريق عمرو بن عاصم، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة، به وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإنما روى عن موسى بن طلحة عن أبيه » .
(٩) فى ت : « وروى » .
(١٠) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبرى .
(١١) تفسير الطبرى (٢١/ ٩٣) .
(١٢) فى أ : « فتصدق » .

وقال الحسن : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ يعنى : موته على الصدق والوفاء . ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾ الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل (١) تبديلاً . وكذا قال قتادة ، وابن زيد .

وقال بعضهم : ﴿ نَحْبَهُ ﴾: نذره .

وقوله : ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلا ﴾ أى : وما غيروا عهدهم ، وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه ، وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾ ، ﴿ وَلَقَد (٢) كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ ﴾ .

وقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز (٣) الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم ، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم(٤) ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ(٥) الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ(٦) أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] ، فهذا علم بالشيء بعد (٧) كونه ، وإن كان العلم (٨) السابق حاصلاً به قبل وجوده . وكذا قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أى : بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه ، وقيامهم به ، ومحافظتهم عليه . ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ : وهم الناقضون لعهد الله ، المخالفون لأوامره ، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئته فى الدنيا ، إن شاء استمر بهم على ما فعلوه حتى يلقوه به فيعذبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان ، وعمل (٩) الصالح بعد الفسوق والعصيان . ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هى الغالبة لغضبه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة ، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية ، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين ، لكانت هذه الريح عليهم أشدّ من الريح العقيم على عاد ، ولكن قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ [وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ](١٠) ﴾ [الأنفال : ٣٣] ، فسلط عليهم هواء فرق شملهم ، كما كان سبب اجتماعهم من الهوَى ، وهم أخلاط من قبائل شتى ، أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذى فرق

---

(١) فى ت : « من بدل » . (٢) فى ت : « وقد » . (٣) فى ت : « فيميز » .
(٤) فى ت : « بما علمه منهم » ، وفى ف : « بما يعلمه منهم » . (٥) فى ت : « يعلم » .
(٦) فى ت : « يبلو » . (٧) فى ف : « قبل » . (٨) فى ت : « العالم » .
(٩) فى ت ، ف : « والعمل » . (١٠) زيادة من أ .

جماعتهم،وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحَنَقهم،لم ينالوا خيراً لا فى الدنيا ،مما كان فى أنفسهم من الظفر والمغنم ، ولا فى الآخرة بما تحملوه [١] من الآثام فى مبارزة الرسول ،صلوات اللّه وسلامه عليه،بالعداوة ،وهمهم بقتله ،واستئصال جيشه ،ومن هَمّ بشىء وصَدق هَمَّه بفعله ،فهو فى الحقيقة كفاعله .

وقوله : ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ أى :لم يحتاجوا [٢] إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى اللّه وحده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ؛ ولهذا قال رسول اللّه ﷺ [٣] : « لا إله إلا اللّه وحده ،صدق وعده ،ونصر عبده ،وأعز جنده ،وهزم الأحزاب وحده ،فلا شىء بعده » . أخرجاه من حديث أبى هريرة [٤] .

وفى الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبى خالد ،عن عبد اللّه بن أبى أوْفى قال :دعا رسول اللّه ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ،سريع الحساب ،اهزم الأحزاب .اللهم ،اهزمهم وزلزلهم » [٥] .

وفى قوله : ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾: إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ،وهكذا وقع بعدها ، لم يغزهم المشركون ،بل غزاهم المسلمون فى بلادهم .

قال محمد بن إسحاق : لما [٦] انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول اللّه ﷺ فيما بلغنا : «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ،ولكنكم تغزونهم» ،فلم تغز [٧] قريش بعد ذلك ،وكان هو يغزوهم بعد ذلك ، حتى فتح اللّه عليه مكة .

وهذا الحديث الذى ذكره محمد بن إسحاق [٨] حديث صحيح ، كما قال [٩] الإمام أحمد :

حدثنا يحيى ،عن سفيان ،حدثنى أبو إسحاق قال : سمعت سليمان بن صُرَد يقول [١٠] :قال رسول اللّه ﷺ يوم الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » .

وهكذا رواه البخارى فى صحيحه ،من حديث الثورى وإسرائيل ، عن أبى إسحاق ،به [١١] .

وقوله تعالى :﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أى:بحوله وقوته ،ردهم خائبين ،لم ينالوا خيراً ،وأعز اللّه الإسلام وأهله،وصدق وعده ،ونصر رسوله وعبده ،فله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ

---

(١) فى ت : « مما عملوا » . (٢) فى أ : « لم تحتاجوا » . (٣) فى ت : « ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤١١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٢٤) باختلاف فى اللفظ .
(٥) صحيح البخارى برقم (٢٩٣٣) وصحيح مسلم برقم (١٧٤٢) .
(٦) فى ت ، ف : « فلما » . (٧) فى أ : « تعد » . (٨) فى ت : « وهذا الذى ذكره ابن إسحاق » .
(٩) فى ت : « رواه » . (١٠) فى ت : « قال » .
(١١) المسند (٤/٢٦٢) وصحيح البخارى برقم (٤١٠٩) .

اللّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾.

قد تقدم أن بنى قريظة لما قدمت جنود الأحزاب، ونزلوا على المدينة، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول اللّه ﷺ من العهد، وكان ذلك بسفارة حُيَيّ بن أخطب النَّضَرى ـ لعنه اللّه ـ دخل حصنهم، ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد، وقال له فيما قال: ويحك، قد جئتك بعز الدهر، أتيتك بقريش وأحابيشها، وغطفان وأتباعها، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه. فقال له كعب: بل واللّه أتيتنى بذُلِّ الدهر. ويحك يا حيى، إنك مشؤوم، فدعنا [١] منك. فلم يزل يفتل فى الذِّروة والغَارب حتى أجابه، واشترط له حُيى [٢] إن ذهب الأحزاب، ولم يكن من أمرهم شيء، أن يدخل معهم فى الحصن، فيكون له [٣] أسوتهم. فلما نَقَضت قريظةُ، وبلغ ذلك رسول اللّه ﷺ، ساءه، وشق عليه وعلى المسلمين جداً، فلما أيد اللّه ونَصر، وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة، ورجع رسول اللّه ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً، ووضع الناس السلاح. فبينما رسول اللّه ﷺ يغتسل [٤] من وعثاء تلك المرابطة فى بيت أم سلمة إذ تبدى له جبريل معتجراً بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها قطيفة [من] [٥] ديباج، فقال: أوَضعت السلاح يا رسول اللّه؟ قال: «نعم». قال: لكن الملائكة لم تضع أسلحتها، وهذا الآن رجوعى من طلب القوم. ثم قال: إن اللّه يأمرك أن تنهض إلى بنى قريظة. وفى رواية فقال له: عذيرَك من مقاتل، أوضعتم السلاح؟ قال: «نعم». قال: لكنا لم نضع أسلحتنا بعد، انهض إلى هؤلاء. قال: «أين؟». قال: بنى قريظة، فإن اللّه أمرنى أن أزلزل عليهم. فنهض رسول اللّه ﷺ من فوره، وأمر الناس بالمسير إلى بنى قريظة، وكانت على أميال من المدينة، وذلك بعد صلاة الظهر، وقال: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة». فسار الناس، فأدركتهم الصلاة فى الطريق، فصلى بعضهم فى الطريق وقالوا: لم يرد منا رسول اللّه ﷺ إلا تعجيل السير، وقال آخرون: لا نصليها إلا فى بنى قريظة. فلم يُعنِّف واحدًا من الفريقين. وتبعهم رسول اللّه ﷺ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب. ثم نازلهم رسول اللّه ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما طال عليهم الحال، نزلوا على حكم سعد بن معاذ ـ سيد الأوس ـ لأنهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية، واعتقدوا أنه يحسن إليهم فى ذلك، كما فعل عبد اللّه بن أبى بن سلول فى مواليه بنى قينقاع، حين استطلقهم من رسول اللّه ﷺ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبى فى أولئك، ولم يعلموا أن سعداً، رضى اللّه عنه، كان قد أصابه سهم فى أكحَله أيام الخندق، فكواه رسول اللّه ﷺ فى أكحله، وأنزله فى قبة فى المسجد ليعوده من قريب. وقال سعد فيما دعا به: اللهم، إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها. وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم، فافجرها ولاتمتنى حتى تُقرّ عينى من بنى قريظة. فاستجاب اللّه دعاءه، وقَدّر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم، فعند ذلك استدعاه رسول اللّه ﷺ من المدينة ليحكم فيهم، فلما

---

(١) فى ت: «دعنا». (٢) فى أ: «حتى». (٣) فى ت: «لهم». (٤) فى ت: «يغسل رأسه».
(٥) زيادة من ت، ف، أ.

أقبل وهو راكب [على حمار] (١) قد وطَّؤوا له عليه ،جعل الأوس يلوذون به ويقولون : ياسعد، إنهم مواليك ،فأحسن فيهم .ويرققونه عليهم ويعطفونه ،وهو ساكت لا يرد عليهم .فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه فى اللّه لومة لائم .فعرفوا أنه غير مستبقيهم ،فلما دنا من الخيمة التى فيها رسول اللّه ﷺ قال رسول اللّه ﷺ :« قوموا إلى سيدكم » .فقام إليه المسلمون،فأنزلوه إعظاما وإكراما واحتراما له فى محل ولايته ،ليكون أنفذ لحكمه فيهم .فلما جلس قال له رسول اللّه ﷺ : « إن هؤلاء ـ وأشار إليهم ـ قد نزلوا على حكمك ، فاحكم فيهم بما شئت». قال :وحكمى نافذ عليهم ؟ قال : «نعم». قال :وعلى من فى هذه الخيمة ؟ قال : «نعم». قال: وعلى من هاهنا .وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول اللّه ﷺ ـ وهو معرض بوجهه عن رسول اللّه ﷺ إجلالاً (٢) وإكراماً وإعظاماً ـ فقال له رسول اللّه ﷺ :«نعم» .فقال :إنى أحكم أن تقتل مُقَاتلتهم ،وتُسْبى ذريتهم وأموالهم .فقال له رسول اللّه ﷺ : « لقد حكمتَ بحكم اللّه من فوق سبعة أرقعة » (٣) ،وفى رواية : « لقد حكمت بحكم المَلك » . ثم أمر رسول اللّه ﷺ بالأخاديد فَخُدّت فى الأرض ،وجىء بهم مكتفين،فضرب أعناقهم ،وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة ،وسبى من لم يُنبت منهم مع النساء وأموالهم (٤) ،وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه فى كتاب السيرة ،الذى أفردناه موجزاً ومقتصًّا (٥) ،وللّه الحمد والمنة .

ولهذا قال تعالى :﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم ﴾ أى: عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول اللّه ﷺ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى : بنى قريظة من اليهود ،من بعض أسباط بنى إسرائيل ،كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما ،طَمَعاً فى اتباع النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة :٨٩] ، فعليهم لعنة اللّه .

وقوله:﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ يعنى: حصونهم. كذا قال مجاهد، وعِكْرِمة، وعطاء، وقتادة، والسُّدِّى، وغيرهم (٦) ومنه سميت صياصى البقر ،وهى قرونها ؛لأنها أعلى شىء فيها .

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ وهو الخوف ؛ لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب رسول اللّه (٧) ﷺ ،وليس من يعلم كمن لا يعلم ،فأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليَعزّوا (٨) فى الدنيا ،فانعكس

---

(١) زيادة من ت ،ف ، والبداية والنهاية . (٢) فى ت : « إجلالا له » .

(٣) رواه ابن إسحاق فى السيرة كما فى البداية والنهاية (٤/ ١٢٣) من طريق عاصم بن عمر،عن عبد الرحمن بن عمر،عن علقمة بن وقاص قال : قال رسول اللّه ﷺ فذكره ،وأظن فى السند خطأ . ورواه ابن سعد فى الطبقات (٣/ ٤٢٦) من طريق محمد ابن صالح التمار،عن سعد بن إبراهيم،عن عامر بن سعد ،عن أبيه سعد بن أبى وقاص مرفوعاً بلفظ : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات » ، وأصله فى صحيح البخارى من دون قوله : « فوق سبع سموات » برقم (٣٠٤٣) من حديث أبى سعيد الخدرى.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٢٣٩) .

(٥) فى ت ، ف ، أ : « وبسيطاً » .

(٦) فى ت : « كذا قال مجاهد وغير واحد من السلف » ، وفى أ : « كذا قال مجاهد وغيرهم من السلف » .

(٧) فى ف : « النبى » . (٨) فى ت ، ف ، أ : « ليغزوهم » .

عليهم الحال، وانقلب الفال [١]، انشمر [٢] المشركون ففازوا بصفقة المغبون، فكما راموا العز ذلوا[٣]، وأرادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة، فصارت الجملة أن هذه هى الصفقة الخاسرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ[٤] فَرِيقًا﴾، فالذين قتلوا هم المقاتلة، والأسراء هم الأصاغر والنساء.

قال [٥] الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم بن بشير، أخبرنا عبد الملك بن عمير، عن عطية القرظى قال: عُرضت على النبى ﷺ يوم قريظة فشكوا فىَّ، فأمر بى النبى ﷺ أن ينظروا: هل أنبت بعد؟ فنظروا فلم يجدونى أنبت، فخلى عنى وألحقنى بالسبى.

وكذا رواه أهل السنن كلهم من طرق، عن عبد الملك بن عمير، به[٦]. وقال الترمذى: «حسن صحيح». ورواه النسائى أيضاً، من حديث ابن جُرَيْج، عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، عن عطية، بنحوه [٧].

وقوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾أى: جعلها لكم من قتلكم [٨] لهم ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾: قيل: خيبر. وقيل: مكة. رواه مالك، عن زيد بن أسلم. وقيل: فارس والروم. وقال ابن جرير: يجوز أن يكون الجميع مراداً.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾: قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن عمرو، عن أبيه، عن جده علقمة بن وقاص قال: أخبرتنى [٩] عائشة قالت: خرجت يوم الخندق أقفو الناس، فسمعت وئيد الأرض ورائى، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجَنَّه، قالت: فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه درِع من حديد قد خرجت منه أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، قالت: وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم، فمر وهو يرتجز [١٠] ويقول:

لَبِّثْ قَليلاً يَشْهَد الهَيْجَا حَمَل ... مَا أَحْسَنَ الموتَ إذا حَانَ الأَجَلْ

قالت: فقمت فاقتحمت حديقة، فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه تَسْبغَة [١١] له ـ تعنى المغفر ـ فقال عمر: ما جاء بك؟ لعمرى والله إنك لجريئة [١٢]، وما يؤمنُك أن يكون بلاء أو يكون تَحَوّز. قالت: فمازال يلومنى حتى تمنيت أن الأرض انشقت بى [١٣]

(١) فى ت، أ: «وانقلب عليهم الفال». (٢) فى أ: «اشمر». (٣) فى ت: «فلما راموا العز أذلوا».
(٤) فى ت: «يقتلون ويأسرون». (٥) فى ت: «روى».
(٦) المسند (٥/ ٣١١) وسنن أبى داود برقم (٤٤٠٤) وسنن الترمذى برقم (١٥٨٤) وسنن النسائى (٨/ ٩٢) وسنن ابن ماجة برقم (٢٥٤٢).
(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٦١٩).
(٨) فى ت، ف: «قبلكم».
(٩) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده عن».
(١٠) فى ت: «يرتجل».
(١١) فى ت: «مشيقة»، وفى ف: «نشيقة». (١٢) فى ت: «محدبة». (١٣) فى ت، ف: «لى».

ساعتئذ ، فدخلت فيها ، فرفعْ الرجل التسبغة(١) عن وجهه ، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال : يا عمر، ويحك ، إنك قد أكثرت منذ اليوم ، وأين التَحَوّز أو الفرار إلا إلى الله تعالى ؟ قالت: ويرمى سعداً رجل من قريش ، يقال له ابن العَرقة بسهم (٢) ، وقال له : خذها وأنا ابن العَرقة فأصابَ أكْحَلَه فقطعه ، فدعا الله سعد فقال : اللهم ، لا تمتنى حتى تُقر عينى من قريظة . قالت : وكانوا حلفاءه ومواليه فى الجاهلية ، قالت : فرقأ كَلْمُه ، وبعث الله الريح على المشركين ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً . فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة ، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد ، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا فى صياصيهم ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من أدَم فضربت على سعد فى المسجد ، قالت : فجاءه جبريل ، عليه السلام ، وإن على ثناياه لنقع الغبار ، فقال : أو قد وضعت السلاح ؟ لا ، والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح ، أخرج إلى بنى قريظة فقاتلهم . قالت : فلبس رسول الله ﷺ لأمته ، وأذّن فى الناس بالرحيل أن يخرجوا ، [فخرج رسول الله ﷺ] (٣) فمر على بنى غَنْم (٤) وهم جيران المسجد حوله فقال : ومن مر بكم ؟ قالوا : مر بنا دحية الكلبى ـ وكان دحية الكلبى تشبه لحيته ، وسنه ووجهه جبريل ، عليه الصلاة والسلام ، فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم : انزلوا على حكم رسول الله ﷺ . فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر ، فأشار إليهم أنه الذبح . قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ [فقال رسول الله ﷺ : « انزلوا على حكم سعد بن معاذ ». فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ](٥) فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حُمل عليه ، وحَفّ به قومه ، فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك ومواليك وأهل النّكاية ، ومن قد علمت ، قالت : ولايَرْجعُ إليهم شيئاً ، ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال : قد آن لى ألا أبالى فى الله لومة لائم . قال(٦): قال أبو سعيد (٧) : فلما طلع قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » . فقال عمر: سيدنا الله . قال: « أنزلوه » . فأنزلوه ، قال رسول الله ﷺ : « احكم فيهم » . قال سعد : فإنى أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتقسم أموالهم ، فقال رسول الله : « لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله » . ثم دعا سعد فقال: اللهم ، إن كنت أبقيتَ على نبيك من حرب قريش شيئاً، فأبقنى لها . وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم، فاقبضنى إليك . قال : فانفجر كَلْمُه، وكان قد برئ منه إلا مثل الُخرْص ، ورجع إلى قبته التى ضرب عليه رسول الله .

قالت عائشة : فَحَضَره رسولُ الله ﷺ وأبو بكر ، وعمر : قالت : فوالذى نفس محمد بيده ، إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر ، وأنا فى حجرتى . وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾.

قال علقمة : فقلت : أىْ أمّه ، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع ؟ قالت : كانت عينه لا تدمع على أحد ، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته (٨) .

---

(١) فى ف : « النشيقة » .
(٢) فى ت ، ف : « بسهم له » .
(٣) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .
(٤) فى ت ، ف : « تميم » .
(٥) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .
(٦) فى ت ، ف ، أ : « قالت » .
(٧) فى أ : « أبو سعد » .
(٨) المسند (٦/ ١٤١) .

وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث عبد اللّه بن نمير ،عن هشام بن عُرْوَة ،عن أبيه،عن عائشة نحوا من هذا ،ولكنه (١) أخصر منه ،وفيه دُعاء سعد ،رضى اللّه عنه (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾.

هذا أمر من اللّه لرسوله ،صلوات اللّه وسلامه عليه (٣) ،بأن يخيِّر نساءه بين أن يفارقهن،فيذهبن إلى غيره ممن يَحصُل لهن عنده الحياةُ الدنيا وزينتها ،وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ،ولهن عند اللّه فى ذلك الثواب الجزيل ،فاخترن ، رضى اللّه عنهن وأرضاهن ، اللّه ورسوله والدار الآخرة،فجمع اللّه لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

قال(٤) البخارى : حدثنا أبو اليمان ،أخبرنا شعيب ،عن الزهرى ،قال : أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن ،أن عائشة ، رضى اللّه عنها ،زوج النبى ﷺ أخبرته :أن رسول اللّه ﷺ جاءها حين أمره اللّه أن يخير أزواجه ،فبدأ بى رسول اللّه ﷺ فقال : « إنى ذاكر لك أمراً ، فلا عليك أن تستعجلى حتى تستأمرى أبويك »،وقد عَلمَ أن أبوىّ لم يكونا يأمرانى بفراقه .قالت :ثم قال :« وإن اللّه قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ ﴾ » إلى تمام الآيتين ،فقلت له:ففى أى هذا أستأمر أبوى؟فإنى أريد اللّه ورسوله والدار الآخرة (٥) .

وكذا رواه معلقاً عن الليث :حدثنى يونس ،عن الزهرى ،عن أبى سلمة ،عن عائشة ،فذكره وزاد :قالت :ثم فعل أزواج النبى ﷺ مثل ما فعلت (٦) .

وقد حكى البخارى أن مَعْمَرًا اضطرب ،فتارة (٧) رواه عن الزهرى ،عن أبى سلمة ،وتارة رواه عن الزهرى ،عن عُرْوَة ،عن عائشة (٨).

وقال ابن جرير :حدثنا أحمد بن عبَدة الضَّبِّى ،حدثنا أبو عوَانة ،عن عمر بن أبى سلمة ،عن أبيه قال :قالت عائشة :لما نزل الخيار قال لى رسول اللّه ﷺ :« إنى أريد أن أذكر لك أمراً ،فلا تقضى فيه شيئاً حتى تستأمرى أبويك » .قالت :قلت :وما هو يا رسول اللّه ؟ قال : فردّه عليها .فقالت :فما هو يا رسول اللّه ؟ قالت :فقرأ عليها :﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ إلى آخر الآية. قالت: فقلت: بل نختار اللّه ورسوله والدار الآخرة. قالت :ففرح بذلك النبى ﷺ (٩).

(١) فى ت ، أ : « ولكن » .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤١١٧) وصحيح مسلم برقم (١٧٦٩) .
(٣) فى ت : « ﷺ » . (٤) فى ت : « فروى » .
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٥) .
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٦) .
(٧) فى أ : « فيه قتادة و » .
(٨) صحيح البخارى (٨/ ٥٢٠) « فتح » .
(٩) تفسير الطبرى (٢١/ ١٠٠) .

وحدثنا ابن وكيع، حدثنا محمد بن بشر، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: لما نزلت آية التخيير، بدأ بى رسول الله ﷺ، فقال: « يا عائشة، إنى عارض عليك أمراً، فلا تفتاتى فيه [بشىء] [١] حتى تعرضيه على أبويك أبى بكر وأم رومان ». فقلت: يا رسول الله، وما هو؟ قال: « قال الله عزوجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً . وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ». قالت: فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ولا أؤامر فى ذلك أبوىّ أبا بكر وأم رومان، فضحك رسول الله ﷺ ثم استقرأ الحُجَر فقال: « إن عائشة قالت كذا وكذا ». فقلن: ونحن نقول مثل ما قالت عائشة، رضى الله عنهن كلهن [٢].

ورواه ابن أبى حاتم، عن أبى سعيد الأشَجِّ، عن أبى أسامة، عن محمد بن عمرو، به.

قال ابن جرير: وحدثنا سعيد بن يحيى الأموى، حدثنا أبى، عن [٣] محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبى بكر، عن عَمرة، عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل إلى نسائه أمر أن يخيرهن، فدخل عَلَىَّ فقال: « سأذكر لك أمراً فلا تعجلى حتى تستشيرى أباك ». فقلت: وما هو يانبى الله؟ قال: «إنى أمرت أن أخيركن»، وتلا عليها آية التخيير، إلى آخر الآيتين. قالت: فقلت: وما الذى تقول لا تعجلى حتى تستشيرى أباك؟ فإنى أختار الله ورسوله، فَسُرَّ بذلك، وعَرَض على نسائه فتتابعن كُلّهن، فاخترنَ الله ورسوله [٤].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يزيد بن سِنان البصرى، حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح، حدثنى الليث، حدثنى عُقَيل، عن الزهرى، أخبرنى عُبيد الله بن عبد الله بن أبى ثَور، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: قالت عائشة، رضى الله عنها: أنزلت آية التخيير فبدأ بى أَوّلَ امرأة من نسائه، فقال: « إنى ذاكر لك أمراً، فلا [٥] عليك ألا تعجلى حتى تستأمرى أبويك ». قالت: قد عَلِم [٦] أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه. قالت: ثم قال: «إن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ﴾ »الآيتين. قالت عائشة: فقلت: أفى هذا أستأمر أبوىّ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة. ثم خير نساءه كلهن، فقلن مثل ما قالت عائشة، رضى الله عنهن.

وأخرجه البخارى ومسلم جميعاً، عن قتيبة، عن الليث، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة، مثله [٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم بن صَبِيح، عن مسروق، عن عائشة قالت: خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فلم يعدها علينا شيئاً. أخرجاه من حديث الأعمش [٨].

---

(١) زيادة من ت، ف، والطبرى.
(٢) تفسير الطبرى (٢١/١٠١).
(٣) فى أ: « أنبانا ».
(٤) تفسير الطبرى (٢١/١٠١).
(٥) فى أ: « الا ». (٦) فى ف: « اعلم ».
(٧) كذا ولم أجده بهذا السند فيهما، ولا ذكره المزى فى تحفة الأشراف ولعلى أتداركه فيما بعد.
(٨) المسند (٦/٤٥) وصحيح البخارى برقم (٥٢٦٢) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن أبى الزبير، عن جابر قال: أقبل أبو بكر، رضى الله عنه، يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس، والنبى ﷺ جالس: فلم يؤذن له. ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له. ثم أذن لأبى بكر وعمر فدخلا والنبى ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ساكت، فقال عمر: لأكلمن النبى ﷺ لعله يضحك، فقال عمر: يا رسول الله، لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتنى النفقة آنفاً، فوجأت عنقها. فضحك النبى ﷺ حتى بدا ناجذه [١] وقال: « هن حولى يسألننى النفقة ». فقام أبو بكر، رضى الله عنه، إلى عائشة ليضربها، وقام عمر، رضى الله عنه، إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده. فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده. قال: وأنزل الله، عز وجل، الخيار، فبدأ بعائشة فقال: « إنى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك ». قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ الآية، قالت عائشة، رضى الله عنها: أفيك أستأمر أبوى؟ بل أختار الله ورسوله، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت. فقال: «إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا، ولكن بعثنى معلماً ميسراً [٢]، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتُها ».

انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى، فرواه هو والنسائى، من حديث زكريا بن إسحاق المكى، به[٣].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج بن يونس، حدثنا على بن هاشم بن البريد، عن محمد بن عبيد [الله بن على] [٤] ابن أبى رافع، عن عثمان بن على بن الحسين، عن أبيه، عن على، رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ خيَّر نساءه الدنيا والآخرة، ولم يخيرهن الطلاق [٥].

وهذا منقطع، وقد رُوى عن الحسن وقتادة وغيرهما نحو ذلك. وهو خلاف الظاهر من الآية، فإنه قال: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أى: أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن.

وقد اختلف العلماء فى جواز تزويج غيره لهن لو طلقهن، على قولين، وأصحهما نعم لو وقع، ليحصل المقصود من السراح، والله أعلم.

قال عكرمة: وكان تحته يومئذ تسع نسوة، خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حُيَىّ النَّضَرِيَّة، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضى الله عنهن وأرضاهن.

[ولم يتزوج واحدة منهن، إلا بعد أن توفيت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ابن كلاب، تزوجها رسول الله ﷺ بمكة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلى أن أكرمه الله برسالته فآمنت به ونصرته، وكانت له وزير صدق، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، رضى الله عنها، فى الأصح، ولها خصائص منها: أنه لم يتزوج عليها غيرها، ومنها أن أولاده كلهم منها، إلا إبراهيم، فإنه من سريته مارية، ومنها أنها خير نساء الأمة.

---

(١) فى ف: « نواجذه ». (٢) فى ت: « مبشراً ».

(٣) المسند (٣/٣٢٨) وصحيح مسلم برقم (١٤٧٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٢٠٨).

(٤) زيادة من ت، ف، والمسند.

(٥) زوائد المسند (١/٧٨).

واختلف فى تفضيلها على عائشة على ثلاثة أقوال، ثالثها الوقف.

وسئل شيخنا أبو العباس بن تيمية عنهما فقال: اختصت كل واحدة منهما بخاصية، فخديجة كان تأثيرها فى أول الإسلام، وكانت تُسلِّى رسول الله ﷺ وتثبته، وتسكنه، وتبذل دونه مالها، فأدركت غُرة الإسلام، واحتملت الأذى فى الله وفى رسوله وكان نصرتها للرسول فى أعظم أوقات الحاجة، فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها. وعائشة تأثيرها فى آخر الإسلام، فلها من التفقه فى الدين وتبليغه إلى الأمة، وانتفاع بنيها بما أدت إليهم من العلم، ما ليس لغيرها. هذا معنى كلامه، رضى الله عنه.

ومن خصائصها: أن الله، سبحانه، بعث إليها السلام مع جبريل، فبلغها رسول الله ﷺ ذلك. روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: أتى جبريل، عليه السلام، النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة، قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هى أتتك فأقرأها السلام من ربها ومنِّى، وبشرها ببيت فى الجنة، من قَصَب، لا صَخَب فيه ولا نَصَب (١) وهذه لعَمْر الله خاصة، لم تكن لسواها. وأمَّا عائشة، رضى الله عنها، فإن جبريل سلم عليها على لسان النبى ﷺ، فروى البخارى بإسناده أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومًا: «يا عائشة، هذا جبريل يقرئك السلام». فقلت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد رسول الله ﷺ(٢).

ومن خواص خديجة، رضى الله عنها: أنه لم تسوءه قط، ولم تغاضبه، ولم ينلها منه إيلاءً، ولا عتب قط، ولا هجر، وكفى بهذه منقبة وفضيلة.

ومن خواصها: أنها أول امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمة.

فصل:

فلمَّا توفاها الله تزوج بعدها سودة بنت زمعة، رضى الله عنها، وهى سودة بنت زمعة بن قيس ابن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن جبل بن عامر بن لؤى، وكبرت عنده، وأراد طلاقها فوهبت يومها لعائشة، فأمسكها. وهذا من خواصها: أنها آثرت بيومها حب النبى ﷺ تقرباً إلى رسول الله ﷺ، وحبا له، وإيثاراً لمقامها معه، فكان يقسم لعائشة يومها ويوم سودة، ويقسم لنسائه، ولا يقسم لها وهى راضية بذلك مؤثرة، لترضى رسول الله ﷺ.

وتزوج الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبى بكر، رضى الله عنهما، وهى بنت ست سنين قبل الهجرة بسنتين، وقيل: بثلاث، وبنى بها بالمدينة أول مقدمه فى السنة الأولى، وهى بنت تسع، ومات عنها وهى بنت ثمان عشرة، وتوفيت بالمدينة، ودفنت بالبقيع، وأوصت أن يصلى عليها أبو هريرة سنة ثمان وخمسين، ومن خصائصها: أنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه، كما ثبت ذلك عنه فى البخارى وغيره، أنه سئل أىُّ الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة». قيل: فمن الرجال؟ قال: «أبوها»(٣).

ومن خصائصها أيضاً: أنه لم يتزوج بكراً غيرها، ومن خصائصها: أنه كان ينزل عليه الوحى وهو

(١) صحيح البخارى برقم (٣٨٢٠).
(٢) صحيح البخارى برقم (٣٧٦٨).
(٣) لم أقف عليه فى صحيح البخارى. وهو فى سنن الترمذى برقم (٣٨٧٩) من حديث عمرو بن العاص، رضى الله عنه.

فى لحافها دون غيرها .

ومن خصائصها: أن الله، عزوجل، لما أنزل عليه آية التخيير بدأ بها فخيرها، فقال: « ولا عليك ألا تعجلى حتى تستأمرى أبويك » . فقالت : أفى هذا أستأمر أبواى ، فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة. فاستن بها بقية أزواجه ﷺ ، وقلن كما قالت .

ومن خصائصها : أن الله، سبحانه، برأها مما رماها به أهل الإفك ، وأنزل فى عذرها، وبراءتها، وحياً يتلى فى محاريب المسلمين ، وصلواتهم إلى يوم القيامة ، وشهد لها أنها من الطيبات ، ووعدها المغفرة والرزق الكريم ، وأخبر ، سبحانه، أن ما قيل فيها من الإفك كان خيراً لها ، ولم يكن بذلك الذى قيل فيها شر لها ، ولا عيب لها ، ولا خافض من شأنها ، بل رفعها الله بذلك، وأعلا قدرها وعظم شأنها، وأصار لها ذكراً بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء ، فيا لها من منقبة ما أجلها . وتأمل هذا التشريف والإكرام الناشئ عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها، حيث قالت : ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىَّ بوحى يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئنى الله بها ، فهذه صديقة الأمة ، وأم المؤمنين ، وحب رسول الله ﷺ ، وهى تعلم أنها بريئة مظلومة ، وأن قاذفيها ظالمون مفترون عليها ، قد بلغ أذاهم إلى أبويها ، وإلى رسول الله ﷺ ، وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها ، فما ظنك بمن قد صام يوماً أو يومين، أو شهراً أو شهرين، قد قام ليلة أو ليلتين، فظهر عليه شىء من الأحوال ، ولاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات، وأنهم ممن يتبرك بلقائهم ، ويُغتنم بصالح دعائهم ، وأنهم يجب على الناس احترامهم وتعظيمهم وتعزيزهم وتوقيرهم، فيتمسح بأثوابهم ، ويقبل ثرى أعتابهم، وأنهم من الله بالمكانة التى تنتقم لهم لأجلها من تنقصهم فى الحال ، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال ، وإن إساءة الأدب عليهم ذنب لا يكفره شىء إلا رضاهم .

ولو كان هذا من وراء كفاية لهان ، ولكن من وراء تخلف ، وهذه الحماقات والرعونات نتاج الجهل الضميم ، والعقل غير المستقيم ، فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه ، غافل عن جرمه وعيوبه وذنوبه ، مغتر بإمهال الله له عن أخذه بما هو فيه من الكبر والازدراء على من لعله عند الله خير منه. نسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة .

وينبغى للعبد أن يستعيذ بالله أن يكون عند نفسه عظيماً ، وهو عند الله حقيراً ، ومن خصائص عائشة، رضى الله عنها: أن الأكابر من الصحابة، رضى الله عنهم ، كان إذا أشكل الأمر عليهم من الدين ، استفتوها فيجدون علمه عندها .

ومن خصائصها : أن رسول الله ﷺ توفى فى بيتها . ومن خصائصها : أن الملك أرى صورتها للنبى ﷺ قبل أن يتزوجها فى خرقة حرير ، فقال النبى ﷺ : « إن يكن هذا من عند الله يمضه »(١). ومن خصائصها : أن الناس كانوا يتحرون هداياهم يومها من رسول الله ﷺ تقرباً إلى الرسول ﷺ، فيتحفونه بما يحب فى منزل أحب نسائه إليه، رضى الله عنهم أجمعين ، وتكنى أم عبد الله، وروى أنها أسقطت من النبى ﷺ سقطاً ، ولا يثبت ذلك .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠٧٨) من حديث عائشة ، رضى الله عنها .

وتزوج رسول الله ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبله عند حبيش بن حذافة، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وممن شهد بدراً، توفيت سنة سبع، وقيل: ثمان وعشرين، ومن خواصها: ما ذكره الحافظ أبو محمد المقدسى فى مختصره فى السيرة: أن النبى ﷺ طلقها، فأتاه جبريل فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة، فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتك فى الجنة.

وقال الطبرانى فى المعجم الكبير: حدثنا أحمد بن طاهر بن حرملة بن يحيى، حدثنا جدى حرملة، حدثنا ابن وهب، حدثنى عمرو بن صالح الحضرمى، عن موسى بن على بن رباح، عن أبيه، عن عقبة بن عامر، أن النبى ﷺ طلق حفصة، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فوضع التراب على رأسه، وقال: ما يعبأ الله بابن الخطاب بعد هذا. فنزل جبريل، عليه السلام، على النبى ﷺ فقال: إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة لعمر(١).

وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبى سفيان، واسمها رملة بنت صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، هاجرت مع زوجها عبد الله بن جحش إلى أرض الحبشة، فتنصر بالحبشة، وأتم الله لها الإسلام، وتزوجها رسول الله ﷺ وهى بأرض الحبشة، وأصدقها عند النجاشى أربعمائة دينار، وبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى بها إلى أرض الحبشة، وولى نكاحها عثمان بن عفان، وقيل: خالد بن سعيد بن العاص، وهى التى أكرمت فراش رسول الله ﷺ أن يجلس عليه أبوها لما قدم أبو سفيان المدينة، وقالت له: إنك مشرك، ومنعته الجلوس عليه.

وتزوج رسول الله ﷺ أم سلمة واسمها هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب، وكانت قبله عند أبى سلمة بن عبد الأسد، توفيت سنة اثنين وستين، ودفنت بالبقيع، وهى آخر أزواج النبى ﷺ موتاً، وقيل: بل ميمونة، ومن خصائصها: أن جبريل دخل على النبى ﷺ، وهى عنده فرأته فى صورة دحية الكلبى. ففى صحيح مسلم عن أبى عثمان قال: أنبئت أن جبريل أتى النبى ﷺ، وعنده أم سلمة، فقال: فجعل يتحدث، ثم قام فقال نبى الله ﷺ لأم سلمة: «من هذا؟» أو كما قال. قالت: هذا دحية الكلبى. قالت: وايم الله، ما حسبته إلا إياه، حتى سمعت خطبة النبى ﷺ، يخبر أنه جبريل، أو كما قال، قال سليمان التيمى: فقلت لأبى عثمان: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من أسامة بن زيد(٢). وزوجها ابنها ـ عمر ـ من رسول الله ﷺ، وردت طائفة ذلك بأن ابنها لم يكن له من السن حينئذ ما يعقد التزويج، ورد الإمام أحمد ذلك، وأنكر على من قاله، ويدل على صحة قول أحمد ما رواه مسلم فى صحيحه أن عمر بن أبى سلمة ـ ابنها ـ سأل النبى ﷺ عن القبلة للصائم؟ فقال: «سل هذه» يعنى: أم سلمة فأخبرته أن رسول الله ﷺ يفعله، فقال: لسنا كرسول الله ﷺ، يحل الله لرسوله ما شاء. فقال رسول الله ﷺ: «إنى أتقاكم لله وأعلمكم به»(٣) أو كما قال. ومثل هذا لا يقال لصغير جدا، وعمر ولد بأرض الحبشة قبل الهجرة. وقال البيهقى: وقول من زعم أنه كان صغيراً،

---

(١) المعجم الكبير (١٧/ ٢٩١) وقال الهيثمى فى المجمع (٤/ ٣٣٤): «فيه عمرو بن صالح الحضرمى، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٤٥١).

(٣) صحيح مسلم برقم (١١٠٨).

دعوى ولم يثبت صغره بإسناد صحيح .

وتزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش من بنى خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وهى بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب ، وكانت قبل عند مولاه زيد بن حارثة ، فطلقها فزوجه الله إياها من فوق سبع سموات ، وأنزل عليه : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ فقام فدخل عليها بلا استئذان ، وكانت تفخر بذلك على سائر أزواج النبى ﷺ ، وتقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سمواته ، وهذا من خصائصها . توفيت بالمدينة سنة عشرين ، ودفنت بالبقيع .

وتزوج النبى ﷺ زينب بنت خزيمة الهلالية ، وكانت تحت عبد الله بن جحش ، تزوجها سنة ثلاث من الهجرة ، وكانت تسمى أم المساكين ، ولم تلبث عند رسول الله ﷺ إلا يسيراً ، شهرين أو ثلاثة ، وتوفيت ، رضى الله عنها .

وتزوج رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وكانت سبيت فى غزوة بنى المصطلق ، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس ، فكاتبها ، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها ، وتزوجها سنة ست من الهجرة ، وتوفيت سنة ست وخمسين ، وهى التى أعتق المسلمون بسببها مائة أهل بيت من الرقيق ، وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ ، وكان ذلك من بركتها على قومها .

وتزوج رسول الله ﷺ صفية بنت حيى ، من ولد هارون بن عمران أخى موسى ، سنة سبع ، فإنها سبيت من خيبر ، وكانت قبله تحت كنانة بن أبى الحقيق ، فقتله رسول الله ﷺ ، توفيت سنة ست وثلاثين ، وقيل : سنة خمسين . ومن خصائصها : أن رسول الله ﷺ أعتقها وجعل عتقها صداقها . قال أنس : أمهرها نفسها ، وصار ذلك سنة للأمة إلى يوم القيامة ، ويجوز للرجل أن يجعل عتق جاريته صداقها ، وتصير زوجته على منصوص الإمام أحمد ، رحمه الله . قال الترمذى : حدثنا إسحاق بن منصور ، وعبد بن حميد ، قالا : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن ثابت ، عن أنس قال : بلغ صفية أن حفصة قالت : صفية بنت يهودى ، فبكت ، فدخل عليها النبى ﷺ وهى تبكى فقال : « ما يبكيك ؟» قالت : قالت لى حفصة : إنى ابنة يهودى . فقال النبى ﷺ : « إنك لابنة نبى وإن عمك لنبى ، وإنك لتحت نبى ، فبما تفخر عليك؟» ثم قال : « اتق الله يا حفصة » (١). قال الترمذى : هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه . وهذا من خصائصها ، رضى الله عنها .

وتزوج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث الهلالية ، تزوجها بسَرَف وهو على تسعة أميال من مكة ، وهى آخر من تزوج من أمهات المؤمنين ، توفيت سنه ثلاث وستين ، وهى خالة خالد بن الوليد ، وخالة ابن عباس ، فإن أمه أم الفضل بنت الحارث وهى التى اختلف فى نكاح النبى ﷺ لها . هل نكحها حلالاً أو محرماً ؟ والصحيح إنما تزوجها حلالاً كما قال أبو رافع الشفير فى نكاحها .

قال الحافظ أبو محمد المقدسى وغيره : وعقد على سبع ولم يدخل بهن ، فالصلاة على أزواجه تابعة لاحترامهن وتحريمهن على الأمة ، وأنهن نساؤه ﷺ فى الدنيا والآخرة ، فمن فارقها فى حياتها ولم يدخل ، لا يثبت لها أحكام زوجاته اللاتى دخل بهن صلى الله عليه وعلى أزواجه وآله وذريته وسلم تسليما] (٢).

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣٨٩٤) وقال: « هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه » .

(٢) زيادة من ت .

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾.

يقول تعالى واعظاً نساء النبى ﷺ ،اللاتى اخترن اللّه ورسوله والدار الآخرة ،واستقر [(١)] أمرهن تحت رسول اللّه ﷺ أن يخبرهن [(٢)] بحكمهن [وتخصيصهن] [(٣)] دون سائر النساء ،بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة ـ قال ابن عباس :وهى النشوز وسوء الخلق .وعلى كل تقدير فهو شرط،والشرط لا يقتضى الوقوع كقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر : ٦٥] ،وكقوله :﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ٨٨] ، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف : ٨١] ، ﴿ لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر : ٤].فلما كانت محلتهن رفيعة ،ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظاً ،صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع ؛ولهذا قال :﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

قال مالك ،عن زيد بن أسلم : ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ قال : فى الدنيا والآخرة .

وعن ابن أبى نَجيح [عن مجاهد] [(٤)] مثله .

﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أى : سهلا هيناً .

ثم ذكر عدله وفضله فى قوله :﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى : يطع [(٥)] اللّه ورسوله ويستجيب ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أى : فى الجنة،فإنهن فى منازل رسول اللّه ﷺ،فى أعلى عليين ،فوق منازل جميع الخلائق ،فى الوسيلة التى هى أقرب منازل الجنة إلى العرش.

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾.

هذه آداب أمر اللّه بها نساء النبى ﷺ ،ونساء الأمة تبع لهن فى ذلك ،فقال مخاطباً لنساء النبى [ﷺ] [(٦)] بأنهن إذا اتقين اللّه كما أمرهن ،فإنه لايشبههن أحد من النساء ،ولا يلحقهن فى الفضيلة

(١) فى ت : « فاستقر » . (٢) فى أ : « يخبرن » . (٣) زيادة من أ .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ . (٥) فى ت ، ف : « يطيع » . (٦) زيادة من ت ، وفى ف : « صلوات اللّه وسلامه عليه » .

والمنزلة، ثم قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾.

قال السُّدِّي وغيره: يعني بذلك: ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال؛ ولهذا قال: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي: دَغَل، ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾: قال ابن زيد: قولا حسناً جميلا معروفاً في الخير.

ومعنى هذا: أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها.

وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزمن بيوتكن فلا (١) تخرجن لغير حاجة. ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه، كما قال رسول الله ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، وليخرجن وهن تَفِلات»، وفي رواية: «وبيوتهن خير لهن» (٢).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا حميد بن مَسْعَدة (٣)، حدثنا أبو رجاء الكلبي، روح بن المسيب ثقة، حدثنا ثابت البناني (٤)، عن أنس، رضي الله عنه، قال: جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن: يا رسول الله، ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قعد ـ أو كلمة نحوها ـ منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين (٥) في سبيل الله».

ثم قال: لا نعلم رواه عن ثابت إلا روح بن المسيب، وهو رجل من أهل البصرة مشهور (٦).

وقال (٧) البزار أيضاً: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عمرو بن عاصم، حدثنا همام، عن قتادة، عن مُوَرِّق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون (٨) بروْحَة ربها وهي في قَعْر بيتها».

ورواه الترمذي، عن بُنْدَار، عن عمرو بن عاصم، به نحوه (٩).

وروى البزار بإسناده المتقدم، وأبو داود أيضاً، عن النبي ﷺ قال: «صلاة المرأة في مَخْدعها أفضل من صلاتها في بيتها، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها» (١٠). وهذا إسناد (١١) جيد.

---

(١) في ت: «ولا».

(٢) رواه بهذا اللفظ أبو داود في السنن برقم (٥٦٥) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه، وبالرواية الثانية برقم (٥٦٧) من حديث ابن عمر، رضي الله عنهما، وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر.

(٣) في أ: «مسعود». (٤) في ت: «وروى أبو بكر البزار بإسناده». (٥) في ت: «المجاهد».

(٦) مسند البزار برقم (١٤٧٥) «كشف الأستار» ورواه أبو يعلى في المسند (٦/ ١٤٠) وابن حبان في المجروحين (١/ ٢٩٩) من طريق أبي رجاء الكلبي بنحوه. قال ابن حبان: «وكان روح ممن يروي عن الثقات الموضوعات، ويقلب الأسانيد، ويرفع الموقوفات» ثم قال: «لا تحل الرواية عنه ولا كتابة حديثه إلا للاختبار». وقال ابن عدي في الكامل: «أحاديثه غير محفوظة».

(٧) في ت: «وروى». (٨) في أ: «ما يكون».

(٩) سنن الترمذي برقم (١١٧٣) وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب». ورواه ابن خزيمة في صحيحه برقم (١٦٨٥) ومن طريقه ابن حبان في صحيحه برقم (٣٢٩) «موارد» عن عمرو بن عاصم، به، وشك ابن خزيمة في سماع قتادة هذا الحديث من مورق.

(١٠) سنن أبي داود برقم (٥٧٠).

(١١) في ت: «إسناده».

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾: قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشى بين يدى الرجال، فذلك تبرج الجاهلية.

وقال قتادة: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾: يقول: إذا خرجتن من بيوتكن ـ وكانت لهن[١] مشية وتكسر وتغنُّج ـ فنهى الله عن ذلك.

وقال مُقاتل بن حَيَّان: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾: والتبرج: أنها تلقى الخمار على رأسها، ولا تشده فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج، ثم عمت نساء المؤمنين فى التبرج.

وقال ابن جرير: حدثنى ابن زهير، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا داود ـ يعنى ابن أبى الفرات ـ حدثنا على بن أحمر، عن عِكْرِمة[٢] عن ابن عباس قال: تلا هذه الآية: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾. قال: كانت فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة، وإن بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل، والآخر يسكن الجبل. وكان رجال الجبل صِباحاً وفى النساء دَمَامة. وكان نساء السهل صِباحاً وفى الرجال دمامة، وإن إبليس أتى رجلا من أهل السهل فى صورة غلام، فآجر نفسه منه، فكان يخدمه واتخذ إبليس شيئاً مثل الذى يُزَمِّر فيه الرِّعاء، فجاء فيه بصوت لم يسمَع الناسُ مثله، فبلغ ذلك من حوله، فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه فى السنة، فيتبرَّجُ النساء للرجال. قال: ويتزيَّن[٣] الرجال لهن، وإن رجلا من أهل الجبل هَجَم عليهم فى عيدهم ذلك، فرأى النساء وصَبَاحتهن، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهن، فنزلوا معهن وظهرت الفاحشة فيهن، فهو قوله تعالى: ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾[٤].

وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، نهاهن أولا عن الشر ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة ـ وهى: عبادة الله وحده لا شريك له ـ وإيتاء الزكاة، وهى: الإحسان إلى المخلوقين، ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وهذا من باب عطف العام على الخاص.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾: وهذا نص فى دخول أزواج النبى ﷺ فى أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولا واحداً، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح.

وروى ابن جرير: عن عِكْرِمة أنه كان ينادى فى السوق: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، نزلت[٥] فى نساء النبى ﷺ خاصة، وهكذا روى ابن أبى حاتم قال:

حدثنا على بن حرب الموصلى، حدثنا زيد بن الْحُبَاب، حدثنا حسين بن واقد، عن يزيد النحوى، عن عِكْرِمة عن[٦] ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قال: نزلت فى نساء النبى ﷺ خاصة.

---

(١) فى أ: «لها». (٢) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده». (٣) فى ت، ف: «وتنزل».
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/٤).
(٥) فى ت: «أنزلت». (٦) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بسنده إلى».

وقال عكرمة : من شاء باهلته أنها نزلت فى أزواج النبى ﷺ .

فإن كان المراد أنهن كُنّ سبب النزول دون غيرهن فصحيح ،وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن،ففى هذا نظر ؛فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك :

الحديث الأول :قال الإمام أحمد :حدثنا عفان ،حدثنا حماد ،أخبرنا على بن زيد [١] ،عن أنس ابن مالك ،رضى الله عنه ،قال :إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر ،يقول:«الصلاة يا أهل البيت، ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾».

ورواه الترمذى عن عبد بن حميد ،عن عفان ،به .وقال :حسن غريب [٢] [٣] .

حديث آخر :قال ابن جرير :حدثنا ابن وكيع ،حدثنا أبو نعيم،حدثنا يونس بن أبى إسحاق، أخبرنى أبو داود ،عن أبى الحمراء قال :رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ ،[قال: رأيت رسول الله ﷺ] [٤] إذا طلع الفجر ،جاء إلى باب على وفاطمة فقال : « الصلاة الصلاة،﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾»[٥] .

أبو داود الأعمى هو :نفيع بن الحارث ،كذاب .

حديث آخر :وقال الإمام أحمد أيضاً :حدثنا محمد بن مصعب ،حدثنا الأوزاعى ،حدثنا شداد أبو عمار [٦] قال :دخلت على واثلة بن الأسقع وعنده قوم ،فذكروا علياً ،رضى الله عنه ،فلما قاموا قال لى: ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله ﷺ ؟قلت :بلى .قال :أتيت فاطمة أسألها عن على فقالت :تَوَجه إلى رسول الله ﷺ ،فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه على وحسن وحسين ، آخذ كل واحد منهما بيده حتى دخل ،فأدنى علياً وفاطمة وأجلسهما بين يديه ،وأجلس حسنا وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ،ثم لف عليهم [٧] ثوبه ـ أو قال :كساءه ـ ثم تلا هذه الآية: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾،« اللهم [٨] هؤلاء أهل بيتى،وأهل بيتى أحق » ،وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن عبد الكريم بن أبى عمير [٩] ،عن الوليد بن مسلم ،عن أبى عمرو الأوزاعى بسنده نحوه ـ زاد فى آخره: قال واثلة :فقلت :وأنا يا رسول الله ـ صلى الله عليك ـ من أهلك ؟ قال : « وأنت من أهلى » قال واثلة :إنها من أرجى ما أرتجى[١٠] .

ثم رواه أيضاً عن عبد الأعلى بن واصل ،عن الفضل بن دُكَيْن ،عن عبد السلام بن حرب ، عن كلثوم المحاربى ،عن شداد أبى عمار قال : إنى لجالس عند واثلة بن الأسقع إذ ذكروا علياً

---

(١) فى ت : « فروى الإمام أحمد بإسناده » . (٢) فى ت : « حديث حسن » .

(٣) المسند (٣/٢٥٩) وسنن الترمذى برقم (٣٢٠٦) .

(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والطبرى .

(٥) تفسير الطبرى (٢٢/٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢/ ٢٠٠) من طريق منصور بن الأسود ،عن أبى داود بنحوه .

(٦) فى ت :« وروى الإمام أحمد بإسناده عن شداد بن عمار » .

(٧) فى ت : « عليهما » . (٨) فى ت ، ف : « وقال : اللهم » . (٩) فى أ : « عمر » .

(١٠) المسند (٤/١٠٧) وتفسير الطبرى (٢٢/٦) .

فشتموه،فلما قاموا قال :اجلس حتى أخبرك عن الذى شتموه ،إنى عند رسول الله ﷺ إذ جاء على وفاطمة وحسن حسين فألقى ﷺ عليهم كساء له ،ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى ،اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » .قلت : يا رسول الله ،وأنا ؟ قال : « وأنت » . قال :فوالله إنها لأوثق عملى عندى (١) .

حديث آخر :قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الله بن نمير ،حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان ،عن عطاء بن أبى رباح ،حدثنى من سمع أم سلمة تذكر أن النبى ﷺ كان فى بيتها ،فأتته فاطمة ،رضى الله عنها،ببرمة فيها خَزِيرة ،فدخلت بها عليه فقال لها :« ادعى زوجك وابنيك » .قالت :فجاء على وحسن وحسين فدخلوا عليه ،فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة ،وهو على منامة له على دكان (٢) تحته كساء خيبرى،قالت:وأنا فى الحجرة أصلى،فأنزل الله ،عز وجل،هذه الآية:﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾.قالت:فأخذ فضل الكساء فغطاهم به ،ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ،ثم قال:« اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا »، قالت : فأدخلت رأسى البيت ، فقلت :وأنا معكم يا رسول الله ؟فقال : « إنك إلى خير ،إنك إلى خير » (٣) .

فى إسناده من لم يسم (٤) ،وهو شيخ عطاء ،وبقية رجاله ثقات .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد :حدثنا محمد بن جعفر ،حدثنا عوف،عن أبى المعدل (٥) ،عن عطية الطُّفَاوِىّ ،عن أبيه؛ أن أم سلمة حدثته قالت (٦) :بينما رسول الله ﷺ فى بيتى يوماً إذ قال الخادم :إن فاطمة وعليا بالسدّة قالت :فقال لى :« قومى فَتَنَحى عن(٧) أهل بيتى ».قالت :فقمت فتنحيت فى البيت قريباً ،فدخل على وفاطمة ،ومعهما الحسن والحسين ،وهما صبيان صغيران ،فأخذ الصبيين فوضعهما فى حجره فقبلهما ،واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة باليد الأخرى ،وقَبَّل فاطمة وَقبَّل عليا ،وأغدق عليهم خَمِيصَة سوداء وقال :« اللهم ،إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتى » . قالت:فقلت : وأنا يا رسول الله ؟ صلى الله عليك .قال :« وأنت » (٨) .

طريق أخرى : قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب ،حدثنا [الحسن بن عطية ،حدثنا] (٩) فضيل بن مرزوق ،عن عطية ،عن أبى سعيد ،عن أم سلمة؛أن هذه الآية نزلت فى بيتها : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾ قالت:وأنا جالسة على باب البيت فقلت :يا رسول

---

(١) تفسير الطبرى (٢٢/٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٢/ ٦٥) من طريق على بن عبد العزيز عن الفضل بن دكين ، أبو نعيم به
(٢) فى ف : « وكان » .
(٣) المسند (٦/ ٢٩٢) وقد سمى شيخ عطاء فى رواية الطبرانى فى المعجم الكبير (٩/ ١١) فقال عن عطاء بن أبى رباح ، عن عمر بن أبى سلمة بنحوه .
(٤) فى أ : « يسمع » . (٥) فى أ : « العدل » .
(٦) فى ت : « وروى الإمام أحمد بسنده أن أم سلمة قالت » .
(٧) فى أ : « فتنحى لى عن » .
(٨) المسند (٦/ ٢٩٦) .
(٩) زيادة من : ت ، ف ، و« الطبرى » .

اللّه، ألستُ من أهل البيت ؟ فقال : « إنك إلى خير ، أنت من أزواج النبى ﷺ » قالت : وفى البيت رسول اللّه ﷺ وعلى ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ، رضى اللّه عنهم (١) .

طريق أخرى : رواه ابن جرير أيضاً ، عن أبى كُرَيْب ، عن وكِيع ، عن عبد الحميد بن بَهْرَام ، عن شَهْر بن حَوْشَب ، عن أم سلمة بنحوه (٢) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا خالد بن مَخْلَد ، حدثنى موسى بن يعقوب، حدثنى هاشم بن هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ، عن عبد اللّه بن وهب بن زَمْعَة قال: أخبرتنى أم سلمة ، رضى اللّه عنها ، أن رسول اللّه ﷺ جمع فاطمة والحسن والحسين ، ثم أدخلهم تحت ثوبه ، ثم جأر إلى اللّه، عزوجل ، ثم قال : « هؤلاء أهل بيتى » . قالت أم سلمة : فقلت : يا رسول اللّه، أدخلنى معهم . فقال : « أنت من أهلى » (٣) .

طريق أخرى : رواه ابن جرير أيضاً، عن أحمد بن محمد الطوسى ، عن عبد الرحمن بن صالح، عن محمد بن سليمان الأصبهانى ، عن يحيى بن عبيد المكى ، عن عطاء ، عن عمر بن أبى سلمة، عن أمه بنحو ذلك (٤) .

طريق أخرى : قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْبْ ، حدثنا مصعب بن المقدام ، حدثنا سعيد بن زربْى، عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة ، عن أم سلمة قالت : جاءت فاطمة إلى رسول اللّه ﷺ ببرْمَة لها قد صنعت فيها عَصيدَة تحملها على طبق ، فوضعتها بين يديه فقال : «أين ابن عمك وابناك ؟» فقالت : فى البيت . فقال : « ادعيهم » . فجاءت إلى على فقالت : أجبْ رسولَ اللّه أنت وابناك. قالت أم سلمة : فلما رآهم مقبلين مد يده إلى كساء كان على المنامة ، فمده وبسطه ، وأجلسهم عليه ، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله ، فضمه فوق رؤوسهم ، وأومأ بيده اليمنى إلى ربه ، عزوجل، فقال : «اللهم ، هؤلاء أهل بيتى ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » (٥) .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا عبد اللّه (٦) بن عبد القدوس ، عن الأعمش ، عن حكيم بن سعد قال : ذكرنا على بن أبى طالب عند أم سلمة ، فقالت : فى بيتى نزلت: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾. قالت أم سلمة : جاء رسول اللّه ﷺ إلى بيتى فقال : « لاتأذنى لأحد » . فجاءت فاطمة فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها . ثم جاء الحسن فلم أستطع أن أحجبه عن أمه وجده ، ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه ، ثم جاء على فلم أستطع أن أحجبه ، فاجتمعوا فَجَلّلهم رسول اللّه ﷺ بكساء كان عليه ، ثم قال : « هؤلاء أهل بيتى، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » . فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط . قالت : فقلت : يا رسول اللّه ، وأنا ؟ قالت : فواللّه ما أنعم ، وقال : «إنك إلى خير» (٧) .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثنا ابن وكِيع ، حدثنا محمد بن بشر (٨) ، عن زكريا ، عن مصعب ابن شيبة ، عن صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة ، رضى اللّه عنها : خرج رسول اللّه(٩) ﷺ ذات

(١) تفسير الطبرى (٢٢/٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣/ ٢٤٩) من طريق فضيل بن مرزوق به مختصراً .
(٢) تفسير الطبرى (٢٢/٦) ورواه الطحاوى فى مشكل الآثار برقم (٧٧٠) من طريق عبد الحميد بن بهرام، به . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣/ ٣٣٣) من طريق زبيد ، عن شهر بن حوشب ، عن أم سلمة .
(٣) تفسير الطبرى (٢٢/٧) ورواه الطحاوى فى مشكل الآثار برقم (٧٦٣) من طريق خالد بن مخلد القطوانى به .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣/ ٢٨٦) من طريق شريك ، عن عطاء ، عن أم سلمة .
(٥) تفسير الطبرى (٢٢/٧) .
(٦) فى أ : « عبد الملك » .
(٧) تفسير الطبرى (٢٢/٧) ورواه الطحاوى فى مشكل الآثار برقم (٧٦٢) من طريق جرير بن عبد الحميد ، عن الأعمش بنحوه .
(٨) فى أ : « بشير » . (٩) فى ف : « النبى » .

غداة، وعليه مِرْط مُرَحَّل من شَعْر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء على فأدخله معه، ثم قال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.

ورواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة عن محمد بن بشر (١)، به (٢).

طريق أخرى: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سُرَيج بن يونس أبو الحارث، حدثنا محمد ابن يزيد، عن العوام ـ يعنى: ابن حَوْشَب ـ عن عم له قال: دخلت مع أبى على عائشة، فسألتها عن على، رضى الله عنه، فقالت، رضى الله عنها: تسألنى عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه؟ لقد رأيت رسول الله ﷺ دعا عليا وفاطمة وحسنا وحسينا، فألقى عليهم ثوباً فقال: « اللهم، هؤلاء أهل بيتى، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قالت: فدنوت منه فقلت: يا رسول الله، وأنا من أهل بيتك؟ فقال: « تَنَحَّى، فإنك على خير ».

حديث آخر: قال ابن جرير حدثنا المثنى، حدثنا بكر (٣) بن يحيى بن زَبّان العَنَزِىّ، حدثنا مِنْدَل، عن الأعمش، عن عطية، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: « نزلت هذه الآية فى خمسة: فىّ، وفى على، وحسن، وحسين، وفاطمة: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾» (٤).

قد تقدم أن فضيل بن مرزوق رواه عن عطية، عن أبى سعيد، عن أم سلمة، كما تقدم.

وروى ابن أبى حاتم من حديث هارون بن سعد العِجْلى، عن عطية، عن أبى سعيد موقوفاً، فالله أعلم.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا ابن المثنى، حدثنا أبو بكر الحنفى، حدثنا بُكَيْر بن مسمار قال: سمعت عامر بن سعد قال: قال سعد: قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحى، فأخذ علياً وابنيه وفاطمة فأدخلهم تحت ثوبه، ثم قال: « رب، هؤلاء أهلى وأهل بيتى » (٥).

حديث آخر: وقال مسلم فى صحيحه: حدثنى زُهَير بن حرب، وشُجاع بن مَخْلَد جميعاً، عن ابن عُلَيَّة ـ قال زهير: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنى أبو حَيَّان، حدثنى يزيد بن حَيَّان قال: انطلقت أنا وحُصَين بن سَبْرَةَ وعمر بن مسلم (٦) إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً [رأيتَ رسول الله ﷺ وسمعتَ حديثه، وغزوتَ معه، وصليتَ خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً] (٧)؛ حَدِّثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ. قال: يا بن أخى، والله لقد

---

(١) فى أ: « بشير ».
(٢) تفسير الطبرى (٢٢/ ٥) وصحيح مسلم برقم (٢٠٨١).
(٣) فى ف: « بكير ».
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٥).
(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٢/ ٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٤٣٩) من طريق أبى بكر الحنفى، عن بكير بن مسمار، به.
(٦) فى ت، ف، أ: « سلمة ». (٧) زيادة من ت، ف، ومسلم.

كَبرَت [(١)] سنِّى، وقدم عهدى، ونسيتُ بعض الذى كنتُ أعى من رسول اللّه ﷺ، فما حدّثتكم فاقبلوا، وما لَا فلا تُكلّفونيه. ثم قال: قام فينا رسول اللّه ﷺ يوما خطيباً بماء يدعى خُما ـ بين مكة والمدينة ـ فحمد اللّه وأثنى عليه، ووعظ وذَكّر، ثم قال: « أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك [(٢)] أن يأتى رسول ربى فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، وأولهما كتاب اللّه، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب اللّه واستمسكوا به » . فَحَثّ على كتاب اللّه ورَغَّب فيه، ثم قال: «وأهل بيتى، أذَكّركم اللّه فى أهل بيتى، أذكركم اللّه فى أهل بيتى » ثلاثاً. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِمَ الصّدَقة بعده. قال: ومن هم؟ قال هم آل على، وآل عَقِيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حُرِمَ الصدقة؟ قال: نعم [(٣)] .

ثم رواه عن محمد بن بكّار بن الريّان، عن حسان بن إبراهيم، عن سعيد بن مسروق، عن يزيد ابن حيَّان [(٤)]، عن زيد بن أرقم، فذكر الحديث بنحو ما تقدم، وفيه: فقلنا له: من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا وايم اللّه، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعَصَبته الذين حُرموا الصدقة بعده [(٥)] .

هكذا وقع فى هذه الرواية، والأولى أولى، والأخذ بها أحرى. وهذه الثانية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين فى الحديث الذى رواه، إنما المراد بهم آله الذين حُرموا الصدقة، أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هم مع آله، وهذا الاحتمال أرجح؛ جمعا بينها وبين الرواية التى قبلها، وجمعا أيضاً بين القرآن والأحاديث المتقدمة إن صحت، فإن فى بعض أسانيدها نظراً، واللّه أعلم. ثم الذى لا يشكّ فيه من تَدبر القرآن أن نساء النبى ﷺ داخلات فى قوله: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾، فإن سياق الكلام معهن؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿ **وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ** ﴾ أى: اعملن بما ينزل اللّه على رسوله فى بيوتكن من الكتاب والسنة. قاله قتادة وغير واحد. واذكرن هذه النعمة التى خصصتن [(٦)] بها من بين الناس، أن الوحى ينزل فى بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة [الصديقة] [(٧)] بنت الصديق أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغَنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول اللّه ﷺ الوحىُ فى فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات اللّه وسلامه عليه [(٨)] . قال بعض العلماء، رحمه اللّه: لأنه لم يتزوج بكراً سواها، ولم ينم معها رجل فى فراشها سواه، فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه الرتبة العلية. ولكن إذا كان أزواجه من أهل

---

(١) فى أ « كبر » . (٢) فى ف: « فيوشك » .
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) .
(٤) فى أ: « حسان » .
(٥) صحيح مسلم برقم (٢٤٠٨) .
(٦) فى أ: « خصصتهن » . (٧) زيادة من أ. (٨) فى ت: « رسول اللّه ﷺ » .

بيته، فقرابته أحق بهذه التسمية، كما تقدم فى الحديث: « وأهل بيتى أحق ». وهذا يشبه ما ثبت فى صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم، فقال: « هو مسجدى هذا » (١). فهذا من هذا القبيل؛ فإن الآية إنما نزلت فى مسجد قُباء، كما ورد فى الأحاديث الأخر. ولكن إذا كان ذاك أسّسَ على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ أولَى بِتَسمِيَته بذلك، والله أعلم.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الوليد، حدثنا أبو عَوَانة، عن حُصَين بن عبد الرحمن، عن أبى جميلة (٢) قال: إن الحسن بن على استُخلفَ حين قُتل على، رضى الله عنهما(٣)، قال: فبينما هو يصلى إذ وثب عليه رجل فطعنه بخنجر وزعم حصين أنه بلغه أن الذى طعنه رجل من بنى أسد، وحسن ساجد قال: فيزعمون أن الطعنة وقعت فى وَركه، فمرض منها أشهراً، ثم برَأ فقعد على المنبر، فقال: يا أهل العراق، اتقوا الله فينا، فإنا أمراؤكم وضيفانكم، ونحن أهل البيت الذى قال الله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ قال: فما زال يقولها حتى ما بقى أحد من أهل المسجد إلا وهو يَحِنّ بكاء.

وقال السُّدِّى، عن أبى الديلم قال: قال على بن الحسين لرجل من أهل الشام: أما قرأت فى الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؟ قال: نعم، ولأنتم هم؟ قال: نعم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أى: بلطفه بكن بلغتن هذه المنزلة، وبخبرته (٤) بكن وأنكن أهل لذلك، أعطاكن ذلك وخصكن بذلك.

قال ابن جرير، رحمه الله: واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن فى بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك واحمدنه.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أى: ذا لطف بكن، إذ جعلكن فى البيوت التى تتلى فيها آياته والحكمة. وهى السنة، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً.

وقال قتادة: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ قال: يمتن عليهن بذلك. رواه ابن جرير.

وقال عطية العَوْفى فى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعنى: لطيف باستخراجها، خبير بموضعها. رواه ابن أبى حاتم، ثم قال: وكذا روى عن الربيع بن أنس، عن قتادة (٥).

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٣٩٨) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.
(٢) فى ت: « وروى ابن أبى حاتم بسنده ». (٣) فى ت، ف، أ: « عنه ». (٤) فى ت: « بمخبرته ».
(٥) فى ت: « وقتادة ».

وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا عثمان بن حكيم، حدثنا [١] عبد الرحمن بن شيبة، سمعت أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نُذكَرُ في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت [٢]: فلم يَرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسرّح شعري، فلففت شعري، ثم خرجت إلى حُجْرة من حُجَر بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: « يأيها الناس، إن الله يقول: إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات » إلى آخر الآية.

وهكذا رواه النسائي وابن جرير، من حديث عبد الواحد بن زياد، به مثله [٣].

طريق أخرى عنها: قال النسائي أيضاً: حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا سُوَيْد، أخبرنا عبد الله بن شَرِيك، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أم سلمة أنها قالت للنبي ﷺ: يا نبي الله، ما لي أسمع الرجال يذكرون في القرآن، والنساء لا يذكرن؟ فأنزل الله: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾[٤].

وقد رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن أبي معاوية، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة: أن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، حدثه عن أم سلمة، رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، أيذكر الرجال في كل شيء ولا نذكر؟ فأنزل الله: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**﴾ الآية [٥].

طريق أخرى: قال سفيان الثوري، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد قال: قالت أم سلمة: يا رسول الله، يذكر الرجال ولا نذكر؟ فأنزل الله: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**﴾ الآية.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب قال: حدثنا سَيَّار بن مظاهر العَنَزي [٦]، حدثنا أبو كُدَيْنة يحيى بن المهلَّب، عن قابوس بن أبي ظَبْيَان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال النساء للنبي ﷺ: ما له يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات؟ فأنزل الله: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**﴾ الآية [٧].

وحدثنا بشر [٨]، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد [٩]، عن قتادة قال: دخل نساء على نساء النبي ﷺ، فقلن: قد ذَكَركُنّ الله في القرآن، ولم نُذكَر بشيء، أما فينا ما يذكر؟ فأنزل الله، عز وجل: ﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**﴾ الآية [١٠].

---

(١) في ت: « وروى الإمام أحمد بإسناده عن ». (٢) في ف: « قال ».
(٣) المسند (٦/ ٣٠٥) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٠٥) وتفسير الطبري (٢٢/ ٩).
(٤) النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٠٤).
(٥) تفسير الطبري (٢٢/ ٨).
(٦) في ف، أ: « سنان بن مظاهر العمري ».
(٧) تفسير الطبري (٢٢/ ٨).
(٨) في ف، أ: « بشير ».
(٩) في ف، أ: « سعد ».
(١٠) تفسير الطبري (٢٢/ ٨).

فقوله: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه، لقوله[1] تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]. وفى الصحيحين: « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ». فيسلبه[2] الإيمان، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين، فدل على أنه أخص منه كما قررناه فى أول شرح البخارى.

[وقوله][3]: ﴿ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ﴾: القنوت: هو الطاعة فى سكون، ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [الروم: ٢٦]، ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣]، ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فالإسلام بعده مرتبة[4] يرتقى إليها، ثم القنوت ناشئ عنهما.

﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾: هذا فى الأقوال، فإن الصدق خَصلة محمودة؛ ولهذا كان بعض الصحابة لم تُجَرَّب عليه كِذْبة لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام[5]، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمارة على النفاق، ومن صدق نجا، « عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة. وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار. ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »[6] والأحاديث فيه كثيرة جداً.

﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾: هذه سَجِيّة الأثبات، وهى الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة، وتَلَقّى ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أى: أصعبه فى أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجية وثباتها.

﴿ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ﴾: الخشوع[7]: السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع. والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته، [كما فى الحديث][8]: « اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ».

﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ﴾: الصدقة: هى الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء، الذين لا كَسْبَ لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال[9] طاعة لله، وإحسانا إلى خلقه، وقد ثبت فى الصحيحين: « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله » فذكر منهم: « ورجل تصدق بصدقة

---

(١) فى أ: « كقوله ». (٢) فى ت، ف، أ: « فسلبه ». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: « قربة ». (٥) فى ت، ف: « جاهلية ولا إسلام ».
(٦) فى ت، ف، أ: « أتى بعجز الحديث وأخر صدره ». (٧) فى ت، ف، أ: « أى ».
(٨) زيادة من ت، ف، أ. (٩) فى أ: « الأعمال ».

فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »(١) . وفى الحديث الآخر : « والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار » (٢) .

[وفى الترمذى عن أنس بن مالك ،رضى اللّه عنه ،عن النبى ﷺ ،قال :« إن الصدقة تطفئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء » .

وفى الصحيحين عن عدى بن حاتم قال :قال رسول اللّه ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ،ليس بينه وبينه ترجمان ،فينظر أيمن منه ،فلا يرى إلا ما قدم ،وينظر أشأم منه ،فلا يرى إلا ما قدم،وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه .فاتقوا النار ولو بشق تمرة » .

وفى حديث أبى ذر أنه قال :سألت رسول اللّه ﷺ ماذا ينجى العبد من النار ؟قال :« الإيمان باللّه» .قلت :يا نبى اللّه ،مع الإيمان عمل ؟ قال :« ترضخ مما خولك اللّه » ،أو :« ترضخ مما رزقك اللّه » ؛ولهذا لما خطب النبى ﷺ يوم العيد قال فى خطبته :« يا معشر النساء تصدقن ولو من حليكن،فإنى رأيتكن أكثر أهل النار » .وكأنه حثهن ورغبهن على ما يفدين به أنفسهن من النار ،وقال عمر بن الخطاب ،رضى اللّه عنه : ذكر لى أن الأعمال تتباهى ،فتقول الصدقة :أنا أفضلكم .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال :ضرب رسول اللّه ﷺ ،مثل البخيل والمتصدق ،كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ،أو جنتان من حديد .قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما ،فجعل المتصدق ،كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه ،حتى تغشى أنامله ،وتعفو أثره ،وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت ،وأخذت كل حلقة مكانها . قال أبو هريرة :فأنا رأيت رسول اللّه ﷺ يقول بإصبعه هكذا فى جيبه .فلو رأيته يوسعها ولا يتسع .وقد قال تعالى : ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [التغابن : ١٦] . فجود الرجل يحببه إلى أضداده ،وبخله يبغضه إلى أولاده . كما قيل:

ويظهر عيبَ المرء فى الناس بخلُه وتستره عنهم جميعا سخاؤه

تعط بأثواب السخاء فإننى أرى كل عيب والسخاء غطاؤه] (٣)

والأحاديث فى الحث عليها كثيرة جداً ، له موضع بذاته .

﴿**وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ**﴾: فى الحديث الذى رواه ابن ماجه : « والصوم زكاة البدن » أى : تزكيه وتطهره وتنقيه من الأخلاط الرديئة طبعا وشرعا .

قال (٤) سعيد بن جبير :من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر ، دخل فى قوله : ﴿**وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ**﴾ .

---

(١) صحيح البخارى برقم (١٤٢٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١) .

(٢) رواه الترمذى فى السنن برقم (٦١٤) من حديث كعب بن عجرة ،رضى اللّه عنه ، وقال :« هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه». ورواه أحمد فى المسند ٣/ ٣٢١ من حديث جابر بن عبد اللّه ،رضى الله عنه ،ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦١٦) وابن ماجة فى السنن برقم (٣٩٧٣) من حديث معاذ ،رضى اللّه عنه .

(٣) زيادة من ت . (٤) فى أ : « كما قال » .

ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة ـ كما قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغضّ للبصر ،وأحصن للفرج ،ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » [(١)] ـ ناسب أن يذكر بعده : ﴿ **وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ** ﴾أى :عن المحارم والمآثم إلا عن المباح ،كما قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ** ﴾[المؤمنون : ٥ ـ ٧].

وقوله : ﴿ **وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ** ﴾: قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ،حدثنا هشام بن عبيد الله ،حدثنا محمد بن جابر ،عن على بن الأقمر ،عن الأغرّ أبى مسلم [(٢)] ،عن أبى سعيد الخدرى ،رضى الله عنه ،أن رسول الله ﷺ قال :« إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل ،فصليا ركعتين ،كتبا [(٣)] تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » .

وقد رواه أبو داود ،والنسائى ،وابن ماجه ،من حديث الأعمش، [عن على بن الأقمر] [(٤)] ، عن الأغر أبى مسلم ،عن أبى سعيد وأبى هريرة ،عن النبى ﷺ ،بمثله [(٥)] .

وقال[(٦)] الإمام أحمد :حدثنا حسن ،حدثنا ابن لَهيعة ،حدثنا دَرَّاج ،عن أبى الهيثم ،عن أبى سعيد الخُدْرى ،رضى الله عنه ،أنه قال :قلت :يا رسول الله ،أى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال :« الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » .

قال : قلت : يا رسول الله ،ومن الغازى فى سبيل الله ؟ قال :« لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله أفضل منه » [(٧)] .

وقال[(٨)] الإمام أحمد :حدثنا عفان ،حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم ،عن العلاء ،عن أبيه ،عن أبى هريرة ،رضى الله عنه ،قال :كان النبى ﷺ يسير فى طريق مكة ،فأتى على جُمْدان فقال : « هذا جُمْدان ،سيروا فقد سبق المُفَرِّدون » .قالوا :وما المُفَرِّدون [(٩)] ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً [(١٠)]» . ثم قال : « اللهم اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « اللهم ، اغفر للمحلقين » . قالوا: والمقصرين ؟ قال : « والمقصرين » .

تفرد به من هذا الوجه ،ورواه مسلم دون آخره [(١١)] .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٦) وصحيح مسلم برقم (١٤٠٠) .

(٢) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده ». (٣) فى ت ، أ : « كانا » .

(٤) زيادة من ت ، ف ، وسنن أبى داود وابن ماجه .

(٥) سنن أبى داود برقم (١٣٠٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٠٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٣٥) .

(٦) فى ت : « وروى » .

(٧) المسند (٣/ ٧٥) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى ف ، أ : « وما المفردون يا رسول الله ؟ » .

(١٠) فى ف ، أ : « الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » .

(١١) المسند (٢/ ٤١١) وصحيح مسلم برقم (١٣٠٢) وإنما رواه مسلم دون أوله ،والله أعلم .

وقال (١) الإمام أحمد : حدثنا حُجَين بن المثنى ،حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة ،عن زياد بن أبى زياد ـ مولى عبد الله ابن عَيَّاش (٢) بن أبى ربيعة ـ أنه بلغه عن معاذ بن جبل ،رضى الله عنه،أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « ما عمل آدمى عملا قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله».وقال معاذ:قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخير أعمالكم ،وأزكاها عند مليككم ،وأرفعها فى درجاتكم،وخير لكم من تعاطى الذهب والفضة ،ومن أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم » ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « ذكر الله ، عز وجل » (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ،حدثنا ابن لَهِيعة ، حدثنا زَبَّان بن فائد ،عن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَنىّ ، عن أبيه،عن رسول الله ﷺ : أن رجلا سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ فقال : « أكثرهم (٤) لله ذكراً ».قال : فأى الصائمين أكثر أجراً ؟ قال : « أكثرهم لله ذكرا».ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك يقول رسول الله ﷺ : « أكثرهم لله ذكراً».فقال أبو بكر لعمر ،رضى الله عنهما :ذهب الذاكرون بكل خير .فقال رسول الله ﷺ : «أجل» (٥) .

وسنذكر بقية الأحاديث الواردة فى كثرة الذكر عند قوله تعالى فى هذه السورة : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيراً . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا**﴾ الآية [الأحزاب : ٤١، ٤٢] ،إن شاء الله تعالى.

وقوله : ﴿**أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ أى : هيأ لهم (٦) منه لذنوبهم مغفرة وأجرًا عظيماً وهو الجنة .

﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦)** ﴾.

قال العوفى ،عن ابن عباس :قوله :﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ**﴾ الآية ،وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة ،فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها ،فقالت : لست بناكحته ،فقال رسول الله ﷺ : « بل فانكحيه » .قالت :يا رسول الله ،أؤامر فى نفسى . فبينما هما يتحادثان أنزل الله هذه الآية على رسوله ﷺ : ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا**﴾ الآية ،قالت :قد رضيته لى منكحا يا رسول الله ؟ قال : «نعم».قالت :إذاً لا أعصى رسول الله ﷺ ،قد أنكحته نفسى (٧) .

---

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى ف ، أ: « عباس ».

(٣) المسند (٥/٢٣٩) .

(٤) فى أ : « أكثركم » .

(٥) المسند (٣/٤٣٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٧٤) :« وفيه زبان بن فائد وهو ضعيف ،وقد وثق ،وكذلك ابن لهيعة ، وبقية رجاله ثقات » .

(٦) فى ت ، ف : « أعد لهم » .

(٧) تفسير الطبرى (٢٢/٩) .

وقال ابن لَهِيعة ،عن ابن أبى عمرة ،عن عكرمة ،عن ابن عباس قال :خطب رسول اللّه ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ،فاستنكفت منه ،وقالت :أنا خير منه حسبا ـ وكانت امرأة فيها حدة ـ فأنزل اللّه ،عز وجل :﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ** ﴾ الآية كلها .

وهكذا قال مجاهد ،وقتادة ،ومقاتل بن حيان :أنها نزلت فى زينب بنت جحش [الأسدية] (١) حين خطبها رسول اللّه ﷺ على مولاه زيد بن حارثة ،فامتنعت ثم أجابت .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ،نزلت فى أم كلثوم (٢) بنت عقبة بن أبى مُعَيْط ،وكانت أول من هاجر من النساء ـ يعنى : بعد صلح الحديبية ـ فوهبت نفسها للنبى ﷺ ،فقال :قد قبلت . فزوجها زيد بن حارثة ـ يعنى واللّه أعلم بعد فراقه زينب ـ فسخطت هى وأخوها وقالا :إنما أردنا رسول اللّه ﷺ فزوّجَنا عبده . قال :فنزل القرآن : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا** ﴾ إلى آخر الآية . قال :وجاء أمر أجمع من هذا :﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾ قال : فذاك خاص وهذا جمَاع .

وقال (٣) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ،أخبرنا مَعْمَر ،عن ثابت البُنَانى ،عن أنس قال : خطب النبى ﷺ على جُلَيْبيب امرأة من الأنصار إلى أبيها ،فقال :حتى أستأمر أمها .فقال النبى ﷺ:فنعم (٤) إذاً .قال :فانطلق الرجل إلى امرأته ، [فذكر ذلك لها] (٥) ،فقالت :لاها اللّه ذا(٦)،ما وجد رسول اللّه ﷺ إلا جلَيبيبا ،وقد منعناها من فلان وفلان ؟ قال :والجارية فى سترها (٧) تسمع.قال :فانطلق الرجل يريد أن يخبر النبى ﷺ بذلك .فقالت الجارية :أتريدون أن تَرُدّوا على رسول اللّه ﷺ أمره ؟إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه .قال :فكأنها جَلَّت عن أبويها ،وقالا : صدقت.فذهب أبوها إلى رسول اللّه ﷺ فقال : إن كنت رضيته فقد رضيناه .قال :« فإنى قد رضيته».قال:فزوجها (٨) ،ثم فزع أهل المدينة ،فركب جُلَيْبيب فوجدوه قد قتل ،وحوله ناس من المشركين قد قتلهم ،قال أنس :فلقد رأيتها [وإنها] (٩) لمن أنفق بيت بالمدينة (١٠) .

وقال (١١) الإمام أحمد :حدثنا عفان ،حدثنا حماد ـ يعنى :ابن سلمة ـ عن ثابت ،عن كنانة بن نعيم العدوى ،عن أبى برزة الأسلمى أن جليبيبا كان امرأ يدخل على النساء يَمُرّ بهن ويلاعبهن،فقلت لامرأتى: لا يدخلن اليوم عليكم (١٢) جُليبيبُ ،فإنه إن دخل عليكم (١٣) لأفعلن ولأفعلن . قال:وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيّم لم يزوجها حتى يعلم : هل لنبى اللّه ﷺ فيها حاجة أم لا . فقال رسول اللّه ﷺ لرجل من الأنصار :« زوجنى ابنتك » .قال :نعم ،وكرامة يا رسول اللّه(١٤)،ونُعْمَة عين .فقال :إنى لست أريدها لنفسى .قال :فلمن يارسول اللّه ؟ قال : لجليبيب.

(١) زيادة من أ .
(٢) فى أ : « أم مكتوم » .
(٣) فى ت : « وروى » .
(٤) فى ف :« لنعم » .
(٥) زيادة من ت ، ف ، والمسند .
(٦) فى هـ ، أ : « إذا » والمثبت من ت ، ف والنهاية لابن الأثير .
(٧) فى ت : « خدرها » .
(٨) فى أ : « فتزوجها » .
(٩) زيادة من ت ، ف ، والمسند .
(١٠) المسند (٣/١٣٦) .
(١١) فى ت : « وروى » .
(١٢ ، ١٣) فى أ : « عليكن » .
(١٤) فى أ : « برسول اللّه »

فقال: يا رسول الله، أشاور أمها. فأتى أمها فقال: رسول الله ﷺ يخطب ابنتك؟ فقالت: نعم ونُعمة عين. فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه، إنما يخطبها لجليبيب. فقالت: أَجُلَيبيب إنيه (١)؟ أجليبيب إنيه(٢)؟ لا، لعمر الله لا تزَوّجُه. فلما أراد أن يقوم ليأتى رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها، قالت الجارية: من خطبنى إليكم؟ فأخبرتها أمها. قالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟! ادفعونى إليه، فإنه لن يضيعنى. فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: شأنَك بها. فَزَوّجها جليبيبا. قال: فخرج رسول الله ﷺ فى غزاة له، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه: « هل تفقدون من أحد »؟ قالوا: نفقد فلانا ونفقد فلانا. قال: « انظروا هل تفقدون من أحد؟ » قالوا: لا. قال: « لكنى أفقد جليبيبا». قال: « فاطلبوه فى القتلى ». فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه. [فقالوا: يا رسول الله، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه] (٣). فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه، فقال: قتل سبعة [وقتلوه] (٤)، هذا منى وأنا منه. مرتين أو ثلاثا، ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه [وحفر له، ما له سرير إلا ساعد النبى ﷺ] (٥). ثم وضعه فى قبره، ولم يذكر أنه غسله، رضى الله عنه. قال ثابت: فما كان فى الأنصار أيّم أنفق منها. وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة ثابتا: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ؟ فقال: « اللهم، صب عليها [الخير] (٦) صبا، ولا تجعل عيشها كدّا » كذا قال، فما كان فى الأنصار أيم أنفق منها.

هكذا أورده الإمام أحمد بطوله (٧)، وأخرج منه مسلم والنسائى فى الفضائل قصة قتله(٨).

وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر فى « الاستيعاب » أن الجارية لما قالت فى خدرها: أتردون على رسول الله ﷺ أمره؟ تلت (٩) هذه الآية: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾(١٠).

وقال ابن جُرَيْج [أخبرنى عامر بن مصعب، عن طاوس قال: إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر، فنهاه، وقرأ ابن عباس، رضى الله عنه (١١): ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ** (١٢) **لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾] (١٣).

فهذه الآية عامة فى جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشىء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأى ولا قول، كما قال تعالى: ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥]، وفى الحديث: « والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ». ولهذا شدد فى خلاف ذلك، فقال: ﴿ **وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴾، كقوله تعالى: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور: ٦٣].

(١، ٢) فى هـ، ت، ف، أ: « ابنه » والتصويب من المسند. (٣، ٤، ٥، ٦) زيادة من ت، ف، والمسند.
(٧) المسند (٤/٤٢٢).
(٨) صحيح مسلم برقم (٢٤٨٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٢٤٦).
(٩) فى أ: « نزلت ».
(١٠) الاستيعاب (١/٢٥٩).
(١١) فى أ: « عنهما ». (١٢) فى ت: « تكون ». (١٣) زيادة من ت، ف، أ.

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ،صلوات اللّه وسلامه عليه ،أنه قال لمولاه زيد بن حارثة وهو الذى أنعم اللّه عليه ،أى :بالإسلام ومتابعة الرسول ،عليه أفضل الصلاة والسلام : ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ أى : بالعتق من الرق ،وكان سيدا كبير الشأن جليل القدر ،حبيباً إلى النبى ﷺ ،يقال له:الحِبّ ،ويقال لابنه أسامة:الحِبّ ابن الحِبّ .قالت عائشة ،رضى اللّه عنها :ما بعثه رسول اللّه ﷺ فى سرية إلا أمره عليهم ،ولو عاش بعده لاستخلفه . رواه أحمد عن سعيد بن محمد الوراق ومحمد بن عبيد ،عن وائل بن داود ،عن عبد اللّه البهى عنها (١) .

وقال(٢) البزار :حدثنا خالد بن يوسف ،حدثنا أبو عَوَانة (ح) ،وحدثنا محمد بن مَعْمَر ،حدثنا أبو داود ،حدثنا أبو عوانة ،أخبرنى عمران بن أبى سلمة (٣)،عن أبيه :حدثنى أسامة بن زيد قال:كنت فى المسجد ،فأتانى العباس وعلى بن أبى طالب ،رضى اللّه عنهما ،فقالا :يا أسامة ،استأذن لنا على رسول اللّه ﷺ .قال :فأتيتُ رسولَ اللّه فأخبرته ،فقلت :على والعباس يستأذنان ؟فقال : «أتدرى ما حاجتهما ؟» فقلت :لا يا رسول اللّه .فقال :« لكنى أدرى » ،قال :فأذن لهما . قالا:يا رسول اللّه ،جئناك لتخبرنا :أىُّ أهلك أحبُّ إليك ؟ فقال :« أحب أهلى إلى فاطمة بنت محمد» ، قالا :يارسول اللّه ،ما نسألك عن فاطمة .قال: « فأسامة بن زيد بن حارثة ،الذى أنعم اللّه عليه وأنعمت عليه » (٤) .

وكان رسول اللّه ﷺ قد زَوّجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية ـ وأمها أميمة (٥) بنت عبد المطلب ـ وأصدقها عشرة دنانير ،وستين درهماً ،وخمارا ،وملْحَفَة ،ودرْعاً ،وخمسين مُدّا من طعام،وعشرة أمداد من تمر .قاله مقاتل بن حيان ،فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها ،ثم وقع بينهما،فجاء زيد يشكوها إلى رسول اللّه ﷺ ،فجعل رسول اللّه ﷺ يقول له :« أمسك عليك زوجك،واتق اللّه » .قال اللّه تعالى : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾.

ذكر ابن جرير ،وابن أبى حاتم هاهنا آثاراً عن بعض السلف ،رضى اللّه عنهم ،أحببنا أن نضرب

(١) المسند (٦/ ٢٢٧) .

(٢) فى ت : « وروى » .

(٣) فى ت ، ف ، أ ، هـ : « عمر بن أبى سلمة » ، والصواب ما أثبتناه .

(٤) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٨١٩) من طريق أبى عوانة بنحوه ،وقال الترمذى :« حديث حسن صحيح » .

(٥) فى ت : « أمية » .

عنها صَفحا لعدم صحتها فلا نوردها .

وقد روى الإمام أحمد هاهنا أيضاً حديثاً ،من رواية حماد بن زيد ،عن ثابت ،عن أنس فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً (١) .

وقد روى البخارى أيضاً بعضه مختصراً فقال :حدثنا محمد بن عبد الرحيم ،حدثنا مُعَلَّى (٢) بن منصور ،عن حماد بن زيد ،حدثنا ثابت ،عن أنس بن مالك قال :إن هذه الآية : ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ**﴾ نزلت فى شأن زينب بنت جحش ،وزيد بن حارثة،رضى اللّه عنهما (٣) .

وقال (٤) ابن أبى حاتم :حدثنا أبى ،حدثنا على بن هاشم بن مرزوق ،حدثنا ابن عيينة ،عن على ابن زيد بن جُدْعان قال :سألنى على بن الحسين ما يقول الحسن فى قوله :﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ** [**وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ**](٥)﴾ ؟ فذكرت له فقال:لا،ولكن اللّه أعلم نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ،فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال :اتق اللّه ،وأمسك عليك زوجك .فقال :قد أخبرتك أنى مُزَوِّجكها،وتخفى فى نفسك ما اللّه مبديه .

وهكذا رُوى عن السُّدِّى أنه قال نحو ذلك .

وقال (٦) ابن جرير :حدثنى إسحاق بن شاهين ،حدثنى خالد ،عن داود عن عامر ،عن عائشة،رضى اللّه عنها ،أنها قالت :لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب اللّه،لكتم : ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ** ﴾ (٧) .

وقوله : ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا**﴾: الوطر :هو الحاجة والأرب ،أى :لما فَرَغ منها،وفارقها ، زَوّجناكها ،وكان الذى وَلِى تزويجها منه هو اللّه،عز وجل ،بمعنى :أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولى ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر .

قال (٨) الإمام أحمد :حدثنا هاشم ـ يعنى :ابن القاسم أبو النضر ـ حدثنا سليمان بن المغيرة،عن ثابت ،عن أنس ،رضى اللّه عنه ،قال :لما انقضت عدة زينب قال رسول اللّه ﷺ لزيد بن حارثة : «اذهب فاذكرها على» .فانطلق حتى أتاها وهى تُخَمِّر عَجينها ،قال :فلما رأيتها عظمت فى صدرى ـ حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ـ أنّ رسول اللّه ﷺ ذكرها ،فوليتها ظهرى ونكصت (٩) على عقبى،وقلت :يا زينب ،أبشرى ،أرسلنى رسول اللّه ﷺ يذكرك .قالت :ما أنا بصانعة شيئاً حتى

---

(١) الحديث فى المسند (٣/١٤٩) والغرابة من قوله :« فرأى رسول اللّه ﷺ امرأته زينب وكأنه دخله » .فقد شك مؤمل فى الرواية ،وهو سيئ الحفظ .

(٢) فى أ : « يعلى » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٧) .

(٤) فى ت : « وروى » . (٥) زيادة من ف . (٦) فى ت : « وروى » .

(٧) تفسير الطبرى (٢٢/١١) وأصله فى الصحيح بلفظ :« من حدثك بثلاث » .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى ف ، أ :« وركضت » .

أؤامر ربى، عز وجل . فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن. ولقد رأيتنا حين دَخَلْتُ على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ [واتبعته] [١] فجعل يتتبع حُجر نسائه يسلم عليهن ، ويقلن : يا رسول الله ، كيف وجدت أهلك ؟ فما أدرى أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر. قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه، فألقى الستر بينى وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به : ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إلا أَن يُؤْذَنَ لَكُم﴾ الآية .

ورواه مسلم والنسائى من طرق ، عن سليمان [٢] بن المغيرة ، به [٣] .

وقد روى البخارى ، رحمه الله ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ فتقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات [٤] .

وقد قدمنا فى« سورة النور » عن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت زينب وعائشة، فقالت زينب ، رضى الله عنها [٥] : أنا التى نزل تزويجى من السماء ، وقالت عائشة : أنا التى نزل عُذْرى من السماء ، فاعترفت لها زينب ، رضى الله عنها [٦] .

وقال [٧] ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن المغيرة ، عن الشعبى قال : كانت زينب تقول للنبى ﷺ : إنى لأدل عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدل بهن : إن جدى وجدك واحد ، وإنى أنكحنيك الله من السماء ، وإن السفير جبريل عليه السلام [٨] .

وقوله : ﴿لِكَيلا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أى : إنما أبحنا لك تزويجها وفعلنا ذلك ؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين فى تزويج مطلقات الأدعياء ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة ، فكان يقال له :« زيد بن محمد » ، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ ، ثم زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة ؛ ولهذا قال فى آية التحريم : ﴿وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُم﴾ [النساء : ٢٣] ليحترز من الابن الدَّعِى ؛ فإن ذلك كان كثيرا فيهم .

وقوله :﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ أى : وكان هذا الأمر الذى وقع قد قدره الله تعالى وحتّمه ، وهو كائن لا محالة ، كانت زينب فى علم الله ستصير من أزواج النبى ﷺ .

---

(١) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند . (٢) فى أ : « سليم » .
(٣) المسند (٣/ ١٩٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٨) وسنن النسائى (٦/ ٧٩) .
(٤) صحيح البخارى برقم (٧٤٢٠) .
(٥) فى ت : « عنهما » .
(٦) عند الآية : ١١ .
(٧) فى ت : « وروى » .
(٨) تفسير الطبرى (٢٢/ ١١) .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) ﴾.

يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أى: فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التى طلقها دَعِيه زيد بن حارثة.

وقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ أى: هذا حكم الله فى الأنبياء قبله، لم يكن ليأمرهم بشىء وعليهم فى ذلك حَرَج، وهذا رَدٌّ على من تَوَهَّم من المنافقين نقصاً فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودَعِيه، الذى كان قد تبناه.

﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ أى: وكان أمره الذى يقدره كائناً لا محالة، وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل، فما شاء [الله] (١) كان، وما لم يشأ لم يكن.

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾.

يمدح تعالى (٢): ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾ أى: إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها، ﴿ وَيَخْشَوْنَهُ ﴾ أى: يخافونه ولايخافون أحداً سواه فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أى: وكفى بالله ناصراً ومعيناً. وسيد الناس فى هذا المقام ـ بل وفى كل مقام ـ محمد رسول الله ﷺ؛ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب، إلى جميع أنواع بنى آدم، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع، فإنه قد كان النبى يبعث (٣) إلى قومه خاصة، وأما هو، صلوات الله عليه، فإنه بُعث إلى جميع الخلق عَرَبهم وعجمهم، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه، رضى الله عنهم، بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله، فى ليله ونهاره، وحَضره وسفره، وسره وعلانيته، فرضى الله عنهم وأرضاهم. ثم ورثه كُل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا، فبنورهم يقتدى المهتدون، وعلى منهجهم يسلك الموفقون. فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم.

قال (٤) الإمام أحمد: حدثنا ابن نُمَيْر، أخبرنا الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبى البَخْتَرى، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحْقِرَنّ أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ثم لا (٥) يقوله، فيقول الله: ما يمنعك أن تقول فيه؟ فيقول: رب، خشيت الناس. فيقول: فأنا أحق أن يخشى (٦)».

---

(١) زيادة من ت.

(٢) فى ت، ف: «يمدح الله تعالى»، وفى أ: «يمدح الله عز وجل».

(٣) فى ت، ف، أ: «وكان النبى قبله إنما يبعث».

(٤) فى ت: «روى».

(٥) فى ت: «أن لا».

(٦) فى أ: «يخشاه».

ورواه أيضاً عن عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن زبيد ، عن عمرو بن مرة (١) .

ورواه ابن ماجه ، عن أبى كُرَيْب ، عن عبد الله بن نمير وأبى معاوية ، كلاهما عن الأعمش ، به(٢) .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُم ﴾ ، نهى (٣) [تعالى] (٤) أن يقال بعد هذا: « زيد بن محمد » أى : لم يكن أباه وإن كان قد تبناه ، فإنه ، صلوات الله عليه وسلامه ، لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ؛ فإنه ولد له القاسم ، والطيب ، والطاهر ، من خديجة فماتوا صغارا ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضا رضيعا (٥) ، وكان له من خديجة أربع بنات : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، رضى الله عنهم (٦) أجمعين ، فمات فى حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به ، صلوات الله وسلامه عليه ، ثم ماتت بعده لستة أشهر .

وقوله : ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ ، كقوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] فهذه الآية نص فى (٧) أنه لا نبى بعده ، وإذا كان لا نبى بعده فلا رسول [بعده] (٨) بطريق الأولى والأحرى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبى ، ولا ينعكس . وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر الأزدى ، حدثنا زُهَيْر بن محمد ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبىّ بن كعب(٩) ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : « مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع لَبِنة لم يَضَعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ، ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ! فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة » .

ورواه الترمذى ، عن بُنْدَار ، عن أبى عامر العقدى ، به (١٠) ، وقال : حسن صحيح .

حديث آخر : قال (١١) الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا المختار بن فُلفُل ، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدى ولا نبى » . قال : فشَقّ ذلك على الناس قال: قال(١٢): « ولكن المبشرات » . قالوا : يا رسول الله ، وما المبشرات ؟ قال : « رؤيا الرجل المسلم ، وهى جزء من أجزاء النبوة » .

وهكذا روى الترمذى عن الحسن بن محمد الزعفرانى ، عن عفان بن مسلم ، به(١٣) . وقال : صحيح غريب من حديث المختار بن فُلفُل .

---

(١) المسند (٣/ ٣٠ ، ٧٣) .
(٢) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٠٨) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٤٢) : « هذا إسناد صحيح » .
(٣) فى أ : « ينهى » . (٤) زيادة من أ . (٥) فى أ : « أيضا صغيرا رضيعا » .
(٦) فى أ : « عنهن » . (٧) فى أ : « على » . (٨) زيادة من أ .
(٩) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبى بن كعب » .
(١٠) المسند (٥/ ١٣٦) وسنن الترمذى برقم (٣٦١٣) .
(١١) فى ت : « وروى » . (١٢) فى ت ، ف ، أ : « فقال » .
(١٣) المسند (٣/ ٢٦٧) وسنن الترمذى برقم (٢٢٧٢) .

حديث آخر: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا سَليم بن حَيَّان، عن سعيد بن ميناء، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: « مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لَبنة، فكان من دخلها فنظر إليها قال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة! فأنا موضع اللبنة، ختم بى الأنبياء، عليهم السلام ».

ورواه البخارى، ومسلم، والترمذى، من طرق، عن سليم (١) بن حيان، به (٢). وقال الترمذى: صحيح غريب من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: مثلى ومثل النبيين [من قبلى] (٣) كمثل رَجُل بنى داراً فأتمها إلا لَبنَة واحدة، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة ». انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش، به (٤).

حديث آخر: قال [الإمام] (٥) أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عثمان بن عُبَيد الراسبى قال: سمعت أبا الطفيل قال: قال رسول الله ﷺ: « لا نبوة بعدى إلا المبشرات». قال: قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: « الرؤيا الحسنة ـ أو قال ـ: الرؤيا الصالحة» (٦).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن هَمَّام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة (٧) قال: قال رسول الله ﷺ: « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل ابتنى بيوتا فأحسنها وأكملها وأجملها، إلا موضع لَبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون: ألا وَضَعت هاهنا لبنة فيتم بنيانك؟! » قال رسول الله ﷺ: « فكنت أنا اللبنة ».

أخرجاه من حديث عبد الرزاق (٨).

حديث آخر: عن أبى هريرة أيضا: قال (٩) الإمام مسلم: حدثنا يحيى بن أيوب (١٠) وقتيبة وعلى ابن حجر قالوا: حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: « فُضلت على الأنبياء بست: أعْطِيتُ جوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرعب، وأحِلَّت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون ».

---

(١) فى ف: « سليمان ».

(٢) مسند الطيالسى برقم (١٧٨٥) وصحيح البخارى برقم (٣٥٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٧) وسنن الترمذى برقم (٢٨٦٢).

(٣) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٤) المسند (٣/ ٩) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٦).

(٥) زيادة من أ.

(٦) المسند (٥/ ٤٥٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٧٣): « ورجاله ثقات ».

(٧) فى ت: « وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، رضى الله عنه ».

(٨) المسند (٢/ ٣١٢) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٦) ولم أجده فى البخارى ولم يعزه المزى فى تحفة الأشراف إلا لمسلم.

(٩) فى ت: « وروى ».

(١٠) فى أ: « يعقوب ».

ورواه الترمذى وابن ماجه، من حديث إسماعيل بن جعفر، وقال الترمذى: حسن صحيح[(١)].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى، كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا موضع لبنة واحدة، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة ».

ورواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة، وأبى كُرَيْب، كلاهما عن أبى معاوية، به[(٢)].

حديث آخر: قال[(٣)] الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سُويد الكلبى، عن عبد الأعلى بن هلال السلمى، عن العِرْباض بن سارية قال: قال النبى ﷺ: « إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنْجَدِل فى طينته »[(٤)].

حديث آخر: قال[(٥)] الزهرى: أخبرنى محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن لى أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب الذى ليس بعده[(٦)] نبى». أخرجاه فى الصحيحين[(٧)].

وقال[(٨)] الإمـام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهيعة، عن عبد الله بن هُبَيْرة، عن عبد الرحمن بن جبير قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ يوما كالمودّع، فقال: « أنا محمد النبى الأمى ـ ثلاثا ـ ولا نبى بعدى: أوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه، وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش، وتجوز بى، وعُوفيتُ وعُوفيتُ[(٩)] أمتى؛ فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم، فإذا ذُهب بى فعليكم بكتاب الله، أحلّوا حلاله، وحرّموا حرامه ». تفرد به الإمام أحمد[(١٠)].

ورواه[(١١)] [الإمام][(١٢)] أحمد أيضا عن يحيى بن إسحاق، عن ابن لَهيعة، عن عبد الله بن هبيرة، عن عبد الله بن مريح[(١٣)] الخولانى، عن أبى قيس ـ مولى عمرو بن العاص ـ عن عبد الله بن عمرو فذكر مثله سواء[(١٤)][(١٥)].

والأحاديث فى هذا كثيرة، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد، صلوات الله وسلامه عليه، إليهم، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له. وقد أخبر تعالى فى كتابه، ورسوله فى السنة المتواترة عنه: أنه لا نبى بعده؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده

---

(١) صحيح مسلم برقم (٥٢٣) وسنن الترمذى برقم (١٥٥٣) وسنن ابن ماجة برقم (٥٦٧).
(٢) تقدم الحديث من قريب.
(٣) فى ت: « وروى ».
(٤) المسند (٤/١٢٧).
(٥) فى ت: « وقال ». (٦) فى أ: « بعدى ».
(٧) صحيح البخارى برقم (٣٥٣٢) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٤).
(٨) فى ت: « وروى ». (٩) فى ت: « وعرفت ».
(١٠) المسند (٢/١٧٢) وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.
(١١) فى ف: « وحدثنى ». (١٢) زيادة من ف، أ. (١٣) فى أ: « سريح ».
(١٤) فى أ: « سواه ».
(١٥) المسند (٢/١٧٢) وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

فهو كذاب أفاك ،دجال ضال مضل ،ولو تخرق (١) وشعبذ ،وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنَيرجيَّات(٢) ،فكلها محال وضلال عند أولى الألباب ،كما أجرى الله ،سبحانه وتعالى، على يد الأسود العَنْسى باليمن ،ومسيلمة الكذاب باليمامة ،من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ،ما علم كل ذى لب وفهم وحجًى أنهما كاذبان ضالان ،لعنهما الله .وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ،[فكل واحد من هؤلاء الكذابين] (٣) يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من (٤) جاء بها .وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه ،فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق ،أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره،ويكون فى غاية الإفك والفجور فى أقوالهم وأفعالم ، كما قال تعالى :﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الآية [الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢].وهذا بخلاف الأنبياء ،عليهم السلام،فإنهم فى غاية البر والصدق (٥) والرشد والاستقامة [والعدل] (٦) فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه ،مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات،والأدلة الواضحات ،والبراهين الباهرات ،فصلوات الله وسلامه عليهم دائما مستمراً ما دامت الأرض والسموات .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) ﴾ .

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تعالى،المنعم عليهم بأنواع النعم وأصناف (٧) المنن ،لما لهم فى ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب .

قال الإمام أحمد :حدثنا يحيى بن سعيد ،عن عبد الله بن سعيد (٨) ،حدثنى مولى ابن عياش(٩) عن أبى بَحرية (١٠) ، عن أبى الدرداء ،رضى الله عنه ،قال: قال رسول الله ﷺ :« ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ،وأرفعها فى درجاتكم ،وخير لكم من إعطاء الذهب والوَرِق ،وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟»قالوا :وما هو يا رسول الله ؟ قال : «ذكر الله ،عزوجل ».

وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه ،من حديث عبد الله بن سعيد بن أبى هند ،عن زياد ـ مولى ابن عياش (١١) ـ عن أبى بَحريَّة ـ واسمه عبد الله بن قيس التراغمى ـ عن أبى الدرداء ،به (١٢). قال الترمذى :ورواه بعضهم عنه فأرسله .

---

(١) فى أ : « تمخرق » . (٢) فى أ : « النيرنجيات » . (٣) زيادة من أ .
(٤) فى أ : « ما » . (٥) فى أ :« الصدقة » . (٦) زيادة من أ .
(٧) فى أ : « وصنوف » . (٨) فى أ : « سعد » . (٩) فى أ : « عباس » .
(١٠) فى أ : « عن أبى عرة » . (١١) فى أ : « عباس » .
(١٢) المسند (٥/ ١٩٥) وسنن الترمذى برقم (٣٣٧٧) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٩٠) .

قلت: وقد تقدم هذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ في مسند [الإمام] (١) أحمد، من حديث زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عيّاش: أنه بلغه عن معاذ بن جبل، عن رسول الله ﷺ، بنحوه، فالله أعلم.

وقال (٢) الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا فرج بن فَضَالة، عن أبي سعد الحِمْصي قال: سمعت أبا هريرة يقول: دعاء سمعته من رسول الله ﷺ لا أدعه: «اللهم، اجعلني أعظِم شكرَك، وأتبع نصيحتك، وأكثر ذكرك، وأحفظ وصيتك» (٣).

ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى، عن وكيع، عن أبي فضالة الفرج بن فضالة، عن أبي سعيد الحمصي، عن أبي هريرة، فذكر مثله وقال: غريب (٤).

وهكذا رواه الإمام أحمد أيضاً عن أبي النضر هاشم بن القاسم، عن فرج بن فضالة، عن أبي سعيد المدني (٥) عن أبي هريرة فذكره (٦).

وقال (٧) الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدي، عن معاوية بن صالح، عن عمرو بن قيس قال: سمعت عبد الله بن بُسْر يقول: جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما: يا رسول الله، أيّ الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله». وقال الآخر: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا (٨)، فمرني بأمر أتشبث به. قال: «لا يزال لسانك رَطْباً بذكر الله» (٩).

وروى الترمذي وابن ماجه [منه] (١٠) الفصل الثاني، من حديث معاوية بن صالح، به (١١). وقال الترمذي: حسن غريب.

وقال (١٢) الإمام أحمد: حدثنا سُرَيج (١٣)، حدثنا ابن وهب، عن عمرو بن الحارث قال: إنّ درّاجا أبا السمح حدثه، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا: مجنون» (١٤).

وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مُكرم العَمِّي، حدثنا سعيد بن سفيان (١٥) الجَحْدَري، حدثنا الحسن بن أبي جعفر، عن عقبة بن أبي ثُبَيت (١٦) الراسبي، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اذكروا الله ذكراً كثيراً [حتى] (١٧) يقول

---

(١) زيادة من أ.
(٢) في ت: «وروى».
(٣) المسند (٢/٤٧٧).
(٤) سنن الترمذي برقم (٣٦٠٤).
(٥) في أ: «المزني».
(٦) المسند (٢/٣١١).
(٧) في ت: «وروى».
(٨) في ت: «عليَّ».
(٩) المسند (٤/١٩٠).
(١٠) زيادة من ف، أ.
(١١) سنن الترمذي برقم (٣٣٧٥) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٩٣).
(١٢) في ت: «وروى».
(١٣) في أ: «شريح».
(١٤) المسند (٣/٦٨) وفيه دراج، عن أبي الهيثم ضعيف.
(١٥) في أ: «سفر».
(١٦) في أ: «سبب».
(١٧) زيادة من ت، ف، أ، والمعجم.

المنافقون: تراؤون » (١) .

وقال (٢) الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم ،حدثنا شداد أبو طلحة الراسبى،سمعت أبا الوازع جابر بن عمرو يحدث عن عبد اللّه بن عمرو قال :قال رسول اللّه ﷺ :« ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا اللّه فيه ،إلا رأوه حسرة يوم القيامة » (٣) .

وقال على بن أبى طلحة ،عن ابن عباس فى قوله تعالى :﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾: إن اللّه لم يفرض [على عباده] (٤) فريضة إلا [جعل لها حدا معلوما ،ثم] (٥) عذر أهلها فى حال عذر،غير الذكر ،فإن اللّه لم يجعل له حداً ينتهى إليه ،ولم يعذر أحداً فى تركه ،إلا مغلوبا على تركه،فقال : ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء :١٠٣]،بالليل والنهار ،[فى البر والبحر](٦)،وفى السفر والحضر،والغنى والفقر ،والصحة والسقم ،والسر والعلانية ،وعلى كل حال ،وقال:﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾،فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته .

والأحاديث والآيات والآثار فى الحث على ذكر اللّه كثيرة جدا ،وفى هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار (٧) من ذلك .

وقد صنف الناس فى الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار كالنسائى والمعمرى وغيرهما (٨) ، ومن أحسن الكتب المؤلفة فى ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيى الدين النووى،رحمه اللّه تعالى (٩) .

---

(١) المعجم الكبير للطبرانى (١٢/ ١٦٩) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٧٦) :« فيه الحسين بن أبى جعفر الجعفرى وهو ضعيف » .

(٢) فى أ : « زاده » .

(٣) المسند (٢/ ٢٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٨٠) :«رجاله رجال الصحيح » .

(٤ ـ ٦) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٧) فى أ : « الإكثار » . (٨) فى ت : « والمعمرى والكلم الطيب لشيخ الإسلام وغيرهم » .

(٩) وقد طبع كتاب الأذكار بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط فى دار الهدى وعليه تخريج لابن علان اسمه :« الفتوحات الربانية » طبع فى الهند .

هذا وقد جاء فى نسخة « ت » بعد هذه الفقرة ما يلى :

« فذكر اللّه أصل موالاة اللّه ، عز وجل ، ورأسها. والغفلة أصل معاداته ورأسها ،فإن العبد لايزال يذكر ربه حتى يحبه فيواليه،ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه ويعاديه .قال اللّه تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ وما استجلبت نعم اللّه تعالى واستدفعت نقمة بمثل ذكر الله ،فالذكر جلاب النعم دفاع النقم .قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفى القراءة الأخرى :﴿ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله ومادة الإيمان وقوته بذكر اللّه،فمن كان أكمل إيماناً وأكثر ذكراً كان دفاع اللّه عنه ،ودفعه أعظم .ومن نقص نقص ذكر بذكر ونسيان بنسيان ،وقال تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ والذكر رأس الشكر ،والشكر جلاب النعم ،موجب للمزيد .قال بعض السلف :ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن برك .ومجالس الذكر رياض الجنة كما روى ابن أبى الدنيا من حديث جابر،عن عبد اللّه قال :خرج علينا رسول اللّه ﷺ،فقال : « يأيها الناس ارتعوا فى رياض الجنة » قلنا يا رسول اللّه :وما رياض الجنة ؟ قال : «مجالس الذكر » ، ثم قال:« اغدوا وروحوا فاذكروا فمن كان يحب أن يعلم منزلته عند اللّه ،فلينظر كيف منزلة اللّه عنده ،فإن اللّه ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه » .فمجالس الذكر مجالس الملائكة كما فى الصحيحين عن أبى هريرة ،رضى اللّه عنه ،قال: قال رسول اللّه ﷺ :« إن لله ملائكة فَضْلاً عن كتاب الناس يطوفون فى الطريق يلتمسون أهل الذكر ،فإذا وجدوا قوماً يذكرون اللّه تنادوا هلم إلى حاجتكم،فتحف بأجنحتها إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم :ما يقول عبادى ؟قال: يقولون:يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك قال: وهل رأونى ؟قال : يقولون : لا واللّه يا ربنا ما رأوك ،فيقول :كيف لو أنهم رأونى؟ قال: فيقولون: لو أنهم رأوك

=

= كانوا أشد عبادة وأشد تحميدا وتمجيداً ، وأكثر تسبيحا ، فيقول : ما يسألونى ؟ فيقولون : يسألونك الجنة ،فيقول :وهل رأوها ؟ فيقولون : لا والله ياربنا ما رأوها ،فيقول :كيف لو رأوها ؟ فيقولون :لو رأوها كانوا أشد حرصاً عليها ،وأشد لها طلباً،وأعظم فيها رغبة ،فيقول: مم يتعوذون ؟ قال :فيقولون : من النار ، فيقول : هل رأوها ؟ فيقولون:لا والله ياربنا ما رأوها،فيقول :كيف لو رأوها؟ فيقولون:لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة، فيقول :فأشهدكم أنى قد غفرت لهم ،فيقول ملك من الملائكة : إن فيهم فلاناً ليس منهم ،إنما جاء لحاجة .قال: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » ،فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم،فلهم نصيب من قوله: ﴿وجعلني مباركا أينما كنت﴾ [مريم : ٣١]،وإن الله ،عزوجل، ليباهى بالذاكرين الملائكة ، كما روى مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى قال: خرج معاوية على حلقة فى المسجد،فقال :ما أجلسكم؟ قالوا:جلسنا نذكر الله .قال :ما أجلسكم إلا ذلك؟قالوا:والله ما أجلسنا إلا ذلك .قال: أما إنى لم أسألكم تهمة لكم ، وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً منى، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه .قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ،ومَنَّ علينا بك .قال: «آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ » قالوا :آلله ما أجلسنا إلا ذلك ؟ قال : « أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ،ولكن أتانى جبريل فأخبرنى أن الله يباهى بكم الملائكة » فهذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى ،دليل على شرف الذكر عنده ومحبته له وأن له مزية على غيره من الأعمال .

والذكر نوعان :أحدهما :ذكر أسماء الرب وصفاته والثناء عليه ،وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به وهذا أيضاً نوعان : أحدهما : إنشاء الثناء بها من الذاكر ،وهذا النوع هو المذكور فى الحديث نحو :سبحان الله والحمد لله ،ولا إله إلا الله والله أكبر ،وسبحان الله وبحمده ،ولا إله إلا الله وحده لاشريك له ،له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ،ونحو ذلك ،فأفضل هذا النوع أجمعه للثناء وأعمه نحو :سبحان الله عدد خلقه ،فهذا أفضل من مجرد سبحان الله ،وقول :الحمد لله عدد ما خلق فى السماء ،وعدد ما خلق فى الأرض ،وعدد ما خلق بينهما ،وعدد ما هو خالق ،أفضل من مجرد قولك : الحمد لله ،وهذا فى حديث جويرية أن النبى ﷺ قال لها :« لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم ، لوزنتهن :سبحان الله عدد خلقه،سبحان الله رضا نفسه ،سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته » .رواه مسلم. وفى الترمذى وسنن أبى داود عن سعد بن أبى وقاص أنه دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة بين يديها نوى أو حصى تسبح به ،فقال : « أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا وأفضل ؟ » فقال: سبحان الله عدد ما خلق فى السماء ،وسبحان الله عدد ما خلق فى الأرض ،وسبحان الله عدد ما بين ذلك،وسبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ،ولا إله إلا الله مثل ذلك ،ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك » .

والنوع الثانى : الخبر عن الرب تبارك وتعالى بأحكام أسمائه وصفاته نحو قولك :إن الله ،عزوجل ، يسمع أصوات عباده ،ويرى حركاتهم ،ولا يخفى عليه خافية من أعمالهم ،وهو أرحم من آبائهم وأمهاتهم ،وهو على كل شىء قدير ،وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد الواجد ونحو ذلك .وأفضل هذا النوع الثناء عليه بما أثنى به على نفسه ،وبما أثنى عليه رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل،ومن غير تشبيه ولا تمثيل كما قال : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ، وهذا النوع أيضاً ثلاثة أنواع : حمد ، وثناء، ومجد .

فالحمد: الإخبار عنه بصفات كماله مع محبته والرضا عنه ،ولايكون المحب الساكت حامداً ،ولا المثنى بلا محبة حامداً ،حتى يجمع له المحبة والثناء ،فإن كرر المحامد شيئا بعد شىء ،كانت ثناء ،فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجداً.قد جمع الله تعالى لعبده الأنواع الثلاثة فى أول سورة فاتحة الكتاب ،فإذا قال العبد:﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله : حمدنى عبدى، وإذا قال : ﴿الرحمن الرحيم﴾ ، قال: أثنى على عبدى . وإذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾ قال: مجدنى عبدى .

والنوع الثانى من الذكر:ذكر أمره ونهيه وأحكامه ، وهذا أيضاً نوعان :أحدهما :ذكره بذلك إخباراً عنه بأنه أمر بكذا ونهى عن كذا وأحب كذا وسخط كذا ،والثانى :ذكره عند أمره فيبادر إليه ،وعند نهيه فيهرب منه ،فذكر أمره ونهيه شىء ،وذكره عند أمره ونهيه شىء آخر ،فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر ،فذكره أفضل الذكر وأجله وأعظمه .

فائدة :

فهذا ذكره هو الفقه الأكبر ،وما دونه من أفضل الذكر إذا صحت فيه النية ،ومن ذكره تعالى ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه ومواقع فضله على عبيده ،وهذا من أجل أنواع الذكر ،فهذه خمسة أنواع ،وهى تكون بالقلب واللسان ،وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان ؛لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ،ويصح المحبة ،ويثير الحياء ،ويبعث على المخافة ،ويدعو إلى المراقبة ،ويردع عن التقصير فى الطاعة والتهاون فى المعاصى والسيئات ،وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئا ما من تلك الأثمار ،وإن أثمر شيئا ما،فثمرته ضعيفة .

والذكر أفضل من الدعاء؛لأن الذكر ثناء على الله ،عزوجل، بجميل صفاته وآلائه وأسمائه ،والدعاء سؤال العبد حاجته ،فأين هذا من هذا ؟ولهذا جاء فى الحديث :« من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » . ولهذا كان مستحبًا فى الدعاء أن يبدأ الداعى بحمد الله والثناء عليه بين يدى حاجته،ثم يسأل حاجته كما جاء فى حديث فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ =

= سمع رجلاً يدعو فى صلاته لم يحمد اللّه ولم يصل على النبى ﷺ ، فقال رسول اللّه ﷺ : « لقد عجل هذا » ، ثم دعاه فقال له أو لغيره : « إذا صلى أحدكم ، فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه ، ثم يصلى على النبى ﷺ ، ثم يدعو بما شاء » . رواه الإمام أحمد والترمذى، وقال: حديث حسن صحيح . وهكذا دعا ذو النون الذى قال فيه النبى ﷺ : « دعوة أخى ذى النون ما دعا بها مكروب إلا فرج اللّه كربه: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » وفى الترمذى : « دعوة أخى ذى النون إذ دعا بها فى بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها مسلم فى شىء قط إلا استجاب اللّه له » . وهكذا عامة الأدعية النبوية ، ومنه قول النبى ﷺ فى دعاء الكرب : « لا إله إلا اللّه رب العرش العظيم ، لا إله إلا اللّه رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش الكريم». ومنه حديث بريدة الأسلمى ، رواه أهل السنن أن رسول اللّه ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول : اللهم أسألك بأنى أشهد أنك أنت اللّه الذى لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فقال : « والذى نفسى بيده لقد سأل اللّه باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى » . وروى أبو داود والنسائى من حديث أنس أنه كان مع النبى ﷺ جالسًا ورجل يصلى ثم دعا : اللهم أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام يا حى يا قيوم فقال النبى ﷺ: « لقد دعا اللّه باسمه العظيم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى » وروى أبو داود والنسائى من حديث أنس، فأخبر النبى ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه هذا الثناء والذكر ، وأنه اسم اللّه الأعظم ، فكان ذكر اللّه والثناء عليه أنجح ما سأل به حوائجه ، فهذا من فوائد الذكر، وهو أنه يجعل الدعاء مستجابا فلهذا قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ فالدعاء الذى يتقدمه الذكر والثناء أقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد ، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه ، كان أبلغ فى الإجابة وأفضل . فإنه يكون قد توسل إلى المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله، وعرض ، بل صرح ، بشدة حالته وضرورته وفقره ومسكنته ، فهذا المقتضى منه وأوصاف المسؤول مقتضى منه، فاجتمع المقتضى من السائل والمقتضى من المسؤول فى الدعاء ، فكان أبلغ وألطف موقعاً وأتم معرفة وعبودية ، وأنت ترى فى الشاهد ولله المثل الأعلى أن الرجل إذا توسل إلى من يريد معروفه بكرمه وجوده وبره ، وذكر حاجته هو وفقره ومسكنته ، كان أعطف لقلب المسؤول، وأقرب إلى قضاء حاجته من أن يقول له ابتداء أعطنى كذا وكذا ، فإذا عرف هذا فتأمل قول موسى ، عليه السلام: ﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ وقول ذي النون في دعائه: ﴿ **لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ وقول أبينا آدم : ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ وفى الصحيحين أن أبا بكر الصديق رضى اللّه عنه؛ قال يا رسول اللّه ، علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى فقال : « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » فجمع فى هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله ، والتوسل إلى ربه بفضله وجوده، وأنه المتفرد بغفران الذنوب ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معا فهكذا آداب الدعاء والعبودية .

وقراءة القرآن أفضل الأذكار وهى أفضل من الذكر ، والذكر أفضل من الدعاء ، وهذا من حيث النظر إلى كل واحد منهما مجرداً، وقد تعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل ، بل تعينه فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل ، وهذا كالتسبيح فى الركوع والسجود ، فإنه أفضل من قراءة القرآن ، وكذلك التشهد ، وكذلك رب اغفر لى بين السجدتين ، وقول رب اغفر لى وارحمنى واهدنى وعافنى وارزقنى بين السجدتين أفضل من القراءة . وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة ، ذكر التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة . وكذلك إجابة المؤذن ، والقول كما يقول ، أفضل من القراءة ، وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل اللّه على خلقه ، لكن لكل مقام مقال ، متى فات مقاله فيه وعدل عنه إلى غيره ، واختلت الحكمة ، وفقدت المصلحة المطلوبة منه ، وهكذا الأذكار المفيدة بمحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة اللّهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن ، مثاله أن يحدث له من التفكر فى ذنوبه فيحصل له توبة واستغفار أو يحصل له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن، فيعدل إلى الأذكار والدعوات التى تحصنه وتحوطه ، وكذلك أيضاً قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة القرآن ، لم يحضر قلبه فيها. وإذا أقبل على الذكر والدعاء إليها اجتمع قلبه كله على اللّه ، وأحدث له تضرعاً وخشوعاً وابتهالاً ، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع له ، وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأكثر أجراً ، وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه نص وفرقان بين فضيلة الشىء فى نفسه وبين فضيلته العارضة ، فيعطى كل ذى حق حقه ويضع كل شىء موضعه ، فللعين موضع ، وللرجل موضع ، وللماء موضع ، وللحم موضع ، وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التى هى نظام الأمر والنهى ، واللّه الموفق .

وهكذا الصابون والأشنان أنفع للثوب فى وقت ، والتحمير وماء الورد أنفع له فى وقت . وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه اللّه ، يوماً : سئل بعض أهل العلم: أيما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار ؟ فقال: إذا كان الثوب نقيا فالبخور وماء الورد نافع له ، وإن كان دنساً فالصابون والماء الجارى أنفع له فقال : كيف والثياب لا تزال دنسة ؟

ومن هذا الباب أن سورة ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ تعدل ثلث القرآن ، ومع هذا فلا تقوم مقام آيات المواريث والطلاق والخلع والعدد ونحوها، بل هذه الآيات فى وقتها ، وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص . ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر=

وقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: عند الصباح والمساء، كقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾: هذا تهييج إلى الذكر، أي: إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. وقال النبي ﷺ: «يقول الله: من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم» (١).

والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاه البخاري عن أبي العالية. ورواه أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عنه.

وقال غيره: الصلاة من الله: الرحمة [ورد بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾](٢).

وقد يقال: لا منافاة بين القولين والله أعلم.

وأما الصلاة من الملائكة، فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار (٣)، كقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ الآية [غافر: ٧ ـ ٩].

وقوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين. ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذي جَهِله غيرهم، وبَصَّرهم الطريق الذي ضَلَّ عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياعهم (٤) من الطغام (٥). وأما رحمته بهم في الآخرة: فآمنهم من الفزع الأكبر، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن حميد، عن أنس، رضي الله عنه، قال: مر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يُوطَأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني، ابني، وسَعَت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت

= والدعاء، وهي جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه، فكانت أفضل من كل القراءة والذكر والدعاء بمفرده بجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء فهذا أصل نافع جداً للعبد يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وينزلها منازلها لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها فيربح عليه إبليس الفضل الذي بينهما أو ينظر إلى فاضلها فيشتغل عن مفضولها، وإن كان ذلك وقته فتفوته مصلحته بالكلية لظنه أن اشتغاله به أكثر ثواباً وأعظم أجراً» ا. هـ.

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٤٠٥) ومسلم في صحيحه برقم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

(٢) زيادة من ت. (٣) في ت: «والاستغفار إليهم». (٤) في ت، أ: «وأتباعهم».

(٥) في أ: «الطغاة».

هذه لتلقى ابنها فى النار . قال : فَخَفَّضهم رسول الله ﷺ وقال: « ولا الله (١) ، لا يلقى حبيبه فى النار» .

إسناده على شرط الصحيحين ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة (٢) ، ولكن فى صحيح الإمام البخارى ، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها ، فألصقته إلى صدرها ، وأرضعته فقال: « أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ » قالوا : لا . قال : « فوالله ، لله أرحم بعباده من هذه بولدها » (٣) .

وقوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ﴾: الظاهر أن المراد ـ والله أعلم ـ ﴿ تَحِيَّتُهُم ﴾ أى : من الله تعالى يوم يلقونه ﴿ سَلامٌ ﴾ أى: يوم يسلم عليهم كما قال تعالى : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس :٥٨] .

وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيى (٤) بعضهم بعضا بالسلام ، يوم يلقون الله فى الدار الآخرة. واختاره ابن جرير .

قلت : وقد يستدل بقوله (٥) تعالى : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

وقوله : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٦) ﴾ يعنى : الجنة وما فيها من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن، والمناكح والملاذ والمناظر وما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً (٤٧) وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٤٨) ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا فُلَيْح بن سليمان ، عن هلال بن على (٧) ، عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة . قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن : «﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ (٨) ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر (٩)، ولن يقبضَه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا » .

---

(١) فى أ : « لا والله » .
(٢) المسند (٣/ ١٠٤) .
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٩٩٩) .
(٤) فى ت : « يحيون » . (٥) فى ت ، ف ، أ : « وقد يستدل له بقوله » . (٦) فى ت : « عظيما » وهو خطأ
(٧) فى ت : « روى الإمام أحمد بإسناده » .
(٨) فى ت : « لا بفظ » ، وفى أ : « لا فظ » .
(٩) فى ف : « يعفو ويصفح ويغفر » .

وقد رواه البخارى فى « البيوع » عن محمد بن سِنان، عن فُلَيْح بن سليمان، عن هلال بن على به. ورواه فى التفسير عن عبد الله ـ قيل: ابن رجاء، وقيل: ابن صالح ـ عن عبد العزيز بن أبى سلمة، عن هلال، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو، به [١]. ورواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن عبد الله بن رجاء، عن عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون، به.

وقال البخارى فى البيوع: وقال سعيد، عن هلال، عن عطاء، عن عبد الله بن سلام.

وقال وهب بن منبه: إن الله أوحى إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل ـ يقال له: شعياء ـ: أن قم فى قومك بنى إسرائيل، فإنى منطق لسانك بوحى وأبعث أميا من الأميين، أبعثه [مبشرًا] [٢] ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه، من سكينته، ولو يمشى على القصب لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه مبشرا ونذيرا، لا يقول الخنا، أفتح به أعينا كُمْهًا [٣]، وآذانا صما، وقلوبا غلفا، أسَدِّده لكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل سيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملته، وأحمد اسمه، أهدى به بعد الضلالة، وأعلم به بعد الجهالة، وأرفع به بعد الخَمَالة، وأعرف به بعد النُّكْرَة، وأكثر به بعد القلة، وأغنى به بعد العَيْلَة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وأستنقذ به فئَاماً من الناس عظيمة [٤] من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحدين مؤمنين مخلصين، مصدقين لما جاءت به رسلى[٥]: ألهمهم التسبيح والتحميد، والثناء والتكبير والتوحيد، فى مساجدهم ومجالسهم، ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم، يصلون لى قياما وقعودا، ويقاتلون فى سبيل الله [٦] صفوفا وزُحوفا، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتى ألوفا، يطهرون الوجوه والأطراف، ويشدون الثياب فى الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم فى صدورهم، رهبان بالليل لُيوث بالنهار، وأجعل فى أهل بيته وذريته السابقين، والصديقين والشهداء والصالحين، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون، أعز من نصرهم، وأؤيد من دعا لهم، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بغى عليهم، أو أراد أن ينتزع شيئا مما فى أيديهم. أجعلهم ورثة لنبيهم، والداعية إلى ربهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويوفون بعهدهم، أختم بهم الخير الذى بدأته بأولهم، ذلك فضلى أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم.

هكذا رواه ابن أبى حاتم، عن وهب بن منبه اليمانى، رحمه الله.

ثم قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الرحمن بن صالح، حدثنا عبد الرحمن بن محمد

(١) المسند (٢/ ١٧٤) وصحيح البخارى برقم (٢١٢٥) ورقم (٤٨٣٨).
(٢) زيادة من ت، ف. (٣) فى ت: « أعينا عميا كمها ». (٤) فى ت: « عظيم ».
(٥) فى ت: « الرسل ». (٦) فى أ: « فى سبيلى ».

ابن عبيد الله العَرْزَمي (١)، عن شَيْبَان النحوى، أخبرنى قتادة، عن عكْرِمة، عن ابن عباس (٢) قال: لما نزلت: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ـ وقد كان أمر عليا ومعاذا أن يسيرا إلى اليمن ـ فقال: « انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، إنه قد أنزل على: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾» .

ورواه الطبرانى عن محمد بن نصر بن حميد البزاز البغدادى، عن عبد الرحمن بن صالح الأزدى، عن عبد الرحمن [بن محمد] (٣) بن عبيد الله العرزمى، بإسناده مثله (٤). وقال فى آخره: « فإنه قد أنزل (٥) على: ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا على أمتك ومبشرا بالجنة، ونذيرا من النار، وداعيا إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه، وسراجا منيرا بالقرآن » .

وقوله: ﴿شَاهِدًا﴾ أى: لله بالوحدانية، وأنه لا إله غيره، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾. [كقوله: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾] (٦) [البقرة: ١٤٣].

وقوله: ﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أى: بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيرا للكافرين من وبيل العقاب.

وقوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ أى: داعيا للخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك، ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أى: وأمرُك ظاهر فيما جئت به من الحق، كالشمس فى إشراقها وإضاءتها، لايجحدها إلا معاند.

وقوله: ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ أى: لا تطعهم و[لا] (٧) تسمع منهم فى الذى يقولونه(٨) ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾، أى: اصفح وتجاوز عنهم، وكِلْ أمرهم إلى الله، فإن فيه كفايةً لهم؛ ولهذا قال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها أحكام (٩) كثيرة. منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس فى القرآن آية أصرح فى ذلك منها، وقد اختلفوا فى النكاح: هل هو حقيقة فى العقد وحده، أو فى الوطء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو فى العقد والوطء بعده، إلا فى هذه الآية فإنه استعمل فى العقد وحده؛ لقوله: ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ (١٠) الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾. وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها .

---

(١) فى أ: « عبد الله القرشى » .
(٢) فى ت: « ثم روى ابن أبى حاتم بإسناده إلى ابن عباس » .
(٣) زيادة من ت، ف، والمعجم .
(٤) المعجم الكبير (١١/ ٣١٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٢): « وفيه عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله العرزمى وهو ضعيف » .
(٥) فى ت، أ: « أنزلت » .
(٦) زيادة من ت، ف، أ .
(٧) زيادة من ت .
(٨) فى أ: « فى الذين يتولونهم » .
(٩) فى ت « اشتملت على أحكام » .
(١٠) فى ت: « نكحتموا » .

وقوله: ﴿الْمُؤْمِنَات﴾: خرج مخرج الغالب؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق. وقد استدل ابن عباس، وسعيد بن المسيَّب، والحسن البصري، وعلى بن الحسين، زين العابدين، وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ (١) الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، فعقب النكاح بالطلاق، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله. وهذا مذهب الشافعي، وأحمد بن حنبل، وطائفة كثيرة من السلف والخلف، رحمهم الله تعالى.

وذهب مالك وأبو حنيفة، رحمهما الله، إلى صحة الطلاق قبل النكاح؛ فيما إذا قال: « إن تزوجت فلانة فهي طالق »: فعندهما متى تزوجها طلقت منه. واختلفا فيما إذا قال: « كل امرأة أتزوجها فهي طالق ». فقال مالك: لا تطلق حتى يعين المرأة. وقال أبو حنيفة، رحمه الله: كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن منصور المروزي، حدثنا النضر بن شُمَيْل، حدثنا يونس ـ يعني: ابن أبي إسحاق ـ سمعت آدم مولى خالد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: [إذا قال](٢): كل امرأة أتزوجها فهي طالق، قال: ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية.

وحدثنا محمد بن إسماعيل الأحْمَسِي، حدثنا وَكِيع، عن مطر، عن الحسن بن مسلم بن يَنَّاق(٣)، عن ابن عباس قال: إنما قال الله تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح ؟!

وهكذا روى محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكْرِمة، عن ابن عباس قال: قال الله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ فلا طلاق [قبل النكاح] (٤).

وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: « لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك ». رواه الإمام أحمد والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه (٥). وقال الترمذي: « هذا حديث حسن ». وهو أحسن شيء روى في هذا الباب. وهكذا روى ابن ماجه عن علي، والمِسْوَر بن مَخْرَمَة عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لاطلاق قبل نكاح » (٦).

[وفي الآية دليل على أن المسيس مطلق، ويراد به الوطء] (٧).

---

(١) في ت: « نكحتموا ».
(٢) زيادة من ت.
(٣) في ت: « وروى أيضا بإسناده ».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) المسند (٢/١٨٩) وسنن الترمذي برقم (١١٨١) وسنن أبي داود برقم (٢١٩١) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠٤٧).
(٦) سنن ابن ماجه برقم (٢٠٤٨) من طريق علي بن الحسين، عن هشام بن سعد، عن الزهري، عن عروة، عن المسور، به. وقال البوصيري في الزوائد (٢/١٣٢): « هذا إسناد حسن، علي بن الحسين وهشام بن سعد مختلف فيهما ». وبرقم (٢٠٤٩) من طريق جويبر، عن الضحاك، عن النزال بن سبرة، عن علي، به. وقال البوصيري في الزوائد (٢/١٣٢): « هذا إسناد ضعيف لاتفاقهم على ضعف جويبر بن سعيد البجلي، لكن لم ينفرد به جويبر، فقد رواه البيهقي في الكبرى (٧/ ٣٢٠) من طريق معاذ العنبري، عن حميد الطويل، عن الحسن عن علي به، ثم رواه من طريق سعيد عن جويبر به موقوفا من الطريقين معًا ».
(٧) زيادة من ت.

وقوله (١) : ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ : هذا أمر مجمع عليه بين العلماء : أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج فى فورها من(٢) شاءت ، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها ، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً ، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضا .

وقوله : ﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ : المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] . وقال : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٦] .

وفى صحيح البخارى ، عن سهل بن سعد وأبى أسَيد ؛ أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شَرَاحيل ، فلما أدخلت (٣) عليه بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسَيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رَازقيَّين (٤) .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما : إن كان سمى لها صداقا ، فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمى لها صداقا فأمتعها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٠) ﴾ .

يقول تعالى مخاطبا نبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتى أعطاهن مُهُورَهُنَّ ، وهى الأجور هاهنا . كما قاله مجاهد وغير واحد ، وقد كان مَهْرُه لنسائه اثنتى (٥) عشرة أوقية ونَشّا وهو نصف (٦) أوقية ، فالجميع خمسمائة درهم ، إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى ، رحمه الله ، أربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حُيَىّ فإنه اصطفاها من سَبْى خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها . وكذلك جُوَيرية بنت الحارث المصطلقية ، أدّى عنها كتابتها إلى ثابت ابن قيس بن شماس وتزوجها ، رضى الله عن جميعهن (٧) .

---

(١) فى هـ : « وقال » . (٢) فى ت : « فى فورها متى » ، وفى أ : « فى قرئها من » .
(٣) فى ت : « فلما دخلت » وفى ف ، أ : « فلما أن دخلت » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٥٢٥٦ ، ٥٢٥٧) .
(٥) فى ت : « ثنتى » . (٦) فى ت : « والنش النصف » .
(٧) فى ت : « رضى الله عنهن أجمعين » .

وقوله : ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أى :وأباح لك التسرى مما أخذت من المغانم[1]،وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما .وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ،ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم ،عليه السلام،وكانتا من السرارى ، رضى الله عنهما .

وقوله : ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾: هذا عدل وَسط بين الإفراط والتفريط ؛فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعدا ،واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ،فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى ،فأباح بنت العم والعمة ،وبنت الخال والخالة ،وتحريم [2] ما فَرّطت [3] فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ،وهذا بشع [4] فظيع .

وإنما قال : ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ﴾ فَوَحَّدَ لفظ الذكر لشرفه،وجمع الإناث لنقصهن كقوله: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [النحل : ٤٨] ، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة :٢٥٧] ،﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام :١] ، وله نظائر كثيرة .

وقوله :﴿ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾: قال ابن أبى حاتم ،رحمه الله :

حدثنا محمد بن عمار بن[5] الحارث الرازى ،حدثنا عبيد الله [6] بن موسى،حدثنا إسرائيل،عن السدى ،عن أبى صالح [7] ،عن أم هانئ قالت :خطبنى رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه بعذرى ،ثم أنزل الله: ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾إلى قوله :﴿ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قالت :فلم أكن أحل له ،ولم أكن ممن هاجر معه ،كنت من الطلقاء .

ورواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب ،عن عبيد الله بن موسى ،به [8] .

ثم رواه ابن أبى حاتم من حديث إسماعيل بن أبى خالد ،عن أبى صالح ،عنها بنحوه .

ورواه الترمذى فى جامعه [9] .وهكذا قال أبو رَزين وقتادة :إن المراد : من هاجر معه إلى المدينة.وفى رواية عن قتادة:﴿ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أى:أسلمن.وقال الضحاك:قرأ ابن مسعود:«واللاَّتى هَاجَرْنَ مَعَك».

وقوله : ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أى :ويحل لك ـ يأيها النبى ـ المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك .وهذه الآية توالى فيها شرطان ،كقوله تعالى إخباراً عن نوح ،عليه السلام ،أنه قال لقومه :﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود :٣٤] ،وكقول موسى : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ

---

(١) فى أ :« الغنائم » . (٢) فى أ: « وحرم » . (٣) فى ت : « ما حرموا » .
(٤) فى ف ، أ :« شنيع » . (٥) فى أ : « و » . (٦) فى أ :« عبد الله » .
(٧) فى ت : «روى ابن أبى حاتم بإسناده » .
(٨) تفسير الطبرى (٢٢/١٥) .
(٩) سنن الترمذى برقم (٣٢١٤) وقال :« هذا حديث حسن صحيح لا أعرفه إلا من هذا الوجه من حديث السدى » .

فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ [يونس : ٨٤] . وقال هاهنا : **﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها ﴾**، وقد قال الإمام أحمد (١) :

حدثنا إسحاق، أخبرنا مالك، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد الساعدي؛ أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت: يا رسول الله، إني قد وهبت نفسي لك. فقامت قياما طويلا، فقام رجل فقال: يا رسول الله، زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة. فقال رسول الله ﷺ: « هل عندك من شيء تصدقها إياه »؟ فقال: ما عندي إلا إزاري هذا. فقال رسول الله ﷺ: « إن أعطيتها إزارك جلستَ لا إزار لك، فالتمس شيئًا ». فقال: لا أجد شيئاً. فقال: « التمس ولو خاتما من حديد » فالتمس فلم يجد شيئا، فقال له النبي ﷺ: « هل معك من القرآن شيء ؟ » قال: نعم؛ سورة كذا، وسورة كذا ـ لسور يسميها ـ فقال له رسول الله ﷺ: « زوجتكها بما معك من القرآن » .

أخرجاه من حديث مالك (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان (٣)، حدثنا مرحوم، سمعت ثابتا يقول (٤): كنت مع أنس جالسا وعنده ابنة له، فقال أنس: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، هل لك فيّ حاجة ؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها. فقال: « هي خير منك، رغبت في النبي، فعرضت عليه نفسها » .

انفرد بإخراجه البخاري، من حديث مرحوم بن عبد العزيز [العطار](٥)، عن ثابت البُنَاني، عن أنس، به (٦) .

وقال (٧) أحمد أيضا: حدثنا عبد الله بن بكر، حدثنا سنان بن ربيعة، عن الحضرمي، عن أنس ابن مالك: أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ابنة لي كذا وكذا. فذكرت من حسنها وجمالها، فآثرتك بها. فقال: « قد قبلتها » . فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تَشتَك شيئاً قط، فقال: « لا حاجة لي في ابنتك » . لم يخرجوه (٨) .

وقال (٩) ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا منصور بن أبي مُزَاحم، حدثنا ابن أبي الوضاح ـ يعني: محمد بن مسلم ـ عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة قالت: التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم (١٠) .

وقال ابن وهب، عن سعيد بن عبد الرحمن وابن أبي الزِّنَاد، عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن خولة بنت حكيم بن الأوقص، من بني سُلَيم، كانت من اللاتي وَهَبْن أنفسهن لرسول الله ﷺ(١١).

وفي رواية له عن سعيد بن عبد الرحمن، عن هشام، عن أبيه: كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم

---

(١) في ت: « وقد روى البخاري ومسلم » .

(٢) المسند (٥/٣٣٦) وصحيح البخاري برقم (٥١٣٥) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٥) ولكنه عند مسلم من طريق يعقوب وعبد العزيز بن أبي حازم وسفيان بن عيينة والدراوردي وزائدة كلهم عن أبي حازم بنحوه .

(٣) في أ: « عثمان » . (٤) في ت: « وروى البخاري أن ثابتا قال » . (٥) زيادة من أ .

(٦) المسند (٣/٢٦٨) وصحيح البخاري برقم (٥١٢٠) .

(٧) في ت: « وروى » .

(٨) المسند (٣/١٥٥) .

(٩) في ت: « وروى » .

(١٠) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٥٥) من طريق منصور بن أبي مزاحم، به .

(١١) رواه الطبري في تفسيره (٢٢/٢٣) .

كانت وهبت نفسها لرسول الله ﷺ، وكانت امرأة صالحة [١].

فيحتمل أن أم سليم هى خولة بنت حكيم، أو هى امرأة أخرى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحْمَسِى، حدثنا وَكِيع، حدثنا موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب، وعمر بن الحكم، وعبد الله بن عبيدة قالوا: تزوج رسول ﷺ ثلاث عشرة امرأة، ست من قريش، خديجة، وعائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة. وثلاث من بنى عامر بن صَعْصَعَة، وامرأتان من بنى هلال بن عامر: ميمونة بنت الحارث، وهى التى وهبت نفسها للنبى ﷺ، وزينب أم المساكين ـ امرأة من بنى أبى بكر بن كلاب من القرطاء ـ وهى التى اختارت الدنيا، وامرأة من بنى الجون، وهى التى استعاذت منه، وزينب بنت جحش الأسدية، والسبيتان صفية بنت حيى بن أخطب، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية[٢].

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة، عن ابن عباس: ﴿**وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ**﴾ قال: هى ميمونة بنت الحارث.

فيه انقطاع: هذا مرسل، والمشهور أن زينب التى كانت تدعى أم المساكين هى زينب بنت خُزَيْمة الأنصارية، وقد ماتت عند النبى ﷺ فى حياته، فالله أعلم.

والغرض من هذا أن اللاتى وهبن أنفسهن من النبى ﷺ كثير، كما قال [٣] البخارى، حدثنا زكريا ابن يحيى، حدثنا أبو أسامة قال: هشام بن عُرْوَه حَدثنا عن أبيه، عن عائشة قالت: كنت أغار من اللاتى وهبن أنفسهن من النبى ﷺ وأقول: أتهب امرأة [٤] نفسها؟ فلما أنزل الله: ﴿ **تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ**﴾ قلت: ما أرَى ربَّك إلا يُسَارع فى هواك [٥].

وقد قال[٦] ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن منصور الجعفى، حدثنا يونس ابن بُكَيْر، عن عَنْبَسَة بن الأزهر، عن سِماك، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس قال: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له.

ورواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب، عن يونس بن بُكَيْر [٧]. أى: إنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به؛ لأنه مردود إلى مشيئته، كما قال الله تعالى: ﴿ **إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا**﴾ أى: إن اختار ذلك.

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٢/ ٢٣).

(٢) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (٥/ ٢٧٠) من طريق وكيع بلفظ: «تزوج رسول الله ﷺ امرأة من بنى الجون فطلقها وهى التى استعاذت منه».

(٣) فى ت: «كما روى». (٤) فى ت، أ: «المرأة».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٨).

(٦) فى ت: «وروى».

(٧) تفسير الطبرى (٢٢ / ١٧).

وقوله: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال عكرمة: أى لا تحل الموهوبة لغيرك، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً. وكذا قال مجاهد والشعبى وغيرهما.

أى: إنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل، فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها، كما حكم به رسول الله ﷺ فى بَرْوَع (١) بنت واشق لما فوضت، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفى عنها زوجها، والموت والدخول سواء فى تقرير (٢) المهر وثبوت مهر المثل فى المفوضة لغير النبى ﷺ، فأما هو، عليه السلام، فإنه لا يجب عليه للمفوضة شىء ولو دخل بها؛ لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولى ولا شهود، كما فى قصة زينب بنت جحش، رضى الله عنها. ولهذا قال قتادة فى قوله: ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، يقول: ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولى ولا مهر إلا للنبى ﷺ.

[وقوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾](٣): قال أبى بن كعب، ومجاهد، والحسن، وقتادة وابن جرير فى قوله: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ ﴾ أى: من حَصْرِهم فى أربع نسوة حرائر وما شاؤوا (٤) من الإماء، واشتراط الولى والمهر والشهود عليهم، وهم الأمة، وقد رخصنا لك فى ذلك، فلم نوجب عليك شيئاً منه؛ ﴿ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بشر (٥)، حدثنا هشام بن عُرْوَة، عن أبيه (٦)، عن عائشة، رضى الله عنها؛ أنها كانت تُعَيِّر (٧) النساء اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، قالت: ألا تستحى المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق؟ فأنزل الله، عز وجل: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾، قالت: إنى أرَى ربَّك يسارع لك فى هواك (٨).

وقد تقدم أن البخارى رواه من حديث أبى أسامة، عن هشام بن عُرْوَة، فدل هذا على أن المراد بقوله: ﴿ تُرْجِي ﴾ أى: تؤخر ﴿ مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ أى: من الواهبات [أنفسهن] (٩) ﴿ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ أى: من شئت قبلتها، ومن شئت رددتها، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك، إن

---

(١) فى أ: « تزويج ». (٢) فى ت: « تقدير ».
(٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى ت: « وما يشاء ». (٥) فى أ: « بشير ».
(٦) فى ت: « وروى الإمام أحمد بإسناده ».
(٧) فى ف: « تغير من النساء » وفى أ: « تغير النساء ».
(٨) المسند (٦/١٥٨).
(٩) زيادة من ت.

شئت عُدْتَ فيها فآويتها ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾. قال عامر الشعبى فى قوله : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾: كن نساء وهبن أنفسهن للنبى ﷺ فدخل ببعضهن وأرجأ بعضهن لم يُنْكحن بعده ، منهن أم شريك .

وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾أى : من أزواجك، لا حرج عليك أن تترك القَسْم لهن ، فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت ، وتجامع من شئت، وتترك من شئت .

هكذا يروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وأبى رَزين ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم ، ومع هذا كان ، صلوات الله وسلامه عليه ، يقسم لهن ؛ ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ، صلوات الله وسلامه عليه ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة .

وقال (١) البخارى : حدثنا حبّان بن موسى ، حدثنا عبد الله ــ هو ابن المبارك ــ أخبرنا عاصم الأحول ، عن مُعَاذة (٢) عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية : ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ ، فقلت لها: ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذاك إلىَّ فإنى لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً (٣).

فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من (٤) ذلك عدم وجوب القسم ، وحديثها الأول يقتضى أن الآية نزلت فى الواهبات ، ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة فى الواهبات وفى النساء اللاتى عنده ، أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم . وهذا الذى اختاره حسن جيد قوى ، وفيه جمع بين الأحاديث ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾ أى: إذا علمن أن الله قد وضع عنك (٥) الحَرَج فى القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم، لاجناح عليك فى أى ذلك فعلت ، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختياراً منك لا أنه على سبيل الوجوب ، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك فى ذلك ، واعترفن بمنتك (٦) عليهن فى قسمك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى : من الميل إلى بعضهن دون بعض ، مما لا يمكن دفعه، كما قال (٧) الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن أيوب ، عن أبى قِلَابَة ، عن عبد الله بن يزيد ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » .

---

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى أ : « معاذ » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٨٩) .
(٤) فى أ : « فى » . (٥) فى أ : « عليك » . (٦) فى أ : « بأمانتك » .
(٧) فى ت : « كما روى » .

ورواه أهل السنن الأربعة، من حديث حماد بن سلمة (١) ـ وزاد أبو داود بعد قوله: فلا تلمني(٢) فيما تملك ولا أملك: يعني القلب. وإسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقات. ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أي: بضمائر السرائر، ﴿ حَلِيمًا ﴾ أي: يحلم ويغفر.

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (٥٢) ﴾.

ذكر غير واحد من العلماء ـ كابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وابن جرير، وغيرهم ـ أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضاً عنهن، على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيرهن رسول الله ﷺ، كما تقدم في الآية. فلما اخترن رسول الله ﷺ، كان جزاؤهن أن [الله] (٣) قَصَره عليهن، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراري فلا حجر عليه فيهن. ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر (٤) في ذلك ونسخ حكم هذه الآية، وأباح له التزوج (٥)، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تَزَوّج لتكون المنة للرسول (٦) ﷺ عليهن.

قال (٧) الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عطاء، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء (٨).

ورواه أيضاً من حديث ابن جُرَيْج، عن عَطاء، عن عبيد بن عمير (٩)، عن عائشة. ورواه الترمذي والنسائي في سننيهما (١٠).

وقال (١١) ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الملك بن شيبة، حدثني عمر بن أبي بكر، حدثني المغيرة بن عبد الرحمن الحزامي (١٢)، عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله (١٣)، عن عبد الله بن وهب بن زَمْعَة، عن أم سلمة أنها قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء، إلا ذات محرم، وذلك قول الله، عز وجل: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾.

فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة، كآيتي عدة الوفاة في البقرة، الأولى ناسخة للتي بعدها، والله(١٤) أعلم.

---

(١) المسند (٦/ ١٤٤) وسنن أبي داود برقم (٢١٣٤) وسنن الترمذي برقم (١١٤٠) وسنن النسائي (٧/ ٦٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٩٧١).
(٢) في أ: « فلا تملني ». (٣) زيادة من ت، أ. (٤) في ت: « الحرج ».
(٥) في أ: « التزويج ». (٦) في ف: « لرسول الله ». (٧) في ت: « روى ».
(٨) المسند (٦/ ٤١).
(٩) في أ: « عن عمير بن عبيد ».
(١٠) المسند (٦/ ١٨٠) وسنن الترمذي برقم (٣٢١٦) وسنن النسائي (٦/ ٥٦).
(١١) في ت: « وروى ». (١٢) في أ: « الخزاعي ». (١٣) في أ: « عبد الله ».
(١٤) في ت: « فالله ».

وقال آخرون: بل معنى الآية: ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أى: من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتى أحللنا لك من نسائك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، وبنات العم والعمات (١) والخال والخالات (٢) والواهبة وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك. هذا مرويّ عن أبى بن كعب، ومجاهد، وعكْرمة، والضحاك - فى رواية - وأبى رَزِين - فى رواية عنه - وأبى صالح، والحسن، وقتادة - فى رواية - والسدى، وغيرهم .

قال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن داود بن أبى هند ، حدثنى محمد بن أبى موسى ، عن زياد - رجل من الأنصار (٣) - قال : قلت لأبى بن كعب : أرأيت لو أن أزواج النبى ﷺ تُوُفين ، أما كان له أن يتزوج ؟ فقال : وما يمنعه من ذلك ؟ قال : قلت: قوله: ﴿لا تَحِلُّ (٤) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾. فقال : إنما أحل الله له ضربا من النساء ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى قوله : ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ ثم قيل له : ﴿لا تحلُّ (٥) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾.

ورواه عبد الله بن أحمد من طرق ، عن داود ، به (٦) . وروى الترمذى ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء ، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات بقوله: ﴿لا تَحِلُّ (٧) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾، فأحل الله فتياتكم المؤمنات ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾، وحرم كل ذات دين غير الإسلام ، ثم قال : ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ (٨)﴾ إلى قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء (٩) .

وقال مجاهد : ﴿لا تَحِلُّ (١٠) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أى : من بعد ما سمى لك ، لا (١١) مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة .

وقال أبو صالح : ﴿لا تَحِلُّ (١٢) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾: أمر ألا يتزوج أعرابية ولا غريبة (١٣)، ويتزوج بعد من نساء تهامة ، وما شاء من بنات العم والعمة ، والخال والخالة ، إن شاء ثلاثمائة .

وقال عكرمة : ﴿لا تَحِلُّ (١٤) لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أى : التى سمى الله .

---

(١) فى ت : « وبنات العمات » .
(٢) فى أ : « الخالة » .
(٣) فى ت : « فروى ابن جرير بإسناده عن رجل من الأنصار » .
(٤ ، ٥) فى ت ، أ : « لا يحل » .
(٦) تفسير الطبرى (٢٢/ ٢١) وزوائد المسند (٥/ ١٣٢) .
(٧) فى أ : « لا يحل » .
(٨) بعدها فى أ : « مما أفاء الله عليك » .
(٩) سنن الترمذى برقم (٣٢١٥) وقال : « هذا حديث حسن إنما نعرفه من حديث عبد الحميد بن بهرام ، قال : سمعت أحمد بن الحسن يقول : قال أحمد بن حنبل : لا بأس بحديث عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب » .
(١٠) فى أ : « لا يحل » .
(١١) فى أ : « من » .
(١٢) فى أ : « لا يحل » .
(١٣) فى أ : « عربية » .
(١٤) فى أ : « لا يحل » .

واختار ابن جرير، رحمه الله، أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء، وفى النساء اللواتى فى عصمته وكن تسعاً. وهذا الذى قاله جيد، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف؛ فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا، ولا منافاة، والله أعلم.

ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روى أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها، وعزم على فراق سودة حتى وهبته يومها لعائشة، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله: ﴿ **لا تَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ** ﴾، وهذا الذى قاله من أن هذا كان قبل نزول الآية صحيح، ولكن لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتى فى عصمته، وأنه لايستبدل بهن غيرهن، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال، والله أعلم.

فأما قَضية سَوْدَة ففى الصحيح عن عائشة، رضى الله عنها، وهى سبب نزول قوله تعالى: ﴿ **وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا [وَالصُّلْحُ خَيْرٌ]** (١) ﴾ الآية [النساء: ١٢٨] (٢).

وأما قضية (٣) حفصة فروى أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه، من طرق عن يحيى بن زكريا بن أبى زائدة، عن صالح بن صالح بن حَى (٤) عن سلمة بن كُهَيْل، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن عمر؛ أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها. وهذا إسناد (٥) قوى(٦).

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يونس بن بُكَيْر، عن الأعمش، عن أبى صالح(٧)، عن ابن عمر قال: دخل عمر على حفصة وهي تبكى، فقال: ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك؟ إنه قد كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلى؛ والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً. ورجاله على شرط الصحيحين (٨).

وقوله: ﴿ **وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ** ﴾، فنهاه عن الزيادة عليهن، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه (٩).

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً مناسباً ذكرُه هاهنا، فقال:

حدثنا إبراهيم بن نصر، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن إسحاق بن عبد الله (١٠) القرَشى، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار (١١)، عن أبى هُرَيرة، رضى الله عنه،

---

(١) زيادة من ف، أ.
(٢) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ١٢٨ من سورة النساء.
(٣) فى ت: « قصة ». (٤) فى أ: « يحيى ». (٥) فى ت: « إسناده ».
(٦) سنن أبى داود برقم (٢٢٨٣) وسنن النسائى (٦/ ٢١٣) وسنن ابن ماجة برقم (٢٠١٦).
(٧) فى ت: « وروى الإمام الحافظ أبو يعلى بسنده ».
(٨) مسند أبى يعلى (١/ ١٦٠).
(٩) فى أ: « يمينك ». (١٠) فى أ: « عبيد الله »
(١١) فى ت: « وروى البزار بإسناده ».

قال: كان البَدلُ فى الجاهلية أن يقول الرجل للرجل: بادلْنى امرأتك وأبادلُك بامرأتى . أى: تنزل لى عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتى . فأنزل الله: ﴿ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾قال: فدخل عيينة بن حصن (١) على النبى ﷺ، وعنده عائشة، فدخل بغير إذن، فقال له رسول الله ﷺ: « فأين الاستئذان ؟ » فقال يا رسول الله، ما استأذنت على رجل من مُضَر منذ أدركت . ثم قال: من هذه الحُمَيْراء إلى جنبك ؟ فقال رسول الله ﷺ: « هذه عائشة أم المؤمنين » . قال: أفلا أنزل لك على أحسن الخلق (٢) ؟ قال: « يا عيينة إن الله قد حرم ذلك » . فلما أن خرج قالت عائشة: من هذا ؟ قال: هذا أحمق مطاع، وإنه على ما ترين لسيد قومه » .

ثم قال البزار إسحاق (٣) بن عبد الله: لين الحديث جداً، وإنما ذكرناه لأنا لم نحفظه إلا من هذا الوجه، وبيَّنا العلة فيه (٤) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) ﴾ .

هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية، وهى مما وافق تنزيلها قول (٥) عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عنه أنه قال: وافقت ربى فى ثلاث، فقلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فأنزل الله: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتهن ؟ فأنزل الله آية الحجاب. وقلت لأزواج النبى ﷺ لما تمالأن عليه فى الغيرة: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ [التحريم: ٥]، فنزلت كذلك (٦) .

وفى رواية لمسلم ذكر أسارى بدر، وهى قضية رابعة .

وقد قال(٧) البخارى: حدثنا مُسَدَّد، عن يحيى، عن حُمَيْد، عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن

(١) فى أ: « عيينة الفزارى » .

(٢) فى ت: « قال انزل لى عنها وأنا أنزل لك عن أحسن الخلق » ، وفى أ: « قال أنزل لك عن أحسن الخلق » .

(٣) فى ت: « ثم قال البزار: فى إسناده إسحاق » .

(٤) مسند البزار برقم (٢٢٥١) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٢): « وفيه إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة وهو متروك» .

(٥) فى ت: « لقول » .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٠٢) .

(٧) فى ت: « وروى » .

الخطاب : يا رسول اللّه ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ؟ فأنزل اللّه آية الحجاب (١) .

وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول اللّه ﷺ بزينب بنت جحش ، التي تولى اللّه تعالى تزويجها بنفسه ، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة ، في قول قتادة والواقدي وغيرهما .

وزعم أبو عُبَيدة معمر بن المثنى ، وخَلِيفة بن خياط : أن ذلك كان في سنة ثلاث ، فاللّه أعلم .

قال (٢) البخاري : حدثنا محمد بن عبد اللّه الرَّقاشي ، حدثنا مُعْتَمِر بن سليمان ، سمعت أبي ، حدثنا أبو مِجْلَز ، عن أنس بن مالك ، رضي اللّه عنه ، قال : لما تزوج رسول اللّه ﷺ زينب بنت جحش ، دعا القوم فَطَعِمُوا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو [كأنه] (٣) يتهيأ (٤) للقيام فلم يقوموا . فلما رأى ذلك قام ، فلما قام [قام] (٥) من قام ، وقعد ثلاثة نفر . فجاء النبي ﷺ ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت ، فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا . فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فألقى [الحجاب] (٦) بيني وبينه ، فأنزل اللّه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ**﴾ الآية .

وقد رواه أيضاً في موضع آخر ، ومسلم والنسائي ، من طرق ، عن معتمر بن سليمان ، به (٧) .
ثم رواه البخاري منفرداً به من حديث أيوب ، عن أبي قِلابة ، عن أنس بن مالك ، رضي اللّه عنه ، [بنحوه (٨) . ثم قال (٩) : حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب ، عن أنس ابن مالك] (١٠) قال : بُني [على] (١١) النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم ، فأرسلْتُ على الطعام داعياً ، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون ، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون . فدعوتُ حتى ما أجد أحداً أدعوه ، فقلت : يا نبي اللّه ، ما أجد أحداً أدعوه . قال : « ارفعوا طعامكم » ، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت ، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة ، فقال : « السلام عليكم أهل البيت ورحمة اللّه وبركاته » . قالت : وعليك السلام ورحمة اللّه ، كيف وجدت أهلك ، بارك اللّه لك؟ فَتَقَرَّى حجر نسائه كُلّهن ، يقول لهن كما يقول لعائشة ، ويقلن له كما قالت عائشة . ثم رجع رسول اللّه (١٢) ﷺ فإذا رهط ثلاثة [في البيت] (١٣) يتحدثون . وكان النبي ﷺ شديد الحياء ، فخرج منطلقاً نحو حُجْرة عائشة ، فما أدري أخبرتُه أم أخبر أن القوم خَرَجُوا ؟ فرجع حتى إذا وضع رجله في أُسْكُفة الباب داخله ، وأخرى خارجة ، أرْخَى الستر بيني وبينه ، وأنزلت آية الحجاب .

(١) صحيح مسلم برقم (٢٣٩٩) .
(٢) في ت : « وروى » .
(٣) زيادة من ت ، ف ، أ ، والبخاري . (٤) في ت : « تهيأ » . (٥ ، ٦) زيادة من ت ، ف ، أ ، والبخاري .
(٧) صحيح البخاري برقم (٤٧٩١) وبرقم (٦٢٣٩ ، ٦٢٧١) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٨) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٢٠).
(٨) صحيح البخاري برقم (٤٧٩٢) .
(٩) في ت : « قال البخاري » . (١٠) زيادة من ت ، ف ، أ .
(١١) زيادة من ت ، ف ، والبخاري ، وفي أ : « بني الله على النبي » .
(١٢) في ت : « النبي » .
(١٣) زيادة من ت ، ف ، أ ، والبخاري .

انفرد به البخارى من بين أصحاب الكتب [الستة] (١) ، سوى النسائى فى اليوم والليلة ، من حديث عبد الوارث (٢) .

ثم رواه عن إسحاق ـ هو ابن منصور ـ عن عبد الله بن بكر (٣) السهمى ، عن حُمَيد ، عن أنس، بنحو ذلك (٤) ، وقال : « رجلان » انفرد به من هذا الوجه . وقد تقدم فى أفراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس .

وقال ابن أبى حاتم (٥) : حدثنا أبى ، حدثنا أبو المظفر ، حدثنا جعفر بن سليمان ، عن الجعد ـ أبى عثمان اليَشْكُرِى ـ عن أنس بن مالك قال : أعرس رسول الله ﷺ ببعض نسائه ، فصنعت أم سليم حيسا ثم وضعته (٦) فى تَوْر ، فقالت : اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ ، وأقرئه منى السلام ، وأخبره أن هذا منا له قليل ـ قال أنس : والناس يومئذ فى جَهد ـ فجئت به فقلت : يا رسول الله ، بعثت بهذا أم سُلَيم إليك ، وهى تقرئك السلام ، وتقول : أخبره أن هذا منا له قليل ، فنظر إليه ثم قال: « ضعه » فوَضَعته فى ناحية البيت ، ثم قال : « اذهب فادع لى فلاناً وفلاناً » . وسمى رجالا كثيراً ، وقال : «ومن لقيتَ من [المسلمين » . فدعوتُ مَن قال لى ، ومن لقيت من] (٧) المسلمين ، فجئت والبيت والصُّفَّة والحجرة مَلأى من الناس ـ فقلت : يا أبا عثمان ، كم كانوا ؟ فقال : كانوا زهاء ثلاثمائة ـ قال أنس : فقال لى رسول الله ﷺ : « جئْ به » . فجئتُ به إليه ، فوضع يده عليه ، ودعا وقال : « ما شاء الله » . ثم قال : « ليتَحَلَّق عَشَرة عَشَرَة ، وليسموا (٨) ، وليأكل كل إنسان مما يليه » . فجعلوا يسمون ويأكلون ، حتى أكلوا كلهم . فقال لى رسول الله ﷺ : « ارفعه » . قال : فجئتُ فأخذت التَّورَ فما أدرى أهو حين وضعت أكثر أم حين أخذت ؟ قال : وتخلف رجال يتحدثون فى بيت رسول الله، وزَوجُ رسول الله ﷺ التى دخل بها معهم مُولّية وجهها إلى الحائط ، فأطالوا الحديث ، فشقوا على رسول الله ﷺ ، وكان أشد الناس حياء ـ ولو أعلموا (٩) كان ذلك عليهم عزيزاً ـ فقام رسول الله ﷺ فخرج فسلم على حُجَره وعلى نسائه ، فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثَقَّلوا عليه ، ابتدروا الباب فخرجوا، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ، ودخل البيت وأنا فى الحجرة ، فمكث رسولُ الله ﷺ فى بيته يسيراً ، وأنزل الله عليه القرآن ، فخرج وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ . قال أنس : فقرأهن عَلَىّ قبل الناس ، فأنا أحْدثُ الناس بهن عهداً .

---

(١) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠١٠١) .
(٣) فى أ : « بكير » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٤) .
(٥) فى ت : « روى مسلم والنسائى » .
(٦) فى ت ، ف : « جعلت » .
(٧) زيادة من ف ، أ .
(٨) فى ت ، ف ، أ : « ويسموا » .
(٩) فى ت ، ف ، أ : « علموا » .

وقد رواه مسلم والترمذى والنسائى جميعاً، عن قتيبة، عن جعفر بن سليمان، به [١]. وقال الترمذى: حسن صحيح وعلَّقه البخارى فى كتاب النكاح فقال:

وقال إبراهيم بن طَهْمَان، عن الجَعْد أبى عثمان، عن أنس، فذكر نحوه [٢].

ورواه مسلم أيضاً عن محمد بن رافع، عن عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الجعد، به [٣]. وقد روى هذا الحديث عبد اللّه بن المبارك، عن شَرِيك، عن بيان بن بشر، عن أنس، بنحوه.

وروى [٤] البخارى والترمذى، من طريقين آخرين، عن بَيَان بن بشر الأَحْمَسِى الكوفى، عن أنس، بنحوه [٥].

ورواه ابن أبى حاتم أيضاً، من حديث أبى نَضْرَة العبدى، عن أنس بن مالك، بنحوه [٦]. ورواه ابن جرير من حديث عمرو بن سعيد، ومن حديث الزهرى، عن أنس، بنحو ذلك [٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْزُ وهاشم بن القاسم قالا: حدثنا سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب قال رسول اللّه ﷺ: «اذهب فاذكرها على». قال: فانطلق زيد حتى أتاها، قال: وهى تُخَمِّر عجينها، فلما رأيتُها عَظُمت فى صدرى... وذكر تمام الحديث، كما قدمناه عند قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾، وزاد فى آخره بعد قوله: ووَعَظ القوم بما وعظوا به. قال هاشم فى حديثه: ﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾.

وقد أخرجه مسلم والنسائى، من حديث سليمان بن المغيرة [٨]، به [٩].

وقال [١٠] ابن جرير: حدثنى أحمد بن عبد الرحمن ـ ابن أخى ابن وهب ـ حدثنى عمى عبد اللّه ابن وهب، حدثنى يونس عن الزهرى، عن عُرْوَة، عن عائشة قالت: إن أزواج رسول اللّه ﷺ كُنّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع ـ وهو صعيد أفيح ـ وكان عمر يقول لرسول اللّه ﷺ: احجب نساءك. فلم يكن رسول اللّه ﷺ ليفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبى ﷺ، وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى: قد عرفناك يا سودة. حرْصاً أن [١١] ينزل الحجاب، قالت [١٢]: فأنزل اللّه الحجاب [١٣].

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٢٨) وسنن الترمذى برقم (٣٢١٨) وسنن النسائى (١٣٦/٦).
(٢) صحيح البخارى برقم (٥١٦٣).
(٣) صحيح مسلم برقم (١٤٢٨).
(٤) فى أ: «ورواه».
(٥) صحيح البخارى برقم (٥١٧٠) وسنن الترمذى برقم (٣٢١٩).
(٦) فى أ: «بنحوه ولم يخرجوه».
(٧) تفسير الطبرى (٢٧/٢٢).
(٨) فى هـ، أ: «جعفر بن سليمان»، والتصويب من ت، ف، ومسلم.
(٩) المسند (١٩٥/٣) وصحيح مسلم برقم (١٤٢٨) وسنن النسائى (٧٩/٦).
(١٠) فى ت: «وروى».
(١١) فى ف، أ: «حرصا أن أن».
(١٢) فى ت: «قال».
(١٣) تفسير الطبرى (٢٨/٢٢).

هكذا وقع فى هذه الرواية.والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب ، كما رواه الإمام أحمد والبخارى ومسلم ،من حديث هشام بن عُرْوَة ،عن عائشة ،رضى اللّه عنها ،قالت : خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها ،وكانت امرأة جَسيمةً لا تَخفَى على من يعرفها ،فرآها عمر بن الخطاب فقال : يا سودة ،أما واللّه ما تَخْفَين علينا ،فانظرى كيف تخرجين ؟ قالت :فانكفأت راجعة ، ورسولُ اللّه ﷺ فى بيتى ،وإنه ليتعشى ،وفى يده عَرْق ،فدخلت فقالت :يا رسول اللّه ،إنى خرجت لبعض حاجتى ،فقال لى عمر كذا وكذا .قالت :فأوحى اللّه إليه ،ثم رُفعَ عنه وإن العَرْق فى يده ، ما وضعه .فقال :« إنه قد أذنَ لكن أن تخرجن لحاجتكن » .لفظ البخارى [١] .

فقوله :﴿ لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِى ﴾:حَظَر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول اللّه ﷺ بغير إذن،كما كانوا قبل ذلك يصنعون فى بيوتهم فى الجاهلية وابتداء الإسلام ،حتى غار اللّه لهذه الأمة،فأمرهم بذلك ،وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ؛ولهذا قال رسول اللّه ﷺ :« إياكم والدخول على النساء » [٢] .

ثم استثنى من ذلك فقال : ﴿ إِلا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ﴾.

قال مجاهد وقتادة وغيرهما :أى غير متحينين نضجه واستواءه ،أى :لا ترقبوا الطعام حتى [٣] إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول ،فإن هذا يكرهه اللّه ويذمه .وهذا دليل على تحريم التطفيل ، وهو الذى تسميه العرب الضيفن ،وقد صنف الخطيب البغدادى فى ذلك كتابا فى ذم الطفيليين .وذكر من أخبارهم أشياء يطول إيرادها .

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا ﴾.وفى صحيح مسلم عن ابن عمر،رضى اللّه عنهما ،قال: قال رسول اللّه ﷺ : « إذا دعا أحدكم أخاه فَلْيجب ،عُرساً كان أو غيره » [٤] .وأصله فى الصحيحين وفى الصحيح أيضا ،عن رسول اللّه ﷺ :« لو دُعيت إلى ذراع لأجبت ،ولو أهدى إلىَّ كُرَاع لقبلت،فإذا فَرَغتم من الذى دُعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل،وانتشروا فى الأرض»[٥]؛ولهذا قال :﴿ وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾،أى : كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ،ونسُوا أنفسهم ،حتى شَقّ ذلك على رسول اللّه ﷺ ،كما قال [اللّه] [٦] تعالى: ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُم[٧] ﴾ .

وقيل :المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه [٨] كان يشق عليه ويتأذى به ،لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حيائه ،عليه السلام ،حتى أنزل اللّه عليه النهى عن ذلك ؛ولهذا قال :﴿ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَق﴾ أى : ولهذا نهاكم عن ذلك وزجَركم عنه .

---

(١) المسند (٦/٥٦) وصحيح البخارى برقم (٤٧٩٥) وصحيح مسلم برقم (٢١٧٠) .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٢٣٢) ومسلم فى صحيحه برقم (٢١٧٢) من حديث عقبة بن عامر ،رضى اللّه عنه .

(٣) فى أ : « الطعام إذا طبخ حتى » .

(٤) صحيح مسلم برقم (١٤٢٩) .

(٥) فى صحيح البخارى برقم (٢٥٦٨) من حديث أبى هريرة ،رضى اللّه عنه .

(٦) زيادة من ف .

(٧) بعدها فى أ : ﴿ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾

(٨) فى أ : « إذن » .

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾أي: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم (١) حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب.

وقال (٢) ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان، عن مِسْعَر، عن موسى ابن أبي كثير، عن مجاهد، عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبي (٣) ﷺ حَيْساً في قَعْب، فمر عمر فدعاه، فأصابت إصبعه إصبعي، فقال: حَسِّ (٤) ـ أو: أوّه ـ لو أطاع فيكن ما رأتك (٥) عين. فنزل الحجاب (٦).

﴿ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أي: هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾: قال (٧) ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن أبي حماد، حدثنا مِهْرَان، عن سفيان، عن داود بن أبي هند، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ قال: نزلت في رَجُل هَمّ أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ. قال رجل لسفيان: أهي عائشة؟ قال: قد ذكروا ذاك.

وكذا قال مقاتل بن حَيَّان، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله، رضي الله عنه، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك؛ ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه (٨) أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده؛ لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين، كما تقدم. واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته (٩) هل يحل لغيره أن يتزوجها؟ على قولين، مأخذهما: هل دخلت هذه في عموم قوله: ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أم لا؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فما نعلم في حلها لغيره ـ والحالة هذه ـ نزاعا، والله أعلم.

وقال (١٠) ابن جرير: حدثني [محمد] (١١) بن المثنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا داود، عن عامر؛ أن نبي الله ﷺ مات وقد ملك قيلة بنت (١٢) الأشعث ـ يعني: ابن قيس ـ فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك، فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة، فقال له عمر: يا خليفة رسول الله، إنها ليست من نسائه، إنها لم يُخَيِّرها رسول الله ﷺ ولم يحجبها، وقد برأها الله منه بالردة التي ارتدت

---

(١) في ت: « لأحدهم ». (٢) في ت: « وروى ». (٣) في ت: « رسول الله ».
(٤) في هـ: « خير »، وفي ت، ف، أ: « حسن »، والمثبت من النهاية لابن الأثير ١/٣٨٥.
(٥) في ت، أ: « ما رأتكن ».
(٦) ورواه النسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤١٩) من طريق زكريا بن يحيى عن ابن أبي عمر، به.
(٧) في ت: « روى ». (٨) في ف، أ: « زوجاته ». (٩) في ت: « حياتها ».
(١٠) في ت: « وروى ». (١١) زيادة من ف، أ، والطبري. (١٢) في أ: « قتيلة ابنة ».

مع قومها. قال: فاطمأن أبو بكر، رضى الله عنهما (١)، وسكن (٢).

وقد عظم تبارك وتعالى ذلك، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾، ثم قال: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أى: مهما تكنه ضمائركم وتنطوى عليه سرائركم، فإن الله (٣) يعلمه؛ فإنه لا تخفى (٤) عليه خافية، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥)﴾.

لما أمر تعالى النساء بالحجاب من الأجانب، بيّن أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم، كما استثناهم فى سورة النور، عند قوله: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ إلى آخرها [النور: ٣١]، وفيها زيادات على هذه. وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته. وقد سأل بعض السلف فقال: لِمَ لَمْ يذكر العم والخال فى هاتين الآيتين؟ فأجاب عكرمة والشعبى: بأنهما لم يذكرا؛ لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما.

قال ابن جرير: حدثنى محمد بن المثنى، حدثنا حجاج بن منْهال، حدثنا حماد، حدثنا داود، عن الشعبى وعكرمة فى قوله: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ قلت: ما شأن العم والخال لم يذكرا؟ قالا: هما (٥) ينعتانها لأبنائهما. وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها.

وقوله: ﴿وَلا نِسَائِهِنَّ﴾: يعنى بذلك: عَدَم الاحتجاب من النساء المؤمنات.

وقوله: ﴿وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾: يعنى به: أرقاءَهن من الذكور والإناث، كما تقدم التنبيه عليه، وإيراد الحديث فيه (٦).

قال سعيد بن المسيب: إنما يعنى به: الإماء فقط. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أى: واخشينه فى الخلوة والعلانية، فإنه شهيد على كل شىء، لا تخفى عليه خافية، فراقبن الرقيب.

---

(١) فى ت، ف: «عنه».

(٢) تفسير الطبرى (٢٢/٢٩).

(٣) فى ف: «فإنه». (٤) فى ت، ف: «لا يخفى». (٥) فى أ: «لأنهما».

(٦) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية: ٣١ من سورة النور.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦)﴾.

قال البخارى : قال أبو العالية : صلاة الله : ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة : الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون : يبرِّكون . هكذا علقه البخارى عنهما [(١)] .

وقد رواه أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية كذلك . وروى مثله عن الربيع أيضاً . وروى على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس كما قاله سواء ، رواهما ابن أبى حاتم .

وقال أبو عيسى الترمذى : وروى عن سفيان الثورى وغير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الرب: الرحمة ، وصلاة الملائكة : الاستغفار .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو الأوْدىّ ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، قال الأعمش عن عطاء [(٢)] بن أبى رباح : **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾** قال : صلاته تبارك وتعالى : سبُّوح قدوس ، سبقت رحمتى غضبى .

والمقصود من هذه الآية : أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده فى الملأ الأعلى ، بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلى عليه . ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعاً .

وقد قال [(٣)] ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن أشعث بن إسحاق ، عن جعفر ـ يعنى : ابن المغيرة ـ عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس: أن بنى إسرائيل قالوا لموسى ، عليه السلام : هل يصلى ربك ؟ فناداه ربه : يا موسى ، سألوك: «هل يصلى ربك ؟» فقل : نعم ، إنما أصلى أنا وملائكتى على أنبيائى ورسلى . فأنزل الله، عز وجل، على نبيه ﷺ : **﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾**.

وقد أخبر أنه ، سبحانه وتعالى [(٤)] ، يصلى على عباده المؤمنين فى قوله تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾** [الأحزاب : ٤١ ـ ٤٣] . وقال تعالى : **﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ [(٥)] . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾** [البقرة : ١٥٥ ـ ١٥٧] . وفى الحديث : « إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف » . وفى

---

(١) صحيح البخارى (٨/ ٥٣٢) « فتح » .

(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده عن عطاء » .

(٣) فى ت : « وقد روى » .

(٤) فى ت : « وقد أخبر الله تعالى » ، وفى ف : « وقد أخبر أنه سبحانه بأنه » .

(٥) فى ت : « المؤمنين » وهو خطأ .

الحديث الآخر: « اللهم ،صل على آل أبى أوفى».وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر ـ وقد سألته أن يصلى عليها وعلى زوجها ـ :« صلى الله عليك، وعلى زوجك (١) » (٢).

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ،وكيفية الصلاة عليه ، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر ، والله المستعان .

قال البخارى ـ عند تفسير هذه الآية (٣) ـ : حدثنا سعيد بن يحيى بن سعيد ،حدثنا أبى ،عن مِسْعَر،عن الحكم ،عن ابن أبى ليلى ،عن كعب بن عُجْرَة قال :قيل :يا رسول الله ،أما السلام عليك فقد عرفناه ،فكيف الصلاة ؟فقال : « قولوا : اللهم ،صل على محمد ،وعلى آل محمد ،[كما صليت على آل إبراهيم ،إنك حميد مجيد .اللهم ،بارك على محمد وعلى آل محمد] (٤) كما باركت على آل إبراهيم ،إنك حميد مجيد » (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ،حدثنا شعبة (٦) ،عن الحكم قال : سمعت ابن أبى ليلى قال : لقينى كعب بن عُجْرَة فقال : ألا أهدى لك هدية ؟خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله ،قد علمنا ـ أو: عرفنا ـ كيف السلام (٧) عليك ،فكيف الصلاة ؟قال :« قولوا : اللهم،صل على محمد وعلى آل محمد ،كما صليت على [آل] (٨) إبراهيم إنك حميد مجيد . اللّهم،بارك على محمد وعلى آل محمد ،كما باركت على آل إبراهيم ،إنك حميد مجيد » .

وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم ،من طرق متعددة ،عن الحكم ـ وهو ابن عتبة (٩) ـ زاد البخارى :وعبد الله بن عيسى ،كلاهما عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ،فذكره (١٠) .

وقال ابن أبى حاتم (١١) : حدثنا الحسن بن عرفة ،حدثنا هُشَيْم بن بُشَيْر ،عن يزيد بن أبى زياد،حدثنا عبد الرحمن بن أبى ليلى ،عن كعب بن عُجْرَة قال :لما نزلت :﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾.قال : قلنا :يا رسول الله،قد علمنا السلام(١٢)،فكيف الصلاة عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ،إنك حميد مجيد .وبارك على محمد وعلى آل محمد ،كما

---

(١) فى ف ،أ : « وعلى آل زوجك » .

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٣/٣٩٨) وابن حبان فى صحيحه برقم (١٩٥١) « موارد » من طريق الأسود بن قيس عن نبيح العنزى عن جابر رضى الله عنه .

(٣) فى ت : « روى البخارى فى صحيحه » .

(٤) زيادة من ت ،ف ، والبخارى .

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٧) .

(٦) فى ت :« وروى الإمام أحمد بإسناده » .

(٧) فى أ : « نسلم » .

(٨) زيادة من ت ، ف ، والمسند . (٩) فى أ :« عيينة » .

(١٠) المسند (٤/٢٤١) وصحيح البخارى برقم (٣٣٧٠) وبرقم (٦٣٥٧) وبرقم (٤٧٩٧) وصحيح مسلم برقم (٤٠٦) وسنن أبى داود برقم (٩٧٦) وسنن الترمذى برقم (٤٨٣) وسنن النسائى (٣/٤٧) وسنن ابن ماجة برقم (٩٠٤) .

(١١) فى أ : « وقال البخارى » .

(١٢) فى ت ،ف ،أ : « السلام عليك » .

باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. إنك حميد مجيد ». وكان عبد الرحمن بن أبى ليلى يقول : وعلينا معهم .

ورواه الترمذى بهذه الزيادة (١) .

ومعنى قولهم : « أما السلام عليك فقد عرفناه » : هو الذى فى التشهد الذى كان يعلمهم إياه، كما كان يعلمهم السورة من القرآن، وفيه : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » .

حديث آخر : قال (٢) البخارى : حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، عن ابن (٣) الهاد، عن عبد الله بن خبَّاب، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، قال : قلنا : يا رسول الله، هذا السلام(٤)، فكيف نصلى عليك ؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد عبدك ورسولك، كما صليت على آل إبراهيم. وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم » . [وفى رواية] (٥) : قال أبو صالح ، عن الليث : « على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم» .

حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثنا ابن أبى حازم والدَّرَاوَرْدى، عن يزيد ـ يعنى: ابن الهاد ـ قال: «كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وآل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم».

وأخرجه النسائى وابن ماجه، من حديث ابن الهاد ، به(٦) .

حديث آخر : قال (٧) الإمام أحمد : قرأت على عبد الرحمن : مالك، عن عبد الله بن أبى بكر، عن أبيه، عن عمرو بن سُلَيم أنه قال : أخبرنى أبو حميد الساعدى أنهم قالوا : يا رسول الله ، كيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم » صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على [آل] (٨) إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

وقد أخرجه بقية الجماعة، سوى الترمذى، من حديث مالك، به (٩) .

حديث آخر : قال مسلم : حدثنا يحيى التميمى قال : قرأت على مالك، عن نُعَيم بن عبد الله المُجمِّر، أخبرنى محمد بن عبد الله بن زيد الأنصارى ـ قال : وعبد الله بن زيد هو الذى كان أُرِىَ النداء بالصلاة ـ أخبره عن أبى مسعود الأنصارى ـ قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن فى مجلس سعد ابن عُبَادة، فقال له بَشير بن سعد: أمرنا الله أن نصلى عليك [يا رسول الله] (١٠)، فكيف نصلى عليك؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ : « قولوا : اللّهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين، إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علَمتم » .

وقد رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى من حديث مالك، به (١١) . وقال الترمذى : حسن

---

(١) سنن الترمذى برقم (٤٨٣) وقال : « حديث حسن صحيح »

(٢) فى ت : « روى » . (٣) فى أ : « أبى » . (٤) فى أ : « هذا السلام عليك » .

(٥) زيادة من ت .

(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٨) .

(٧) فى ت : « وروى » .

(٨) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .

(٩) المسند (٥/٤٢٤) وصحيح البخارى برقم (٣٣٦٩) وصحيح مسلم برقم (٤٠٧) وسنن أبى داود برقم (٩٧٩) وسنن النسائى (٣/٤٩) وسنن ابن ماجة برقم (٩٠٥) .

(١٠) زيادة من ت ، ف ، أ ، ومسلم .

(١١) صحيح مسلم برقم (٤٠٥) وسنن أبى داود برقم (٩٨٠) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٠) وسنن النسائى (٣/٤٥) .

صحيح .

وروى الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن خُزَيمة ، وابن حبّان ، والحاكم فى مستدركه ، من حديث محمد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم التيمى ، عن محمد بن عبد اللّه بن زيد بن عبد ربه ، عن أبى مسعود البدرى أنهم قالوا: يا رسول اللّه ، أما السلام فقد عرفناه ، فكيف نصلى عليك إذا نحن صلينا فى صلاتنا ؟ فقال : « قولوا : اللّهم ، صَلِ على محمد وعلى آل محمد . . . » وذكره (١) .

ورواه الشافعى ، رحمه اللّه ، فى مسنده ، عن أبى هريرة ، بمثله (٢). ومن هاهنا ذهب الشافعى، رحمه اللّه ، إلى أنه يجب على المصلى أن يصلى على رسول اللّه ﷺ فى التشهد الأخير ، فإن تركه لم تصح صلاته . وقد شَرَع بعض المتأخرين من المالكية وغيرهم يُشنع على الإمام الشافعى فى اشتراطه ذلك فى الصلاة ، ويزعم أنه قد تفرد بذلك ، وحكى الإجماع على خلافه أبو جعفر الطبرى والطحاوى والخطابى وغيرهم ، فيما نقله القاضى عياض . وقد تَعَسّف القائل (٣) فى رده على الشافعى ، وتكلف فى دعواه الإجماع فى ذلك ، [وقال ما لم يحط به علما] (٤)، فإنه قد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة على رسول اللّه ﷺ فى الصلاة كما هو ظاهر الآية ، ومفسر (٥) بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة ، منهم: ابن مسعود ، وأبو مسعود البدرى ، وجابر بن عبد اللّه ، ومن التابعين : الشعبى ، وأبو جعفر الباقر ، ومقاتل بن حيان . وإليه ذهب الشافعى ، لا خلاف عنه فى ذلك ولا بين (٦) أصحابه أيضا ، وإليه ذهب [الإمام] (٧) أحمد أخيرا فيما حكاه عنه أبو زُرْعَة الدمشقى ، به. وبه قال إسحاق ابن راهويه ، والفقيه الإمام محمد بن إبراهيم المعروف بابن الموّاز المالكى ، رحمهم اللّه ، حتى إن بعض أئمة الحنابلة أوجب أن يقال فى الصلاة عليه ﷺ كما علمهم أن يقولوا لما سألوه ، وحتى إن بعض أصحابنا أوجب الصلاة على الآل ممن (٨) حكاه البَنْدَنيجِىّ ، وسُلَيم الرازى ، وصاحبه نصر بن إبراهيم المقدسى ، ونقله إمام الحرمين وصاحبه الغزالى قولا عن الشافعى . والصحيح أنه وجه ، على أن الجمهور على خلافه ، وحكوا الإجماع على خلافه ، وللقول بوجوبه ظواهر الحديث ، واللّه أعلم .

والغَرَض أن الشافعى ، رحمه اللّه ، لقوله (٩) بوجوب الصلاة على النبى ﷺ فى الصلاة ـ سَلَفٌ وَخَلَفٌ (١٠) كما تقدم ، للّه الحمد والمنة ، فلا إجماع على خلافه فى هذه المسألة لا قديما ولا حديثا ، واللّه أعلم .

ومما يؤيد ذلك : الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى ـ وصححه ـ والنسائى وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحيهما ، من رواية حَيْوة بن شُرَيْح المصرى ، عن أبى هانئ حميد بن

---

(١) المسند (٤/ ١١٩) وسنن أبى داود برقم (٩٨١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٧٧) والمستدرك (١/ ٦٦٨) وقال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم » .

(٢) مسند الشافعى برقم (٢٦٨) « بدائع المنن » ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٩٨٧٥) من طريق داود بن قيس ، عن نعيم بن عبد اللّه ، عن أبى هريرة رضى اللّه عنه .

(٣) فى أ : « تعسف هذا القائل » .

(٤) زيادة من ف ، أ .

(٥) فى ت : « ومشعر » .

(٦) فى أ : « من » .

(٧) زيادة من ت ، ف ، أ .

(٨) فى ف : « فيما » وفى أ : « فيمن » .

(٩) فى أ : « يقول » .

(١٠) فى أ : « سلفًا وخلفًا » .

هانئ، عن عمرو بن مالك أبى على الجَنْبى (١)، عن فضالة بن عبيد، رضى اللّه عنه، قال: سمع رسول اللّه ﷺ رجلا يدعو فى صلاته، لم يمجد اللّه ولم يصل على النبى ﷺ، فقال رسول اللّه ﷺ: « عَجل هذا » . ثم دعاه فقال له ولغيره: « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد اللّه، عز وجل، والثناء عليه، ثم ليصل على النبى ثم ليدعُ [بعد] (٢) بما شاء » (٣) .

وكذا الحديث الذى رواه ابن ماجه، من رواية عبد المهيمن ابن عباس بن سهل بن سعد الساعدى، عن أبيه، عن جده، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: « لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم اللّه عليه، ولا صلاة لمن لم يصل على النبى، ولا صلاة لمن لم يحب الأنصار » (٤) .

ولكن عبد المهيمن هذا متروك. وقد رواه الطبرانى من رواية أخيه « أبى بن عباس »، ولكن فى ذلك نظر (٥)، وإنما يعرف من رواية « عبد المهيمن »، واللّه أعلم.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا إسماعيل، عن أبى داود الأعمى، عن بُرَيدة قال: قلنا: يا رسول اللّه، قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلى عليك؟ قال: «قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد، كما جعلتها على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

أبو داود الأعمى اسمه: نفيع بن الحارث، متروك (٦) .

حديث آخر موقوف: رويناه من طريق سعيد بن منصور وزيد بن الحباب ويزيد بن هارون، ثلاثتهم عن نوح بن قيس: حدثنا سلامة الكندى: أن عليا، رضى اللّه عنه، كان يعلم الناس هذا الدعاء: اللّهم داحى المدْحُوَّات، وبارئ المسموكات، وَجَبَّار القلوب على فطْرَتها شقيها وسعيدها. اجعل شرائف صلواتك، ونوامى بركاتك، ورأفة تحننك، على محمد عبدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفاتح لما أغلق، والمعلن الحق بالحق، والدامغ جيشات الأباطيل، كما حُمِّل فاضطلع بأمرك لطاعتك، مستوفزا فى مرضاتك، غير نَكل فى قَدَم، ولا واهن فى عزم، واعيا لوحيك، حافظا لعهدك، ماضيا على نفاذ أمرك، حتى أورى قبسا لقابس، آلاء اللّه تصل بأهله أسبابه، به هديت القلوب بعد خوضات الفتن والإثم، [وأقام] (٧) مُوضحات الأعلام، ومُنِيرات الإسلام ونائرات الأحكام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين، وبَعيثُك نعمة، ورسولك بالحق رحمة. اللهم افسح له مُفسحَات فى عدلك، واجزه مضاعفات الخير من فضلك. مهنَّآت له غير مكدرات، من فوز ثوابك المعلول وجزيل عطائك المجمول. اللّهم، أعل على بناء البانين

---

(١) فى أ: « الحسينى » .

(٢) زيادة من ف، أ، والمسند .

(٣) المسند (٦/ ١٨) وسنن أبى داود برقم (١٤٨١) وسنن الترمذى برقم (٣٤٧٧) وسنن النسائى (٣/ ٤٤) .

(٤) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٠) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ١٦٧): « هذا إسناد ضعيف لاتفاقهم على ضعف عبد المهيمن » .

(٥) المعجم الكبير للطبرانى (٦/ ١٢١) .

(٦) المسند (٥/ ٣٥٣) .

(٧) زيادة من ت، ف .

بنيانه(١)، وأكرم مثواه لديك ونزله . وأتمم (٢) له نوره، واجزه من ابتعاثك له مقبول الشهادة، مرضى المقالة، ذا منطق عدل، وخُطَّة فصل، وحجة وبرهان عظيم (٣) .

هذا مشهور من كلام على، رضى الله عنه، وقد تكلم عليه ابن قتيبة فى مشكل الحديث، وكذا أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوى فى جزء جمعه فى فضل الصلاة على النبى ﷺ، إلا أن فى إسناده نظرا .

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى: سلامة (٤) الكندى هذا ليس بمعروف، ولم يدرك عليا(٥). كذا قال. وقد روى الحافظ أبو القاسم الطبرانى هذا الأثر عن محمد بن على الصائغ، عن سعيد بن منصور، حدثنا نوح بن قيس، عن سلامة الكندى قال: كان على، رضى الله عنه، يعلمنا الصلاة على النبى ﷺ فيقول: « اللّهم، داحى المَدْحُوّات » وذكره (٦) .

حديث آخر موقوف: قال ابن ماجه: [حدثنا الحُسَين بن بَيَان] (٧)، حدثنا زياد بن عبد الله، حدثنا المسعودى، عن عون بن عبد الله، عن أبى فَاختة، عن الأسود بن يزيد (٨)، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه؛ فإنكم لا تدرون لعل ذلك يُعْرَض عليه. قال: فقالوا له: فَعَلّمنا. قال: قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين، محمد عبدك ورسولك، إمام الخير وقائد الخير، ورسول الرحمة. اللّهم ابعثه مقاماً محموداً يَغْبِطُه به الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد [وعلى آل محمد] (٩)، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد. اللهم، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد(١٠) .

وهذا موقوف، وقد روى إسماعيل القاضى عن عبد الله بن عمرو ـ أو: عمر ـ على الشك من الراوى قريباً من هذا (١١) .

حديث آخر: قال (١٢) قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا أبو

---

(١) فى أ: « اللهم علِّ بناء الناس بناءه » . (٢) فى أ: « وأتم » .

(٣) رواه أبو نعيم فى عوالى سعيد بن منصور برقم (١٨) فقال: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا مسعدة بن سعد، حدثنا سعيد بن منصور فذكره، ورواه الحنائى فى الفوائد (١٠/ ١٦٢/ب) ـ كما فى حاشية العوالى ـ من طريق يزيد بن هارون، به .

(٤) فى ف: « سلام » .

(٥) سلامة الكندى ذكره البخارى فى التاريخ الكبير (٤/ ١٩٥) وابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل (٤/ ٣٠٠) وأشار ابن أبى حاتم إلى هذا الحديث وقال: « مرسل » .

(٦) المعجم الأوسط برقم (٤٦٥٣) « مجمع البحرين » لكن فيه: « حدثنا مسعدة بن سعد، حدثنا سعيد بن منصور » فلعل الحافظ نقله هنا من مسند العشرة .

(٧) زيادة من ت، ف، وابن ماجه . (٨) فى ت: « وروى ابن ماجة بإسناده » .

(٩) زيادة من ت، ف، وابن ماجة .

(١٠) سنن ابن ماجة برقم (٩٠٦) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ٣١١): « هذا إسناد رجاله ثقات إلا أن المسعودى واسمه عبد الرحمن بن عتبة بن مسعود اختلط بآخره، ولم يتميز حديثه الأول بالآخر، فاستحق الترك. قاله ابن حبان » .

(١١) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٦٢) .

(١٢) فى ت: « وروى » .

إسرائيل، عن يونس بن خبّاب قال: خطبنا بفارس فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، فقال: أنبأني من سمع ابن عباس يقول: هكذا أنزل. فقلنا ـ أو: قالوا ـ: يا رسول الله، عَلمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ فقال: «اللهم، صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وارحم محمداً وآل محمد، كما رحمت آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، [وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد](١)» (٢).

فيستدل بهذا الحديث من ذهب إلى جواز الترحم على النبي ﷺ، كما هو قول الجمهور: ويعضده حديث الأعرابي الذي قال: اللهم، ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً. فقال رسول الله ﷺ: «لقد حجرت (٣) واسعاً».

وحكى القاضي عياض عن جمهور المالكية منعه، قال: وأجازه أبو محمد بن أبي زيد.

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، أخبرنا شعبة، عن عاصم بن عبيد الله(٤) قال: سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه قال: سمعت النبي (٥) ﷺ يقول: «من صلى على صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى علي، فَلْيُقِلَّ عبد من ذلك أو ليكثر».

ورواه ابن ماجه، من حديث شعبة، به (٦).

حديث آخر: قال (٧) الإمام أحمد: حدثنا أبو سلمة منصور بن سلمة الخزاعي، ويونس ـ هو ابن محمد ـ قالا: حدثنا ليث، عن يزيد بن الهاد، عن عمرو بن أبي عمرو، عن أبي الحويرث، عن محمد ابن جبير بن مطعم، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج رسول الله ﷺ فاتبعته حتى دخل نخلا، فسجد فأطال السجود، حتى خفت ـ أو: خشيت ـ أن يكون الله قد توفاه أو قبضه. قال: فجئت أنظر، فرفع رأسه فقال: «ما لك يا عبد الرحمن؟» قال: فذكرت ذلك له فقال: «إن جبريل، عليه السلام، قال لي: ألا أبشرك؟ إن الله، عز وجل، يقول: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلّم عليك سلمتُ عليه» (٨).

طريق أخرى: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا سليمان بن بلال، حدثنا عمرو بن أبي عمرو، من عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن عوف، عن عبد الرحمن بن عوف قال: خرج(٩) رسول الله ﷺ فتوجه نحو صدقته، فدخل فاستقبل القبلة، فخر ساجدا، فأطال

---

(١) زيادة من ت، أ، والطبري.
(٢) تفسير الطبري (٢٢/ ٣١).
(٣) في أ: «تحجرت».
(٤) في أ: «عبد الله». (٥) في ف: «رسول الله».
(٦) المسند (٣/ ٤٤٥) وسنن ابن ماجة برقم (٩٠٧).
(٧) في ت: «وروى».
(٨) المسند (١/ ١٩١).
(٩) في هـ: «قال» وفي ت، ف، أ: «قام» والمثبت من المسند.

السجود، حتى ظننت أن اللّه قد قبض نفسه فيها، فدنوت منه ثم جلست، فرفع رأسه فقال: «من هذا؟» فقلت: عبد الرحمن. قال: «ما شأنك؟» قلت: يا رسول اللّه، سجدت سجدة خشيت أن [يكون] (١) اللّه، عز وجل، قبض نفسك فيها. فقال: «إن جبريل أتاني فبشرني أن اللّه، عز وجل، يقول لك: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه ـ فسجدتُ للّه، عز وجل، شكراً» (٢).

حديث آخر: قال (٣) [الحافظ] (٤) أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الرحيم بن بَحير ابن عبد اللّه بن معاوية بن بحير بن ريسان، [حدثنا عمرو بن الربيع بن طارقة] (٥)، حدثنا يحيى بن أيوب، حدثنا عبد اللّه (٦) بن عمر، عن الحكم بن عتيبة (٧)، عن إبراهيم النَّخَعي، عن الأسود بن يزيد، عن عمر بن الخطاب، رضى اللّه عنه، قال: خرج رسول اللّه ﷺ لحاجة فلم يجد أحداً يتبعه، ففزع عمر، فأتاه بِمطْهَرة من خلفه، فوجد النبي ﷺ ساجدا في مَشربة (٨)، فتنحّى عنه من خلفه حتى رفع النبي ﷺ رأسه، فقال: «أحسنت يا عمر حين وجدتني ساجدا فتنحيت عني، إن جبريل أتاني فقال: من صلى عليك من أمتك واحدة، صلى اللّه عليه عشر صلوات (٩)، ورفعه عشر درجات».

وقد اختار هذا الحديث الحافظ الضياء المقدسي في كتابه «المستخرج (١٠) على الصحيحين» (١١). وقد رواه إسماعيل القاضي، عن القعنبي، عن سلمة بن وَرْدان، عن أنس، عن عمر بنحوه (١٢). ورواه أيضا عن يعقوب بن حميد، عن أنس بن عياض، عن سلمة بن وَرْدان، عن مالك بن أوس بن الحدثان، عن عمر بن الخطاب، بنحوه (١٣).

حديث آخر: قال (١٤) أبو عيسى الترمذي: حدثنا بُنْدَار، حدثنا محمد بن خالد بن عَثْمَةَ، حدثني موسى بن يعقوب الزَّمْعيّ، حدثني عبد اللّه بن كَيْسَان؛ أن عبد اللّه بن شداد أخبره، عن عبد اللّه بن مسعود؛ أن رسول اللّه ﷺ قال: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة».

تفرد بروايته الترمذي، رحمه اللّه، ثم قال: هذا حديث حسن غريب (١٥).

حديث آخر: قال إسماعيل القاضي: حدثنا علي بن عبد اللّه، حدثنا سفيان، عن يعقوب بن زيد ابن طلحة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أتاني آت من ربي فقال لي: ما من عبد يصلي عليك صلاة إلا

---

(١) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(٢) المسند (١/ ١٩١).
(٣) في ت: «وروى».
(٤) زيادة من ت.
(٥) زيادة من المعجم الصغير.
(٦) في أ: «عبيد الله».
(٧) في أ: «عيينة».
(٨) في أ: «مسربة».
(٩) في ت، ف: «عشراً».
(١٠) في ف، أ: «المختارة».
(١١) المعجم الصغير (٢/ ٨٩) والمختارة برقم (٩٣). وقال الطبراني: «لم يروه عن عبيد الله بن عمر إلا يحيى بن أيوب، تفرد به عمرو ابن الربيع».
(١٢) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٤).
(١٣) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٥).
(١٤) في ت: «وروى».
(١٥) سنن الترمذي برقم (٤٨٤).

صلى الله عليه بها عشراً ». فقام رجل (١) فقال: يا رسول الله، ألا أجعل نصف دعائى لك؟ قال: «إن شئت». قال: ألا أجعل ثلثى دعائى لك؟ قال: «إن شئت». قال: ألا أجعل دعائى لك كله؟ قال: «إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة». فقال شيخ ـ كان بمكة، يقال له: مَنِيع (٢) ـ لسفيان: عمن أسنده؟ قال: لا أدرى (٣).

حديث آخر: قال إسماعيل القاضى: حدثنا سعيد بن سَلام العطار، حدثنا سفيان ـ يعنى: الثورى ـ عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبى بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ يخرج فى جوف الليل فيقول: « جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه ». قال أبى: يا رسول الله، إنى أصلى من الليل، أفأجعل لك ثلث صلاتى؟ قال رسول الله ﷺ: «الشطر». قال: أفأجعل لك شطر صلاَتى؟ قال رسول الله ﷺ: « الثلثان ». قال أفأجعل لك صلاتى كلها؟ قال: « إذن يغفر الله لك ذنبك كله » (٤).

وقد رواه (٥) الترمذى بنحوه فقال: حدثنا هَنّاد، حدثنا قَبِيصة، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن الطفيل بن أبى بن كعب، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: « ياأيها الناس، اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه ». قال أبى: قلت: يا رسول الله، إنى أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتى؟ قال: « ما شئت ». قلت: الربع؟ قال: « ما شئت، فإن زدت فهو خير لك ». قلت: فالنصف؟ قال: « ما شئت، فإن زدت فهو خير لك ». قلت: فالثلثين؟ قال: « ما شئت، فإن زدت فهو خير لك ». قلت: أجعل لك صلاتى كلها؟ قال: « إذن تكفى همّك، ويغفر لك ذنبك ».

ثم قال: هذا حديث حسن (٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن الطفيل بن أبى، عن أبيه قال: قال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن جعلتُ صلاتى كلها عليك؟ قال: « إذن يكفيك الله ما أهَمَّك من دنياك وآخرتك » (٧).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن سليمان مولى الحسن بن على، عن عبد الله بن أبى طلحة، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم، والسرور يرى فى وجهه، فقالوا: يا رسول الله، إنا لنرى السرور فى وجهك. فقال: « إنه أتانى الملك فقال: يامحمد، أما يرضيك أن ربك، عز وجل، يقول: إنه لا يصلى عليك أحد من أمتك

(١) فى أ: « فقام إليه رجل ».
(٢) فى أ: « سبع ».
(٣) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (١٣).
(٤) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (١٤).
(٥) فى ت: « وروى ».
(٦) سنن الترمذى برقم (٢٤٥٧).
(٧) المسند (٥/١٣٦).

إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً ؟ قال: بلى » .

ورواه النسائي من حديث حماد بن سلمة، به [١] . وقد رواه إسماعيل القاضي، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن أخيه، عن سليمان بن بلال، عن عُبَيد الله بن عمر، عن ثابت، عن أبي طلحة، بنحوه [٢] [٣] .

طريق أخرى : قال [الإمام] [٤] أحمد: حدثنا سُرَيْج [٥] ، حدثنا أبو مَعْشَر، عن إسحاق بن كعب بن عُجْرَة، عن أبي طلحة الأنصاري قال : أصبح رسول الله ﷺ يوما طيب النفس، يرى في وجهه البشر، قالوا : يا رسول الله، أصبحت اليوم طيب النفس، يرى في وجهك البشر ؟ قال : «أجل، أتاني آت من ربي، عز وجل، فقال : من صلى عليك من أمتك صلاة، كَتَب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، ورد عليه مثلها » [٦] .

هذا أيضا إسناد جيد، ولم يخرجوه .

حديث آخر : روى [٧] مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، من حديث إسماعيل بن جعفر، عن العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه ؛ عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال :قال رسول الله ﷺ : « من صلى عَلَيّ واحدة، صلى الله عليه بها عشراً » .

قال الترمذي :هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن عبد الرحمن بن عوف، وعامر بن ربيعة، وعمار، وأبي طلحة، وأنس، وأبي بن كعب [٨] .

وقال[٩] الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شريك، عن ليث، عن كعب، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « صلوا علي؛ فإنها زكاة لكم . وسلوا الله لي الوسيلة ؛ فإنها درجة في أعلى الجنة، لا ينالها إلا رجل، وأرجو أن أكون أنا هو » .

تفرد به أحمد [١٠] ، وقد رواه البزار من طريق مجاهد، عن أبي هريرة، بنحوه فقال: حدثنا محمد ابن إسحاق البَكَّالي، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا داود بن عُلَيَّة، عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هريرة قال :قال رسول الله ﷺ :« صلوا علي، فإنها زكاة لكم، وسلوا الله لي الدرجة الوسيلة من الجنة » فسألناه ـ أو :أخبرنا ـ فقال :« هي درجة في أعلى الجنة، وهي لرجل، وأنا أرجو أن أكون ذلك الرجل » .

---

(١) المسند (٤/ ٣٠) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٩٨٨٨) .
(٢) في ف : « بمثله » .
(٣) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (١) .
(٤) زيادة من ف . (٥) في أ : « شريح » .
(٦) المسند (٤/ ٢٩) .
(٧) في ت : « وروى » .
(٨) صحيح مسلم برقم (٤٠٨) وسنن أبي داود برقم (١٥٣٠) وسنن الترمذي برقم (٤٨٥) وسنن النسائي (٣/ ٥٠) .
(٩) في ت : « وروى » .
(١٠) المسند (٢/ ٣٦٥) .

فى إسناده بعض من تُكُلِّم فيه (١) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق ،حدثنا ابن لَهِيعة ،[عن عبد اللّه بن هبيرة](٢)،عن عبد الرحمن بن مَريج الخولانى ،سمعت أبا قيس ـ مولى عمرو بن العاص ـ سمعت عبد اللّه بن عمرو يقول : من صلى على رسول اللّه ﷺ صلاة ،صلى اللّه عليه وملائكته بها سبعين صلاة ،فَلْيُقِلَّ عبد من ذلك أو ليكثر . وسمعت عبد اللّه بن عمرو يقول : خرج علينا رسول اللّه ﷺ يوما كالمودع فقال : « أنا محمد النبى الأمى ـ قاله ثلاث مرات ـ ولا نبى بعدى ،أوتيت فواتح الكلام(٣) وخواتمه وجوامعه ،وعَلمتُ كم خزنة النار وحملة العرش ،وتجوز بى ،عُوفيت وعوفيت أمتى ،فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم ،فإذا ذُهِب بى فعليكم بكتاب اللّه ،أحلوا حلاله ،وحرموا حرامه » (٤) .

حديث آخر : قال أبو داود الطيالسى: حدثنا أبوسَلَمة الخراسانى ،حدثنا أبو إسحاق ،عن أنس قال :قال رسول اللّه ﷺ :« من ذُكرت عنده فَلْيصلّ على ،ومن صَلَّى على مرة واحدة صلى اللّه عليه عشراً » .

ورواه النسائى فى « اليوم والليلة » ،من حديث أبى داود الطيالسى ،عن أبى سلمة ـ وهو المغيرة ابن مسلم الخراسانى ـ عن أبى إسحاق عمرو بن عبد اللّه السَّبيعى ،عن أنس ، به (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن فضيل ،حدثنا يونس بن عمرو ـ يعنى : يونس بن أبى إسحاق ـ عن بُرَيد (٦) بن أبى مريم ،عن أنس قال :قال رسول اللّه ﷺ :« من صلى على صلاة واحدة ،صلى اللّه عليه عشر صلوات ،وحط عنه عشر خطيئات » (٧) .

حديث آخر : قال (٨) الإمام أحمد :حدثنا عبد الملك بن عمرو وأبو سعيد [قالا] (٩) : حدثنا سليمان بن بلال ،عن عمارة بن غَزِيَّة (١٠) ،عن عبد اللّه بن الحسين ،عن أبيه على بن الحسين ،عن أبيه ؛أن رسول اللّه ﷺ قال: « البخيل من ذُكرت عنده ،ثم لم يصل على» .وقال أبو سعيد :« فلم يصل على » .

ورواه الترمذى من حديث سليمان بن بلال ،ثم قال: هذا حديث حسن غريب صحيح (١١) .

ومن الرواة من جعله من مسند « الحسين بن على » ،ومنهم من جعله من مسند « على » نفسه .

---

(١) مسند البزار برقم (٣٦٣) « كشف الأستار » وقال الهيثمى : « فيه داود بن علية ،ضعفه ابن معين والنسائى وغيرهما ووثقه ابن نمير،وقال موسى بن داود الضبى :ثنا ذؤاد بن علبة وأثنى عليه خيرا ،وقال ابن عدى :هو فى جملة الضعفاء ممن يكتب حديثه » .كذا فيه ذؤاد بن علبة وهو الصواب .انظر :الكامل (٣/ ١٢١) والتهذيب (٣/ ٢٢١) والميزان (٢/ ٣٢) .

(٢) زيادة من ت ،ف ،أ ،والمسند .

(٣) فى ف ، أ : « الكلم » .

(٤) المسند (٢/ ١٧٢) .

(٥) السنن الكبرى برقم (٩٨٨٩) .

(٦) فى أ :« زيد » .

(٧) المسند (٣/ ١٠٢) .

(٨) فى ت :« وروى » .

(٩) زيادة من ت ،ف ، أ ، والمسند.

(١٠) فى أ : « نمير » .

(١١) المسند (١/ ٢٠١) .

حديث آخر : قال إسماعيل القاضى : حدثنا حجاج بن مِنْهال ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن معبد ابن هلال العَنَزى ، حدثنى رجل من أهل دمشق ، عن عوف بن مالك ، عن أبى ذر ، رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إن أبخل الناس من ذُكرت عنده فلم يصل على » (١) .

حديث آخر مرسل : قال إسماعيل : وحدثنا سليمان بن حَرب ، حدثنا جرير بن حازم ، سمعت الحسن يقول : قال رسول الله ﷺ : « بحسب امرئ من البخل أن أذْكر عنده فلا يُصَلِّى على » (٢) ، صلوات الله عليه .

حديث آخر : قال (٣) الترمذى : حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقى ، حدثنا رِبْعى بن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن سعيد بن أبى سعيد المَقْبُرى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على . [ورغم أَنف رجل دخل عليه شهر رمضان ، ثم انسلخ قبل أن يغفر له] (٤) ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة » . ثم قال : حسن غريب (٥) .

قلت : وقد رواه البخارى فى الأدب ، عن محمد بن عبيد الله ، حدثنا ابن أبى حازم ، عن كثير بن زيد ، عن الوليد بن رباح ، عن أبى هريرة مرفوعا ، بنحوه (٦) . ورويناه من حديث محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، به . قال الترمذى : وفى الباب عن جابر وأنس .

قلت : وابن عباس ، وكعب بن عُجْرَة ، وقد ذكرت طرق هذا الحديث فى أول كتاب الصيام وعند قوله تعالى : ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا﴾ [الإسراء : ٢٣].

وهذا الحديث والذى قبله دليل على وجوب الصلاة عليه ﷺ كلما ذكر، وهو مذهب طائفة من العلماء [منهم الطحاوى والحليمى] (٧)، ويتقوى بالحديث الآخر الذى (٨) رواه ابن ماجه :

حدثنا جبُارة بن المغَلِّس ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عمرو بن دينار ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من نسى الصلاة عَلَىَّ خَطِئ طريق الجنة » (٩) .

جبُارة ضعيف . ولكن رواه إسماعيل القاضى من غير وجه ، عن أبى جعفر محمد بن على الباقر قال : قال رسول الله ﷺ : « من نسى الصلاة علىّ خَطِئ طريق الجنة » . وهذا مرسل يتقوى بالذى قبله [والله أعلم] (١٠) (١١) .

وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة فى المجلس مرة واحدة ، ثم لا تجب فى بقية ذلك المجلس، بل

---

(١) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٣٧) .
(٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٣٨) .
(٣) فى ت : « وروى » .
(٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والترمذى .
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٥٤٥) .
(٦) الأدب المفرد للبخارى برقم (٢١) .
(٧) زيادة من ت ، ف ، أ .
(٨) فى ت: « بما » .
(٩) سنن ابن ماجة برقم (٩٠٨) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/٣١٣): « هذا إسناد ضعيف لضعف جبارة بن المغلس » .
(١٠) زيادة من ف ، أ .
(١١) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٤١) .

تستحب .نقله الترمذى عن بعضهم ،ويتأيد بالحديث الذى رواه الترمذى :

حدثنا محمد بن بشار ،حدثنا عبد الرحمن ،حدثنا سفيان ،عن صالح ـ مولى التَّوْأمة ـ عن أبى هريرة ،عن النبى ﷺ قال :« ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا اللّه فيه ،ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم تِرَةٌ ،فإن شاء عذبهم ،وإن شاء غفر لهم » .

تفرد به الترمذى من هذا الوجه .ورواه الإمام أحمد عن حجاج ويزيد بن هارون ،كلاهما عن ابن أبى ذئب ،عن صالح ـ مولى التوأمة ـ عن أبى هريرة ،مرفوعا مثله .ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

وقد رُوى عن أبى هريرة ،عن النبى ﷺ ،من غير وجه ،وقد رواه إسماعيل القاضى من حديث شعبة ،عن سليمان ،عن ذَكْوَان ،عن أبى سعيد قال :« ما من قوم يقعدون ثم يقومون ولا يصلون على النبى ﷺ ،إلا كان عليهم حسرة ،وإن دخلوا الجنة لَمَا يرون [من] (٢) الثواب » (٣) .

وحكى عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه ،عليه السلام ،فى العمر مرة واحدة ،امتثالا لأمر الآية ،ثم هى مستحبة فى كل حال ،وهذا هو الذى نصره القاضى عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ فى الجملة .قال : وقد حكى الطبرانى (٤) أن محمل الآية على الندب،وادعى فيه الإجماع .قال: ولعله فيما زاد على المرة ،والواجب منه مرة كالشهادة له بالنبوة،وما زاد على ذلك فمندوب مُرَغَّب فيه من سنن الإسلام ،وشعار أهله .

قلت : وهذا قول غريب ،فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه فى أوقات كثيرة ،فمنها واجب ،ومنها مستحب على ما نبينه .

فمنه : بعد النداء للصلاة ؛للحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ،حدثنا حيوة ،حدثنا كعب بن علقمة ،أنه سمع عبد الرحمن بن جبير يقول :إنه سمع (٥) عبد اللّه بن عمرو بن العاص يقول :إنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول :« إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىَّ ؛فإنه من صلى عَلَىَّ صلاةً صلى اللّه عليه بها عشرا ،ثم سلوا لى الوسيلة ،فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد اللّه ،وأرجو أن أكون أنا هو ،فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه (٦) الشفاعة » .

وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ،من حديث كعب بن علقمة (٧) .

طريق أخرى : قال إسماعيل القاضى :حدثنا محمد بن أبى بكر ،حدثنا عمرو بن على ،عن أبى

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣٣٨٠) والمسند (٢/ ٤٥٣) .
(٢) زيادة من ت ، ف ، أ ، وفضل الصلاة .
(٣) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٥٥) .
(٤) فى ت : « الطبرى » .
(٥) فى ت : « عن » .
(٦) فى ت : « له » .
(٧) المسند (٢/ ١٦٨) وصحيح مسلم برقم (٣٨٤) وسنن أبى داود برقم (٥٢٣) وسنن الترمذى برقم (٣٦١٤) وسنن النسائى (٢/ ٢٥) .

بكر الجُشَمى ،عن صفوان بن سليم ،عن عبد اللّه بن عمرو قال: قال رسول اللّه ﷺ : « من سأل اللّه لى الوسيلة ،حقَّت عليه شفاعتى يوم القيامة » (١) .

حديث آخر :قال إسماعيل القاضى :حدثنا سليمان (٢) بن حرب ،حدثنا سعيد بن زيد ،عن ليث، عن كعب ـ هو كعب الأحبار ـ عن أبى هريرة ،رضى اللّه عنه ، قال: قال رسول اللّه ﷺ : «صلوا عَلَىَّ ،فإن صلاتكم علىّ زكاة لكم ،وسلوا اللّه لى الوسيلة » .قال :فإما حَدّثنا وإما سألناه ، فقال : « الوسيلة أعلى درجة فى الجنة ،لا ينالها إلا رجل ،وأرجو أن أكون ذلك (٣) الرجل » .

ثم رواه عن محمد بن أبى بكر ،عن معتمر ،عن ليث ـ وهو ابن أبى سليم ـ به (٤) .وكذا الحديث الآخر:

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ،حدثنا ابن لَهِيعة ،حدثنا بكر بن سوادة ،عن زياد بن نعيم ،عن وَفاء (٥) الحضرمى ،عن رُوَيْفع بن ثابت الأنصارى ؛أن رسول اللّه ﷺ قال : « من صلى على محمد وقال : اللهم،أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة ،وجبت له شفاعتى » .

وهذا إسناد لا بأس به ،ولم يخرجوه (٦) .

أثر آخر (٧) : قال إسماعيل القاضى :حدثنا على بن عبد اللّه ،حدثنا سفيان ،حدثنى مَعْمَر ، عن ابن (٨) طاوس ،عن أبيه ،سمعت ابن عباس يقول: اللهم تقبل شفاعة محمد الكبرى ،وارفع درجته العليا ،وأعطه سُؤْلَه فى الآخرة والأولى ،كما آتيت إبراهيم وموسى ،عليهما السلام .إسناد جيّد قوى صحيح (٩) .

ومن ذلك : عند دخول المسجد والخروج منه :للحديث الذى رواه الإمام أحمد (١٠) :

حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ،حدثنا ليث بن أبى سليم ،عن عبد اللّه بن الحسن (١١) ،عن أمه فاطمة بنت الحسين ،عن جدته [فاطمة] (١٢) بنت رسول اللّه ﷺ قالت :كان رسول اللّه ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم وقال :« اللّهم اغفر لى ذنوبى ،وافتح لى أبواب رحمتك». وإذا خرج صلى على محمد وسلم ،ثم قال : « اللهم اغفر لى ذنوبى ،وافتح لى أبواب فضلك » (١٣) .

وقال إسماعيل القاضى :حدثنا يحيى بن عبد الحميد ،حدثنا سفيان (١٤) بن عمر التميمى ،عن

(١) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٥٠) .
(٢) فى أ : « سليم » . (٣) فى ف ، أ : « أكون أنا ذلك » .
(٤) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٤٦ ، ٤٧) .
(٥) فى ف ، أ : « ورقاء » .
(٦) المسند (٤/١٠٨) .
(٧) فى أ : « حسن » . (٨) فى أ : « أبى » .
(٩) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٥٢) .
(١٠) فى ت : « ومنه عند دخول المسجد لما روى الإمام أحمد » .
(١١) فى ت ، أ : « الحسين » . (١٢) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .
(١٣) المسند (٦/٢٨٢) .
(١٤) فى أ: « سيف » .

سليمان الضَّبِّىّ ،عن على بن الحسين قال :قال على بن أبى طالب ،رضى اللّه عنه [١] : إذا مررتم بالمساجد فصلوا على النبى ﷺ [٢] .

وأما الصلاة عليه ﷺ فى الصلاة ،فقد قدمنا الكلام عليها فى التشهد الأخير ،ومن ذهب إلى ذلك من العلماء مع [٣] الشافعى ،رحمه اللّه [٤] .وأما التشهد الأول فلا تجب فيه قولا واحدا ، وهل تستحب ؟ على قولين للشافعى .

ومن ذلك [٥] :الصلاة عليه ﷺ فى صلاة الجنازة : فإن السنة أن يقرأ فى التكبيرة الأولى فاتحة الكتاب ،وفى الثانية يصلى على النبى ﷺ ،وفى الثالثة يدعو للميت ،وفى الرابعة يقول : اللهم لا تحرمنا أجره ،ولا تفتنا بعده .

قال الشافعى ،رحمه اللّه :حدثنا مُطَرِّف بن مازن ،عن مَعْمَر ،عن الزهرى : أخبرنى أبو أمامة ابن [٦] سهل بن حُنَيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبى ﷺ : أن السنة فى الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام ،ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا فى نفسه ثم يصلى على النبى ﷺ ويخلص الدعاء للجنازة ،وفى التكبيرات لايقرأ فى شىء منها ،ثم يسلم سرا فى نفسه [٧] .

ورواه النسائى ،عن أبى أمامة نفسه أنه قال :من السنة ،فذكره [٨] .

وهذا من الصحابى فى حكم المرفوع على الصحيح .

ورواه إسماعيل القاضى ، عن محمد بن المثنى ،عن عبد الأعلى ،عن معمر ،عن الزهرى ،عن أبى أمامة بن سهل ،عن سعيد بن المسيب أنه قال : السنة فى الصلاة على الجنازة . . . فذكره [٩] .

وهكذا رُوى عن أبى هريرة ، وابن عمر ،والشعبى .

ومن ذلك [١٠] : فى صلاة العيد : قال إسماعيل القاضى [١١] :حدثنا مسلم بن إبراهيم،حدثنا هشام الدَّسْتَوَائى ،حدثنا حَمَّاد بن أبى سليمان ،عن إبراهيم ،عن [١٢] علقمة :أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد [١٣] ،فقال لهم :إن هذا العيد قد دنا،فكيف التكبير فيه ؟ قال عبد اللّه : تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة ،وتحمد ربك وتصلى على

---

(١) فى ت : « وعن على بن أبى طالب ،رضى الله عنه ، قال » .
(٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٨٠) .
(٣) فى ت ،أ: « منهم » .
(٤) فى ت ، أ : « مع الشافعى وأحمد ،رحمهما اللّه » .
(٥) فى ت : « ومنه » .
(٦) فى ت : « فروى الشافعى ،رحمه اللّه ، بإسناده عن » .
(٧) الأم (١/ ٢٣٩) .
(٨) سنن النسائى (٤/ ٧٥) .
(٩) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٩٤) .
(١٠) فى ت :« ومنه الصلاة على النبى ﷺ » .
(١١) فى ت : « روى القاضى إسماعيل » .
(١٢) فى ت : « بن » .
(١٣) فى ت ،أ : « عقبة صلى العيد يوما » .

النبى ﷺ ،ثم تدعو ،وتكبر وتفعل مثل ذلك ،ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ،ثم تكبر وتفعل مثل ذلك،ثم تقرأ ثم تكبر وتركع ،ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلى على النبى ﷺ ثم تدعو وتكبر،وتفعل مثل ذلك ،ثم تركع . فقال حذيفة وأبو موسى : صدق أبو عبد الرحمن .إسناد (١) صحيح (٢) .

ومن ذلك : أنه يُستَحَبّ ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ قال الترمذى :

حدثنا أبو داود ، أخبرنا النضر بن شميل (٣) ، عن أبى قُرّة الأسدى ،عن سعيد بن المسيَّب ،عن عمر بن الخطاب (٤) قال :الدعاء موقوف بين السماء والأرض ،لا يصعد منه شيء حتى تصلى على نبيك (٥) .

وهكذا رواه أيوب بن موسى ،عن سعيد بن المسيب ، عن عمر بن الخطاب ،قوله.ورواه معاذ بن الحارث ،عن أبى قرة ،عن سعيد بن المسيب ،عن عمر مرفوعا (٦) .وكذا رواه رَزين بن معاوية (٧) فى كتابه مرفوعاً ،عن النبى ﷺ قال :« الدعاء موقوف بين السماء والأرض ،لا يصعد حتى يصلى على،فلا تجعلونى كغُمَر الراكب ،صلوا على أول الدعاء وأوسطه وآخره » (٨) .

وهذه الزيادة إنما تروى من رواية جابر بن عبد اللّه فى مسند الإمام عبد بن حُميد الكَشى [حيث](٩) قال :حدثنا جعفر بن عون ،أخبرنا موسى بن عبيدة ،عن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم،عن أبيه قال:قال جابر : قال لنا رسول اللّه ﷺ : « لا تجعلونى كقدح الراكب ،إذا علق تعاليقه أخذ قدحه فملأه من الماء ،فإن كان له حاجة فى الوضوء توضأ ،وإن كان له حاجة فى الشرب شرب وإلا أهراق ما فيه ،اجعلونى فى أول الدعاء ،وفى وسط الدعاء ،وفى آخر الدعاء » .فهذا حديث غريب ، وموسى بن عُبيَدة ضعيف الحديث (١٠) .

ومن [آكد] (١١) ذلك :دعاء القنوت:لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن ،وابن خزيمة (١٢) ، وابن حبَّان ،والحاكم ،من حديث أبى الحوراَء (١٣) ،عن الحسن بن على ،رضى اللّه عنهما ،قال: علَّمَنى رسول اللّه ﷺ كلمات أقولهن فى الوتر :« اللهم اهدنى فيمن هديت ،وعافنى فيمن عافيت ،

---

(١) فى ت ،ف ، أ : « إسناده » .

(٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٨٨) .

(٣) فى أ : « سهيل » .

(٤) فى ت : « روى الترمذى بإسناده عن عمر بن الخطاب » .

(٥) سنن الترمذى برقم (٤٨٦) .

(٦) أخرجه الواحدى ومن طريقه الحافظ الرهاوى فى الأربعين كما فى تخريج الكشاف للحافظ ابن حجر (ص ١٣٧) .

(٧) فى ت : « ورواه رزين بن أبى معاوية » .

(٨) ذكره ابن الأثير فى جامع الأصول (٤/ ١٥٥) رواية رزين .

(٩) زيادة من ف ،أ .

(١٠) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١١٣٠) ورواه البزار فى مسنده برقم (٣١٥٦) « كشف الأستار » من طريق موسى بن عبيدة به .

(١١) زيادة من ت ، أ .

(١٢) فى أ : « وابن جرير » .

(١٣) فى أ : « الجوزاء » .

وتولني فيمن توليت، وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، فإنك تقضى ولا يقضى عليك، إنه لا يَذِلّ من واليت (١)، تباركت [ربنا] (٢) وتعاليت » (٣).

وزاد النسائي في سننه بعد هذا: وصلى الله على النبي محمد.

ومن ذلك: أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه [في] (٤) يوم الجمعة وليلة الجمعة: قال الإمام أحمد: حدثنا حسين بن على الجَعْفِي، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن أبي الأشعث الصنعاني(٥)، عن أوس بن أوس الثقفي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا على من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة على ». قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرَمّتْ؟ ـ يعني: وقد بليت ـ قال: « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ».

ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، من حديث حسين بن علي الجعفي (٦). وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطني، والنووي في الأذكار.

حديث آخر: قال أبو عبد الله بن ماجه: حدثنا عمرو بن سَوَّاد المصري (٧)، حدثنا عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أيمن (٨)، عن عُبَادة بن نُسَيّ، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: « أكثروا الصلاة عليّ يوم الجمعة؛ فإنه مشهود تشهده الملائكة. وإن أحداً لن يصلي علي إلا عُرضت عَلَيّ صلاته حتى يفرغ منها ». قال: قلت: وبعد الموت؟ قال: « [وبعد الموت] (٩)، إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » [فنبي الله حي يرزق] (١٠).

هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفيه انقطاع بين عُبادة بن نَسي وأبي الدرداء، فإنه لم يدركه(١١)، والله أعلم.

وقد روى البيهقي من حديث أبي أمامة وأبي مسعود، عن النبي ﷺ في الأمر بالإكثار من الصلاة عليه ليلة الجمعة ويوم الجمعة (١٢)، ولكن في إسنادهما ضعف، والله أعلم. وروى مرسلا عن الحسن

---

(١) في ف، أ: « واليت، ولا يعز من عاديت ».
(٢) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(٣) المسند (١/ ١٩٩) وسنن أبي داود برقم (١٤٢٥) وسنن الترمذي برقم (٤٦٤) وسنن النسائي (٣/ ٢٤٨) وسنن ابن ماجة برقم (١١٧٨) وصحيح ابن خزيمة (١٠٩٥) وصحيح ابن حبان (٢/ ١٤٨) والمستدرك (٣/ ١٧١).
(٤) زيادة من ت.
(٥) في ت: « روى الإمام أحمد بإسناده ».
(٦) المسند (٤/ ٨) وسنن أبي داود برقم (١٠٤٧) وسنن النسائي (٣/ ٩١) وسنن ابن ماجة برقم (١٦٣٦).
(٧) في أ: « عمرو بن ندار المقرى ».
(٨) في ف: « ثابت ».
(٩، ١٠) زيادة من ت، ف، وابن ماجة.
(١١) سنن ابن ماجة برقم (١٦٣٧).
(١٢) السنن الكبرى للبيهقي (٣/ ٢٤٩) من حديث أبي أمامة، رضي الله عنه، ولم أجده عنده من حديث أبي مسعود وإنما هو من حديث أنس، رضي الله عنه.

البصرى، فقال إسماعيل القاضى :

حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا جرير بن حازم، سمعت الحسن ـ هو البصرى ـ يقول : قال رسول الله ﷺ : « لا تأكل الأرض جَسَدَ من كَلّمه (١) روحُ القدس » . مرسل حسن (٢) .

وقال الشافعى : أخبرنا إبراهيم بن محمد، أخبرنا صفوان بن سليم (٣) أن النبى ﷺ قال : « إذا كان يوم الجمعة وليلة الجمعة، فأكثروا الصلاة على » . هذا مرسل (٤) .

وهكذا يجب على الخطيب أن يصلى على النبى ﷺ يوم الجمعة على المنبر فى الخطبتين، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك ؛ لأنها (٥) عبادة، وذكر الله فيها شرط(٦)، فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة . هذا مذهب الشافعى وأحمد، رحمهما الله .

ومن ذلك : أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره، صلوات الله وسلامه عليه : قال(٧) أبو داود :

حدثنا ابن عوف ـ هو محمد ـ حدثنا (٨) المقرى ، حدثنا حَيْوَة ، عن أبى صخر حميد بن زياد، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيط ، عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « ما من (٩) أحد يسلم على إلا رَدّ الله على روحى ، حتى أرد عليه السلام » .

تفرد به أبو داود، وصححه النووى فى الأذكار (١٠) . ثم قال (١١) أبو داود :

حدثنا أحمد بن صالح قال : قرأت على عبد الله بن نافع، أخبرنى ابن أبى ذئب، عن سعيد المَقْبرِى ، عن أبى هريرة قال : قال رسولُ الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قُبُوراً ، ولا تجعلوا قبرى عيداً، وصلوا على، فإن صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم » .

تفرد به أبو داود أيضا (١٢) . وقد رواه الإمام أحمد عن سُرَيْج ، عن عبد الله بن نافع ـ وهو الصائغ ـ به (١٣) . وصححه النووى أيضاً . وقد روى من وجه آخر عن على، رضى الله عنه . قال القاضى إسماعيل (١٤) بن إسحاق فى كتابه « فضل الصلاة على النبى ﷺ » :

حدثنا إسماعيل بن أبى أُوَيْس، حدثنا جعفر بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب [عمن أخبره](١٥) من أهل بيته ، عن على بن الحسين بن على : أن رجلا كان يأتى كل

(١) فى أ: « كلم » .
(٢) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٢٣) .
(٣) فى أ : « صفوان بن أبى سليم » .
(٤) الأم (١/ ١٨٤) .
(٥) فى ت : « لأنهما » .
(٦) فى ت : « مشروط » .
(٧) فى ت : « فروى » .
(٨) فى أ : « بن » .
(٩) فى أ : « ما منكم من » .
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٠٤١) .
(١١) فى ت : « روى » .
(١٢) سنن أبى داود برقم (٢٠٤٢) .
(١٣) المسند (٢/ ٣٦٧) .
(١٤) فى أ : « القاضى ابن إسماعيل » .
(١٥) زيادة من أ ، وفى هـ : « عن أخيه » والمثبت من ت ، ف ، أ .

غداة فيزور قبر النبي ﷺ ويصلي عليه، ويصنع من ذلك ما اشتهر عليه علي بن الحسين، فقال له علي ابن الحسين: ما يحملك على هذا؟ قال: أحب السلام على النبي ﷺ. فقال له علي بن الحسين: هل لك أن أحدثك حديثا عن أبي؟ قال: نعم. فقال له علي بن الحسين: أخبرني أبي، عن جدي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تجعلوا قبري عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي وسلموا حيثما كنتم فتبلغني (١) صلاتكم وسلامكم ».

في إسناده رجل مبهم لم يُسَمَّ (٢). وقد رُوي من وجه آخر مرسلا، قال عبد الرزاق في مصنفه، عن الثوري، عن ابن عَجْلان، عن رجل ـ يقال له: سهيل ـ عن الحسن بن الحسن بن علي؛ أنه رأى قوماً عند القبر فنهاهم، وقال: إن النبي ﷺ قال: « لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً، وصلوا علي حيثما كنتم؛ فإن صلاتكم تبلغني » (٣). فلعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم [فوق الحاجة] (٤)، فنهاهم.

وقد رُوي أنه رأى رجلا ينتاب القبر فقال: يا هذا، ما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء، أي: الجميع يبلغه، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وقال الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا أحمد بن رِشْدين المصري، حدثنا سعيد بن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر، أخبرني حميد بن أبي زينب، عن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: « صلوا علي حيثما كنتم، فإن صلاتكم تبلغني »(٥).

ثم قال الطبراني: حدثنا العباس بن حمدان الأصبهاني، حدثنا شعيب بن عبد الحميد الطحان، أخبرنا يزيد بن هارون عن (٦) شيبان، عن الحكم بن عبد الله بن خطاف (٧)، عن أم أنيس بنت الحسن بن علي، عن أبيها قال: قال رسول الله ﷺ: « أرأيت قول الله، عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**﴾؟» فقال: « إن هذا من المكتوم، ولولا أنكم سألتموني عنه لما أخبرتكم، إن الله وكل بي ملكين لا أذكر عند عبد مسلم فيصلي علي إلا قال ذانك الملكان: « غفر الله لك ». وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين: « آمين ». ولا يصلي أحد إلا قال ذانك الملكان: «غفر الله لك». ويقول الله وملائكته جوابا لذينك الملكين: « آمين ».

غريب جداً، وإسناده فيه ضعف شديد (٨).

---

(١) في ف، أ: « فستبلغني ».
(٢) فضل الصلاة على النبي ﷺ برقم (٢٠).
(٣) المصنف برقم (٦٧٢٦).
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) المعجم الكبير (٣/ ٨٢) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٦٢): « فيه حميد بن أبي زينب لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح ».
(٦) في هـ، ت، أ، ف: « بن أبي » والصواب ما أثبتناه من المعجم الكبير للطبراني.
(٧) في هـ، ت، أ، ف: « خطاب » والصواب ما أثبتناه من المعجم الكبير للطبراني وكتب الرجال.
(٨) المعجم الكبير (٣/ ٨٩) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٩٣): « فيه الحكم بن عبد الله بن خطاف وهو كذاب ».

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ،عن سفيان ،عن عبد الله بن السائب ،عن زاذان ،عن عبد الله بن مسعود ،رضى الله عنه ؛أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله ملائكة سياحين فى الأرض،يبلغونى من (١) أمتى السلام».

وهكذا رواه النسائى من حديث سفيان الثورى وسليمان بن مِهْرَان الأعمش،كلاهما عن عبد الله ابن السائب ،به (٢) .

فأما الحديث الآخر : « من صلى عَلَيّ عند قبرى سمعته ،ومن صلى على من بعيد بُلغته » ـ ففى إسناده نظر ، تفرد به محمد بن مروان السدى الصغير،وهو متروك ،عن الأعمش ،عن أبى صالح،عن أبى هريرة مرفوعاً (٣) .

قال أصحابنا :ويستحب للمحرم إذا لبى وفرغ من تلبيته أن يصلى على النبى ﷺ : لما روى (٤) عن الشافعى والدارقطنى من رواية صالح بن محمد بن زائدة ،عن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق قال :كان يُؤمر الرجل إذا فرغ من تلبيته أن يصلى على النبي ﷺ على كل حال (٥) .

وقال إسماعيل القاضى :حدثنا عارم بن الفضل ،حدثنا عبد الله بن المبارك ،حدثنا زكريا ،عن الشعبى ،عن وهب بن الأجدع قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول :إذا قدمتم فطوفوا بالبيت سبعاً،وصلوا عند المقام ركعتين ،ثم ائتوا الصفا فقوموا عليه من حيث ترون البيت ،فكبروا سبع تكبيرات ،تكبيرا بين حمد الله وثناء عليه ،وصلاة على النبى ﷺ ،ومسألة لنفسك ،وعلى المروة مثل ذلك (٦) .

إسناد جيد حسن قوى .

وقالوا : ويستحب الصلاة على النبى ﷺ مع ذكر الله عند الذبح:واستأنسوا بقوله (٧) تعالى:﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : ٤]،قال بعض المفسرين :يقول الله تعالى : « لا أذكر إلا ذكرت معى » .وخالفهم فى ذلك الجمهور ،وقالوا : هذا موطن يفرد فيه ذكر الرب تعالى ،كما عند الأكل،والدخول ،والوقاع وغير ذلك ،مما لم ترد فيه السنة بالصلاة على النبى ﷺ .

حديث آخر:قال إسماعيل القاضى : حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى ،حدثنا عمر بن هارون،عن موسى بن عبيدة ،عن محمد بن ثابت ،عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «صلوا على أنبياء الله ورسله ؛ فإن الله بعثهم كما بعثنى» .

فى إسناده ضعيفان ،وهما عمر بن هارون وشيخه (٨) ،والله أعلم .وقد رواه عبد الرزاق ،عن الثورى ،عن موسى بن عبيدة الرَّبَذى ، به (٩) .

---

(١) فى ف ، أ : « عن » .

(٢) المسند (١/ ٤٤١) وسنن النسائى (٣/ ٤٣) .

(٣) أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد (٣/ ٢٩٢) من طريق الأصمعى عن السدى به ،ثم روى بإسناده عن ابن قتيبة قال : سألت ابن نمير عن حديث :« من صلى عليَّ عند قبرى » فقال : «دع ذا ،محمد بن مروان ليس بشىء» .

(٤) فى ت : « لما رواه » .

(٥) الأم (٢/ ١٣٤) .

(٦) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٨١) .

(٧) فى ف : « بقول الله » .

(٨) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٤٥) وعمر بن هارون متروك ،وموسى بن عبيدة ضعيف .

(٩) المصنف لعبد الرزاق برقم (٣١١٨) .

ومن ذلك : أنه يستحب الصلاة عليه عند طنين الأذن ، إن صح الخبر فى ذلك ، على أن الإمام أبا بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة قد رواه فى صحيحه فقال : حدثنا زياد بن يحيى ، حدثنا مَعْمَر بن محمد بن عبيد اللّه ، عن أبيه محمد (١) ، عن أبيه أبى رافع (٢) قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا طنت أذن أحدكم فَلْيذكرنى وليصل على ، وَلْيَقُل : ذَكَر اللّه مَن ذكرنى بخير » . إسناده غريب ، وفى ثبوته نظر (٣) ، واللّه أعلم .

[وهاهنا مسألة] (٤) :

وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبى ﷺ كلما كتبه ، وقد ورد فى الحديث من طريق كادح بن رحمة ، عن نَهْشَل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال: قال رسول اللّه ﷺ : «من صلى علىّ فى كتاب ، لم تزل الصلاة جارية له ما دام اسمى فى ذلك الكتاب » (٥) .

وليس هذا الحديث بصحيح من وجوه كثيرة ، وقد رُوى من حديث أبى هريرة ، ولا يصح أيضاً(٦) ، قال الحافظ أبو عبد اللّه الذهبى شيخُنا : أحسبه موضوعاً . وقد رُوى نَحوُه عن أبى بكر ، وابن عباس . ولا يصح من ذلك شيء (٧) ، واللّه أعلم . وقد ذكر الخطيب البغدادى فى كتابه : « الجامع لآداب الراوى والسامع (٨) » ، قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه اللّه : كثيراً ما يكتب اسم النبى ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة ، قال : وبلغنى أنه كان يصلى عليه لفظاً (٩) .

[فصل] (١٠)

وأما الصلاة على غير الأنبياء ، فإن كانت (١١) على سبيل التبعية كما تقدم فى الحديث : « اللهم ، صل على محمد وآله وأزواجه وذريته » ، فهذا جائز بالإجماع ، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم :

---

(١) فى هـ ، ت ، ف ، أ : « عن على بن أبى رافع » والصواب ما أثبتناه .

(٢) فى ت : « بإسناده عن أبى رافع » .

(٣) ورواه الطبرانى فى المعجم الصغير (٢/ ١٢٠) وابن عدى فى الكامل (٦/ ٤٥١) من طريق معمر به ، وقال ابن عدى : « معمر بن محمد بن عبيد الله بن أبى رافع عن أبيه منكر الحديث ، ومقدار ما يرويه لا يتابع عليه » .

(٤) زيادة من ت .

(٥) أخرجه أبو القاسم الأصبهانى فى الترغيب والترهيب برقم (١٦٩٩) من طريق أحمد بن جعفر الهاشمى عن سليمان بن الربيع عن كادح بن رحمة به .

(٦) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٢٣٤) « مجمع البحرين » من طريق يزيد بن عياض عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه .

(٧) أما حديث ابن عباس فسبق ، وأما حديث أبى بكر فرواه ابن عدى فى الكامل (٣/ ٢٤٩) من طريق أبى داود النخعى ، عن أيوب بن موسى ، عن القاسم ، عن أبى بكر ، رضى اللّه عنه ، وداود النخعى وضاع .

(٨) فى ت : « والسائل » .

(٩) الجامع لأخلاق الراوى (١/ ٢٧١) ثم قال عقبه : « وقد خالفه غيره من الأئمة المتقدمين فى ذلك » .

(١٠) زيادة من ف ، أ .

(١١) فى ت ، ف ، أ : « كان » .

فقال قائلون : يجوز ذلك ، واحتجوا بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ ﴾، وبقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة : ١٥٧]، وبقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا (١) وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣] ، وبحديث عبد الله بن أبى أوْفَى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال :« اللهم صَلِّ عليهم » . وأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » . أخرجاه فى الصحيحين. وبحديث جابر : أن امرأته قالت : يا رسول الله ، صل عَلَيَّ وعلى زوجي. فقال : « صلى الله عليكِ وعلى زوجك » (٢) .

وقال الجمهور من العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة ؛ لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا ، فلا يلحق بهم غيرهم ، فلا يقال :« قال أبو بكر صلى الله عليه » . أو:« قال على صلى الله عليه » . وإن كان المعنى صحيحاً ، كما لا يقال : « قال محمد ، عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلا ؛ لأن هذا من شعار ذكر الله ، عز وجل . وحملوا ما ورد فى ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ؛ ولهذا لم يثبت شعارا لآل أبى أوفى ، ولا لجابر وامرأته . وهذا مسلك حسن .

وقال آخرون: لا يجوز ذلك ؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم ، فلا يقتدى بهم فى ذلك ، والله أعلم .

ثم اختلف المانعون من ذلك : هل هو من باب التحريم ، أو الكراهة التنزيهية ، أو خلاف الأولى ؟ على ثلاثة أقوال ، حكاها الشيخ أبو زكريا النووى فى كتاب الأذكار . ثم قال: والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه ؛ لأنه شعار أهل البدع ، وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود . قال أصحابنا : والمعتمد فى ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة فى اللسان (٣) بالأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، كما أن قولنا :« عز وجل » ، مخصوص بالله سبحانه وتعالى، فكما لا يقال :« محمد عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلا ، لا يقال: « أبو بكر ـ أو : على ـ صلى الله عليه» . هذا لفظه بحروفه . قال : وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجُوَينى من أصحابنا : هو فى معنى الصلاة ، فلا يستعمل فى الغائب ، ولا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال :« على عليه السلام» ، وسواء فى هذا الأحياء والأموات ، وأما الحاضر فيخاطب به ، فيقال : سلام عليكم ، أو سلام عليك ، أو السلام عليك أو عليكم . وهذا مجمع عليه . انتهى ما ذكره (٤) .

قلت : وقد غلب هذا فى عبارة كثير من النساخ للكتب ، أن يفرد على ، رضى الله عنه ، بأن يقال: « عليه السلام » ، من دون سائر الصحابة ، أو :« كرم الله وجهه » وهذا وإن كان معناه

---

(١) فى ت ، ف : « تطهرهم بها وتزكيهم » وهو خطأ .

(٢) تقدم تخريج هذين الحديثين فى هذه السورة .

(٣) فى ت ، ف ، أ : « فى لسان السلف » .

(٤) الأذكار ص (١٥٩، ١٦٠) .

صحيحاً ، لكن ينبغى أن يُسَاوى بين الصحابة فى ذلك ؛ فإن هذا من باب التعظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان [بن عفان] (١) أولى بذلك منه ، رضى الله عنهم أجمعين .

قال إسماعيل القاضى : حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنى عثمان بن حكيم بن عَبَّاد بن حُنَيف ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : لا تصح (٢) الصلاة على أحد إلا على النبى ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة (٣) (٤) .

وقال أيضاً : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا حسين بن على ، عن جعفر بن بَرْقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله : أما بعد ، فإن أناسا من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة ، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا فى الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدْلَ الصلاة على النبى ﷺ ، فإذا جاءك كتابى هذا فمُرْهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة ، ويدعوا ما سوى ذلك . أثر حسن (٥) .

قال إسماعيل القاضى : حدثنا معاذ بن أسد ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا ابن لَهِيعة ، حدثنى خالد بن يَزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن نُبَيه بن وهب ؛ أن كعباً دخل على عائشة ، رضى الله عنها ، فذكروا رسول الله ﷺ ، فقال كعب : ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبى ﷺ ، سبعون ألفاً بالليل ، وسبعون ألفاً بالنهار، حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يزفونه (٦) .

[فرع] (٧) :

قال النووى : إذا صلى على النبى ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول : « صلى الله عليه فقط » ، ولا : « عليه السلام » فقط ، وهذا الذى قاله منتزع من هذه الآية الكريمة ، وهى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾، فالأولى أن يقال : ﷺ تسليما .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) ﴾ .

(١) زيادة من ف .
(٢) فى ت ، ف ، أ : « لا تصلح » .
(٣) فى ت ، ف ، أ: « بالاستغفار » .
(٤) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٧٥) ولفظه عنده « لا تصلوا على أحد إلا على النبى ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالاستغفار ».
(٥) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (٧٦) .
(٦) فضل الصلاة على النبى ﷺ برقم (١٠٢) .
(٧) زيادة من : ت ، أ .

يقول تعالى : متهدداً ومتوعداً مَن آذاه ، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره وإصراره على ذلك ، وأذَى رسوله بعيب أو تنقص ، عياذا بالله من ذلك .

قال عِكْرِمة في قوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَه** ﴾ : نزلت في المصوّرين .

وفي الصحيحين ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيَّب ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله ، عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يَسُبّ الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » [١] .

ومعنى هذا : أن الجاهلية كانوا يقولون : يا خيبة الدهر ، فعل بنا كذا وكذا . فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ، ويسبونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله ،عز وجل ، فنهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من العلماء ، رحمهم الله .

وقال العَوْفي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَه** ﴾ : نزلت في الذين طعنوا [على النبي ﷺ] [٢] في تزويجه صفية بنت حُيَي بن أخطب .

والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ، من آذاه فقد آذى الله،ومن [٣] أطاعه فقد أطاع الله ، كما قال [٤] الإمام أحمد :

حدثنا يونس ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن عَبيدة بن أبي رائطة الحذاء التميمي ، عن عبد الرحمن [بن زياد] [٥] ، عن عبد الله بن المغفل المزني قال : قال النبي ﷺ : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غَرَضا بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » .

وقد رواه الترمذي من حديث عَبيدة بن أبي رائطة ، عن عبد الرحمن بن زياد ، عن عبد الله بن المغفل ، به . ثم قال : وهذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه [٦] .

وقوله : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا** ﴾ أي : ينسبون إليهم ما هم بُرَآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ، ﴿ **فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا** ﴾ وهذا هو البهت البيّن أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه ، على سبيل العيب والتنقص[٧] لهم ، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرةُ بالله ورسوله [٨] ، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برّأهم الله منه، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم ؛ فإن الله ،عز وجل، قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٢٤٦) .
(٢) زيادة من ت ، أ .
(٣) في أ : « كما أن من » .
(٤) في ت : « كما روى » .
(٥) زيادة من ت ، أ ، والمسند .
(٦) المسند (٤/ ٨٧) وسنن الترمذي برقم (٣٨٦٢) .
(٧) في ت : « والنقص » .
(٨) في أ : « ورسله » .

والأنصار ومدحهم ، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم[١] ، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً ، فهم فى الحقيقة منكوسو القلوب [٢] ، يذمون الممدوحين ، ويمدحون المذمومين .

وقال [٣] أبو داود : حدثنا القَعْنَبِيّ ، حدثنا عبد العزيز ـ يعنى : ابن محمد ـ عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، أنه قيل : يا رسول اللّه ، ما الغيبة ؟ قال : « ذكرُكَ أخاك بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه » .

وهكذا رواه الترمذى ، عن قتيبة ، عن الدراوردى ، به . قال : حسن صحيح [٤] .

وقد قال [٥] ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سلمة ، حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا معاوية بن هشام ، عن عمار بن أنس ، عن ابن أبى مُلَيْكَة ، عن عائشة ، قالت : قال رسول اللّه ﷺ لأصحابه : « أىُّ الربا أربى عند اللّه ؟ » قالوا : اللّه ورسوله أعلم . قال : « أربى الربا عند اللّه استحلالُ عرض امرئ مسلم» ،ثم قرأ: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [٦].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩) لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢) ﴾ .

يقول تعالى آمراً رسوله ،صلى الله عليه وسلم تسليما،أن يأمر النساء المؤمنات ـ خاصة أزواجَه وبناته لشرفهن ـ بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ، ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء . والجلباب هو : الرداء فوق الخمار . قاله ابن مسعود ، وعبيدة ، وقتادة ، والحسن البصرى ، وسعيد ابن جبير ، وإبراهيم النَّخَعِى ، وعطاء الخراسانى ، وغير واحد . وهو بمنزلة الإزار اليوم .

قاله الجوهرى : الجلباب : الملحفة ، قالت امرأة من هذيل ترثى قتيلا لها :

تَمْشى النّسور إليه وَهْيَ لاهيَةٌ   مَشْيَ العَذَارى عَلَيْهن الجَلابيبُ [٧] .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : أمر اللّه نساء المؤمنين [٨] إذا خرجن من بيوتهن فى

---

(١) فى أ : « وينتقصونهم » .   (٢) فى ت : « قلوبهم منكوسة » .   (٣) فى ت : « وروى » .
(٤) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٤) وسنن الترمذى برقم (١٩٣٤) .
(٥) فى ت : « وروى » .
(٦) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٦٧١١) من طريق يحيى بن واضح عن عمار بن أنس ، به .
(٧) الصحاح (١٠١/١) .
(٨) فى ت ، ف ، أ : « المؤمنات » .

حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويبدين عيناً واحدة .

وقال محمد بن سيرين : سألت عَبيدةَ السّلمانى عن قول اللّه تعالى : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِن ﴾ ، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى .

وقال عكرمة : تغطى ثُغْرَة نحرها بجلبابها تدنيه عليها .

وقال [١] ابن أبى حاتم : أخبرنا أبو عبد اللّه الظّهرانى [٢] فيما كتب إلىّ ، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر ، عن ابن خُثَيْم ، عن صفية بنت شيبة ، عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِن ﴾ ، خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة ، وعليهن أكسية سُود يلبسنها [٣] .

وقال[٤] ابن أبى حاتم ، حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنى الليث ، حدثنا يونس بن يزيد قال: وسألناه [٥] ـ يعنى : الزهرى ـ : هل على الوليدة خمار متزوجة أو غير متزوجة ؟ قال : عليها الخمار إن كانت متزوجة ، وتنهى عن الجلباب لأنه يكره لهن أن يتشبهن بالحرائر إلا محصنات [٦] . وقد قال اللّه تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِن ﴾ .

وروى عن سفيان الثورى أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة ، إنما ينهى عن ذلك لخوف الفتنة ؛ لا لحرمتهن ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ ﴾ أى : إذا فعلن ذلك عُرِفْنَ أنّهن حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر، قال السدى فى قوله تعالى : ﴿ [يَا أَيُّهَا النَّبِي] [٧] قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ ﴾ قال : كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة ، يتعرضون للنساء ، وكانت مساكن أهل المدينة ضَيّقة ، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن ، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا : هذه حرة ، كفوا عنها . وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب، قالوا : هذه أمة. فوثبوا إليها [٨] .

وقال مجاهد : يتجلببن فيعلم أنهن حرائر ، فلا يعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة .

وقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ أى : لما سلف فى أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك .

ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين ، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر : ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ قال عكرمة وغيرة : هم الزناة هاهنا ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ يعنى: الذين يقولون: « جاء

---

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى أ : « الطبرانى » .

(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٠١) ورواه الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة عن عائشة مثله ، وأخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٤٧٥٩).

(٤) فى ت : « وروى » . (٥) فى ت : « سئل » . (٦) فى أ : « بالحرائر المحصنات » .

(٧) زيادة من أ . (٨) فى ت ، ف : « عليها » .

الأعداء » و « جاءت الحروب » ، وهو كذب وافتراء ،لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس :أى:لنسلطنّك عليهم . وقال قتادة ، رحمه الله : لنحرّشنّك بهم . وقال السدى : لنعلمنك بهم .

﴿ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا ﴾ أى : فى المدينة ﴿ إِلا قَلِيلاً .مَلْعُونِين ﴾ حال منهم فى مدة إقامتهم فى المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ،﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ أى: وجدوا،﴿أُخِذُوا﴾ لذلتهم وقلتهم،﴿ وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا ﴾ .

ثم قال : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْل ﴾ أى : هذه سنته فى المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه ، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ، ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا ﴾ أى : وسنة الله فى ذلك لا تبدل ولا تغير .

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً لرسوله ﷺ : أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأله الناس عن ذلك . وأرشده أن يرد علمها إلى الله ،عز وجل ، كما قال له فى سورة « الأعراف » ، وهى مكية وهذه مدنية ، فاستمر الحال فى ردّ علمها إلى الذى يقيمها ، لكن [١] أخبره أنها قريبة بقوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ، كما قال : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] ، وقال : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١] ، وقال: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوه ﴾ [النحل : ١].

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : أبعدهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أى : فى الدار الآخرة :﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى :ماكثين مستمرين ، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها، ﴿ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ أى : وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه .

ثم قال : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ ﴾ أى : يسحبون فى النار على وجوههم ، وتلوى وجوههم على جهنم ، يقولون وهم كذلك ، يتمنون أن لو كانوا فى الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول ، كما أخبر عنهم فى حال العرصات بقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ

(١) فى ت : « لكنه » .

الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولا ﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩]، وقال تعالى : ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ [الحجر : ٢] . وهكذا أخبر عنهم فى حالتهم [١] هذه أنهم يَوَدون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول فى الدنيا ، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾. وقال طاوس : سادتنا : يعنى الأشراف ، وكبراءنا : يعنى العلماء . رواه ابن أبى حاتم .

أى : اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة ، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً ، وأنهم على شيء فإذا هم ليسوا على شيء ، ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أى : بكفرهم وإغوائهم إيانا ، ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا [٢] ﴾ . قرأ بعض القراء بالباء الموحدة . وقرأ آخرون بالثاء المثلثة ، وهما قريبا المعنى ، كما فى حديث عبد الله بن عمرو : أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى . قال : « قل : اللّهم ، إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » . أخرجاه فى الصحيحين [٣]، يروى « كبيراً » و « كثيراً » ، وكلاهما بمعنى صحيح .

واستحب بعضهم أن يجمع الداعى بين اللفظين فى دعائه ، وفى ذلك نظر ، بل الأولى أن يقول هذا تارة ، وهذا تارة ، كما أن القارئ مخير بين القراءتين أيتهما قرأ فَحَسَن ، وليس له الجمع بينهما ، والله أعلم .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا ضِرَار بن صُرَد ، حدثنا على بن هاشم ، عن [محمد بن] [٤] عبيد الله بن أبى رافع ، عن أبيه [٥] ، فى تسمية من شهد مع على ، رضى الله عنه : الحجاج بن عمرو بن غَزِيَّة ، وهو الذى كان يقول عند اللقاء : يا معشر الأنصار ، أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه : ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾؟ [٦] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) ﴾ .

قال البخارى عند تفسير [٧] هذه الآية : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا عوف ، عن الحسن [ومحمد] [٨] وخلاس ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن موسى كان رجلا حَيِيًّا ، وذلك قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [٩].

---

(١) فى ت ، ف ، أ : « حالهم » .
(٢) فى ت : « كثيرا كبيرا أو كلاهما » وفى ف ، أ : « كبيرا » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٨٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٥) .
(٤) زيادة من المعجم الكبير للطبرانى .
(٥) فى ت : « وروى أبو القاسم الطبرانى بإسناده عن أبى رافع » .
(٦) المعجم الكبير (٣/ ٢٢٣) .
(٧) فى ت : « روى البخارى عند تفسيره » .
(٨) زيادة من ت ، أ ، والبخارى .
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٧٩٩) .

هكذا أورد هذا الحديث هاهنا مختصراً جداً ، وقد رواه فى أحاديث « الأنبياء » بهذا السند بعينه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن موسى ، عليه السلام ، كان رجلا حَيِيا ستِّيرا ، لا يُرَى من جلده شَىء استحياء منه ، فآذاهُ من آذاهُ من بنى إسرائيل ، فقالوا :ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما بَرص وإما أدْرَة وإما آفة ، وإن اللّه ،عز وجل، أراد أن يُبرِّئه مما قالوا لموسى ، عليه السلام ، فخلا يوماً وحده ، فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلمَّا فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حَجَر ، ثوبى حَجَر ، حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل ، فرأوه عُرياناً أحسن ما خلق اللّه ،عز وجل،وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبَه فلبسه ، وطَفَقَ بالحجر ضرباً بعصاه ، فواللّه إن بالحجر لَنَدباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ـ قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا** ﴾ ».

وهذا سياق حسن مطول ، وهذا الحديث من أفراد البخارى دون مسلم (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح ، حدثنا عوف ، عن الحسن ، عن النبى ﷺ ـ وخلاس ، ومحمد ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية :﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا** ﴾ قال : قال النبى ﷺ : « إن موسى كان رجلا حَيِيا سَتِّيرا ، لا يكاد يرى من جلده شىء استحياء منه » (٢) .

ثم ساق الحديث كما رواه البخارى مطولا ، ورواه فى تفسيره (٣)عن روح ، عن عوف ، به . ورواه ابن جرير من حديث الثورى ، عن جابر الجعفى ، عن عامر الشعبى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ بنحو هذا (٤) .وهكذا رواه من حديث سليمان بن مِهْرَان الأعمش ، عن المِنْهَال بن عمرو ، عن سعيد بن جُبَيْر ، وعبد اللّه بن الحارث ، عن ابن عباس فى قوله:﴿ **لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ** ﴾ قال : قال قومه له : إنك آدر . فخرج ذات يوم يغتسل ، فوضع ثيابه على صخرة ، فخرجت الصخرة تشتد بثيابه ، وخرج يتبعها عرياناً حتى انتهت به مجالس بنى إسرائيل ، قال : فرأوه ليس بآدر، فذلك قوله : ﴿ **فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا** ﴾ .

وهكذا رواه العوفى ، عن ابن عباس سواء .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا روح بن حاتم وأحمد بن المعلى الأدمىّ قالا : حدثنا يحيى بن حماد ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن أنس ، عن النبى ﷺ قال : « كان موسى ، عليه السلام ، رجلا حَيِيا ، وإنه أتى ـ أحسبه قال : الماء ـ ليغتسل ،فوضع ثيابه على صخرة ،وكان لا يكاد تبدو عورته ، فقال(٥) بنو إسرائيل : إن موسى آدر ـ أو : به آفة ، يعنون : أنه لا يضع ثيابه ـ

(١) صحيح البخارى برقم (٣٤٠٤) .
(٢) المسند (٢/ ٥١٤) .
(٣) فى أ : « ورواه عنه فى تفسيره » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٣٦) .
(٥) فى ف ، أ : « فقالت » .

فاحتملت الصخرة ثيابة حتى صارت بحذاء مجالس بنى إسرائيل ، فنظروا إلى موسى كأحسن الرجال، أو كما قال ، فذلك قوله : ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾[١] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد بن العوام ، عن سفيان ابن حسين ، حدثنا الحكم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس[٢]، عن على بن أبى طالب ، رضى اللّه عنهم ، فى قوله : ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ قال : صعد موسى وهارون الجبل ،فمات هارون ، عليه السلام ، فقال بنو إسرائيل لموسى ، عليه السلام : أنت قتلته ، كان ألين لنا منك وأشد حياء . فآذوه من ذلك ، فأمر اللّه الملائكة فحملته،فمروا[٣] به على مجالس بنى إسرائيل ، فتكلمت بموته، فما عرف موضع قبره إلا الرَّخَم ، وإن اللّه جعله أصم أبكم .

وهكذا رواه ابن جرير ، عن على بن موسى الطوسى ، عن عباد بن العوام ، به[٤] .

ثم قال : وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى ، وجائز أن يكون الأول هو المراد ، فلا قول أولى من قول اللّه ،عز وجل .

قلت : يحتمل أن يكون الكل مراداً ، وأن يكون معه غيره ، واللّه أعلم .

قال[٥] الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ،عن شَقيق ، عن عبد اللّه قال : قسم رسول اللّه ﷺ ذات يوم قسما ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة[٦] ما أريد بها وجه اللّه . قال : فقلت : يا عدو اللّه ، أما لأخبرن رسول اللّه ﷺ بما قلت . قال : فذكر[٧] ذلك للنبى ﷺ فاحمر وجهه ، ثم قال : « رحمة اللّه على موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

أخرجاه فى الصحيحين[٨] من حديث سليمان بن مِهْرَان الأعمش ، به[٩] .

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، سمعت إسرائيل بن يونس ، عن الوليد بن أبى هاشم[١٠] ـ مولى الهمدانى ، عن زيد بن زائد ، عن عبد اللّه بن مسعود قال : قال رسول اللّه ﷺ لأصحابه : « لا يبلِّغنى أحد من أصحابى عن أحد شيئاً ، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا [سليم الصدر] »[١١] .فأتى رسول اللّه ﷺ مالٌ فقسمه ، قال : فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : واللّه ما أراد محمد بقسمته وجه اللّه ولا الدار الآخرة . قال : فَتَثَبَّتُّ حتى سمعت[١٢] ما قالا ، ثم أتيت رسول اللّه ﷺ فقلت : يا رسول اللّه ، إنك قلت لنا : « لا يبلغنى أحد عن أصحابى شيئاً » ، وإنى مررت بفلان وفلان ، وهما يقولان كذا وكذا . فاحمر وجه رسول اللّه ﷺ وشَقَّ عليه ، ثم قال : « دعنا منك ، لقد أوذى موسى بأكثر من هذا ، فصبر »[١٣] .

(١) مسند البزار برقم (٢٢٥٢) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٢):« وفيه إسحاق بن عبد اللّه بن أبى فروة وهو متروك » .
(٢) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٣) فى أ : « فمرت » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٣٧) .
(٥) فى ت : « وروى » . (٦) فى أ : « لقسمة » .
(٧) فى ت ، أ : « فذكرت » . (٨) فى ت : « أخرجه البخارى ومسلم » .
(٩) المسند (١/ ٣٨٠) وصحيح البخارى برقم (٣٤٠٥) وصحيح مسلم برقم (١٠٦٢) .
(١٠) فى أ : « هشام » . (١١) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند . (١٢) فى أ : « فقلت حين سمعت » .
(١٣) المسند (١/ ٣٩٥) .

وقد رواه أبو داود فى الأدب ، عن محمد [بن يحيى الذهلى ، عن محمد بن يوسف الفريابى ، عن إسرائيل عن الوليد] (١) بن أبى هاشم (٢) به مختصراً : « لا يبلغنى أحد [من أصحابى] (٣) عن أحد شيئاً ؛ إنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » (٤) .

وكذا رواه الترمذى فى « المناقب » ، عن الذُّهْلى سواء ، إلا أنه قال : « زيد بن زائدة ». ورواه أيضاً عن محمد بن إسماعيل ، عن عبد اللّه بن محمد ، عن عبيد اللّه بن موسى وحسين بن محمد ، كلاهما عن إسرائيل ، عن السُّدِّى ، عن الوليد بن أبى هاشم ، به مختصراً أيضاً ، فزاد فى إسناده السدى ، ثم قال : غريب من هذا الوجه (٥).

وقوله : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ أى : له وجاهة وجاه عند ربه ،عز وجل .

قال الحسن البصرى : كان مستجابَ الدعوة عند اللّه . وقال غيره من السلف : لم يسأل اللّه شيئاً إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء اللّه ،عز وجل .

وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة [عند اللّه] (٦): أنه شفع فى أخيه هارون أن يرسله اللّه معه ، فأجاب اللّه سؤاله ، وقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٣] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وأن يقولوا ﴿ قَوْلاً سَدِيدًا﴾ أى : مستقيما لا اعوجاج فيه ولا انحراف . ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك ، أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم ، أى : يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم فى المستقبل يلهمهم التوبة منها .

ثم قال : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ : وذلك أنه يجار من النار ، ويصير إلى النعيم المقيم .

قال (٧) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن عَوْن ، حدثنا خالد ، عن لَيْث ، عن أبى بُرْدَة ، عن أبى موسى الأشعرى قال: صلى بنا رسول اللّه ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف أومأ إلينا بيده فجلسنا ، فقال : « إن اللّه أمرنى أن آمركم ، أن تتقوا اللّه وتقولوا قولا سديداً » . ثم أتى النساء فقال : « إن اللّه أمرنى أن آمركن : أن تتقين اللّه وتقلن قولا سديداً » (٨) .

وقال (١) ابن أبى الدنيا فى كتاب « التقوى » : حدثنا محمد بن عباد بن موسى ، حدثنا عبد

(١) زيادة من ت ، ف ، أ ، وأبى داود . (٢) فى ف ، أ : « هشام » . (٣) زيادة من ت ، ف ، أ ، وأبى داود .
(٤) سنن أبى داود برقم (٤٨٦٠) .
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٨٩٦) .
(٦) زيادة من ت . (٧) فى ت : « وروى » .
(٨) ورواه أحمد فى مسنده (٣٩١/٤) من طريق شيبان عن ليث ، به .

العزيز بن عمران الزهرى ، حدثنا عيسى بن سَمُرة ، عن هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه (٢) ، عن عائشة، رضى اللّه عنها ، قالت : ما قام رسول اللّه ﷺ على المنبر إلا سمعته يقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا** ﴾الآية . غريب جدًا .

وروى من حديث عبد الرحيم بن زيد العَمِّى ، عن أبيه ، عن محمد بن كعب ،عن ابن عباس موقوفا (٣) ، من سره أن يكون أكرم الناس ، فليتق اللّه .

قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا اللّه .

وقال غيره : السديد : الصدق . وقال مجاهد : هو السداد . وقال غيره : هو الصواب . والكل حق .

﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣)** ﴾ .

قال العَوْفى ، عن ابن عباس :يعنى بالأمانة :الطاعة ، وعرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم، فلم يطقنها (٤). فقال لآدم : إنى قد عرضتُ الأمانةَ على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها (٥) ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب ، وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله : ﴿ **وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾ .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، الأمانة : الفرائض ، عرضها اللّه على السموات والأرض والجبال ، إن أدوها أثابهم .وإن ضيعوها عذبهم (٦) ،فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية، ولكن تعظيما لدين اللّه ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو (٧) قوله: ﴿ **وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾ يعنى : غرًا بأمر اللّه .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، عن أبى بشر(٨) ، عن سعيد بن جبير ، عن (٩) ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا** ﴾ قال : عرضت على آدم فقال :خذها بما فيها ، فإن أطعت غَفَرت لك، وإن عَصَيت عذبتك . قال : قبلت ، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم ، حتى أصاب الخطيئة .

وقد روى الضحاك ، عن ابن عباس ، قريبا من هذا . وفيه نظر وانقطاع بين الضحاك وبينه ، واللّه أعلم . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والحسن البصرى ، وغير واحد :

---

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى ت : « بسنده » . (٣) فى ت : « مرفوعا » .
(٤) فى ت : « يطقها » ، وفى أ : « يطعنها » . (٥) فى أ : « يطعنها ». (٦) فى ت ، أ : « عذبهم اللّه ».
(٧) فى أ : « وهى » . (٨) فى أ : « حدثنا محمد بن جعفر ،حدثنا شعبة ، عن أبى بشر » .
(٩) فى ت : « وروى ابن جرير بسنده إلى » .

[ألا] (١) إن الأمانة هى الفرائض .

وقال آخرون : هى الطاعة .

وقال الأعمش ، عن أبى الضحى ، عن مسروق [قال](٢) : قال أبى بن كعب : من الأمانة أن المرأة اؤتمنت على فرجها .

وقال قتادة : الأمانة : الدين والفرائض والحدود .

وقال بعضهم :الغسل من الجنابة .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم قال : الأمانة ثلاثة : الصلاة ،والصوم ، والاغتسال من الجنابة.

وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هى (٣) متفقة وراجعة إلى أنها التكليف ، وقبول الأوامر والنواهى بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عُوقِبَ ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه ، إلا من وفق اللّه ، وباللّه المستعان .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة [البصرى] (٤)، حدثنا حماد بن واقد ـ يعنى:أبا عمر الصفار ـ سمعت أبا معمر(٥) ـ يعنى : عون بن معمر ـ يحدث عن الحسن ـ يعنى: البصرى (٦) ـ أنه تلا هذه الآية : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ قال: عرضها على السبع الطباق الطرائق التى زينت بالنجوم ، وحملة العرش العظيم ، فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جُزِيت ،وإن أسأت عُوقبت. قالت : لا . ثم عرضها على الأرضين السبع الشداد ، التى شدت بالأوتاد ، وذللت بالمهاد، قال : فقيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . قالت : لا . ثم عرضها على الجبال الشم (٧) الشوامخ الصعاب الصلاب ، قال: قيل لها : هل تحملين الأمانة وما فيها ؟ قالت : وما فيها ؟ قال : قيل لها : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . قالت : لا .

وقال مقاتل بن حيان : إن اللّه حين خلق خلقه ، جمع بين الإنس والجن ، والسموات والأرض والجبال ، فبدأ بالسموات فعرض عليهن الأمانة وهى الطاعة ، فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة ، ولكن على الفضل والكرامة والثواب فى الجنة . . ؟ فقلن : يا رب ، إنا لا نستطيع هذا الأمر، وليست بنا قوة ، ولكنا لك مطيعين . ثم عرض الأمانة على الأرضين ، فقال لهن : أتحملن هذه الأمانة وتقبلنها منى ، وأعطيكن الفضل والكرامة (٨) ؟ فقلن : لا صبر لنا على هذا يا رب ولا نطيق، ولكنا لك سامعين مطيعين ، لا نعصيك فى شىء تأمرنا به . ثم قرب آدم فقال له : أتحمل هذه الأمانة وترعاها حق رعايتها ؟ فقال عند ذلك آدم : ما لى عندك ؟ قال : يا آدم ، إن أحسنت وأطعت ورعيت الأمانة ، فلك عندى الكرامة والفضل وحسن الثواب فى الجنة . وإن عصيت ولَم ترْعَها حق رعايتها

(١ ، ٢) زيادة من أ . (٣) فى ت : « وهى » . (٤) زيادة من أ .
(٥) فى أ : « أبا عمر » . (٦) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى » .
(٧) فى أ : « الصم » . (٨) فى أ : « والكرامة فى الدنيا » .

وأسأت ، فإنى معذبك ومعاقبك وأنزلك النار . قال : رضيت [يا] [(١)] رب . وتَحمَّلها[(٢)]، فقال اللّه عز وجل : قد حَمَّلْتُكَهَا . فذلك قوله : ﴿ **وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ** ﴾ .رواه ابن أبى حاتم .

وعن [(٣)] مجاهد أنه قال : عرضها على السموات فقالت : يا رب ، حملتنى الكواكب وسكان السماء وما ذكر ، وما أريد ثوابا ولا أحمل فريضة . قال : وعرضها على الأرض فقالت : يا رب ، غرست فى الأشجار ، وأجريت فىّ الأنهار وسكان الأرض وما ذكر ،وما أريد ثوابا ولا أحمل فريضة. وقالت الجبال مثل ذلك ، قال اللّه تعالى : ﴿ **وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾ فى عاقبة أمره . وهكذا قال ابن جُرَيْج .

وعن ابن أشوع أنه قال : لما عرض اللّه عليهن حمل الأمانة ، ضَجَجْنَ إلى اللّه ثلاثة أيام ولياليهن ، وقلن : ربنا . لا طاقة لنا بالعمل ، ولا نريد الثواب .

ثم قال [(٤)] ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هارون بن زيد بن أبى الزرقاء الموصلى ، حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم فى هذه الآية : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ** ﴾ [الآية] [(٥)] ، فقال الإنسان : بين أذنى وعاتقى فقال اللّه تعالى [(٦)] :إنى مُعينك عليها ، أى : معينك على عينيك بطبقتين ، فإذا نازعاك إلى ما أكره فأطبق . ومعينك على لسانك بطبقتين ، فإذا نازعك إلى ما أكره فأطبق . ومعينك على فرجك بلباس ، فلا تكشفه إلى ما أكره .

ثم روى عن أبى حازم نحو هذا .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، حدثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قول اللّه ،عز وجل : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا** ﴾ قال : إن اللّه عرض عليهن الأمانة أن يفترض عليهن الدين ، ويجعل لهن ثوابا وعقابا ، ويستأمنهن على الدين . فقلن: لا،نحن مسخرات لأمرك ، لا نريد ثوابا ولا عقابا . قال[(٧)] : وعرضها اللّه على آدم فقال: بين أذنى وعاتقى . قال ابن زيد : فقال اللّه تعالى له : أما إذْ تحملت هذا فسأعينك ، أجعل لبصرك حجاباً ، فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل لك فأرخ عليه حجابه ، وأجعل للسانك بابا وغلقا ، فإذا خشيت فأغلق ، وأجعل لفرجك لباسا فلا تكشفه إلا على ما أحللت لك .

وقال ابن جرير : حدثنى سعيد [(٨)] بن عمرو السَّكُونى ، حدثنا بقيَّة ، حدثنا عيسى بن إبراهيم ، عن موسى بن أبى حبيب ، عن [(٩)] الحكم بن عمير ـ وكان من أصحاب النبى ﷺ ـ قال : قال النبى ﷺ : « إن الأمانة والوفاء نزلا على ابن آدم مع الأنبياء ، فأرسلوا به ، فمنهم رسول اللّه ، ومنهم نبى ، ومنهم نبى رسول ، ونزل القرآن وهو كلام اللّه ، ونزلت العربية والعجمية ، فعلموا أمر القرآن وعلموا أمر السنن بألسنتهم ، ولم يدع اللّه شيئا من أمره مما يأتون وما يجتنبون وهى الحجج عليهم ، إلا بينه لهم . فليس أهل لسان إلا وهم يعرفون الحسن والقبيح ،ثم الأمانة أول شىء يرفع ويبقى

(١) زيادة من أ . (٢) فى أ : « وتحملتها » . (٣) فى ت : « وقال » .
(٤) فى ت : « ثم روى » . (٥) زيادة من ت ، ف ، أ . (٦) فى ت ، ف :« عز وجل » .
(٧) فى أ : « قال رسول اللّه ﷺ » (٨) فى أ : « سعد » . (٩) فى ت: « وروى ابن جرير بإسناده إلى».

أثرها فى جذور [١] قلوب الناس ، ثم يرفع الوفاء والعهد والذمم وتبقى الكتب [٢] ، فعالم يعمل، وجاهل يعرفها وينكرها ولا يحملها ، حتى وصل إلىّ وإلى أمتى ، ولا يهلك على اللّه إلا هالك ، ولا يغفله إلا تارك . فالحذر أيها الناس ، وإياكم والوسواس الخناس ، فإنما يبلوكم أيكم أحسن عملا»[٣] .

هذا حديث غريب جدا ، وله شواهد من وجوه أخرى .

ثم قال ابن جرير : حدثنا محمد بن خلف العسقلانى، حدثنا عبد اللّه بن عبد المجيد الحنفى، أخبرنا أبو العوام القطان ، حدثنا قتادة ،وأبان بن أبى عياش [٤] ، عن خُلَيد العَصَرى [٥] ، عن أبى الدرداء، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « خمس من جاء بهن يوم القيامة مع إيمان دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن ، وأعطى الزكاة من ماله طَيب النفس بها ـ وكان يقول:وايم اللّه لا يفعل ذلك إلا مؤمن ـ [وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إلى ذلك سبيلا] [٦] ، وأدى الأمانة » . قالوا : يا أبا الدرداء ، وما أداء الأمانة؟ قال : الغسل من الجنابة ، فإن اللّه لم يأمن ابن آدم على شىء من دينه غيره .

وهكذا رواه أبو داود عن محمد بن عبد الرحمن العنبرى،عن أبى على عبيد اللّه بن عبد المجيد[٧] الحنفى ، عن أبى العوام عمران بن دَاور [٨] القطان ، به [٩] .

وقال ابن جرير [١٠] أيضا :حدثنا تميم بن المنتصر ، أخبرنا إسحاق ، عن شريك ، عن الأعمش، عن عبد اللّه [١١] بن السائب ، عن زاذان ، عن عبد اللّه بن مسعود ، عن النبى ﷺ أنه قال : «القتل فى سبيل اللّه يكفر الذنوب كلها ـ أو قال : يكفر كل شىء ـ إلا الأمانة ، يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له : أد أمانتك . فيقول : أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له : أد أمانتك . فيقول : أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له : أد أمانتك . فيقول : أنى يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول : اذهبوا به إلى أمه الهاوية . فيذهب به إلى الهاوية ، فيهوى فيها حتى ينتهى إلى قعرها ، فيجدها هنالك كهيئتها، فيحملها فيضعها على عاتقه ، فيصعد بها إلى شفير جهنم ، حتى إذا رأى أنه قد خرج زلَّت فهوى فى أثرها أبد الآبدين » . قال : والأمانة فى الصوم ، والأمانة فى الوضوء ، والأمانة فى الحديث ، وأشد ذلك الودائع . فلقيت البراء فقلت : ألا تسمع إلى ما يقول أخوك عبد اللّه ؟ فقال: صدق .

قال شريك : وحدثنا عياش [١٢] العامرى ، عن زاذان ، عن [١٣] عبد اللّه بن مسعود ، رضى

---

(١) فى أ : « صدور » . (٢) فى ت : « الكسب » .
(٣) تفسير الطبرى (٢٢/٣٩) وله شاهد من حديث حذيفة أخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٦٤٩٧) وسيأتى .
(٤) فى أ : « أبى عباس » . (٥) فى ت : « ثم روى ابن جرير بإسناده » .
(٦) زيادة من ت ، ف ، أ ، و تفسير الطبرى . (٧) فى أ : « عبد الحميد » . (٨) فى أ : « داود » .
(٩) تفسير الطبرى (٢٢/٣٩) وسنن أبى داود برقم (٤٢٩) .
(١٠) فى ت : « وروى ابن أبى جرير » (١١) فى أ : « عبيد اللّه »
(١٢) فى أ : « عباس » . (١٣) فى ت : « وعن » .

الله عنه ، عن النبى ﷺ ، بنحوه . ولم يذكر: « الأمانة فى الصلاة وفى كل شىء » (١) . إسناده جيد، ولم يخرجوه .

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذى رواه الإمام أحمد (٢) :

حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن زيد بن وهب ، عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا « أن الأمانة نزلت فى جذر (٣) قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » . ثم حدثنا عن رفع الأمانة ، فقال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر [الوكت ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر] (٤) المجل كجمر دحرجته [على رجلك ، تراه مُنتبرًا وليس فيه شىء » . قال : ثم أخذ حصى(٥) فدحرجه] (٦) على رجله ، قال : « فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة ، حتى يقال : إن فى بنى فلان رجلا أمينا ، حتى يقال للرجل : ما أجلده وأظرفه وأعقله . وما فى قلبه حبة من خردل من إيمان . ولقد أتى عَلَىَّ زمان وما أبالى أيكم بايعت ، إن كان مسلماً ليردنه على دينه ، وإن كان نصرانيا أو يهودياً ليردنه علىّ ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلانا وفلانا .

وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الأعمش ، به(٧) .

وقال(٨) الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن الحارث بن يزيد (٩) الحضرمى ، عن عبد الله بن عمرو ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أربعٌ إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حِفْظ أمانة ، وصِدْق حديث ، وحُسْن خليقة، وعِفَّة طُعمة » .

هكذا رواه الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص (١٠) .

وقد قال الطبرانى فى مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب :حدثنى يحيى بن أيوب العلاف المصرى(١١) ، حدثنا سعيد بن أبى مريم ، حدثنا ابن لِهَيعة ، عن الحارث بن يزيد ، عن ابن حجَيرة ، عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ،وعفة طعمة ». فزاد فى الإسناد: « ابن حُجَيرة » ، وجعله من (١٢) مسند ابن عمر (١٣) .

---

(١) تفسير الطبرى (٢٢/ ٤٠) .

(٢) فى ت : « الذى فى الصحيحين » . (٣) فى أ : « صدر » . (٤) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند.

(٥) فى ت ، أ : « حصاة » . (٦) زيادة من ت ، ف ، أ ، والمسند .

(٧) المسند (٥/ ٢٨٣) وصحيح البخارى برقم (٦٤٩٧) وصحيح مسلم برقم (١٤٣) .

(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى أ : « زيد » .

(١٠) المسند (٢/ ١٧٧) .

(١١) فى ف ، أ : « المقرى » . (١٢) فى أ : « فى ».

(١٣) مجمع الزوائد (٤/ ١٤٥) وقال الهيثمى : « رواه أحمد والطبرانى فى الكبير ، وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن ، وبقية رجاله رجال الصحيح ».

وقد ورد النهى عن الحلف بالأمانة ، قال عبد اللّه بن المبارك فى كتاب الزهد [١] : حدثنا شريك، عن أبى إسحاق الشيبانى ، عن خُنَاس بن سُحَيم ـ أو قال : جَبَلَة بن سُحَيم ـ قال : أقبلت مع زياد ابن حُدَيْر من الجابية فقلتُ فى كلامى : لا والأمانة . فجعل زياد يبكى ويبكى، فظننت أنى أتيتُ أمراً عظيما ، فقلت له : أكان يكره هذا ؟ فقال : نعم . كان عمر بن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهى[٢] .

وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع ، قال [٣] أبو داود : حدثنا أحمد بن عبد اللّه بن يونس ، حدثنا زهير ، حدثنا الوليد بن ثعلبة الطائى ، عن ابن بُرَيدة ، عن أبيه قال : قال رسول اللّه ﷺ : «من حلف بالأمانة فليس منا » ، تفرد به أبو داود ، رحمه اللّه [٤] .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ أى : إنما حمل ابن آدم الأمانة وهى التكاليف ليعذب اللّه المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفا من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ، ﴿وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ ، وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك باللّه ،عز وجل ،ومخالفة رسله ، ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى، : وليرحم [٥] المؤمنين من الخلق [٦] الذى آمنوا باللّه وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.

[آخر تفسير سورة « الأحزاب »] [٧]

---

(١) فى ت : « فروى ابن المبارك بإسناد » .

(٢) الزهد برقم (٢١٣) .

(٣) فى ت : « رواه » .

(٤) سنن أبى داود برقم (٣٢٥٣) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٣١٨) « موارد » من طريق وكيع عن الوليد بن ثعلبة ، به .

(٥) فى أ : « وليرحم اللّه ». (٦) فى أ : « الحلف » . (٧) زيادة من ف .

تفسير سُورة سَبأ

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة : أن له الحمدَ المطلق فى الدنيا والآخرة ؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم فى جميع ذلك ، كما قال : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أى : الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه ، كما قال : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ ﴾ [الليل : ١٣] .

ثم قال : ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ ﴾ ، فهو المعبود [1] أبدا ، المحمود على طول المدى . وقال : ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أى : فى أقواله وأفعاله وشرعه وقَدَره ، ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شىء .

وقال مالك عن الزهرى : خبير بخلقه ، حكيم بأمره ؛ ولهذا قال : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أى : يعلم عدد القطر النازل فى أجزاء الأرض ، والحب المبذور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك : عدده وكيفيته وصفاته ، ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من قطر ورزق ، ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أى : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ، ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ أى : الرحيم بعباده فلا يعاجل عُصاتهم بالعقوبة ، الغفور [2] عن ذنوب [عباده] [3] التائبين إليه المتوكلين عليه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) ﴾ .

---

(١) فى أ : « المحمود » . (٢) فى ت : « العفو » . (٣) زيادة من أ .

هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن ، مما أمر الله رسولَه ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لَمَّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن فى سورة يونس : ﴿ **وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ** ﴾ [يونس : ٥٣] ، والثانية هذه : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ** ﴾ ، والثالثة فى التغابن: ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [التغابن : ٧] ، فقوله : ﴿ **قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ**[1] ﴾، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره : ﴿ **عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ .

قال مجاهد وقتادة : ﴿ **لا يَعْزُبُ عَنْهُ** ﴾ : لا يغيب عنه ، أى : الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شىء ، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين [2] تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فإنه بكل شىء عليم .

ثم بين حكمته فى إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله : ﴿ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ** ﴾ أى : سعوا فى الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله ، ﴿ **أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ** ﴾ أى : لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين ، كما قال : ﴿ **لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** ﴾ [ص : ٢٨] .

وقوله : ﴿ **وَيَرَى**[3] **الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ : هذه حكمة أخرى معطوفة على التى قبلها ، وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذى كانوا قد علموه من كتب الله فى الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضًا : ﴿ **لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، ويقال أيضا : ﴿ **هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ** ﴾ [يس : ٥٢] ، ﴿ **لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ** ﴾ [الروم : ٥٦]، ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ . العزيز هو : المنيع الجناب [4] ، الذى لا يُغالب ولا يُمانع ، بل قد قهر كل شىء ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه ، وقدره ، وهو المحمود فى ذلك كله .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩) ﴾ .

---

(١) فى ت : « ليأتينكم » . (٢) فى أ : « وإن » .
(٣) فى س : « وترى » . (٤) فى أ : « الجبار » .

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيامَ الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ فى إخباره بذلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أى : تفرقت[(١)] أجسادكم فى الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق : ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أى : بعد هذا الحال ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أى : تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك ، وهو فى هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد لكن لُبّس عليه كما يُلَبَّس على المعتوه والمجنون ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ ؟ قال الله تعالى رادًا عليهم: ﴿بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴾ أى : ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذى جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء، ﴿ فِي الْعَذَابِ ﴾ أى : [فى] [(٢)] الكفر المفضى بهم إلى عذاب الله ، ﴿ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ﴾ من [(٣)] الحق فى الدنيا .

ثم قال منبهًا لهم على قدرته فى خلق السموات والأرض ، فقال : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ أى : حيثما [(٤)] توجهوا وذهبوا فالسماء مُظلّة مُظلَّلة عليهم ، والأرض تحتهم ، كما قال : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧ ، ٤٨] .

قال [(٥)] عبد بن حميد : أخبرنا عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن قتادة : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ ؟قال : إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك ، أو من بين يديك أو من خلفك ، رأيت السماء والأرض .

وقوله : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك لظلمهم وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ : قال مَعْمَر ، عن قتادة : ﴿ مُّنِيبٍ ﴾ : تائب .

وقال سفيان [(٦)] عن قتادة : المنيب : المقبل إلى [(٧)] الله عز وجل .

أى : إن فى النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فَطِن لبيب رَجَّاع إلى الله ، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد ؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها [(٨)] واتساعها ، وهذه الأرضين فى انخفاضها وأطوالها وأعراضها ، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم [(٩)] بَلَىٰ ﴾[يس : ٨١] ، وقال : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] .

---

(١) فى ت : « فرقت » .
(٢) زيادة من ت ، أ .
(٣) فى أ : « عن » .
(٤) فى ت ، س : « حيث » .
(٥) فى ت : « روى » .
(٦) فى أ : « شيبان » .
(٧) فى ت ، أ : « على » .
(٨) فى ت ، س : « وارتفاعها » .
(٩) فى ت ، س ، أ : « على أن يحيى الموتى » ، والصواب ما أثبتناه .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) ﴾ .

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود ، صلوات الله وسلامه عليه ، ، مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العَدَد والعُدَد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ،وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته (١) ، ثم قال « لقد أوتى هذا مِزْمَارًا من مزامير آل داود » .

وقال أبو عثمان النهدى : ما سمعت صوت صَنج ولا بَرْبَط ولا وَتَر أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه (٢) .

ومعنى قوله : ﴿ أَوِّبِي ﴾ أى : سبحى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد .

وزعم أبو (٣) ميسرة أنه بمعنى سَبِّحى بلسان الحبشة . وفى هذا نظر ، فإن التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها .

وقال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى فى كتابه « الجُمل » فى باب النداء منه : ﴿ **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ** ﴾ أى : سيرى معه بالنهار كله ، والتأويب : سير النهار كله ، والإسآد (٤) : سير الليل كله . وهذا لفظه ، وهو غريب جداً لم أجده (٥) لغيره ، وإن كان له مساعدة من حيث اللفظ فى اللغة، لكنه بعيد فى معنى الآية هاهنا . والصواب أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ **أَوِّبِي مَعَهُ** ﴾ أى : رَجِّعى مُسَبِّحة معه ، كما تقدم ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ** ﴾ : قال الحسن البصرى ، وقتادة ، والأعمش وغيرهم : كان لا يحتاج أن يُدخلَه نارًا ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ؛ ولهذا قال : ﴿ **أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ** ﴾ وهى : الدروع . قال قتادة : وهو أول من عملها من الخلق ، وإنما كانت قبل ذلك صفائح.

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا ابن سَمَاعة ، حدثنا ابن ضَمْرَة (٦) ، عن ابن شَوْذَب قال : كان داود ، عليه السلام ، يرفع فى كل يوم درعًا فيبيعها بستة آلاف درهم : ألفين له ولأهله ، وأربعة آلاف درهم يطعم بها بنى إسرائيل خبز الحُوّارى .

---

(١) فى ت : « فاستمع رسول الله لقراءته » .
(٢) سبق تخريج الحديث والأثر فى فضائل القرآن .
(٣) فى أ : « ابن » . (٤) فى أ : « والآباد » . (٥) فى أ : « لم أر » ، وفى ت : « لم أره » .
(٦) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده » .

﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ : هذا إرشاد من الله لنبيه داود ، عليه السلام ، فى تعليمه صنعة الدروع.

قال مجاهد فى قوله : ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ : لا تُدِقّ المسمار فَيقلَق فى الحلقة ، ولا تُغَلّظه فيفصمها ، واجعله بقدر .

وقال الحكم بن عُتيبة [١] : لا تُغَلظه فيفصم ، ولا تُدِقّه فيقلَق [٢] . وهكذا روى عن قتادة ، وغير واحد .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : السرد : حَلَق [٣] الحديد . وقال بعضهم : يقال : درع مسرودة : إذا كانت مسمورة الحلق ، واستشهد بقول الشاعر [٤] :

وَعَليهما مَسْرُودَتَان قَضَاهُما « دَاوُد » ، أو صنعَ السَّوابغ « تُبّعُ »

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود ، عليه السلام ، [٥] من طريق إسحاق بن بشر ـ وفيه كلام ـ عن أبى إلياس ، عن وهب بن مُنَبه ما مضمونه : أن داود ، عليه السلام ، كان يخرج متنكرًا، فيسأل الركبان عنه وعن سيرته ، فلا يسأل أحدًا إلا أثنى عليه خيرًا فى عبادته وسيرته ومعدلته ، صلوات الله وسلامه عليه . قال وهب : حتى بعث الله ملكا فى صورة رجل ، فلقيه داود فسأله كما كان يسأل غيره ، فقال : هو خير الناس لنفسه ولأمته ، إلا أن فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملا قال : ما هى ؟ قال : يأكل ويطعم عياله من مال المسلمين ، يعنى : بيت المال ، فعند ذلك نصب داود، عليه السلام ، إلى ربه فى الدعاء أن يعلمه عملا بيده يستغنى به ويغنى به عياله ، فألان له الحديد ، وعلمه صنعة الدروع ، فعمل الدرع [٦] ، وهو أول من عملها ، فقال الله : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ يعنى : مسامير الحلق ، قال : وكان يعمل الدرع [٧] ، فإذا ارتفع من عمله درع باعها ، فتصدق بثلثها ، واشترى بثلثها ما يكفيه وعياله ، وأمسك الثلث يتصدق به يوما بيوم إلى أن يعمل غيرها . وقال : إن الله أعطى داود شيئًا لم يعطه غيره من حسن الصوت ، إنه كان إذا قرأ الزبور تسمع الوحش [٨] حتى يؤخذ بأعناقها وما تنفر ، وما صنعت الشياطين المزامير والبرابط والصنوج إلا على أصناف صوته . وكان شديد الاجتهاد ، وكان إذا افتتح الزبور بالقراءة كأنما ينفخ فى المزامير ، وكأن [٩] قد أعطى سبعين مزمارًا فى حلقه .

وقوله : ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ أى : فى الذى أعطاكم الله من النعم ، ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى: مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى على من ذلك شىء .

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ

---

(١) فى س ، أ : « عيينة » . (٢) فى ت ، أ : « فيفلق » . (٣) فى ت ، س : « هو » .
(٤) هو أبو ذؤيب الهذلى ، والبيت فى اللسان مادة (قضى) .
(٥) تاريخ دمشق (٥ / ٧٠٨ المخطوط) .
(٦ ، ٧) فى ت ، أ : « الدروع » . (٨) فى ت ، س ، أ : « تجتمع الوحوش إليه » . (٩) فى ت ، س : « وكان » .

مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾ .

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود ، عطف بذكر ما أعطى سليمان [١] ، من تسخير الريح له تحمل بساطه ، غدوها شهر ورواحها شهر .

قال الحسن البصرى : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغدّى [٢] بها ، ويذهب رائحا من إصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع .

وقوله : ﴿ **وَأَسَلْنَا** [٣] **لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ** ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، والسدى ، ومالك عن زيد بن أسلم ، و [٤] عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد : القطر : النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن ، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان ، عليه السلام .

قال السدى : وإنما أسيلت له ثلاثة أيام .

وقوله : ﴿ **وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ** ﴾ أى : وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله ، أى : بقدره [٥] ، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك . ﴿ **وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا** ﴾ أى : ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿ **نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ وهو الحريق .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديثا غريبا فقال : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا معاوية بن صالح ، عن أبى الزاهرية ، عن جبير بن نُفَير [٦] ، عن أبى ثعلبة الخُشَنىّ ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « الجن على ثلاثة أصناف : صنف له أجنحة يطيرون فى الهواء ، وصنف حيات وكلاب ، وصنف يحلون ويظعنون » . رفعه غريب جدًا [٧] .

وقال [٨] أيضا : حدثنا أبى ، حدثنا حَرْمَلَة ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى بكر [٩] بن مُضَر ، عن محمد ، عن ابن أنعم أنه قال : الجن ثلاثة : صنف لهم الثواب وعليهم العقاب ، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض ، وصنف حيات وكلاب .

قال بكر بن مضر : ولا أعلم إلا أنه قال : حدثنى أن الإنس ثلاثة [١٠] : صنف يظلهم الله بظل عرشه يوم القيامة . وصنف كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وصنف فى صُوَر الناس على قلوب الشياطين.

---

(١) فى ت ، أ : « ما أعطى ابنه سليمان بن داود » وفى س : « ما أعطى ابنه سليمان » . (٢) فى ت : « فيتغذى » .
(٣) فى ت : « واسالنا » . (٤) فى ت : « بن » .
(٥) فى ت ، أ : « أى الإذن القدرى » وفى س : « أى القدرى » . (٦) فى ت : « وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثًا غريبًا بإسناده » .
(٧) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢ / ٤٥٦) وصححه ، ووافقه الذهبى ، والطبرانى فى الكبير (٢٢ / ٢١٤) من طريق عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح به ، ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٠٠٧) من طريق ابن وهب عن معاوية بن صالح ، به .
(٨) فى ت : « وروى » . (٩) فى أ : « بكير » . (١٠) فى أ : « ثلاثة أصناف » .

وقال أيضا (١) : حدثنا أبى : حدثنا على بن هاشم بن مرزوق حدثنا سلمة ـ يعنى: ابن الفضل ـ عن إسماعيل ، عن الحسن (٢) قال : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون ، وهم شركاؤهم فى الثواب والعقاب ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولى الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان .

وقوله : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ ﴾ : أما المحاريب فهى البناء الحسن ، وهو أشرف شىء فى المسكن وصدره .

وقال مجاهد : المحاريب بنيان دون القصور . وقال الضحاك : هى المساجد . وقال قتادة : هى المساجد والقصور ، وقال ابن زيد : هى المساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفى ، والضحاك والسدى : التماثيل : الصور . قال مجاهد :وكانت من نحاس . وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ : الجواب : جمع جابية ، وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء ، كما قال الأعشى ميمون بن قيس :

تَرُوحُ عَلَى آل المَحَلَّق جَفْنَةٌ ... كَجَابِيَة الشَّيخ العرَاقى تَفْهَق (٣) (٤)

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ أى : كالجَوبة من الأرض .

وقال العوفى ، عنه : كالحياض . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك وغيرهم .

والقدور الراسيات : أى الثابتات ، فى أماكنها (٥) لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمها . كذا قال مجاهد ، والضحاك ، وغيرهما .

وقال عكرمة : أثافيها منها .

وقوله : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ أى : وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم فى الدنيا والدين .

وشكرًا : مصدر من غير الفعل ، أو أنه مفعول له ، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية ، كما قال :

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاء منِّى (٦) ثَلاثةً : ... يدِى ، ولِسَانى ، والضَّمير المُحَجَّبَا

قال أبو عبد الرحمن الحُبلى (٧) : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير تعمله لله شكر . وأفضل الشكر الحمد . رواه ابن جرير .

وروى هو وابن أبى حاتم ، عن محمد بن كعب القُرَظى قال : الشكر تقوى الله والعمل الصالح.

---

(١) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم أيضا » . (٢) فى ت : « الحسين » . (٣) فى ت : « بقهق »
(٤) البيت فى تفسير الطبرى (٢٢ / ٤٩) .
(٥) فى ت ، س ، أ : « أماكنهم » . (٦) فى ت : « عندى » .
(٧) فى هـ، ت ، س ، أ : « السلمى » والتصويب من الطبرى ٢٢ / ٥٠ ، مستفادا من طبعة الشعب .

وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل ، وقد كان آل داود ، عليه السلام ، كذلك قائمين بشكر الله قولا وعملا .

قال (١) ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن أبي بكر ، حدثنا جعفر ــ يعني : ابن سليمان ــ عن ثابت البُنَاني قال : كان داود ، عليه السلام ، قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة، فكان لا تأتي عليهم (٢) ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي ، فغمرتهم هذه الآية: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ .

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أحب الصلاة إلى الله صلاةُ داودَ ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما. ولا يَفر إذا لاقى » (٣) .

وقد روى أبو عبد الله بن ماجه من حديث سُنَيْد بن داود ، حدثنا يوسف بن محمد بن المُنْكَدِر ، عن أبيه ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قالت أمّ سليمان بن داود لسليمان : يا بني ، لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرًا يوم القيامة » (٤) .

وروى ابن أبي حاتم عن داود ، عليه السلام ، هاهنا أثرا غريبا مطولا جدا ، وقال أيضًا :

حدثنا أبي ، حدثنا عمران بن موسى ، حدثنا أبو يزيد (٥) فيض بن إسحاق الرقي (٦) قال : قال فضيل في قوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ . فقال داود : يا رب ، كيف أشكرك ، والشكر نعمة منك ؟ قال : « الآن شكرتني حين علمت (٧) أن النعمة (٨) مني » .

وقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ : إخبار عن الواقع .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ .

يذكر تعالى كيفية موت سليمان ، عليه السلام ، وكيف عَمَّى الله موته على الجانّ المسخرين له في الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئًا على عصاه ـ وهي منْسَأته ـ كما قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة وغير واحد ـ مدة طويلة نحوا من سنَة ، فلما أكلتها (٩) دابةُ الأرض ، وهي الأرضة، ضعفت (١٠) وسقط (١١) إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ـ تبينت الجن والإنس أيضًا أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

---

(١) في ت : « روى » . (٢) في ت : « لا يأتي عليهن » ، وفي أ : « لا يأتي عليهم » .
(٣) صحيح البخاري برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩) .
(٤) سنن ابن ماجه برقم (١٣٣٢) وقال البوصيري في الزوائد (١ / ٤٣٣) : « هذا إسناد ضعيف » .
(٥) في هـ : « زيد » والمثبت من ت ، س ، أ ، والجرح والتعديل ٣ / ٢ / ٨٨ مستفادًا من طبعة الشعب .
(٦) في أ : « المرى » . (٧) في ت ، س : « قلت » .
(٨) في أ : « النعم » . (٩) في ت : « فلما أكلت العصا » .
(١٠) في ت ، س ، أ : « فضعفت » . (١١) في أ : « وسقطت » .

وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع غريب ، وفى صحته نظر ، قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا موسى بن مسعود أبو حذيفة ، حدثنا إبراهيم بن طَهْمَان ، عن عطاء ، عن السائب ، عن سعيد بن جبير [١] عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « كان سليمان نبى الله ، عليه السلام ، إذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول : كذا . فيقول : لأى شىء أنت ؟ فإن كانت لغرس غُرِسَتْ ، وإن كانت لدواء كُتِبَتْ . فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : الخروب . قال : لأى شىء أنت ؟ قالت : لخراب هذا البيت . فقال سليمان : اللهم ، عَمِّ على الجن موتتى [٢] حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب . فنحتها عصًا ، فتوكأ عليها حولا ميتا ، والجن تعمل . فأكلتها الأرضة ، فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا [حولا] [٣] فى العذاب المهين » .

قال : وكان ابن عباس يقرؤها كذلك قال : « فشكرت الجن الأرضة [٤] ، فكانت تأتيها بالماء»[٥].

وهكذا رواه ابن أبى حاتم ، من حديث إبراهيم بن طَهْمان ، به . وفى رفعه غرابة ونكارة ، والأقرب أن يكون موقوفًا ، وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى له غرابات ، وفى بعض حديثه نكارة .

وقال السُّدِّى ، فى حديث ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح ، عن ابن عباس ــ وعن مُرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ ، قال : كان سليمان يتحرر فى بيت المقدس السنة والسنتين والشهر والشهرين ، وأقل من ذلك وأكثر ، يدخل طعامه وشرابه ، فأدخله فى المرة التى توفى فيها ، وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت فى بيت المقدس شجرة ، فيأتيها فيسألها ، فيقول : ما اسمك ؟ فتقول : اسمى كذا وكذا . فإن كانت لغرس غرسها ، وإن كانت نبْتَ دواء قالت : نَبَتُّ دواء لكذا وكذا . فيجعلها [٦] كذلك ، حتى نبتت شجرة يقال لها : الخرّوبة ، فسألها : ما اسمك ؟ فقالت : أنا الخروبة . قال : ولأى شىء نَبَتِّ ؟ قالت : نبت لخراب هذا المسجد . قال سليمان : ما كان الله لِيُخَرِّبه وأنا حى ؟ أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس . فنزعها وغرسها فى حائط له ، ثم دخل المحراب فقام يصلى متكئا على عصاه ، فمات ولا تعلم [٧] به الشياطين ، وهم فى ذلك يعملون له ، يخافون أن يخرج فيعاقبهم. وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب ، وكان المحراب له كُوى بين يديه وخلفه ، فكان الشيطان الذى يريد أن يخلع يقول : ألست جلدا [٨] إن دخلت فخرجت من ذلك الجانب ؟ فيدخل حتى يخرج من الجانب الآخر، فدخل شيطان من أولئك فمر ، ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان فى المحراب إلا احترق . فمر ولم يسمع صوت سليمان ، ثم رجع فلم يسمع ، ثم رجع فوقع فى البيت ولم يحترق . ونظر إلى سليمان، عليه السلام ، قد سقط ميتا . فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات . ففتحوا [٩] عنه

---

(١) فى ت : « رواه ابن جرير بإسناده » .
(٢) فى ت : « موتى » .
(٣) زيادة من ت ، س ، أ ، والطبرى .
(٤) فى ت ، س ، أ : « للأرضة » .
(٥) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥١) .
(٦) فى ت ، س : « فيجعل الشجرة » .
(٧) فى أ : « ولم يعلم » .
(٨) فى ت : « جليدا » .
(٩) فى هـ ، س : « فتنحوا » .

فأخرجوه . ووَجدوا منسأته ـ وهى : العصا بلسان الحبشة ـ قد أكلتها الأرضة ، ولم يعلموا منذ كم مات ؟ فوضعوا الأرضة على العصا ، فأكلت منها يوما وليلة ، ثم حسبوا على ذلك النحو ، فوجدوه قد مات منذ سنة . وهى فى قراءة ابن مسعود : فمكثوا يدأبون له من بعد موته حولا [١] ، فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبونهم ولو أنهم علموا الغيب ، لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا فى العذاب يعملون له سنة ، وذلك قول الله [٢] عز وجل : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** ﴾ . يقول : تبين أمرهم للناس أنهم كانوا يكذبونهم ، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة : لو كنت تأكلين الطعام أتيناك بأطيب الطعام ، ولو كنت تشربين الشراب سقيناك أطيب الشراب ، ولكنا سننقل إليك الماء والطين ـ قال : فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت ـ قال : ألم تر إلى الطين الذى يكون فى جوف الخشب ؟ فهو ما تأتيها به الشياطين ، شكراً [٣] لها [٤] .

وهذا الأثر ـ والله أعلم ـ إنما هو مما تلقى من علماء أهل الكتاب ، وهى وَقْفٌ ، لا يصدق منها[٥] إلا ما وافق الحق ، ولا يُكذب منها إلا ما خالف الحق ، والباقى لا يصدق ولا يكذب [٦] .

وقال ابن وهب وأصبغ بن الفرج ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ** ﴾ قال : قال سليمان ، عليه السلام ، لملك الموت : إذا أمرتَ بى فأعلمنى . فأتاه فقال : يا سليمان ، قد أمرت بك ، قد بقيت لك سويعة . فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ، وليس له باب ، فقام يصلي فاتكأ على عصاه ، قال : فدخل عليه ملك الموت ، فقبض روحه وهو متوكئ على عصاه ، ولم يصنع ذلك فراراً من ملك الموت . قال : والجن يعملون[٧] بين يديه وينظرون إليه ، يحسبون أنه حى . قال : فبعث الله ، عز وجل ، دابة الأرض . قال : والدابة تأكل العيدان ـ يقال لها : القادح ـ فدخلت فيها فأكلتْها ، حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت ، وثقل عليها فخر ميتًا ، فلما رأت ذلك الجن انفضوا وذهبوا . قال : فذلك قوله : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ** ﴾ . قال أصبغ : بلغنى عن غيره أنها قامت [٨] سنة تأكل منها قبل أن يخر [٩] . وقد ذكر غير واحد من السلف نحواً من هذا ، والله أعلم .

﴿ **لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧)** ﴾ .

---

(١) فى ت ، س ، أ : « حولا كاملا » . (٢) فى ت : « قوله » . (٣) فى ت ، س ، أ : « تشكرا » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥١) .
(٥) فى س ، أ : « لا نصدق منه » . (٦) فى ت ، أ : « لا تصدق ولا تكذب » .
(٧) فى ت ، س ، أ : « تعمل » . (٨) فى ت : « أقامت » . (٩) فى أ : « تخر » .

كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس ـ صاحبة سليمان ـ منهم (١) ، وكانوا فى نعمة وغبطة فى بلادهم ، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم . وبعث اللّه إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه (٢) بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء اللّه ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد أيدى سبأ ، شذر مَذرَ ، كما يأتى تفصيله وبيانه قريبًا إن شاء اللّه تعالى وبه الثقة .

قال الإمام أحمد ، رحمه اللّه : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن عبد اللّه بن هُبَيْرة ، عن عبد الرحمن بن وَعْلة قال : سمعت ابن عباس يقول (٣) : إن رجلا سأل رسول اللّه ﷺ عن سبأ : ما هو ؟ رجل (٤) أم امرأة أم أرض ؟ قال : « بل هو رجل ، ولد عَشَرة (٥) ، فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فَمَذْحِجُ ، وكِندَةُ ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير . وأما الشامية فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغَسان .

ورواه عَبدُ ، عن الحسن بن موسى ، عن ابن لَهيعة ، به (٦) . وهذا إسناد (٧) حسن ، ولم يخرجوه ، [وقد روى من طرق متعددة] (٨) . وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر فى كتاب «القصد والأمَمْ ، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم » ، من حديث ابن لهيعة ، عن علقمة بن وعلة، عن ابن عباس فذكر نحوه . وقد روى نحوه من وجه آخر .

وقال الإمام [أحمد] (٩) أيضًا وعبد بن حميد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا أبو جَنَاب يحيى ابن أبى حيَّة الكلبى ، عن يحيى بن هانئ بن عُرْوَة ، عن فروة بن مُسيَك قال : أتيت رسول اللّه ﷺ فقلت : يا رسول اللّه ، أقاتل بمقبل قومى مدبرهم ؟ قال : « نعم ، فقاتل بمقبل قومك مدبرهم » . فلما وليت دعانى فقال : « لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام » . فقلت : يا رسول اللّه ، أرأيت سبأ ؛ أواد هو ، أو رجل (١٠) ، أو ما هو ؟ قال : « [لا] (١١) ، بل رجل من العرب ، ولد له عشرة فَتَيَامَنَ ستة وتشاءم أربعة ، تيامن الأزد ، والأشعريون ، وحمير ، وكندة ، ومذحج ، وأنمار الذين يقال لهم : بجيلة وخثعم . وتشاءم لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسَّان » .

وهذا أيضًا إسناد جيد (١٢) وإن كان فيه أبو جَنَاب الكلبى ، وقد تكلموا فيه (١٣) . لكن رواه ابن جرير عن أبى كُرَيْب ، عن العَنْقَزى (١٤) ، عن أسباط بن نصر ، عن يحيى بن هانئ المرادى ، عن عمه أو عن أبيه ـ يشك أسباط ـ قال : قدم فروة بن مُسَيك على رسول اللّه ﷺ ، فذكره (١٥) .

طريق أخرى لهذا الحديث : قال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب، حدثنى ابن لهيعة ، عن توبة بن نَمر (١٦) ، عن عبد العزيز بن يحيى أنه أخبره قال : كنا عند عبيدة(١٧)

---

(١) فى ت ، س ، أ : « من جملتهم » . (٢) فى أ : « ويشكروا له » .
(٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس قال » . (٤) فى ت ، س : « أرجل » . (٥) فى أ : « ولد له عشرة » .
(٦) المسند (١ / ٣١٦) .
(٧) فى ت : « وإسناده » . (٨) زيادة من ت . (٩) زيادة من ت ، س ، أ .
(١٠) فى أ : « أم جبل » . (١١) زيادة من أ . (١٢) فى أ : « حسن » .
(١٣) ذكره الحافظ ابن حجر فى أطراف المسند (٥ / ١٧٨) وليس فى المطبوع من المسند .
(١٤) فى أ : « العبقرى » .
(١٥) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٣) .
(١٦) فى س ، أ : « نمير » . (١٧) فى أ : « عبدة » .

ابن عبد الرحمن بإفريقية فقال يومًا : ما أظن قوما بأرض إلا هم من أهلها . فقال على بن رباح : كلا ، قد حدثنى فلان أن فروة بن مُسَيك الغُطَيفى (١) قدم على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول (٢) الله ، إن سبأ قوم كان لهم عز فى الجاهلية ، وإنى أخشى أن يرتدّوا عن الإسلام ، أفأقاتلهم ؟ فقال: « ما أمرت فيهم بشىء بعد » . فأنزلت هذه الآية : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ﴾ الآيات ، فقال له رجل : يا رسول الله ، ما سبأ ؟ فذكر مثل هذا الحديث الذى قبله : أن رسول الله ﷺ سُئل عن سبأ: ما هو ؟ أبلد ، أم رجل ، أم امرأة ؟ قال : « بل رجل ، وَلَد عَشَرَة فسكن اليمن منهم ستة، والشام أربعة ، أما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير غير ما حلها . وأما الشام : فلخم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة » .

فيه غرابة من حيث ذكر [نزول] (٣) الآية بالمدينة ، والسورة مكية كلها ، والله (٤) أعلم .

طريق أخرى : قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنى الحسن بن الحكم ، حدثنا أبو (٥) سَبْرَة النَّخَعِى ، عن فَرْوَة بن مُسَيْك الغُطَيْفى (٦) قال : قال رجل : يا رسول الله ، أخبرنى عن سبأ : ما هو ؟ أرض ، أم امرأة ؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد ، فتيامن ستة وتشاءم أربعة ، فأما الذين تشاءموا : فلخم وجذام وعاملة وغسان ، وأما الذين تيامنوا : فكندة : والأشعريون ، والأزد ، ومذحج ، وحمير ، وأنمار » . فقال رجل : ما أنمار؟ قال : « الذين منهم خثعم وبجيلة » .

ورواه الترمذى فى جامعه ، عن أبى كُرَيْب وعبد بن حميد قالا : حدثنا أبو أسامة ، فذكره أبسط من هذا ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب (٧) .

وقال أبو عمر بن عبد البر : حدثنا عبد الوارث بن سفيان ، حدثنا قاسم بن أصبغ ، حدثنا أحمد ابن زهير ، حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطى ، حدثنا ابن كثير ـ هو عثمان بن كثير ـ عن الليث ابن سعد ، عن موسى بن على ، عن يزيد بن حصين ، عن تميم الدارى ؛ أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فسأله عن سبأ ، فذكر مثله ، فقوى هذا الحديث وحَسّن (٨) .

قال علماء النسب ، منهم محمد بن إسحاق : اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وإنما سمى سبأ لأنه أول من سبأ فى العرب ، وكان يقال له : الرائش ؛ لأنه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال : ريشا ورياشا . وذكروا أنه بشر برسول الله ﷺ فى زمانه (٩) المتقدم ، وقال فى ذلك شعرًا :

---

(١) فى أ: « القطيعى » . (٢) فى س ، أ : « يا نبى » (٣) زيادة من أ .
(٤) فى س : « فالله » . (٥) فى أ : « ابن » . (٦) فى أ : « القطيعى » .
(٧) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٢) .
(٨) القصد والأمم ص (٢٠) .
(٩) فى ت ، أ : « الزمان » .

سَيَمْلكُ بَعْدَنَا مُلْكًا عَظيمًا نَبىّ لا يُرَخّصُ فى الحَرَام
ويَمْلك بَعْدَه منْهُم مُلُوك يدينون العبادَ بغَير ذام
ويَملك بَعدهم منا مُلُوك يَصير المُلك فينَا باقْتسَام
ويَمْلك بَعْدَ قَحطَان نَبى تَقى خَبْتَة خير الأنام
وسُمىَ أحْمَدًا يَا لَيْتَ أنى أعَمرُ بَعْد مَبْعَثه بعَام
فأعضُده وأحبوه بنَصْرى بكُل مُدَجّج وبكُل رام
متى يَظْهَرْ فكُونُوا نَاصريه وَمَنْ يَلْقَاهُ يُبْلغه سَلامى

ذكر ذلك الهمدانى فى كتاب « الإكليل » .

واختلفوا فى قحطان على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح ، واختلفوا في كيفية اتصال نسبه به على ثلاث(١) طرائق .

والثانى : أنه من سلالة عَابَر ، وهو هود ، عليه الصلاة والسلام ، واختلفوا فى كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضًا .

والثالث : أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليهما السلام ، واختلفوا فى كيفية اتصال نسبه به على ثلاث طرائق أيضا . وقد ذكر ذلك مستقصى الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر النَّمرى ، رحمه اللّه ، فى كتابه [المسمى] (٢) : « الإنباه على ذكر أصول القبائل الرواة (٣) » .

ومعنى قوله عليه السلام : « كان رجلا من العرب » يعنى : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل، عليه السلام ، من سلالة سام بن نوح . وعلى القول الثالث : كان من سلالة الخليل ، عليه السلام ، وليس هذا بالمشهور عندهم ، واللّه أعلم . وفى صحيح البخارى : أن رسول اللّه ﷺ مر بنفر من « أسلَمَ » ينتضلون ، فقال : « ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا » (٤) . فأسلم قبيلة من الأنصار ، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ فى البلاد ، حين بعث اللّه عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما (٥) قيل لهم : غَسَّان بماء نزلوا عليه قيلَ : باليمن . وقيل : إنه قريب من المُشَلَّل (٦) ، كما قال حسان بن ثابت :

إمَّا سَألت فَإنَّا مَعْشَرٌ نُجُبٌ الأزدُ نسبَتُنُا ، والماء غَسَّانُ (٧)

ومعنى قوله : « ولد له عشرة من العرب » أى : كان (٨) من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع

---

(١) فى أ : « ثلاثة » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى ت : « بالرواة » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٥٠٧) من حديث سلمة ، رضى الله عنه .
(٥) فى ت : « وإن » . (٦) فى ت : « المسلك » وفى أ : « المسكن » .
(٧) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٠) .
(٨) فى ت : « كانوا » .

إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر ، كما هو مقرر مبين فى مواضعه من (١) كتب النسب .

ومعنى قوله : « فتيامن منهم ستة ، وتشاءم منهم أربعة » أى : بعد ما أرسل اللّه عليهم سيل العرم ، منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها ، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعَمَدَ ملوكهم الأقادم ، فبنوا بينهما سدًا عظيما محكما حتى ارتفع الماء ، وحُكمَ على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف ، منهم قتادة : أن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ، وهو الذى تخترف (٢) فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار فى ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطَّاف ، لكثرته ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب : بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب .

وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شىء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شىء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية اللّه بهم ، ليوحدوه ويعبدوه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ﴾ ، ثم فسرها بقوله : ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أى : من ناحيتى الجبلين والبلدة بين (٣) ذلك ، ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أى : غفور لكم إن استمررتم على التوحيد.

وقوله : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أى : عن توحيد اللّه وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس ، كما قال هدهد سليمان : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٢ ـ ٢٤]

وقال محمد بن إسحاق ، عن وهب بن مُنَبّه : بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبيا .

وقال السُّدِّى : أرسل اللّه إليهم اثنى عشر ألف نبى ، واللّه (٤) أعلم .

وقوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ : قيل : المراد بالعرم المياه . وقيل : الوادى . وقيل : الجُرَذ . وقيل : الماء الغزير. فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته ، مثل : « مسجد الجامع » . و« سعيد كُرْز » حكى ذلك السهيلى (٥) .

وذكر غير واحد منهم ابن عباس ، ووهب بن منبه ، وقتادة ، والضحاك ؛ أن اللّه ، عز وجل ، لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم ، بعث على السد دابة من الأرض ، يقال لها : « الجُرَذ » نقبته ـ قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون فى كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرَذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان ، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير ، وولجت إلى السَّدّ فنقبته ، فانهار عليهم .

---

(١) فى ت : « فى » . (٢) فى ت : « يحترق » . (٣) فى أ : « من » .
(٤) فى ت ، س : « فالله » . (٥) الروض الأنف (١ / ١٥) .

وقال قتادة وغيره : الجُرَذ : هو الخَلْد ، نقبت أسافله حتى إذا ضَعُف ووَهَى ، وجاءت أيام السيول ، صَدَمَ الماءُ البناءَ فسقط ، فانساب الماء فى أسفل [(١)] الوادى ، وخرّبَ ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التى فى الجبلين عن يمين وشمال ، فيبست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة ، كما قال اللّه تعالى : ﴿ **وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ** ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعِكْرِمة ، وعطاء الخُرَاسانى ، والحسن ، وقتادة ، والسُّدِّى : وهو الأراك ، وأكلة البَرير .

﴿ **وَأَثْلٍ** ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : هو الطَّرْفاء .

وقال غيره : هو شجر يشبه الطرفاء . وقيل : هو السَّمُر . فاللّه أعلم .

وقوله : ﴿ **وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ** ﴾ : لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السّدْر قال : ﴿**وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ** ﴾ ، فهذا الذى صار أمر تَيْنك [(٢)] الجنتين إليه ، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة والأنهار الجارية ، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسّدْر ذى الشوك الكثير والثمر القليل . وذلك بسبب كفرهم وشركهم باللّه ، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل؛ ولهذا قال: ﴿ **ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا** [(٣)] **وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ** ﴾ أى : عاقبناهم بكفرهم .

قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور .

وقال الحسن البصرى : صدق اللّه العظيم . لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور .

وقال طاوس : لا يناقش إلا الكفور .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملى ، حدثنا حجاج ابن محمد ، حدثنا أبو البيداء ، عن هشام بن صالح التغلبى [(٤)] ، عن ابن خيرة ـ وكان من أصحاب على ، رضى اللّه عنه ـ قال : جزاء المعصية الوهن فى العبادة ، والضيق فى المعيشة ، والتعسر فى اللذة . قيل : وما التعسر فى اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلال [(٥)] إلا جاءه من يُنَغِّصه إياها .

﴿ **وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)** ﴾ .

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغِبْطة والنعمة ، والعيش الهنى الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة ، بعضها من بعض ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث

---

(١) فى ت : « أصل » . (٢) فى ت ، أ : « تلك » . (٣) فى ت : « بكفرهم » وهو خطأ .
(٤) فى ت : « وقال ابن أبى حاتم بإسناده » . (٥) فى ت : « حلالاً » .

إن مسافرهم لا يحتاج إلا حَمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا ، ويَقيل في قرية ويبيت في أخرى ، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ، قال وهب بن منبه : هي قرى بصنعاء . وكذا قال أبو مالك .

وقال مجاهد : والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، والسُّدِّي ، وابن زيد وغيرهم [١] : يعني : قرى الشام . يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : القرى التي باركنا فيها [٢] : بيت المقدس .

وقال العوفي ، عنه أيضا : هي قرى عربية بين المدينة والشام .

﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ أي : بينة واضحة ، يعرفها المسافرون ، يَقيلون في واحدة ، ويبيتون في أخرى؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ ، أي : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ، ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ أي : الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلا ونهارا .

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ ،وقرأ آخرون: « بعد بين أسفارنا»،وذلك أنهم بَطروا هذه النعمة ـ كما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد ـ وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحَرُور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض ، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا في عيش رغيد في مَنّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة ؛ ولهذا قال لهم: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٦١] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [القصص : ٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] . وقال في حق هؤلاء : ﴿ وَظَلَمُوا [٣] أَنفُسَهُمْ ﴾ ، أي : بكفرهم ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أي : جعلناهم حديثا للناس ، وسَمَرًا يتحدثون به من [٤] خبرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا ؛ ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : « تفرقوا أيدي سبأ » « وأيادي سبأ » و « تفرقوا شَذَرَ مَذَرَ [٥] » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، سمعت أبي يقول : سمعت [٦] عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ ، قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ [عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ] [٧] ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ : وكانت فيهم

---

(١) في ت : « وخلق غيرهما » . (٢) في ت : « هي » . (٣) في ت ، س ، أ : « فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا » .
(٤) في ت : « في » . (٥) في ت : « ومدر »
(٦) في ت : « وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى عكرمة » . (٧) زيادة من ت ، س ، أ .

كهنة، وكانت الشياطين يسترقون السمع ، فأخبروا الكهنة [١] بشيء من أخبار [٢] السماء ، فكان [٣] فيهم رجل كاهن شريف كثير المال ، وإنه خُبِّر أن زوال أمرهم قد دنا ، وأن العذاب قد أظلهم [٤] . فلم يدر كيف يصنع؛ لأنه كان له مال كثير من عقار ، فقال لرجل من بنيه ـ وهو أعزهم أخوالا ـ : إذا كان غدا وأمرتك بأمر فلا تفعل ، فإذا انتهرتك فانتهرني ، فإذا تناولتك فالطمني . فقال : يا أبت، لا تفعل ، إن هذا أمر عظيم ، وأمر شديد ، قال : يا بني ، قد حدث أمر لابد منه . فلم يزل به حتى وافاه على ذلك . فلما أصبحوا واجتمع الناس ، قال : يا بني ، افعل كذا وكذا . فأبى ، فانتهره أبوه، فأجابه ، فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه ، فوثب على أبيه فلطمه ، فقال : ابني يلطمني؟ عَلَيّ بالشفرة . قالوا : وما تصنع بالشفرة ؟ قال : أذبحه . قالوا : تذبح ابنك . الطمه أو اصنع ما بدا لك. قال : فأبى ، قال : فأرسلوا إلى أخواله فأعلموهم ذلك ، فجاء أخواله فقالوا : خذ منا ما بدا لك . فأبى إلا أن يذبحه . قالوا : فلتموتن قبل أن تذبحه . قال : فإذا كان الحديث هكذا فإني لا أرى أن أقيم ببلد يحال بيني وبين ولدي [٥] فيه ، اشتروا مني دوري ، اشتروا مني أرضي ، فلم يزل حتى باع دوره وأراضيه وعقاره ، فلما صار الثمن في يده وأحرزه ، قال : أي قوم، إن العذاب قد أظلكم ، وزوال أمركم قد دنا ، فمن أراد منكم دارا جديدا ، وجملا شديدا ، وسفرا بعيدا ، فليلحق بعمان . ومن أراد منكم الخَمْر والخَمير والعَصير ـ وكلمة ، قال [٦] إبراهيم : لم أحفظها ـ فليلحق [٧] ببصْرَى ، ومن أراد الراسخات في الوحل ، المطعمات في المحل ، المقيمات في الضحل ، فليلحق [٨] بيثرب ذات نخل . فأطاعه قومه [٩] ، فخرج أهل عمان إلى عمان . وخرجت غسان إلى بصرى . وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخل . قال : فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان : هذا مكان صالح ، لا نبغي به بدلا . فأقاموا به ، فسموا لذلك خزاعة ، لأنهم انخزعوا من أصحابهم ، واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة ، وتوجه أهل عمان إلى عمان ، وتوجهت غسان إلى بصرى .

هذا أثر غريب عجيب ، وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم[١٠] .

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أول من خرج من بلاد اليمن ، بسبب استشعاره بإرسال العَرِم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن ــ فيما حدثني أبو زيد الأنصاري ــ : أنه رأى جرذًا يَحفر [١١] في سد مأرب ، الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاؤوا من أرضهم . فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك ، فاعتزم على النُّقْلة عن اليمن فكاد [١٢] قومه ، فأمر أصغر أولاده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به ، فقال عمرو : لا أقيم ببلد لَطَم وجهي فيها أصغر ولدي [١٣] . وعرض أمواله ، فقال

---

(١) في س : « فأخبروا به الكهنة » .
(٢) في أ : « خبر » .
(٣) في س : « وكان » .
(٤) في أ : « أضلهم » .
(٥) في ت ، س : « ابني » .
(٦) في ت : « قالها » .
(٧) في ت : « فيحق » .
(٨) في ت : « فليحق » .
(٩) في س : « قومنا » .
(١٠) في ت : « كهناتهم » .
(١١) في س : « تحفر » .
(١٢) في ت ، س : « وكاد » .
(١٣) في ت : « أولادي » .

أشراف من أشراف اليمن : اغتنموا غَضْبَةَ عمرو . فاشتروا منه أمواله ، وانتقل فى ولده وولد ولده . وقالت الأزد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر . فباعوا أموالهم ، وخرجوا معه فساروا (١) حتى نزلوا بلاد « عك » مجتازين يرتادون البلدان ، فحاربتهم عك ، وكانت حربهم سجَالا . ففى ذلك يقول عباس بن مرداس السلمى :

وَعَكَ بنُ عَدنَانَ الذينَ تَغَلَّبُوا   بغَسَّانَ ، حتى طُرِّدُوا كُلَّ مَطْرَد

وهذا البيت من (٢) قصيدة له .

قال : ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلاد ، فنزل آل جَفْنَة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مرّا . ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عُمَان عُمان ، ثم أرسل اللّه على السد السيل فهدمَه ، وفى ذلك أنزل اللّه عز وجل هذه الآيات (٣) .

وقد ذكر السدى قصة عمرو بن عامر بنحو مما ذكر محمد بن إسحاق ، إلا أنه قال : « فأمر ابن أخيه » ، مكان « ابنه » ، إلى قوله : « فباع ماله وارتحل بأهله ، فتفرقوا » . رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، أخبرنا [سلمة] (٤) ، عن ابن إسحاق قال : يزعمون أن عمرو بن عامر ـ وهو عم القوم ـ كان كاهنًا ، فرأى فى كهانته أن قومه سَيمَزّقون ويباعَدُ بين أسفارهم . فقال لهم : إنى قد علمت أنكم ستمزقون ، فمن كان منكم ذاهَمّ بعيد وجمل شديد ، ومَزَاد جَديد ـ فليلحق بكاس أو كرود . قال : فكانت وادعة بن عمرو . ومن كان منكم ذا هَمّ مُدْن، وأمر دَعْن ، فليلحق بأرض شَنْ . فكانت عوف بن عمرو ، وهم الذين يقال لهم : بارق . ومن كان منكم يريد عيشا آنيا ، وحرما آمنا ، فليلحق بالأرزين . فكانت خزاعة . ومن كان منكم يريد الراسيات فى الوحل ، المطعمات فى المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل . فكانت الأوس والخزرج ، وهما هذان الحيان من الأنصار . ومن كان منكم يريد خمرا وخَميرا ، وذهبا وحريرا ،وملكا وتأميرا ، فليلحق بكُوثى وبُصرى ، فكانت غسانَ بنو جَفنة (٥) ملوكُ الشام . ومن كان منهم بالعراق .

قال ابن إسحاق : وقد سمعت بعض أهل العلم يقول : إنما قالت هذه المقالة طريفةُ امرأة عمرو ابن عامر ، وكانت كاهنة ، فرأت فى كهانتها ذلك ، فاللّه أعلم أىّ ذلك كان (٦) .

وقال سعيد ، عن قتادة ، عن الشعبى : أما غسان فلحقوا بالشام ، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، وأما الأزد فلحقوا بعمان ، فمزقهم اللّه كل ممزق . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير .

ثم قال محمد بن إسحاق : حدثنى أبو عبيدة قال : قال الأعشى ـ أعشى بنى قيس بن ثعلبة ـ واسمه : ميمون بن قيس :

---

(١) فى ت : « فسار » .
(٢) فى ت ، س : « فى » .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٠) .
(٤) زيادة من ت ، والطبرى .
(٥) فى ت : « بنو حنيفة » .
(٦) تفسير الطبرى (٢٢ / ٥٩) .

وَفِى ذَاكَ للمُؤتَسى (١) أسْوَةٌ ومَأربُ عَفّى عَلَيها العَرِمْ
رُخَام بَنَتْهَ لَهُمْ حِمْيَرُ إذا جاءَ مَوَارهُ لم يَرِمْ
فَأرْوَى الزرُوعَ وَأعنَابَها عَلَى سَعَة مَاؤهُمْ إذْ (٢) قُسّم
فَصَارُوا أيَادِى مَا يَقْدرُو نَ منْه عَلَى شُرب طِفْل فُطِم (٣)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : إن فى هذا الذى حل بهؤلاء من النقمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية ، عقوبةً على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ــ لعبرةً وَدَلالةً لكل عبد صبار (٤) على المصائب ، شكور على النعم .

قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن وعبد الرزاق المعنى ، قالا : أخبرنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن العَيْزَار بن حُرَيث عن عمر بن سعد ، عن أبيه - هو سعد بن أبى وقاص ، رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « عجبت من قضاء الله للمؤمن ، إن أصابه خير حَمدَ ربَّه وشكر، وإن أصابته مصيبة حَمِد ربه وصَبَر ، يؤجر المؤمن فى كل شىء ، حتى فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته» .

وقد رواه النسائى فى « اليوم والليلة » ، من حديث أبى إسحاق السَّبِيعى ، به (٦) - وهو حديث عزيز - من رواية عمر بن سعد ، عن أبيه . ولكن له شاهد فى الصحيحين من حديث أبى هريرة : «عجبًا للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا (٧) ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» (٨) .

قال عبد : حدثنا يونس ، عن شيبان ، عن (٩) قتادة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قال: كان مطرّف يقول : نعم العبد الصبار الشكور ، الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) ﴾ .

لما ذكر [الله] (١٠) تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم فى اتباعهم الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالف الرشاد والهدى ، فقال : ﴿ **وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ** ﴾ .

---

(١) فى ت : « وفى ذلك للمتوسى » . (٢) فى ت : « إذا » .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١ / ١٤) .
(٤) فى ت : « صبار شكور على » . (٥) فى ت : « وروى » .
(٦) المسند (١ / ١٧٣) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩٠٦) .
(٧) فى ت ، س : « خيرًا له » .
(٨) لم أجده من حديث أبى هريرة ، وقد رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب ، رضى الله عنه .
(٩) فى ت : « وعن » . (١٠) زيادة من ت .

قال ابن عباس وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخبارًا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم ، ثم قال : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : ٦٢]، ثم قال [١] : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] والآيات فى هذا كثيرة .

وقال الحسن البصرى : لما أهبط اللّه آدم من الجنة ومعه حواء ، هبط [٢] إبليس فَرِحا بما أصاب منهما ، وقال : إذا أصبت من الأبوين ما أصبت ، فالذرية أضعف وأضعف . وكان ذلك ظنًا من إبليس ، فأنزل اللّه عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فقال عند ذلك إبليس : « لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح ، أعدُه [٣] وأُمَنّيه وأخدعه » . فقال اللّه : «وعزتى لا أحجب عنه التوبة ما لم يُغَرغِر بالموت ، ولا يدعونى إلا أجبته ، ولا يسألنى إلا أعطيته ، ولا يستغفرنى إلا غفرت له » . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ : قال ابن عباس : أى من حجة .

وقال الحسن البصرى : واللّه ما ضربهم بعصا ، ولا أكرههم على شىء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وقوله : ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ أى : إنما سلطناه عليهم ليظهَر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء ، فيُحسِنَ عبادة ربه عز وجل فى الدنيا ، ممن هو منها فى شك .

وقوله : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى : ومع حفظه ضَلّ من ضل من أتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سَلِم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) ﴾ .

بيَّن [٤] تعالى أنه الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لا نظير له ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده ، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض ، فقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : من الآلهة التى عبدت من دونه ﴿ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ﴾، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣] .

وقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ أى : لا يملكون شيئا استقلالا ولا على سبيل الشركة ، ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ أى : وليس للّه من [٥] هذه الأنداد من ظهير يستظهر به فى الأمور ، بل

---

(١) فى ت ، س : « وقال » . (٢) فى أ : « أهبط » . (٣) فى ت ، س : « أغره » .
(٤) فى ت ، س ، أ : « يبين » . (٥) فى ت : « فى » .

الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه .

قال قتادة فى قوله : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ ، من عون يعينه بشىء .

وقال [١] : ﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أى : لعظمته [وجلاله] [٢] وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى فى شىء إلا بعد إذنه له فى الشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ [وَيَرْضَى] [٣] ﴾ [النجم : ٢٦] ، وقال : ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٨] .

ولهذا ثبت فى الصحيحين [٤] ، من غير وجه عن رسول الله ﷺ ـ وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله ـ : أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع فى الخلق كلّهم أن يأتى ربّهم لفصل القضاء ، قال : « فأسجد لله فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يُسمع [٥] ، وسل تُعطَه واشفع تشفع » الحديث بتمامه .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ . وهذا أيضا مقام رفيع فى العظمة . وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحى ، سمع أهل السموات كلامه ، أُرْعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشى . قاله ابن مسعود ومسروق ، وغيرهما .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ أى :زال الفزع عنها . قال ابن عباس ، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبى ، وإبراهيم النَّخَعىّ ، والضحاك والحسن ، وقتادة فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول : جُلِّى عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف ـ وجاء مرفوعا ـ : « [حَتَّى] [٦] إذَا فرغ» بالغين [٧] المعجمة ، ويرجع إلى الأول .

فإذا كان كذلك يسأل بعضهم بعضا : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهى الخبر إلى أهل السماء الدنيا ؛ ولهذا قال : ﴿ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ أى: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

وقال آخرون : بل معنى قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم : الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا .

قال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ : كشف عنها الغطاء يوم القيامة.

وقال الحسن : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : ما فيها من الشك والتكذيب .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : ما فيها من الشك ،

---

(١) فى ت : « ثم قال » . (٢) زيادة من أ . (٣) زيادة من ت ، أ .
(٤) تقدمت أحاديث الشفاعة عند تفسير الآية : ٧٩ من سورة الإسراء .
(٥) فى س ، أ : « تسمع » . (٦) زيادة من أ . (٧) فى ت : « بالعين » .

قال : فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم ، ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ قال : وهذا فى بنى آدم ، هذا عند الموت ، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار .

وقد اختار ابن جرير القول الأول : أن الضمير عائد على الملائكة (١) . هذا هو الحق الذى لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار ، ولنذكر منها طرفا يدل على غيره :

قال البخارى عند تفسير هذه الآية الكريمة فى صحيحه : حدثنا الحميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو ، سمعت عكْرِمة ، سمعت أبا هُرَيرة (٢) يقول : إن نبى اللّه ﷺ قال : « إذا قضى اللّه الأمرَ فى السماء ، ضربَت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوانَ ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحقّ ، وهو العلى الكبير فيسمعها مُسْتَرِق السمع ، ومسترق السمع ـ هكذا بعضه (٣) فوق بعض ـ ووصف سفيان بيده ـ فَحَرّفها وبَدّد (٤) بين أصابعه ـ فيَسمع الكلمة ، فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيَها على لسان الساحر(٥) أو الكاهن : فَربما أدركه الشّهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذْبَة ، فيقال : أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا : كذا (٦) وكذا ؟ فيصدّق بتلك الكلمة التى سُمعت من السماء .

انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم من هذا الوجه . وقد رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه، من حديث سفيان بن عيينة ، به (٧) .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وعبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، أخبرنا الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس قال : كان رسول اللّه ﷺ [جالسًا] (٨) فى نفر من أصحابه ــ قال عبد الرزاق : « من الأنصار » ــ فَرُميَ بنجم فاستنار ، [قال] (٩) : « ما كنتم تقولون إذا كان مثلُ هذا فى الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول يُولَد عظيم ، أو يموت (١٠) عظيم ـ قلت للزهرى: أكان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن غُلّظت حين بعث النبى ﷺ ـ قال : فقال رسول اللّه ﷺ : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا ، تبارك وتعالى ، إذا قضى أمرا سبح حَمَلَةُ العرش [ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه (١١) الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يَلُونَ حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش] (١٢) : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء ؛ حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن السمع فيرمون ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون .

هكذا رواه الإمام أحمد (١٣) . وقد أخرجه مسلم فى صحيحه ، من حديث صالح بن كَيْسَان ،

---

(١) تفسير الطبرى (٢٢ / ٦٤) .
(٢) فى ت : « قال البخارى عند تفسيره هذه الآية الكريمة فى صحيحه بإسناده عن أبى هريرة » .
(٣) فى أ : « بعضهم » .
(٤) فى أ : « وسدد » .
(٥) فى أ : « الآخر » .
(٦) فى أ : « وكذا ، يوم كذا » .
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٠) وسنن أبى داود برقم (٣٩٨٩) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٩٤) .
(٨ ، ٩) زيادة من ت ، س ، والمسند .
(١٠) فى ت ، س : « ويموت » .
(١١) فى ت ، س : « السماء » .
(١٢) زيادة من ت ، س ، والمسند .
(١٣) المسند (١ / ٢١٨) .

والأوزاعى ، ويونس ومَعْقِل بن عبيد اللّه [(١)] ، أربعتهم عن الزهرى ، عن على بن الحسين ، عن ابن عباس عن رجل من الأنصار ، به [(٢)] . ورواه وقال يونس : عن رجال من الأنصار [(٣)] . وكذا رواه النسائى [(٤)] فى « التفسير » من حديث الزبيدى ، عن الزهرى ، به [(٥)] . ورواه الترمذى فيه عن الحُسَين بن حريث ؛ عن الوليد بن مسلم ، عن الأوزاعى ، عن الزهرى ، عن عُبَيد اللّه بن عبد اللّه، عن ابن عباس ، عن رجل من الأنصار ، رضى اللّه عنه [(٦)] ، واللّه [(٧)] أعلم .

حديث آخر : قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف وأحمد بن منصور بن سيار الرمادى ـ والسياق لمحمد بن عوف ـ قالا : حدثنا نعيم بن حماد ، حدثنا الوليد ـ هو ابن مسلم ـ عن عبد الرحمن بن يزيد [(٨)] بن جابر ، عن عبد اللّه بن أبي زكرياء ، عن رجاء بن حيوة ، عن النواس بن سَمْعان [(٩)] قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا أراد اللّه أن يوحى بأمره تكلم بالوحى ، فإذا تكلم أخذت السموات منه [(١٠)] رجفة ـ أو قال : رعدة ـ شديدة ؛ من خوف اللّه ، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا للّه سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل فيكلمه اللّه من وحيه بما أراد، فيمضى به جبريل على الملائكة ، كلما مَرّ بسماء سماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول: قال : الحقّ ، وهو العلى الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهى جبريل بالوحى حيث أمره اللّه من السماء والأرض » .

وكذا رواه ابن جرير وابن خُزَيمة ، عن زكريا بن أبان المصرى ، عن نعيم بن حماد ، به [(١١)] .

قال ابن أبى حاتم : سمعت أبى يقول : ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم ، رحمه اللّه .

وقد روى ابن أبى حاتم من حديث العَوفى ، عن ابن عباس ــ وعن قتادة : أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء اللّه سبحانه إلى محمد ﷺ بعد الفترة التى كانت بينه وبين عيسى ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل فى هذه الآية .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ

(١) فى س : « بن عبد الله » .
(٢ ، ٣) صحيح مسلم برقم (٢٢٢٩) .
(٤) فى ت : « وكذا رواه النسائى والترمذى » .
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٤) .
(٦) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٧٢) .
(٧) فى س : « فالله » .
(٨) فى أ : « زيد » .
(٩) فى ت : « حديث آخر رواه ابن جرير بإسناده عن النواس بن سمعان » .
(١٠) فى أ : « منها » .
(١١) تفسير الطبرى (٢٢ / ٦٣) والتوحيد لابن خزيمة ص (٩٥) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٥١٥) من طريق محمد بن عوف ، عن نعيم بن حماد ، به .

بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ .

يقول تعالى مقررًا تفردَه بالخلق والرزق [١] ، وانفراده بالإلهية أيضا ، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء [٢] والأرض ـ أى : بما ينزل من المطر وينبت من الزرع ـ إلا الله ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره .

وقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ : هذا من باب اللف والنشر ، أى : واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين : والله ما نحن وإياكم على أمر واحد ، إن أحد الفريقين لمهتد .

وقال عِكْرِمة وزياد بن أبى مريم : معناه : إنا نحن لعلى هدى ، وإنكم لفى ضلال مبين .

وقوله : ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ : معناه : التبرى منهم ، أى : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن بُرآء منكم وأنتم برآء منا ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن [٣] كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١] ، وقال : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون] .

وقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ أى : يوم القيامة ، يجمع [بين] [٤] الخلائق فى صعيد واحد ، ثم يفتح بيننا بالحق ، أى : يحكم بيننا بالعدل ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ [الروم : ١٤ ـ ١٦] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : الحاكم [٥] العادل العالم بحقائق الأمور .

وقوله : ﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ أى : أرونى هذه الآلهة التى جعلتموها لله أندادا وصيَّرتموها له عدْلا . ﴿ كَلَّا ﴾ أى : ليس له نظير ولا نَديد ، ولا شريك ولا عديل ، ولهذا قال : ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ ﴾ : أى : الواحد الأحد الذى لا شريك له ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : ذو العزة التى قد قهر

---

(١) فى ت : « بفرضه بالرزق والخلق » . (٢) فى ت ، أ : « السموات » .
(٣) فى هـ ، ت ، س ، أ : « فإن » والصواب ما أثبتناه . (٤) زيادة من ت . (٥) فى ت ، أ : « الحكام » .

بها كل شىء ، وَغَلَبت كل شىء ، الحكيم فى أفعاله وأقواله ، وشرعه وقدره ، تعالى وتقدس .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد،صلوات الله وسلامه عليه (١) : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ(٢) ﴾ : أى : إلا إلى جميع الخلق من المكلفين ، كقوله (٣) تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨]، ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١]. ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى تبشر (٤) من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، كقوله (٥) تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] .

قال محمد بن كعب فى قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ يعنى : إلى الناس عامة .

وقال قتادة فى هذه الآية : أرسل الله محمدا ﷺ إلى العرب والعجم ، فأكرمُهم على الله أطوعهم لله عز وجل .

وقال ابن أبى حاتم :حدثنا أبو عبد الله الظهرانى ،حدثنا حفص بن عمر العَدَنى ،حدثنا الحكم ـ يعنى : ابن أبان (٦) ـ عن عكْرِمة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن الله فضل محمدًا ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا ابن عباس ، فيم فضله الله (٧) على الأنبياء ؟ قال : إن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ، وقال للنبى ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ ، فأرسله الله إلى الجن والإنس .

وهذا الذى قاله ابن عباس قد ثبت فى الصحيحين رَفْعهُ عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى . وأعطيت الشفاعة . وكان النبى يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة » (٨) .

وفى الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت إلى الأسود والأحمر » (٩) . قال مجاهد : يعنى : الجن والإنس . وقال غيره : يعنى : العرب والعجم . والكل صحيح .

ثم قال تعالى مخبرا عن الكفار فى استبعادهم قيام الساعة : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ

---

(١) فى ت : « صلى الله عليه وسلم » .
(٢) فى ت : « للناس بشيراً » . (٣) فى ت ، س : « لقوله » . (٤) فى س : « يبشر » .
(٥) فى ت : « لقوله » . (٦) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٧) فى ت ، س : « فما فضله » .
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٣٥) وصحيح مسلم برقم (٥٢١) .
(٩) وهو قطعة من حديث جابر السابق عند مسلم فى صحيحه برقم (٥٢١) .

صَادِقِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ الآية [الشورى : ١٨] .

ثم قال : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أى : لكم ميعاد مؤجل معدود محرر ، لا يزداد ولا ينتقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : ٤] ، وقال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلا لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٤ ، ١٠٥] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾ .

يخبر تعالى عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا ، ومخبرا عن مواقفهم الذليلة بين يديه فى حال تخاصمهم وتحاجهم : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ منهم وهم الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم قادتهم وسادتهم : ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لولا أنتم تصدونا ، لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به . فقال لهم القادة والسادة ، وهم الذين استكبروا : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ﴾ أى : نحن ما فعلنا بكم (١) أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير (٢) دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الأنبياء ، لشهوتكم واختياركم لذلك ؛ ولهذا قالوا : ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى : بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا ، وتَغُرّونا وتُمَنّونا ، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شىء ، فإذا جميع ذلك باطل وكَذِبٌ ومَيْن .

قال قتادة ، وابن زيد (٣) : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ يقول : بل مكرهم بالليل والنهار . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم : مكرهم بالليل والنهار .

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أى نظراء وآلهة معه ، وتقيموا لنا شُبَهاً وأشياءَ من

---

(١) فى س ، أ : « بكم ذلك » . (٢) فى ت ، س ، أ : « بغير » . (٣) فى ت ، أ : « ابن زيد بن أسلم » .

المحال ، تضلونا بها ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أى : الجميع من السادة والأتباع ، كُلٌّ نَدِم على ما سَلَف منه .

﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم ، ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١) ﴾ أى : إنما نجازيكم بأعمالكم (٢) ، كُلٌّ بحسبه ، للقادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم ﴿ قَالَ لِكُلٍ ضِعْفٌ وَلَكِن لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فَرْوَة بن أبى المغراء ، حدثنا محمد بن سليمان (٣) بن الأصبهانى ، عن أبى سِنان ضرار بن صُرَد ، عن عبد الله بن أبى الهُذَيل (٤) ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن جهنم لما سيق إليها أهلها تَلَقَّاهم لهبها ، ثم لَفَحَتْهُم لفحةً فلم يبق لحم (٥) إلا سقط على العرقوب » (٦) .

وحدثنا (٧) أبى ، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا الطيب أبو الحسن ، عن الحسن بن يحيى الخُشَنى قال : ما فى جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا سلسلة ولا قيد ، إلا اسم صاحبها عليه مكتوب. قال : فحدثتُه أبا سليمان ـ يعنى : الدارانى ، رحمة الله عليه (٨) ـ فبكى ثم قال : ويحك . فكيف به لو جمع هذا كله عليه ، فجعل القيد فى رجليه ، والغُلّ فى يديه والسلسلة فى عنقه ، ثم أدخل الدار وأدخل المغار ؟ !

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾ .

يقول تعالى مسليا لنبيه ، وآمرا له بالتأسى بمن قبله من الرسل ، ومخبره بأنه ما بعث نبياً في قرية إلا كذبه (٩) مترفوها ، واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال قوم نوح : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١] ، ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ [هود : ٢٧] ، وقال الكبراء من قوم صالح : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا

---

(١) فى ت ، س : « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » . (٢) فى أ : « نجازيهم بأعمالهم » . (٣) فى أ : « سليم » .
(٤) فى ت : « روى ابن أبى حاتم بإسناده » . (٥) فى ت : « فلم يبق لهم لحم » .
(٦) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٨٤٨) « مجمع البحرين » وأبو نعيم فى الحلية (٤ / ٣٦٣) من طرق عن محمد بن سليمان الأصبهانى ، به . وقال الهيثمى فى المجمع (١٠ / ٣٨٩) : « وفيه محمد بن سليمان الأصبهانى وهو ضعيف » .
(٧) فى ت : « وروى » . (٨) فى ت : « رحمه الله » . (٩) فى ت : « إلا كفر به » .

أُرْسِلَ به مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم به كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف ٧٥ ، ٧٦] وقال تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴾ [الأنعام: ٥٣] ؟ وقال : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا** ﴾ [الأنعام : ١٢٢]، وقال : ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا** [**فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ**] (١) ﴾ [الإسراء : ١٦]. وقال هاهنا : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ** ﴾ أى : نبى أو رسول ﴿ **إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا** ﴾ ، وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة .

قال قتادة : هم جَبَابرتهم وقادتهم ورؤوسهم فى الشر . ﴿ **إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ** ﴾ أى : لا نؤمن به ولا نتبعه .

قال (٢) ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هارون بن إسحاق ، حدثنا محمد بن عبد الوهاب عن سفيان عن عاصم ، عن أبى رَزِين قال : كان رجلان شريكان (٣) خرج أحدهما إلى الساحل وبقى الآخر ، فلما بعث النبى ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله : ما فعل ؟ فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش ، إنما (٤) اتبعه أراذل (٥) الناس ومساكينهم . قال : فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال : دلنى عليه ـ قال : وكان يقرأ الكتب ، أو بعض الكتب ـ قال : فأتى النبى ص فقال : إلام تدعو ؟ قال: « إلى كذا وكذا » . قال : أشهد أنك رسول اللّه . قال : « وما علمك بذلك ؟ » قال : إنه لم يبعث نبى إلا اتبعه رُذَالة الناس ومساكينهم . قال : فنزلت هذه الآية (٦) : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ** ﴾[الآيات] (٧) ، قال : فأرسل إليه النبى ﷺ « إن اللّه قد أنزل تصديق ما قلت » (٨) .

وهكذا قال هرقل لأبى سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، قال فيها : وسألتك : أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل .

وقوله تعالى إخبارا عن المترفين المكذبين : ﴿ **وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ** ﴾ أى: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة اللّه لهم واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا فى الدنيا ، ثم يعذبهم فى الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال اللّه : ﴿ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم به من مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] وقال : ﴿ **فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم** (٩) **بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ** ﴾ [التوبة : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا** ﴾ [المدثر: ١١ ــ ١٧].

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت : « روى » . (٣) فى ت ، س : « شريكين » .
(٤) فى س : « إلا » . (٥) فى ت ، س : « رذالة » .
(٦) فى ت ، س : « الآيات » . (٧) زيادة من ت ، س .
(٨) ورواه ابن أبى شيبة وابن المنذر كما فى الدر المنثور (٦ / ٧٠٤) ووقع فى الدر : « ابن زيد » بدل : « أبو رزين » .
(٩) فى ت ، س : « أن يعذبهم » .

وقد أخبر اللّه عن صاحب تينك الجنتين : أنه كان ذا مال وولد وثمر ، ثم لم تُغنِ عنه شيئا ، بل سُلب ذلك كله فى الدنيا قبل الآخرة ؛ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** ﴾ أى : يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة ، والحجة الدامغة القاطعة ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ .

ثم قال : ﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى** ﴾ أى : ليست هذه دليلا على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم .

قال (١) الإمام أحمد ، رحمه اللّه : حدثنا كَثِير ، حدثنا جعفر ، حدثنا يزيد بن الأصم، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : قال سول اللّه ﷺ (٢) : « إن اللّه لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . [و] (٣) رواه مسلم وابن ماجة ، من حديث كثير بن هشام، عن جعفر ابن بُرْقَان ، به (٤) .

ولهذا قال : ﴿ **إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾ أى : إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ، ﴿ **فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا** ﴾ أى : تضاعف (٥) لهم الحسنة بعشرة (٦) أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ﴿ **وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ** ﴾ أى : فى منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شر يُحذر منه .

قال (٧) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فَرْوَة بن أبى المغراء الكندى ، حدثنا القاسم وعلى بن مُسْهِر ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن النعمان بن سعد ، عن على ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن فى الجنة لَغرفا ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها » . فقال أعرابى : لمن هى ؟ قال : « لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، [وصلى بالليل والناس نيام] (٨) » (٩) .

﴿ **وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ** ﴾ أى : يسعون فى الصد عن سبيل اللّه ، واتباع الرسل والتصديق بآياته ، ﴿ **أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ** ﴾ أى : جميعهم مَجْزيون بأعمالهم فيها بحسبهم .

وقوله : ﴿ **قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ** ﴾ أى : بحسب مَا لَه فى ذلك من الحكمة ، يبسط على هذا من المال كثيرا ، ويضيق على هذا ويقتر عليه رزقه جدًا ، وله فى ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ، كما قال تعالى : ﴿ **انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٢١] أى : كما هم متفاوتون فى الدنيا : هذا فقير مدقع ، وهذا غنى

---

(١) فى ت : « كما روى » . (٢) فى ت ، س : « أن رسول الله ﷺ قال » . (٣) زيادة من س .

(٤) المسند (٢ / ٥٣٩) وصحيح مسلم برقم (٢٥٦٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٤٣) .

(٥) فى س : « يضاعف » . (٦) فى ت ، س ، أ : « بعشر » .

(٧) فى ت : « وروى » . (٨) زيادة من ت ، أ .

(٩) ورواه الترمذى فى السنن برقم (١٩٨٤) من طريق على بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق بأطول منه ، وقال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق ، وقد تكلم أهل الحديث فى عبد الرحمن بن إسحاق هذا من قبل حفظه وهو كوفى » . قلت : وله شواهد من حديث عبد الله بن عمرو وأبى مالك الأشعرى وأبى معانق الأشعرى ، رضى الله عنهم .

مُوَسَّع عليه ، فكذلك هم في الآخرة : هذا في الغُرفات في أعلى الدرجات ، وهذا في الغَمرَات في أسفل الدركات . وأطيب الناس في الدنيا كما قال رسول الله ﷺ : « قد أفلح من أسلم ورُزق كَفَافا، وقَنَّعه الله بما آتاه » . رواه مسلم من حديث ابن عَمْرو [١] .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أي : مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب ، كما ثبت في الحديث [٢] : « يقول الله تعالى : أنْفق [٣] أنْفق عليك » [٤] . وفي الحديث : أن ملكين يَصيحان كل يوم ، يقول أحدهما : « اللهم أعط مُمْسكا تَلَفًا»، ويقول الآخر : « اللهم أعط منفقا خَلَفًا » [٥] وقال رسول الله ﷺ « أنفق بلالا ، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا » [٦] .

وقال [٧] ابن أبي حاتم عن يزيد بن عبد العزيز الطلاس ، حدثنا هُشَيْم عن الكوثر بن حكيم ، عن مكحول قال : بلغني عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إن بعدكم [٨] زمان عضوض ، يعض الموسر على ما في يده [٩] حذار الإنفاق » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [١٠] .

وقال [١١] الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا روح بن حاتم ، حدثنا هُشَيم ، عن الكوثر بن حكيم، عن مكحول قال : بلغني عن حذيفة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض ، يعض الموسر على ما في يديه حذار الإنفاق » ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ، وَيَنْهَل شرار الخلق يبايعون كل مضطر ، ألا إن بيع المضطرين حرام ، [ألا أن بيع المضطرين حرام] [١٢] المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ، إن كان عندك معروف ، فَعُد به على أخيك ، وإلا فلا تَزده هلاكا إلى هلاكه » .

هذا حديث غريب من هذا الوجه ، وفي إسناده ضعف [١٣] .

وقال سفيان الثوري ، عن أبي يونس الحسن بن يزيد قال : قال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٠٥٤) .

(٢) في ت : « في الصحيح » . (٣) في أ : « ابن آدم أنفق » .

(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم (٤٦٨٤) ومسلم في صحيحه برقم (٩٩٣) من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه .

(٥) رواه البخاري في صحيحه برقم (١٤٤٢) ومسلم في صحيحه برقم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه .

(٦) جاء عن جماعة من الصحابة ، فرواه الطبراني في المعجم الكبير (١ / ٣٤٠) من طريق قيس بن الربيع عن أبي حصين ، عن يحيى ابن وثاب ، عن مسروق عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، وقيس بن الربيع ضعفوه . ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١ / ٣٤٢)، وأبو يعلى في مسنده (١٠ / ٤٢٩) وأبو نعيم في الحلية (٢ / ٢٨٠) عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة ، رضي الله عنه . ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١ / ٣٥٩) من طريق أبي إسحاق عن مسروق عن بلال ، رضي الله عنه ، وفيه ابن زبالة وهو ضعيف .

(٧) في ت : « وروى » . (٨) في س : « بعدكم هذا زمان » . (٩) في ت ، س : « يديه » .

(١٠) ذكره السيوطي في الدر (٦ / ٧٠٧) وقال : « أخرج أبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند ضعيف فذكره » .

(١١) في ت : « وروى » . (١٢) زيادة من ت ، س .

(١٣) ذكره الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (١ / ٢٦١) وعزاه لأبي يعلى في مسنده .

الآية : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُه ﴾ : إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التى هى على صور الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى ، فيقول للملائكة : ﴿ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ؟ أى : أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟ كما قال فى سورة الفرقان: ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الفرقان : ١٧] ،وكما يقول لعيسى : ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦] . وهكذا تقول الملائكة : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى : تعاليتَ وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾ أى : نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ، ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يعنون: الشياطين ؛ لأنهم هم الذين [(١)] يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم [(٢)] ، ﴿ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ [(٣)] مِن دُونِهِ إِلا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ [(٤)] إِلا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧] . قال الله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا ﴾ أى : لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان ، التى ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكُرَبكم ، اليوم لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا ، ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ ـ وهم المشركون ـ ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك ، تقريعا وتوبيخا .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣) وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) ﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب ؛ لأنهم كانوا إذا تتلى

(١) فى هـ : « الشياطين ثم الذين » والمثبت من ت ، س .

(٢) فى س : « ويضلوهم » .

(٣ ، ٤) فى س : « تدعون » .

عليهم آياته بينات يسمعونها غَضَّةً طرية من لسان رسوله (١) ﷺ ، ﴿ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ ، يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل ـ عليهم وعلى آبائهم لعائن الله ـ ﴿ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ﴾ يعنون : القرآن ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ أى : ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبيًا قبل محمد ﷺ ، وقد كانوا يَوَدّون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب ، لكنا أهدى من غيرنا ، فلما مَنَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه . ثم قال : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى: من الأمم ، ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى من القوة فى الدنيا . وكذلك (٢) قال قتادة ، والسدّى ، وابن زيد . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٦] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ [غافر : ٨٢] ، أى : وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : كيف كان نكالى وعقابى وانتصارى لرسلى (٣) ؟

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ أى : إنما آمركم بواحدة ، وهى : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ أى : تقوموا قياما خالصًا لله ، من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضا : هل بمحمد من جنون ؟ فينصح بعضكم بعضا ، ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ أى : ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ، ويتفكر فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ .

هذا معنى ما ذكره مجاهد ، ومحمد بن كعب ، والسُّدِّيّ ، وقتادة ، وغيرهم ، وهذا هو المراد من الآية .

فأما الحديث الذى رواه ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن خالد ، حدثنا عثمان بن أبى العاتكة ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أعطيت ثلاثا لم يعطهن مَن قبلى ولا فخر : أحلت لى الغنائم ، ولم تحل لمن قبلى ، كانوا قبلى يجمعون غنائمهم فيحرقونها . وبُعثت إلى كل أحمر وأسود ، وكان كل نبى يبعث

---

(١) فى ت : « رسول الله » .

(٢) فى ت ، س : « وكذا » .

(٣) فى ت : « أى فكيف كان عقابى وانتصارى لرسلى » .

إلى قومه ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ، أتيمم بالصعيد ، وأصلى حيث أدركتنى الصلاة ، قال اللّه : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ﴾ ، وأعنت بالرعب مسيرة شهر بين يدى » ـ فهو حديث ضعيف الإسناد ، وتفسير الآية بالقيام فى الصلاة فى جماعة وفرادى بعيد ، ولعله مقحم فى الحديث من بعض الرواة ، فإن أصله ثابت فى الصحاح وغيرها (١) ، واللّه أعلم .

وقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ : قال (٢) البخارى عندها :

حدثنا على بن عبد اللّه ، حدثنا محمد بن خَازم ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرَّة ، عن سعيد بن جُبَيْر (٣) ، عن ابن عباس قال : صَعِدَ النبى ﷺ الصفا ذات يوم ، فقال : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : ما لك ؟ فقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَبّحكم أو يُمَسّيكم، أما كنتم تصدقونى ؟ » قالوا : بلى . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب: تبا لك ! ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل اللّه : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد] (٤) .

وقد تقدم عند قوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا بشير بن المهاجر ، حدثنى عبد اللّه بن بريدة (٥) ، عن أبيه قال : خرج إلينا رسول اللّه ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات فقال : « أيها الناس ، تدرون ما مثلى ومثلكم ؟ » قالوا : اللّه ورسوله أعلم . قال : « إنما مثلى ومثلكم مثلُ قوم خافوا عدوا يأتيهم، فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه : أيها الناس ، أوتيتم . أيها الناس ، أوتيتم ـ ثلاث مرات » .

وبهذا الإسناد (٦) قال رسول اللّه ﷺ : « بعثت أنا والساعة جميعًا ، إن كادت لتسبقنى » .

تفرد به الإمام أحمد فى مسنده (٧) .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠) ﴾ .

يقول تعالى آمرًا رسوله أن يقول للمشركين : ﴿ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أى : لا أريد منكم جُعلا ولا عَطاء على أداء رسالة اللّه إليكم ، ونصحى إياكم ، وأمركم بعبادة اللّه ، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : إنما أطلب ثواب ذلك عند الله ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخبارى عنه بإرساله إياى إليكم ، وما أنتم عليه .

---

(١) سبق تخريج حديث جابر ، رضى اللّه عنه ، فى الصحيحين عند تفسير الآية : ٢٨ من هذه السورة .
(٢) فى ت : « روى » . (٣) فى ت : « بإسناده » .
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٠١) .
(٥) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن زيد » . (٦) فى ت « وبإسناده » .
(٧) المسند (٥ / ٣٤٨) .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر : ١٥] . أى : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض ، وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض .

وقوله : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ أى : جاء الحق من الله والشرع العظيم ، وذهبَ الباطل وزهق واضمحل ، كقوله : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ [فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ] [(١)] ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل يَطعُن الصنم [(٢)] بسِيَة قَوْسه ، ويقرأ : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ، ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وحده عند هذه الآية ، كلهم من حديث الثورى ، عن ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد ، عن أبى مَعْمَر عبد الله بن سَخبَرَةَ ، عن ابن مسعود ، به [(٣)] .

أى : لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة .

وزعم قتادة والسدى : أن المراد بالباطل هاهنا إبليس ، أى : إنه لا يخلق أحدا ولا يعيده ، ولا يقدر على ذلك . وهذا وإن كان حقًا ولكن ليس هو المراد هاهنا [(٤)] ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ أى : الخير كله من عند الله ، وفيما أنزله عز وجل من الوحى والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه ، كما قال عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، لما سئل عن تلك المسألة فى المفوَضة : أقول فيها برأيى ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه [(٥)] .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : سميع لأقوال عباده ، قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . وقد روى النسائى هاهنا حديث أبي موسى الذى فى الصحيحين [أن رسول الله ﷺ قال] [(٦)] : «إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا [(٧)] قريبا مجيبا » [(٨)] .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣)

---

(١) زيادة من ت . (٢) فى ت ، س ، أ : « الصنم منها » .

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٤٧٨ ، ٤٢٨٧) وصحيح مسلم برقم (١٧٨١) وسنن الترمذى برقم (٣١٣٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٨) .

(٤) فى ت : « الآية » .

(٥) انظر الأثر فى المسند (١ / ٤٧٧) .

(٦) زيادة من ت ، أ . (٧) فى أ : « سميعا بصيرا » .

(٨) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٧) وصحيح البخارى برقم (٤٢٠٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٠٤) .

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ (٥٤) ﴾ .

يقول تعالى : ولو ترى ـ يا محمد ـ إذا فَزَع هؤلاء المكذبون [(١)] يوم القيامة ، ﴿ **فَلَا فَوْتَ** ﴾ أى: فلا مفر لهم ، ولا وزر ولا ملجأ ﴿ **وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ** ﴾ أى : لم يكونوا يُمنعون فى الهرب[(٢)] ، بل أخذوا من أول وهلة .

قال الحسن البصرى : حين خرجوا من قبورهم .

وقال مجاهد ، وعطية العوفى ، وقتادة : من تحت أقدامهم .

وعن ابن عباس والضحاك : يعنى : عذابهم فى الدنيا .

وقال عبد الرحمن بن زيد : يعنى : قتلهم يوم بدر .

والصحيح : أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى ، وإن كان ما ذكر متصلا بذلك .

وحكى ابن جرير عن بعضهم قال : إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة فى أيام بنى العباس ، ثم أورد فى ذلك حديثا موضوعا بالكلية . ثم لم ينبه على ذلك ، وهذا أمر عجيب غريب منه .

﴿ **وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ** ﴾ أى : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وبكتبه ورسله [(٣)] ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة : ١٢] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ** ﴾ أى : وكيف لهم تعاطى[(٤)] الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهى دار الجزاء لا دار الابتلاء ، فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ، كما لا سبيل إلى حصول الشىء لمن يتناوله من بعيد .

قال مجاهد : ﴿ **وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ** ﴾ قال : التناول لذلك .

وقال الزهرى : التناوش : تناولهم الإيمان وهم فى الآخرة ، وقد انقطعت عنهم الدنيا .

وقال الحسن البصرى : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال ، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد .

وقال ابن عباس : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه ، وليس بحين [(٥)] رجعة ولا توبة . وكذا قال محمد بن كعب القرظى ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ **وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ** ﴾ أى : كيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة ، وقد كفروا بالحق فى الدنيا وكذبوا بالرسل ؟

﴿ **وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ** ﴾ : قال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ **وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ** ﴾ قال: بالظن .

---

(١) فى ت : « المكذبين » .　(٢) فى ت : « لم يمكنوا أى يمنعوا عن الهرب » ، وفى س ، أ : « لم يمكنوا أن يمنعوا فى الهرب » .
(٣) فى ت ، أ : « وبرسله » .　(٤) فى ت ، س ، أ : « تعاطى عن » .　(٥) فى ت ، أ : « وليس هو حين » .

قلت : كما قال تعالى : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ [الكهف : ٢٢] ، فتارة يقولون : شاعر . وتارة يقولون : كاهن . وتارة يقولون : ساحر . وتارة يقولون : مجنون . إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالغيب (١) والنشور والمعاد ، ويقولون : ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٢] .

قال قتادة : يرجمون بالظن ، لا بعث ولا جنة ولا نار .

وقوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ : قال الحسن البصرى ، والضحاك ، وغيرهما : يعنى: الإيمان .

وقال السُّدِّى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ وهى : التوبة . وهذا اختيار ابن جرير ، رحمه الله .

وقال مجاهد : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من هذه الدنيا ، من مال وزهرة وأهل . وروى [ذلك] (٢) عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس . وهو قول البخارى وجماعة . والصحيح : أنه لا منافاة بين القولين ؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم فى الدنيا وبين ما طلبوه فى الآخرة ، فمنعوا منه .

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا أثرًا غريبا [عجيباً] (٣)جدًا ، فلنذكره بطوله فإنه قال : حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا بشر بن حجر السامى (٤) ، حدثنا على بن منصور الأنبارى ، عن الشَرَقِيّ بن قُطَامى ، عن سعد بن طريف ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ إلى آخر الآية ، قال : كان رجل من بنى إسرائيل فاتحًا ـ أى : فتح الله له مالا ـ فمات فورثه ابن له تافه ـ أى : فاسد ـ فكان يعمل فى مال الله بمعاصى الله . فلما رأى ذلك إخوان أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولاموه ، فضجر الفتى فباع عقاره بصامت ، ثم رحل فأتى عينا ثجاجَة فسرَح فيها ماله، وابتنى قصرًا . فبينما هو ذات يوم جالس إذ شمَلت عليه [ريح] (٥) بامرأة من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرَجا ـ أى : ريحًا ـ فقالت : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا امرؤ من بنى إسرائيل. قالت : فلك هذا القصر ، وهذا المال ؟ قال : نعم . قالت : فهل لك من زوجة ؟ قال : لا . قالت: فكيف يَهْنيك العيش ولا زوجة لك ؟ قال : قد كان ذلك . فهل لك من بَعل ؟ قالت : لا . قال : فهل لك إلى أن أتزوجك ؟ قالت : إنى امرأة منك على مسيرة ميل ، فإذا كان غد فتزوّد زاد يوم وائتنى ، وإن رأيت فى طريقك هولا فلا يَهُولَنَّكَ . فلما كان من الغد تزود زاد يوم ، وانطلق فانتهى إلى قصر ، فقرع رتاجه ، فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجهًا وأطيبهم أرَجًا ـ أى:ريحًا ـ فقال : من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا الإسرائيلى . قال : فما حاجتك ؟ قال : دعتنى صاحبة هذا القصر إلى نفسها . قال : صدقت ، فهل رأيت فى طريقك [هولا ؟] (٦) قال : نعم ، ولولا أنها أخبرتنى أن لا بأس علىّ ، لهالنى الذى رأيت ؛ أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا بكلبة فاتحة

---

(١) فى ت ، س ، أ : « بالبعث » . (٢) زيادة من ت . (٣) زيادة من س ، أ .
(٤) فى ت : « الشامى » . (٥ ، ٦) زيادة من ت ، س ، والدر المنثور .

فاها ، ففزعت ، فَوَثَبت فإذا أنا من ورائها ، وإذا جراؤها ينبحن فى بطنها . فقال له الشاب : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، يقاعد الغلام المشيخة فى مجلسهم ويُبَزّهم حديثهم .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أنا بمائة عنز حُفَّل ، وإذا فيها جَدْى يمصّها ، فإذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئًا ، فتح فاه يلتمس الزيادة . فقال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، ملك يجمع صامت الناس كلّهم ، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئًا فتح فاه يلتمس الزيادة.

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بشجر ، فأعجبنى غصن من شجرة منها ناضر ، فأردت قطعه ، فنادتنى شجرة أخرى : « يا عبد اللّه ، منى فخذ » . حتى نادانى الشجر أجمع : « يا عبد اللّه ، منا فخذ » . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، يقل الرجال ويكثر [١] النساء ، حتى إن الرجل ليخطب امرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا برجل قائم على عين ، يغرف لكل إنسان من الماء ، فإذا تَصَدعوا عنه صَبّ فى جَرّته فلم تَعلَق جَرته من الماء بشىء . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون فى آخر الزمان ، القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصى اللّه .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل إذا أنا بعنز ، وإذا بقوم قد أخذوا بقوائمها ، وإذا رجل قد أخذ بقرنيها ، وإذا رجل قد أخذ بذَنَبها ، وإذا رجل [٢] قد ركبها ، وإذا رجل يحلبها . فقال: أما العنز فهى الدنيا ، والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها ، وأما الذى قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقًا ، وأما الذى أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه ، وأما الذى ركبها [٣] فقد تركها. وأما الذى يحلبها فبَخٍ [بخ] [٤] ، ذهب ذلك [٥] بها .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، وإذا أنا برجل يمْتح على قَليب ، كلما أخرج [٦] دلوه صبَّه فى الحوض ، فانساب الماء راجعًا إلى القليب . قال : هذا رجل رَدّ اللّه [عليه] [٧] صالح عمله، فلم يقبله .

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بى السبيل ، إذا أن برجل يبذُر بذرًا فيستحصد ، فإذا حنطة طيبة. قال : هذا رجل قبل اللّه صالح عمله ، وأزكاه [٨] له .

قال : ثم أقبلت حتى [إذا] [٩] انفرج بى السبيل ، إذا أنا برجل مستلق على قفاه ، قال : يا عبد اللّه ، ادن منى فخذ بيدى وأقعدنى ، فواللّه ما قعدت منذ خلقنى اللّه فأخذت بيده ، فقام يسعى حتى ما أراه . فقال له الفتى : هذا عمْر الأبعد نَفَد ، أنا ملك الموت وأنا المرأة التى أتتك [١٠] . . . أمرنى اللّه بقبض روح الأبعد فى هذا المكان ، ثم أصيره إلى نار جهنم قال : ففيه نزلت هذه : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ الآية .

---

(١) فى ت : « وتكثر » . (٢) فى ت ، س ، أ : « راكب » . (٣) فى ت ، س ، أ : « الذى قد ركبها » .
(٤) زيادة من ت ، س ، أ ، والدر المنثور . (٥) فى ت ، س ، أ : « ذاك » . (٦) فى أ : « فلما أن خرج » .
(٧) زيادة من ت ، س ، أ . (٨) فى أ : « وزكاه » .
(٩) زيادة من ت ، س . (١٠) فى أ : « أتيتك » .

هذا أثر غريب [١] ، وفى صحته نظر ، وتنزيل [هذه] [٢] الآية عليه وفى حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا ، كما جرى لهذا المغرور المفتون ، ذهب يطلب مراده فجاءه الموت فجأة بغتة ، وحيل بينه وبين ما يشتهى .

وقوله : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ أى : كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل ، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤ ، ٨٥] .

وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ أى : كانوا فى الدنيا فى شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب .

قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإنه من مات على شك بُعِثَ عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

آخر تفسير سورة « سبأ » ، ولله الحمد والمنة

(١) الأثر ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦ / ٧١٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٢) زيادة من ت .

تفسير سورة فاطر

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾ .

قال سفيان الثورى ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما [لصاحبه] (١): أنا فطرتها ، أنا بدأتها . فقال ابن عباس أيضاً : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ : بديع السموات والأرض (٢) .

وقال الضحاك : كل شىء فى القرآن فاطر السموات والأرض فهو: خالق السموات والأرض .

وقوله :﴿ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾ أى : بينه وبين أنبيائه ، ﴿ أُوْلِي أَجْنِحَةٍ ﴾ أى : يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ أى : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة (٣)، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء فى الحديث : أن رسول اللّه ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ؛ ولهذا قال : ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال السدى: يزيد فى الأجنحة وخلقهم ما يشاء .

وقال الزهرى ، وابن جُرَيْج (٤) فى قوله : ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ يعنى: حسن الصوت . رواه عن الزهرى البخارى فى الأدب ، وابن أبى حاتم فى تفسيره .

وقرئ فى الشاذ : « يَزِيد فى الحلق » ، بالحاء المهملة ، واللّه أعلم .

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع.

قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا على بن عاصم ، حدثنا مغيرة ، أخبرنا عامر ، عن ورّاد ـ مولى المغيرة بن شعبة ـ قال : كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة : اكتب إلى بما سمعتَ من رسول اللّه ﷺ. فدعانى المغيرة فكتبت إليه : إنى سمعت (٦) رسول اللّه ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال : « لا

---

(١) زيادة من ت ، س ، أ .
(٢) رواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١٦٨٢) من طريق يحيي بن سعيد عن سفيان به .
(٣) فى ت : « ثلاثة أجنحة » . (٤) فى ت : « جرير » . (٥) فى ت : « وروى » .
(٦) فى أ : « سمعت من » .

إله إلا اللّه ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ » ، وسمعته ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومَنْع وهَات .

وأخرجاه من طرق عن ورّاد ، به (١) .

وثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى ، رضى اللّه عنه ، أن رسول اللّه ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سمع اللّه لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملْء السماء (٢) والأرض(٣) ، وملء ما شئت من شيء بعد . اللهم ، أهلَ الثناء والمجد . أحقّ ما قال العبد ، وكلنا لك عبد . اللهمّ لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ » (٤) .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾[يونس : ١٠٧] . ولهذا (٥) نظائر كثيرة .

وقال الإمام مالك : كان أبو هريرة إذا مُطِروا يقول : مُطرنا بنَوْء الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية :﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾. ورواه ابن أبى حاتم ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عنه (٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣) ﴾ .

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده فى إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فَليفرد بالعبادة (٧) ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ؛ ولهذا قال :﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُون (٨) ﴾ ، أي : فكيف تؤفكون (٩) بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ؟

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾ .

يقول : وإن يكذبوك ـ يامحمد ـ هؤلاء المشركون باللّه ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد ، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ؛ فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد

---

(١) المسند (٤/ ٢٥٤) وصحيح البخارى برقم (٨٤٤) وصحيح مسلم برقم (٥٩٣) .
(٢) فى ت ، س ، أ : « السموات » .
(٣) فى ت ، س ، أ : « وملء الأرض » .
(٤) صحيح مسلم برقم (٤٧٧) .
(٥) فى ت : « ولهما » ، وفى س : « ولها » .
(٦) الموطأ (١/ ١٩٢) .
(٧) فى أ : « بالعبادة وحده » . (٨، ٩) فى س ، أ : « يؤفكون » .

فكذبوهم وخالفوهم ، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ أى : وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء .

ثم قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌ﴾ أى : المعاد كائن لا محالة ، ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أى : العيشة الدنيئة (١) بالنسبة إلى ما أعد (٢) اللّه لأوليائه وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تَتَلَهَّوا (٣) عن ذلك (٤) الباقى بهذه الزهرة الفانية ،﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ وهو الشيطان . قاله ابن عباس . أى : لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل اللّه وتصديق كلماته فإنه غرّار كذاب أفاك . وهذه الآية كالآية التى فى آخر لقمان:﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣] .

قال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو الشيطان . كما قال : يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب ﴿ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٣، ١٤] .

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال :﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا (٥)﴾ أى : هو مبارز لكم بالعداوة ، فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ، ﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أى : إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو المبين . فنسأل اللّه القوى العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان (٦) ، وأن يرزقنا اتباع كتابه ، والاقتفاء بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير . وهذه كقوله : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف : ٥٠] .

[وقال بعض العلماء : وتحت هذا الخطاب نوع لطيف من العتاب كأنه يقول : إنما عاديت إبليس من أجل أبيكم ومن أجلكم ، فكيف يحسن بكم أن توالوه ؟ بل اللائق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا تطاوعوه] (٧) .

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾ .

لما ذكر [اللّه] (٨) تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى [عذاب] (٩) السعير ، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد (١٠) ؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعَصَوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا باللّه

(١) فى أ : « المعيشة الدنية » . (٢) فى ت : « ما وعد » . (٣) فى أ : « فلا يلتهوا » .
(٤) فى س : « ذاك » . (٥) فى س بعدها :« إنما يدعو حزبه » .
(٦) فى ت : « للشياطين » (٧) زيادة من ت ، أ . (٨) زيادة من ت .
(٩) زيادة من ت ، أ . (١٠) فى ت : « للذين كفروا عذابا شديدا » .

ورسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أى: لما كان منهم من ذنب، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير .

ثم قال : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يعنى : كالكفار والفجار ، يعملون أعمالا سيئة ، وهم فى ذلك يعتقدون ويحسون (١) أنهم يحسنون صنعاً ، أى : أفمن كان هكذا قد أضله الله ، ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أى : بقدره كان ذلك، ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ أى : لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم فى قدره ، إنما يضل من يضل(٢) ويهدى من يهدى (٣) ، لما له فى ذلك من الحجة البالغة ، والعلم التام ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

وقال (٤) ابن أبى حاتم عند هذه الآية : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن عوف الحِمْصى ، حدثنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى عمرو السَّيبانى ـ أو : ربيعة ـ عن عبد الله بن الديلمى قال : أتيت عبد الله بن عمرو ، وهو فى حائط بالطائف يقال له: الوهط ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأه منه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على ما علم الله عز وجل» (٥) .

ثم قال : حدثنا يحيى بن عبدك القزوينى ، حدثنا حسان بن حسان البصرى ، حدثنا إبراهيم بن بشر (٦) ، حدثنا يحيى بن معين (٧) ، حدثنا إبراهيم القرشى ، عن سعد بن شرحبيل (٨) ، عن زيد ابن أبى أوفى قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « الحمد لله الذى يهدى من (٩) الضلالة، ويلبس الضلالة على من أحب » (١٠) .

وهذا أيضا حديث غريب جداً .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

---

(١) فى ت ، س ، أ : « يحسبون » . (٢، ٣) فى أ : « يشاء » .
(٤) فى ت : « وروى » .
(٥) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (١٨١٢) « موارد » والحاكم فى المستدرك (١/ ٣٠) من طريق الأوزاعى عن ربيعة بن يزيد، عن عبد الله الديلمى بنحوه ، ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٦٤٢) من طريق إسماعيل بن عياش عن يحيى بن أبى عمرو السيبانى عن عبد الله الديلمى بنحوه ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن » .
(٦) فى هـ ، ت ، س ، أ : « بشير » ، والصواب ما أثبتناه . (٧) فى هـ ، ت ، س ، أ : « معن » ،والصواب ما أثبتناه .
(٨) فى ت : « ثم روى بسنده » . (٩) فى ت ، أ : « يهدى من يشاء من » .
(١٠) ورواه البخارى فى التاريخ الأوسط (١/ ٢٥٠) : حدثنا حسان بن حسان عن إبراهيم بن بشر عن يحيى بن معين المدنى عن إبراهيم القرشى عن سعيد بن شرحبيل عن زيد بن أبى أوفى ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥/ ٢٢٠) من طريق عبد المؤمن بن عباد عن يزيد بن معن عن عبد الله بن شرحبيل عن رجل من قريش عن زيد بن أبى أوفى بأطول منه ، ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة (٢/ ١٢٦) من طريق شعيب بن يونس عن موسى بن صهيب عن يحيى بن زكريا عن عبد الله بن شرحبيل عن رجل من قريش عن زيد بن أبى أوفى ، وقال البخارى بعدما أورده : « وهذا إسناد مجهول لا يتابع عليه ، ولا يعرف سماع بعضهم من بعض ، رواه بعضهم عن إسماعيل بن خالد عن عبد الله بن أبى أوفى ، عن النبى ﷺ ولا أصل له » .

كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ .

كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ـ كما فى [أول] [١] سورة الحج ـ ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها[٢] السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ، ﴿**اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ [الحج : ٥] ، كذلك الأجساد [٣] ، إذا أراد اللّه سبحانه بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطرا يعم [٤] الأرض جميعاً فتنبت الأجساد فى قبورها كما ينبت [٥] الحب فى الأرض ؛ ولهذا جاء فى الصحيح : « كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذنب ، منه خلق ومنه يركب » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿**كَذَلِكَ النُّشُورُ**﴾.

وتقدم فى « الحج » [٦] حديث أبى رَزين : قلت : يا رسول اللّه ، كيف يحيى اللّه الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : « يا أبا رزين ، أما مررت بوادى قومك محْلا [٧] ثم مررت به يهتز خَضِرا ؟ » قلت : بلى . قال : « فكذلك يحيى اللّه الموتى » .

وقوله : ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**﴾ أى : من كان يحب أن يكون عزيزاً فى الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة اللّه ، فإنه يحصل له مقصوده ؛ لأن اللّه مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعها ، كما قال تعالى : ﴿**الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾[النساء : ١٣٩] .

وقال تعالى ﴿**وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾ [يونس : ٦٥] ، وقال : ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [المنافقون : ٨] .

قال مجاهد : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ**﴾ بعبادة الأوثان ، ﴿**فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾.

وقال قتادة : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**﴾ أى : فليتعزز بطاعة اللّه عز وجل .

وقيل : من كان يريد علْم العزة ، لمن هى ، ﴿ **فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾ ، حكاه ابن جرير .

وقوله : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ يعنى: الذكر والتلاوة والدعاء . قاله غير واحد من السلف.

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن إسماعيل الأحْمَسِىّ ، أخبرنى جعفر بن عَوْن ، عن عبد الرحمن بن عبد اللّه المسعودى ، عن عبد اللّه بن المخارق ، عن أبيه المخارق بن سليم [٨] قال :

---

(١) زيادة من ت ، س ، أ . (٢) فى ت : « عليها » . (٣) فى ت ، س : « الأجسام » .
(٤) فى أ : « فعم » . (٥) فى ت : « كما تنبت » .
(٦) عند الآيات : ١٢ ـ ١٦ .
(٧) فى ت ، س ، أ : « ممحلاً » . (٨) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده عن عبد اللّه بن أبى المخارق بن سليم » .

قال لنا عبد اللّه ـ هو ابن مسعود ـ إذا حدثناكم حديثا أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب اللّه : إن العبد المسلم إذا قال : « سبحان اللّه وبحمده ، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، تبارك اللّه » ، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صَعد بهن إلى السماء فلا يمُرّ بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يجيء بهن وجه الرحمن عز وجل ، ثم قرأ عبد اللّه : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ .

وحدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّةَ ، أخبرنا سعيد الجُرَيْرى [(١)] ، عن عبد اللّه بن شقيق قال[(٢)] : قال كعب الأحبار : إن لـ « سبحان اللّه، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر » لدويا حول العرش كدويّ النحل ، يُذَكِّرْن بصاحبهن ، والعمل الصالح فى الخزائن [(٣)] .

وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار ، رحمه اللّه ، وقد روى مرفوعاً .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن نُمَيْر ، حدثنا موسى ـ يعنى : ابن مسلم الطحان ـ عن عون بن عبد اللّه ، عن أبيه ـ أو : عن أخيه [(٤)] ـ عن النعمان بن بشير قال : قال رسول اللّه ﷺ : « الذين يذكرون من جلال اللّه ، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل ، يذكرون بصحابهن ألا يحب أحدكم ألا يزال له عند اللّه شيء يذكر به؟ » [(٥)] .

وهكذا رواه ابن ماجه عن أبى بشر بكر بن خلف ، عن يحيى بن سعيد [(٦)] القطان ، عن موسى ابن أبى [عيسى] [(٧)] الطحان ، عن عون بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود ،عن أبيه ـ أو : عن أخيه ـ عن النعمان بن بشير ، به [(٨)] .

وقوله :﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الكلم الطيب : ذكر اللّه ، يصعد به إلى اللّه، عز وجل ، والعمل الصالح : أداء فرائضه . ومن ذكر اللّه ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه على عمله ، فكان أولى به .

وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وكذا قال أبو العالية ، وعكرمة ، وإبراهيم النَّخَعى ، والضحاك ، والسُّدِّىَ ، والربيع بن أنس ، وشَهْر بن حَوْشَب ، وغير واحد [من السلف] [(٩)] .

وقال إياس بن معاوية القاضى : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام .

وقال الحسن ، وقتادة : لا يقبل قولٌ إلا بعمل .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ : قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وشهر بن حوشب : هم المراؤون بأعمالهم ، يعنى : يمكرون بالناس ، يوهمون أنهم فى طاعة اللّه ، وهم بُغَضاء إلى اللّه

(١) فى أ : « سعيد بن الجريرى » . (٢) فى ت : « وروى بإسناده » .
(٣) تفسير الطبرى (٢٢/ ٨٠) .
(٤) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده » .
(٥) المسند (٤/٢٦٨) .
(٦) فى أ : « عيسى » .
(٧) زيادة من ت ، س ، وابن ماجه .
(٨) سنن ابن ماجة برقم (٣٨٠٩) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ١٩٣) : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .
(٩) زيادة من ت .

عز وجل ، يراؤون بأعمالهم ، ﴿ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلا ﴾ [النساء : ١٤٢] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المشركون .

والصحيح أنها عامة ، والمشركون داخلون بطريق الأولى ؛ ولهذا قال : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ ، أى : يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولى البصائر والنهى ، فإنه ما أسر عبد (١) سريرة إلا أبداها اللّه على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه اللّه رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . فالمرائى لا يروج أمره ويستمر إلا على غبى ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم، بل يُكشَفُ (٢) لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية.

وقوله :﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أى : ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أى : ذكرا وأنثى ، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجا من جنسكم ، لتسكنوا إليها .

وقوله : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ أى : هو عالم بذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شىء ، بل﴿مَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٥٩] . وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ [وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ] (٣) الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٨، ٩].

وقوله :﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ أى : ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه ، وهو عنده فى الكتاب الأول ، ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ الضمير عائد على الجنس ، لا على العين؛ لأن العين الطويل للعمر فى الكتاب وفى علم اللّه لا ينقص من عمره ، وإنما عاد الضمير على الجنس .

قال ابن جرير : وهذا كقولهم : « عندى ثوب ونصفه » أى : ونصف آخر .

ورُوى من طريق العَوْفَى ، عن ابن عباس فى قوله :﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ، يقول : ليس أحد قضيت له طول عُمُر(٤) وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدرت لا يزاد عليه ، وليس أحد قَضَيتُ له أنه قصير العمر والحياة ببالغ للعمر ، ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتبت له ، فذلك قوله : ﴿و لا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ، يقول : كل ذلك فى كتاب عنده.

وهكذا قال الضحاك بن مزاحم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه:﴿وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ قال:ما لَفَظت الأرحام من الأولاد من غير تمام .

---

(١) فى أ : « أحد » .
(٢) فى ت ، س ، أ : « ينكشف » .
(٣) زيادة من ت ، س ، أ ، وفى هـ : « إلى قوله ».
(٤) فى ت ، س : « العمر » .

وقال عبد الرحمن فى تفسيرها : ألا ترى الناس ، يعيش الإنسان مائة سنة ، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا .

وقال قتادة : والذى ينقص من عمره : فالذى يموت قبل ستين سنة .

وقال مجاهد : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ أى : فى بطن أمه يكتب له ذلك ، لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ، ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، وكل ذلك مكتوب لصاحبه ، بالغ ما بلغ .

وقال بعضهم : بل معناه : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أى : ما يكتب من الأجل ﴿وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾، وهو ذهابه قليلا قليلا ، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله فى كتاب .

نقله [١] ابن جرير عن أبى مالك . وإليه ذهب السدى ، وعطاء الخراسانى . واختار ابن جرير [القول] [٢] الأول ، وهو كما قال .

وقال النسائى عند تفسير هذه الآية الكريمة : حدثنا أحمد بن يحيى بن أبى زيد بن سليمان ، سمعت ابن وهب يقول : حدثنى يونس ، عن ابن شهاب ، عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن يُبْسَط له فى رزقه، ويُنْسأ له فى أجله [٣] فلْيَصِلْ رَحِمه » .

وقد رواه البخارى ومسلم وأبو داود ، من حديث يونس بن يزيد الأيْلى ، به [٤] .

وقال [٥] ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو مسرح ، حدثنا عثمان بن عطاء ، عن مسلمة [٦] بن عبد الله ، عن عمه أبى مَشْجَعَة بن ربعى ، عن أبى الدرداء ، رضى الله عنه ، قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال : « إن الله لا يأخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد ، فيدعون له من بعده ، فيلحقه دعاؤهم فى قبره ، فذلك زيادة العمر » .

وقوله : ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أى : سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله فى جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى منه عليه شىء .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾ .

يقول تعالى منبها على قدرته العظيمة فى خلقه الأشياء المختلفة : وخلق البحرين العذب الزلال،

---

(١) فى أ : « رواه » . (٢) زيادة من ت ، أ . (٣) فى ت ، س ، أ : « أثره » .

(٤) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٢٩) وصحيح البخارى برقم (٢٠٦٧) وصحيح مسلم برقم (٢٥٥٧) وسنن أبى داود برقم(١٦٩٣) .

(٥) فى ت « وروى » . (٦) فى أ : « سلمة » .

وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، من كبار وصغار ، بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، والعمران والبرارى والقفار ، وهى عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ، ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ، وهو البحر الساكن الذى تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زُعَاقاً مُرَّة ، ولهذا قال : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أى : مر .

ثم قال :﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يعنى : السمك ، ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ ، كما قال تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن : ٢٢، ٢٣] .

وقوله :﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ (١)﴾ أى : تمخره وتشقه بحيزومها ، وهو مقدمها المُسَنَّم الذى يشبه جؤجؤ الطير ـ وهو : صدره .

وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ، ولا يمخر الريح من السفن إلا العظام .

وقوله ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أى : بأسفاركم بالتجارة ، من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ، ولا يمتنع عليكم شيء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، الجميع من فضله ومن رحمته .

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾ .

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه ، ويأخذ من طول هذا فيزيده على قصر هذا (٢) فيعتدلان . ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ،﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أى : والنجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديراً من عزيز عليم .

﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى (٣)﴾ أى : إلى يوم القيامة .

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى : الذى فعل هذا هو الرب العظيم ، الذى لا إله غيره ،﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أى : من الأنداد والأصنام التى هى على صورة من تزعمون (٤) من الملائكة المقربين ، ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ .

(١) فى ت ، س : « وترى الفلك مواخر فيه » ولعلهما أرادا الآية : ١٤ من سورة النحل .
(٢) فى ت ، أ : « فيزيد فى قصر هذا » .
(٣) فى ت ، س : « إلى أجل مسمى » .
(٤) فى س : « يزعمون » .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء وعطية العوفى ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم: القطمير : هو اللفافة التى تكون على نواة التمرة ، أى : لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير .

ثم قال :﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ يعنى : الآلهة التى تدعونها من دون الله لا يسمعون(١) دعاءكم (٢) ؛ لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أى : لا يقدرون(٣) على ما تطلبون منها ، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ ،أى: يتبرؤون منكم ، كما قال تعالى:﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الاحقاف : ٥، ٦] ، وقال : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم :٨١ ، ٨٢] .

وقوله : ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أى : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه ، مثلُ خبير بها .

قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) ﴾.

يخبر تعالى بغنائه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذللها بين يديه ، فقال :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى : هم محتاجون إليه فى جميع الحركات والسكنات ، وهو الغنى عنهم بالذات ؛ ولهذا قال :﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أى : هو المنفرد (٤) بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد فى جميع ما يفعله ويقوله ، ويقدره ويشرعه .

وقوله :﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أى : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

وقوله : ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أى : يوم القيامة ،﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ ، أى : وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تُساعَدَ على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ، ﴿ لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ، أى : ولو كان قريبا إليها ، حتى ولو كان أباها أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله ، [كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾] (٥) [عبس : ٣٤ ـ ٣٧] .

قال (٦) عكرمة فى قوله : ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ الآية ، قال : هو الجار يتعلق بجاره يوم

---

(١) فى ت ، أ : « يسمعوا » . (٢) فى أ : «دعاءهم» . (٣) فى ت:« يقيمون » .
(٤) فى ت ، س: «المتفرد » . (٥) زيادة من ت . (٦) فى ت : « كما قال » .

القيامة ، فيقول : يا رب ، سل هذا : لم كان يغلق بابه دونى . وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة، فيقول له : يا مؤمن ، إن لى عندك يداً ، قد عرفت كيف كنت لك فى الدنيا ؟ وقد احتجت إليك اليوم . فلا يزال المؤمن يشفع له إلى ربه حتى يرده إلى [منزل دون] (١) منزله (٢) ، وهو فى النار . وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة ،فيقول: يا بنى ، أىّ والد كنتُ لك ؟ فيثنى خيرا، فيقول له : يا بنى إنى قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى .فيقول له ولده : يا أبت، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجته فيقول : يا فلانة ـ أو : يا هذه ـ أى زوج كنت لك ؟ فتثنى خيرا ، فيقول لها : إنى أطلب إليك حسنة واحدة تَهَبينَهَا لى ،لعلى أنجو بها مما ترين. قال :فتقول:ما أيسر ما طلبت.ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا ، إنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، يقول اللّه : ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ [إِلَىٰ حِمْلِهَا] (٣)﴾ الآية، ويقول اللّه : ﴿لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَده وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالده شَيْئًا﴾ [لقمان : ٣٣] ، ويقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيه. وَأُمِّه وَأَبِيه. وَصَاحِبَته وَبَنِيه. لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه﴾.

رواه ابن أبى حاتم ، رحمه اللّه ، عن أبى عبد اللّه الطهرانى (٤) ، عن حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان ، عن عكْرِمة ، به .

ثم قال :﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ (٥) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ أى : إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ، ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِه﴾ أى : ومن عمل صالحا فإنما يعود نفعه على نفسه ،﴿وَإِلَى اللَّه الْمَصِيرُ﴾ أى : وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) ﴾ .

يقول تعالى : كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوى الأحياء ولا الأموات. وهذا مثل ضربه اللّه للمؤمنين وهم الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله تعالى :﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ

(١) زيادة من ت ، أ .	(٢) فى ت : « فى منزلة دون منزلته » .	(٣) زيادة من ت ، س ، أ .
(٤) فى أ : « الطبرانى » .	(٥) فى س : « ينذر » .

مِّنْهَا﴾ [الأنعام : ١٢٢] ،وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ [هود : ٢٤] فالمؤمن سميع بصير فى نور يمشى ، على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة ، حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى أصم ، فى ظلمات يمشى ، لا خروج له منها ، بل هو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة ، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ. لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة : ٤٣، ٤٤] .

وقوله :﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ أى : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أى : كما لا [يسمع و] (١) ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتب عليهم الشقاوة لا حيلةَ لك فيهم ، ولا تستطيع هدايتهم .

﴿ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ أى : إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أى : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ، ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أى : وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النّذر ، وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى :﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد : ٧] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾ الآية [النحل : ١٣٦]، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله تبارك وتعالى :﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهى : المعجزات الباهرات ، والأدلة القاطعات ، ﴿ وَبِالزُّبُرِ﴾ وهى الكتب ، ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أى : الواضح البين . ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى : ومع هذا كله كَذّب أولئك رسلَهم فيما جاؤوهم به، فأخذتهم ، أى : بالعقاب والنكال ،﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى : فكيف رأيت(٢) إنكارى عليهم عظيما شديدا بليغا ؟

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

يقول تعالى منبها على كمال قدرته فى خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشىء الواحد ، وهو الماء الذى ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفا ألوانها ، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، كما قال تعالى فى الآية الآخرى : ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ (٣) بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد : ٤] .

(١) زيادة من ت ، أ . (٢) فى ت : « رأيت كان » . (٣) فى ت ، س : « تسقى » .

وقوله تبارك وتعالى :﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أى : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمر ، وفى بعضها طرائق ـ وهى : الجُدَد ، جمع جُدّة ـ مختلفة الألوان أيضا .

قال ابن عباس ، رضى الله عنهما : الجُدَد : الطرائق . وكذا قال أبو مالك ، والحسن ، وقتادة، والسدى (١) .

ومنها ﴿ غَرَابِيبُ سُود﴾ ، قال عكرمة : الغرابيب : الجبال الطوال السود . وكذا قال أبو مالك، وعطاء الخراسانى وقتادة .

وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد ، قالوا : أسود غربيب .

ولهذا قال بعض المفسرين فى هذه الآية : هذا من المقدم والمؤخر فى قوله تعالى : ﴿ وَغَرَابِيبُ سُود﴾ أى : سود غرابيب .

وفيما قاله نظر .

وقوله تعالى :﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ أى : [و] (٢) كذلك الحيوانات من الأناسى والدواب ـ وهو : كل ما دب على قوائم ـ والأنعام ، من باب عطف الخاص على العام . كذلك هى مختلفة أيضا ، فالناس منهم بربر وحُبُوش وطُمَاطم فى غاية السواد ، وصقالبة وروم فى غاية البياض ، والعرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك ؛ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى :﴿وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ [الروم : ٢٢] . وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان ، حتى فى الجنس الواحد ، بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق ، فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقد قال (٣) الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا الفضل بن سهل ، حدثنا عبد الله بن عمر ابن أبان بن صالح ، حدثنا زياد بن عبد الله ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال :جاء رجل إلي النبى ﷺ فقال : أيصبغ ربك ؟ فقال : « نعم صبغا لا يُنفَض ، أحمر وأصفر وأبيض » (٤) . ورُوى مرسلا وموقوفا ، والله أعلم .

ولهذا قال تعالى بعد هذا :﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ أى : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العَلِيم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ـ كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال:الذين يعلمون أن الله على كل شىء قدير .

وقال ابن لَهِيعَة،عن ابن أبى عمرة ، عن عِكْرِمة ،عن ابن عباس (٥) قال : العالم بالرحمن(٦) من لم يشرك به شيئا ،وأحل حلاله،وحرم حرامه،وحفظ وصيته،وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله .

---

(١) فى ت : « وكذلك قال غيره » . (٢) زيادة من ت ، س ، أ . (٣) فى ت : « وقد روى » .
(٤) مسند البزار برقم (٢٩٤٤) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٢٨/٥) : « وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط » .
(٥) فى ت : « وعنه » . (٦) فى أ : « بالرحمن من عباده » .

وقال سعيد بن جبير : الخشية هى التى تحول بينك وبين معصية اللّه عز وجل .

وقال الحسن البصرى : الإيمان مَنْ خشى الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغب اللّه فيه ، وزهد فيما سَخط اللّه فيه ، ثم تلا الحسن : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

وعن ابن مسعود ، رضى اللّه عنه ، أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث،ولكن العلم عن (١) كثرة الخشية .

وقال أحمد بن صالح المصرى ، عن ابن وهب ، عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله اللّه فى القلب .

قال أحمد بن صالح المصرى (٢) : معناه : أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية ، وأما العلم الذى فرض (٣) اللّه ، عز وجل ، أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة ، رضى اللّه عنهم ، ومن بعدهم من أئمة المسلمين ، فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله : « نور » يريد به فهم العلم، ومعرفة معانيه .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى حيان [التميمى] (٤) ، عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة: عالم باللّه عالم بأمر اللّه ، وعالم باللّه ليس بعالم بأمر اللّه ، وعالم بأمر اللّه ليس بعالم باللّه. فالعالم باللّه وبأمر اللّه : الذى يخشى اللّه ويعلم الحدود والفرائض . والعالم باللّه ليس بعالم بأمر اللّه : الذى يخشى اللّه ولا يعلم الحدود ولا الفرائض . والعالم بأمر اللّه ليس بعالم باللّه : الذى يعلم الحدود والفرائض ، ولا يخشى اللّه عز وجل .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه ، من إقام الصلاة ، والإنفاق مما رزقهم اللّه فى الأوقات المشروعة ليلا ونهارا ، سرا وعلانية ، ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾، أى : يرجون ثوابا عند اللّه لا بد من حصوله . كما قدمنا فى أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه : « إن كل تاجر من وراء تجارته ، وإنك اليوم من وراء كل تجارة » ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ أى : ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ، ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ﴾ أى : لذنوبهم ، ﴿شَكُورٌ﴾ للقليل من أعمالهم.

قال قتادة : كان مُطَرِّف ، رحمه اللّه ، إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء .

---

(١) فى ت ، س : « من » .
(٢) فى ت : « المرى » .
(٣) فى ت ، س : « فرضه » .
(٤) زيادة من ت ، س ، أ .

قال (١) الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، حدثنا سالم بن غيلان أنه سمع دَرّاجا أبا السمح يحدث عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخُدْرىّ ، رضى اللّه عنه ، أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « إن اللّه تعالى (٢) إذا رضى عن العبد أثنى عليه سَبْعَةَ (٣) أصناف من الخير لم يعمله، وإذا سخط على العبد أثنى عليه سَبْعَةَ (٤) أصناف من الشر لم يعمله (٥) ». غريب جدا .

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد من الكتاب ، وهو القرآن﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى : من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت (٦) له بالتنويه(٧)، وأنه منزل من رب العالمين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : هو خبير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه. ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات ، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات اللّه عليهم أجمعين .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾ .

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم ، المصدق لما بين يديه من الكتب ، الذين اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع (٨) ، فقال : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾، وهو : المفرط فى فعل بعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات. ﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ﴾ وهو: المؤدى للواجبات ، التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات. ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وهو : الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا [مِنْ عِبَادِنَا](٩) ﴾ ، قال : هم أمة محمد ﷺ ، ورَّثهم اللّه كل كتاب (١٠) أنزله ، فظالمهم يُغفَر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، وعبد الرحمن بن معاوية العُتْبىّ قالا : حدثنا أبو الطاهر بن السرح ، حدثنا موسى بن عبد الرحمن الصنعانى ، حدثنى ابن جُرَيْج ، عن عطاء ، عن (١١) ابن عباس ، عن رسول اللّه ﷺ أنه قال ذات يوم : « شفاعتى لأهل الكبائر من

---

(١) فى ت : « وروى » . (٢) فى أ : « عز وجل » . (٣، ٤) فى ت ، س ، أ : « بسبعة » .
(٥) المسند (٣/٣٨) ودراج له مناكير وروايته عن أبى الهيثم ضعيفة .
(٦) فى ت ، س ، أ : « شهدت هى » .
(٧) فى ت ، أ : « بالنبوة » . (٨) فى ت : « أقسام » . (٩) زيادة من ت ، س .
(١٠) فى ت : « ورثهم اللّه كتابا » . (١١) فى ت : « وروى القاسم الطبرانى بسنده إلى » .

أمتى » .قال ابن عباس : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ (١) .

وهكذا (٢) رُوى عن غير واحد من السلف : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين ، على ما فيه من عوج وتقصير .

وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب .

قال ابن أبى حاتم ، حدثنا أبى ، حدثنا على بن هاشم بن مرزوق ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو(٣) ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما (٤) :﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ قال : هو الكافر . وكذا رَوَى عنه عكرمة ، وبه قال عكرمة أيضا فيما رواه ابن جرير .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ قال : هم أصحاب المشأمة.

وقال مالك عن زيد بن أسلم ، والحسن ، وقتادة : هو المنافق .

ثم قد قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة فى أول سورة « الواقعة » وآخرها .

والصحيح : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة . وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ ، من طرق يشد بعضها بعضا ، ونحن نورد منها ما تيسر :

الحديث الأول : قال (٥) الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الوليد بن العيزار ؛ أنه سمع رجلا من ثقيف يُحَدّث عن رجل من كنانة ، عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ،عن النبى ﷺ أنه قال فى هذه الآية:﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾،قال:«هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة،وكلهم فى الجنة » .

هذا (٦) حديث غريب من هذا الوجه ، وفى إسناده من لم يسمّ . وقد رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث شعبة ، به نحوه (٧) .

ومعنى قوله : « بمنزلة واحدة » أى : فى أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق فى المنازل فى الجنة .

الحديث الثانى : قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أنس بن عياض الليثى أبو ضَمْرة ، عن موسى بن عقبة ، عن [على] (٨) بن عبد الله الأزدى ، عن أبى الدرداء (٩) ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ ، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك (١٠) يحاسبون حسابا يسيرا ، وأما

---

(١) المعجم الكبير (١١/ ١٨٩) وابن جرير مدلس وقد عنعن .
(٢) فى ت ، س : « وكذا » . (٣) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده » . (٤) فى ت ، س : « عنه » .
(٥) فى ت : « رواه » . (٦) فى ت : « وهذا » .
(٧) المسند (٣/ ٧٨) وتفسير الطبرى (٢٢/ ٩٠) .
(٨) زيادة من س ، أ .
(٩) فى ت : « رواه الإمام أحمد بسنده عن أبى الدرداء » . (١٠) فى أ : « فأولئك الذين».

الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم (١) برحمته ، فهم الذين يقولون : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ** ﴾ » (٢).

طريق أخرى (٣) : قال ابن أبي حاتم : حدثنا أسيد بن عاصم ، حدثنا الحسين بن حفص ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن رجل ، عن أبي ثابت ، عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ**﴾ قال : « فأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يصيبه الهم والحزن ، ثم يدخل الجنة » .

ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثورى ، عن الأعمش قال : ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد، فجلس إلى جنب أبي الدرداء ، فقال : اللهم ، آنس وحشتي ، وارحم غربتي ، ويسر لي جليسا صالحا . قال أبو الدرداء : لئن كنت صادقا لأنا أسعد بك منك ، سأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم أحدث به منذ سمعته منه ، ذكر هذه الآية :﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ**﴾ ، « فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا ، وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن ، وذلك قوله : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**﴾ » (٤) .

الحديث الثالث : قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس ، حدثنا ابن مسعود ، أخبرنا سهل بن عبد ربه (٥) الرازي ، حدثنا عمرو بن أبي قيس ، عن ابن أبي ليلى ، عن أخيه ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى (٦) ، عن أسامة بن زيد : ﴿**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ**﴾ الآية ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كلهم من هذه الأمة » (٧) .

الحديث الرابع : قال (٨) ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عَزيز ، حدثنا سلامة ، عن عَقيل ، عن ابن شهاب ، عن عَوْف (٩) بن مالك ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أمتي ثلاثة أثلاث : فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة ، وثلث يُمَحَّصون ويكشفون ، ثم تأتي الملائكة فيقولون : وجدناهم يقولون : « لا إله إلا الله وحده » . يقول الله عز وجل : صدقوا ، لا إله إلا أنا (١٠) ، أدخلوهم الجنة بقولهم: « لا إله إلا الله وحده» واحملوا خطاياهم على أهل النار ، وهي التي قال الله تعالى : ﴿**وَلَيَحْمِلُنَّ** (١١) **أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ**﴾ [العنكبوت : ١٣] ، وتصديقها في التي فيها ذكر الملائكة ، قال الله تعالى : ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**﴾ ،فجعلهم ثلاثة أنواع (١٢) ، وهم أصناف كلهم ، فمنهم ظالم

---

(١) في ت ، س ، أ : « تلافاهم الله » .

(٢) المسند (٥/١٩٨) .

(٣) في ت : « وروى من طريق أخرى » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٠) ورواه الحاكم في المستدرك (٢/٤٢٦) ومن طريقه البيهقي في البعث برقم(٦٢)من طريق الأعمش،به .

(٥) في أ : « عبد الله » .   (٦) في ت : « رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني بإسناده » .

(٧) المعجم الكبير (١/١٦٧) وقد وقع في إسناده سقط ، ورواه البيهقي في البعث برقم (٦٤) من طريق محمد بن سعيد ، عن عمرو ابن أبي قيس، عن ابن أبي ليلى، عن أخيه عيسى، عن أبيه، عن أسامة بن زيد ،به . ورواه أيضا برقم (٦٣) من طريق حصين بن نمير عن ابن أبي ليلى ،عن أخيه ،عن أبيه ،عن أسامة بن زيد ، بنحوه .

(٨) في ت : « رواه » .   (٩) في أ : « أنس » .

(١٠) في س : « إلا الله ».   (١١) في س : «ولتحملن » .   (١٢) في ت ، س : « أفواج » .

لنفسه، فهذا الذى يكشف ويمحص » . غريب جدا (١) .

أثر عن ابن مسعود : قال ابن جرير : حدثنى ابن حميد ، حدثنا الحكيم بن بشير ، عن عمرو ابن قيس ، عن عبد اللّه بن عيسى ، عن يزيد بن الحارث ، عن شَقيق أبى وائل ، عن عبد اللّه بن مسعود ؛ أنه قال : هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول : ما هؤلاء ؟ ـ وهو أعلم تبارك وتعالى ـ فتقول الملائكة : هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام ، إلا أنهم لم يشركوا بك فيقول الرب عز وجل : أدخلوا هؤلاء فى سعة رحمتى : وتلا عبد اللّه هذه الآية : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا [فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ]** (٢)﴾ الآية .

أثر آخر : قال أبو داود الطيالسى ، عن الصلت بن دينار أبو شُعيب (٣) ، عن عقبة بن صُهْبان الهُنَائى قال : سألت عائشة ، رضى اللّه عنها ، عن قول اللّه : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ الآية ، فقالت لى : يا بنى ، هؤلاء فى الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول اللّه ﷺ ، شهد له رسول اللّه ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم. قال : فجعلت نفسها معنا (٤) .

وهذا منها ، رضى اللّه عنها ، من باب الهَضْم والتواضع ، وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وقال عبد اللّه بن المبارك ، رحمه اللّه : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى اللّه عنه : فى قوله تعالى :﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ** ﴾ قال : هى لأهل بدونا ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، وسابقنا أهل الجهاد . رواه ابن أبى حاتم .

وقال عَوْف الأعرابى : حدثنا عبد اللّه بن الحارث بن نوفل قال : حدثنا كعب الأحبار قال : إن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم فى الجنة ، ألم تر أن اللّه تعالى قال : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ .جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ** ﴾ قال: فهؤلاء أهل النار .

[و] (٥) رواه ابن جرير من طرق ، عن عوف ، به . ثم قال :

حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّةَ ، أخبرنا حميد ، عن إسحاق بن عبد اللّه بن الحارث ، عن أبيه أن ابن عباس سأل كعبا (٦) عن قوله : ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ قال : تماسَّت مناكبهم ورَب كعب (٧)، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم.

---

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٨/ ٨٠) من طريق محمد بن عزيز ، به. وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٦) : « فيه سلامة بن روح وثقه ابن حبان ، وضعفه جماعة ، وبقية رجاله ثقات » .

(٢) زيادة من أ .

(٣) فى هـ ، س : « دينار بن الأشعث » ، وفى أ : « عن الأشعث » ، والمثبت من مسند الطيالسى .

(٤) مسند الطيالسى برقم (١٤٨٩) .

(٥) زيادة من ت .

(٦) فى ت : « ثم روى عن ابن عباس أنه سأل كعبا » .

(٧) فى أ : « الكعبة » .

ثم قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم بن بشير ، حدثنا عمرو بن قيس ، عن أبى إسحاق السَّبيعى فى هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية ، قال أبو إسحاق : أما ما سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج .

ثم قال : حدثنا ابن حميد ، حدثنا الحكم ، حدثنا عمرو ، عن (١) محمد بن الحنفية قال : إنها أمة مرحومة ، الظالم مغفور له ، والمقتصد فى الجنان عند الله ، والسابق بالخيرات فى الدرجات عند الله .

ورواه الثورى ، عن إسماعيل بن سَمِيع ، عن رجل ، عن محمد بن الحنفية ، بنحوه .

وقال أبو الجارود : سألت محمد بن على ـ يعنى : الباقر ـ عن قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾ فقال : هو الذى خلط عملا صالحا وآخر سيئا .

فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة فى جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة، فإنهم كما قال الإمام أحمد ، رحمه الله :

حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا عاصم بن رجاء بن حَيْوَة (٢) ، عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من المدينة إلى أبى الدرداء ـ وهو بدمشق ـ فقال : ما أقدمك أىْ أخى ؟ قال : حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ . قال أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا . قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا ؟ قال : أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقا يطلب فيه (٣) علماً ، سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم (٤) ، وإنه ليستغفر للعالم من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » .

وأخرجه (٥) أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، من حديث كثير بن قيس ــ ومنهم من يقول: قيس بن كثير ــ عن أبى الدرداء (٦) . وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه فى شرح « كتاب العلم » من « صحيح البخارى » ، ولله الحمد والمنة .

وقد تقدم فى أول « سورة طه » حديث ثعلبة بن الحكم ، عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء : إنى لم أضع علمى وحكمى فيكم إلا وأنا أريد [أن] (٧) أغفر لكم ، على ما كان منكم ، ولا أبالى » (٨) .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)

(١) فى ت : « وعن » .
(٢) فى ت : « كما روى الإمام أحمد رحمه الله بإسناده » .
(٣) فى س : « فيها » .
(٤) فى أ : « العلم رضا بما يصنع » .
(٥) فى ت : « رواه » .
(٦) المسند (٥/١٩٦) وسنن أبى داود برقم (٣٦٤١) وسنن الترمذى برقم (٢٦٨٢) وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٣) .
(٧) زيادة من ت ، س ، أ .
(٨) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية (٢) من سورة طه .

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴾ .

يخبر تعالى أن مأوى هؤلاء المصطفين من عباده ، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ﴿ **جَنَّاتُ عَدْنٍ** ﴾ أى : جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على ربهم،عز وجل ، ﴿ **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا** ﴾ ، كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تبلغ الحلية [١] من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » [٢] .

﴿ **وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ** ﴾ ، ولهذا كان محظوراً عليهم فى الدنيا ، فأباحه الله لهم فى الدار الآخرة، وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من لبس الحرير فى الدنيا، لم يلبسه فى الآخرة ». وقال :« [لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة][٣]هى لهم فى الدنيا ولكم [٤] فى الآخرة» .

وقال [٥] ابن أبى حاتم : حدثنا عمرو بن سواد السَّرْحىّ ، أخبرنا ابن وهب ، عن ابن لَهيعة ، عن عقيل بن خالد ، عن الحسن ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ؛ أن أبا أمامة حدث: أن رسول الله ﷺ حدثهم ، وذكر حلى أهل الجنة فقال : « مسورون بالذهب والفضة ، مُكَلَّلة بالدر ، وعليهم أكاليل من دُرّ وياقوت متواصلة ، وعليهم تاج كتاج الملوك ، شباب جُرْدٌ مُرْدٌ مكحّلُون » [٦] .

﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ** ﴾ وهو الخوف من المحذور ، أزاحه عنا ، وأراحنا مما كنا نتخوفه ، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس على أهل « لا إله إلا الله » وحشة فى قبورهم ولا فى منشرهم ، وكأنى بأهل « لا إله إلا الله» ينفضون التراب عن رؤوسهم ، ويقولون : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ** ﴾ ». رواه ابن أبى حاتم من حديثه [٧] .

وقال [٨] الطبرانى : حدثنا جعفر بن محمد الفريابى ، حدثنا يحيى بن موسى [٩] المروزى ، حدثنا سليمان بن عبد الله بن وهب الكوفى ، عن عبد العزيز بن حكيم ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس على أهل « لا إله إلا الله » وحشة فى الموت ولا فى قبورهم ولا فى النشور[١٠] . وكأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب ، يقولون : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾ » [١١] .

---

(١) فى ت : « الحليلة » ،وفى أ : « الحلة » .
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٤٦) .
(٣) زيادة من ت ، أ . (٤) فى س : « ولنا » . (٥) فى ت : « وروى » .
(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٢٦٧) من طريق على بن الحسن عن عمرو بن سواد، به.والحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة.
(٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٥٣١) « مجمع البحرين » وابن عدى فى الكامل (٤/ ٢٧١) من طريق يحيى الحمانى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، به . وقال ابن عدى فى ترجمة عبد الرحمن بن زيد : « أحاديثه غير محفوظة » .وقال المنذرى فى الترغيب (٢/٤١٦) : « فى متنه نكارة » .
(٨) فى ت : « وروى » .
(٩) فى هـ ، ت ، س ، أ : « موسى بن يحيى » والصواب ما أثبتناه من الإكمال وتخريج الكشاف للزيلعى .
(١٠) فى س : « منشرهم » .
(١١) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٣٣) : « رواه الطبرانى وفيه جماعة لم أعرفهم » . ورواه ابن عدى فى الكامل (٢/ ٦٥) والبيهقى فى البعث برقم (٨٨) من طريق الحسن عن بهلول بن عبيد عن سلمة بن كهيل عن ابن عمر بنحوه، وقال البيهقى : «هذا مرسل عن سلمة بن كهيل وابن عمر ، وبهلول تفرد به وليس بالقوى » .

قال ابن عباس ، وغيره : غَفَر لهم الكثير (١) من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات .

﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ﴾ : يقولون : الذى أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام من فضله ومَنّه (٢) ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوى ذلك . كما ثبت فى الصحيح أن رسول اللّه ﷺ قال : «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » .قالوا : ولا أنت يا رسول اللّه ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يَتَغَمَّدَنى اللّه برحمة منه وفضل »(٣).

﴿ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أى : لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء .

والنصَب واللغوب : كل منهما يستعمل فى التعب . وكأن المراد ينفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم (٤) ،واللّه أعلم . فمن ذلك أنهم كانوا يُدْئِبُون أنفسهم فى العبادة فى الدنيا ،فسقط عنهم التكليف بدخولها ،وصاروا فى راحة دائمة مستمرة ،قال اللّه تعالى:﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ .

لما ذكر تعالى حال السعداء ، شرع فى بيان مآل الأشقياء ، فقال :﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾، كما قال تعالى : ﴿ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ [طه : ٧٤] . وثبت فى صحيح مسلم : أن رسول اللّه ﷺ قال : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ولا يحيون» (٥) . قال [اللّه] (٦) تعالى :﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف:٧٧] . فهم فى حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، قال اللّه تعالى : ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٤ ، ٧٥] ، وقال :﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ [النبأ : ٣٠] .

ثم قال : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أى : هذا جزاء كل من كفر بربه ، وكذب بالحق .

وقوله :﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أى : ينادون فيها ، يجأرون إلى اللّه، عز وجل، بأصواتهم : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أى : يسألون الرجعة إلى الدنيا ، ليعملوا غير عملهم

(١) فى أ : « الكبير » . (٢) فى س : « ومنته » .
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٦٧٣) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٦) .
(٤) فى ت ، أ : « ولا على أرواحهم » .
(٥) صحيح مسلم برقم (١٨٥) .
(٦) زيادة من ت ، س .

الأول ، وقد علم الرب، جل جلاله ،أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا ، لعادوا لما نهوا عنه ، **وإنهم** لكاذبون. فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم ، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى قولهم: ﴿**فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ**(١) **مِّن سَبِيلٍ. ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا**﴾ [غافر : ١١، ١٢] ، أى : لا يجيبكم إلى ذلك ، لأنكم كنتم كذلك ، ولو رددتم لعدتّم إلى ما نهيتم عنه ؛ ولهذا قال هاهنا :﴿**أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ أى : أو ما عشتم فى الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به فى مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون فى مقدار العمر المراد هاهنا ، فروى عن على بن الحسين زين العابدين أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة .

وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة ، فنعوذ بالله أن نُعَيَّر (٢) بطول العمر ، **قد نزلت هذه** الآية : ﴿**أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ ، وإن فيهم لابن ثمانى عشرة سنة . وكذا قال أبو غالب الشيبانى .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن مَعْمَر ، عن رجل ، عن وهب بن مُنَبِّه فى قوله :﴿**أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ ، قال : عشرين (٣) سنة .

وقال هُشَيْم ، عن منصور ، عن زاذان ، عن الحسن فى قوله : ﴿**أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ قال : أربعين سنة .

وقال هشيم [أيضا] (٤) ، عن مجاهد ، عن الشعبى ، عن مسروق أنه كان يقول : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة ، فليأخذ حذره من الله عز وجل .

وهذا رواية عن ابن عباس فيما قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم ، عن مجاهد قال : سمعت ابن عباس يقول : **العمر الذى أعذر الله إلى ابن آدم** : ﴿**أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ أربعون سنة .

هكذا رواه من هذا الوجه ، عن ابن عباس . وهذا القول هو اختيار ابن جرير . ثم رواه من طريق الثورى وعبد الله بن إدريس ، كلاهما عن عبد الله بن عثمان بن خثيم (٥) ، عن مجاهد(٦)، عن ابن عباس قال : العمر الذى أعذر الله فيه لابن آدم فى قوله : ﴿**أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ ستون سنة .

فهذه الرواية أصح عن ابن عباس ، وهى الصحيحة فى نفس الأمر أيضاً ، لما ثبت فى ذلك من الحديث ـ كما سنورده ـ لا كما زعمه ابن جرير ، من أن الحديث لم يصح ؛ لأن فى إسناده من يجب التثبت فى أمره .

وقد روى (٧) أصبغ بن نُباتة ، عن على ، رضى الله عنه ، أنه قال : العمر الذى عيّرهم الله به فى قوله تعالى : ﴿**أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**﴾ ستون سنة .

---

(١) فى ت ، س : « مرد » وهو خطأ . (٢) فى أ : « نغتر » . (٣) فى ت ، س ، أ : « عشرون » .
(٤) زيادة من س . (٥) فى أ : « خيثم » . (٦) فى ت: « وفى رواية أخرى » .
(٧) فى ت : « فروى » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى : حدثنا دُحَيْم ، حدثنا ابن أبى فُدَيْك ، حدثنى إبراهيم بن الفضل المخزومى ، عن ابن أبى حُسَين المكى ؛ أنه حدثه عن عَطاء ـ هو ابن أبى رباح ـ عن [١] ابن عباس ، رضى اللّه عنهما [٢] ، أن النبى ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء الستين ؟ وهو العمر الذى قال اللّه فيه : ﴿**أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ**﴾ » .

وكذا رواه ابن جرير ، عن على بن شعيب ، عن محمد بن إسماعيل [٣] بن أبى فُدَيك ، به . وكذا رواه الطبرانى من طريق ابن أبى فُدَيك ، به [٤] . وهذا الحديث فيه نظر ؛ لحال إبراهيم بن الفضل ، واللّه أعلم .

حديث آخر : قال [٥] الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن رَجُل من بنى غفَار، عن سعيد المَقْبُرِىّ ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « لقد أعذر اللّه إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعذر اللّه إليه، لقد أعذر الله إليه » [٦] .

وهكذا رواه الإمام البخارى فى « كتاب الرقاق » من صحيحه : حدثنا عبد السلام بن مُطَهَّر ، عن عُمَر بن علىّ ، عن مَعْن بن محمد الغفَارى ، عن سعيد المَقْبُرى ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه،قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أعذر اللّه عز وجل إلى امرئ أخَّر عمره حتى بَلَّغَه ستين سنة » .

ثم قال البخارى : تابعه أبو حازم وابن عَجْلان ، عن سعيد المَقْبُرى [٧] .

فأما أبو حازم فقال ابن جرير : حدثنا أبو صالح الفَزَارىّ ، حدثنا محمد بن سَوَّار ، أخبرنا يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد القارىّ الإسكندرىّ ، حدثنا أبو حازم ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ « [من عَمَّره] [٨] اللّه ستين سنة ، فقد أعذر إليه فى العمر » .

وقد رواه الإمام أحمد والنسائى فى الرقاق جميعا عن قتيبة،عن يعقوب بن عبد الرحمن، به[٩] .

ورواه البزار قال : حدثنا هشام بن يونس ، حدثنا عبد العزيز بن أبى حازم ، عن أبيه ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « العمر الذى أعذر اللّه فيه إلى ابن آدم ستون سنة » .يعنى : ﴿ **أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ** ﴾[١٠] .

وأما متابعة « ابن عجلان » فقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو السفر يحيى بن محمد بن عبد الملك ابن قرعة بسامراء ، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرى ، حدثنا سعيد بن أبى أيوب ، حدثنى محمد بن

---

(١) فى ت : « فقال ابن أبى حاتم بإسناده إلى » . (٢) فى ت ، س : « عنه » .
(٣) فى جميع النسخ : « عن إسماعيل ، والمثبت من الطبرى » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) والمعجم الكبير للطبرانى (١١/ ١٧٧) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٩٧):«وفيه إبراهيم بن الفضل المخزومى وهو ضعيف » .
(٥) فى ت : « وروى » .
(٦) المسند (٢/ ٢٧٥) .
(٧) صحيح البخارى برقم (٦٤١٩) .
(٨) زيادة من ت ، والطبرى .
(٩) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) والمسند (٢/ ٤١٧) والنسائى فى السنن الكبرى كما فى تحفة الأشراف للمزى (٩/ ٤٧٢) .
(١٠) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٣/ ١٥٥) من طريق سليمان بن حرب ، عن أبى حازم،عن سهل بن سعد ، وربما لم يقل : عن سهل ، فذكر نحوه دون الآية ، والمحفوظ عن أبى هريرة ،رضى اللّه عنه .

عجلان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله، عز وجل، إليه فى العمر » . وكذا رواه الإمام أحمد عن أبى عبد الرحمن هو المقرئ [١] ، به [٢] . ورواه أحمد أيضا عن خلف عن أبى مَعْشَر ،عن سعيد المقْبرِى.

طريق أخرى عن أبى هريرة : قال ابن جرير : حدثنى أحمد بن الفرج أبو عُتْبة [٣] الحمْصى، حدثنا بَقيَّة بن الوليد ، حدثنا المطرف بن مازن الكنانى ، حدثنى مَعْمَر بن راشد قال : سمعت محمد ابن عبد الرحمن الغفارى يقول: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لقد أعذر الله عز وجل، إلى صاحب الستين سنة والسبعين » [٤] .

فقد صح هذا الحديث من هذه الطرق ، فلو لم يكن [٥] إلا الطريق التى ارتضاها أبو عبد الله البخارى شيخ هذه الصناعة لكفت . وقول ابن جرير : (إن فى رجاله بعض من يجب التثبت فى أمره) ، لا يلتفت إليه مع تصحيح البخارى ، والله أعلم .

وذكر بعضهم أن العمر الطبيعى عند الأطباء مائة وعشرون سنة ، فالإنسان لايزال فى ازدياد إلى كمال الستين ، ثم يشرع بعد هذا فى النقص والهرم ، كما قال الشاعر :

إذَا بَلَغَ الفتى ستين عَاما   فقد ذَهَبَ المَسَرّةُ والفَتَاءُ [٦]

ولما كان هذا هو العمر الذى يعذر الله إلى عباده به ، ويزيح به عنهم العلل ، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة ، كما ورد بذلك الحديث ، قال الحسن بن عرفة ، رحمه الله :

حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم مَن يجوز ذلك».

وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه جميعا فى كتاب الزهد ، عن الحسن بن عرفة ، به . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه [٧] .

وهذا عَجَب من الترمذى ، فإنه قد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا من وجه أخر وطريق أخرى ، عن أبى هريرة ، حيث قال :

حدثنا سليمان [٨] بن عمر ، عن محمد بن ربيعة ،عن كامل أبى العلاء،عن أبى صالح،عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك » .

وقد رواه الترمذى فى « كتاب الزهد » أيضا ، عن إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، عن محمد بن ربيعة ، به [٩] . ثم قال : هذا حديث حسن غريب ، من حديث أبى صالح عن أبى هريرة ، وقد

---

(١) فى أ : « المقبرى » .
(٢) المسند (٢/ ٣٢٠) .
(٣) فى أ : « أبو عيينة » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٣) .
(٥) فى س : « لم تكن » .
(٦) البيت نسبه أبو عبيدة للربيع بن ضبع الفزارى مستفاداً من حاشية طبعة الشعب .
(٧) سنن الترمذى برقم (٣٥٥٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٣٦) .
(٨) فى أ : « سليم » .
(٩) سنن الترمذى برقم (٢٣٣١) .

روى من غير وجه عنه . هذا نصه بحروفه فى الموضعين ، والله أعلم .

وقال [(١)] الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو موسى الأنصارى ، حدثنا ابن أبى فُدَيك ، حدثنى إبراهيم ابن الفضل ـ مولى بنى مخزوم ـ عن المقبُرى ، عن أبى هريرة ، قال :قال رسول الله ﷺ : « مُعْتَرك المنايا ما بين الستين إلى السبعين » .

وبه قال : قال رسول الله ﷺ : « أقل أمتى أبناء سبعين » . إسناده ضعيف [(٢)] .

حديث آخر فى معنى ذلك : قال [(٣)] الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده :

حدثنا إبراهيم بن هانئ ، حدثنا إبراهيم بن مهدى ، حدثنا عثمان بن مطر ، عن أبى مالك ، عن رِبْعِى عن حذيفة أنه قال : يا رسول الله ، أنبئنا بأعمار أمتك . قال : « ما بين الخمسين إلى الستين » . قالوا : يارسول الله ، فأبناء السبعين ؟ قال : « قل من يبلغها من أمتى ، رحم الله أبناء السبعين ،ورحم الله أبناء الثمانين » .

ثم قال البزار : لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد ، وعثمان بن مطر من أهل البصرة ليس بقوى [(٤)] .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثة وستين سنة . وقيل : ستين . وقيل : خمسا وستين سنة . والمشهور الأول ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ** ﴾ : روى عن ابن عباس ، وعِكْرِمة ، وأبى جعفر الباقر ، وقتادة ، وسفيان بن عُيَينة أنهم قالوا : يعنى: الشيب .

وقال السُّدِّى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى به الرسول ﷺ وقرأ ابن زيد : ﴿ **هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى** ﴾ [النجم : ٥٦] . وهذا هو الصحيح عن قتادة ، فيما رواه شيبان ، عنه أنه قال: احتج عليهم بالعمر والرسل .

وهذا اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر ؛ لقوله تعالى :﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُون . لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُون** ﴾ [الزخرف :٧٧، ٧٨]،أى:لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل،فأبيتم وخالفتم،وقال تعالى:﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولا** ﴾ [الإسراء: ١٥] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ **كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِير . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِير** ﴾ [الملك : ٨، ٩] .

وقوله :﴿ **فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ** ﴾ أى : فذوقوا عذابَ النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء فى مدة أعمالكم ، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ**

(١) فى ت : « وروى » .
(٢) مسند أبى يعلى (١١/ ٤٢٢، ٤٢٣) وفيه إبراهيم بن الفضل وهو متروك .
(٣) فى ت : « وروى » .
(٤) مسند البزار برقم (٣٥٨٦) « كشف الأستار » وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٠٦) : « وفيه عثمان بن مطر وهو ضعيف » .

خَلائفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا (٣٩) ﴾ .

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وتنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بعمله .

ثم قال : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ** ﴾ أى : يخلف قوم لآخرين قبلهم ، وجيل لجيل قبلهم ، كما قال : ﴿ **وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ** ﴾ [النمل : ٦٢] ﴿ **فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ** ﴾ ، أى : فإنما يعود وبال ذلك (١) على نفسه (٢) دون غيره ، ﴿ **وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا** ﴾ ، أى: كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحَسُن عمله ، ارتفعت درجته ومنزلته فى الجنة ، وزاد أجره ، وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين ، [فسبحان المقدر المدبر رب العالمين] (٣) .

﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)** ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ **أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ، ﴿ **أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ** ﴾ أى : ليس لهم شىء من ذلك ، ما يملكون من قطمير .

وقوله : ﴿ **أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ** ﴾ أى : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولون من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك ، ﴿ **بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا** ﴾ أى : بل إنما اتبعوا فى ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التى تمنوها لأنفسهم ، وهى غرور وباطل وزور .

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التى بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما ، فقال : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا** ﴾ أى : أن تضطربا عن أماكنهما ، كما قال : ﴿ **وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾ [الحج : ٦٥] ، وقال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ** ﴾ [الروم : ٢٥] ﴿ **وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ** ﴾ ، أى : لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حليم غفور ، أى : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم (٤) فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يَعجَل، ويستر آخرين ويغفر ؛ ولهذا قال : ﴿ **إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾ .

---

(١) فى ت ، س ، أ : « وبال كفره ذلك » .
(٢) فى ت : « وعليه » .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى ت ، أ : « يحلم عنهم » .

وقد أورد ابن أبى حاتم هاهنا حديثا غريبا بل منكراً ، فقال : حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنى هشام بن يوسف ، عن أمية بن شبل ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، عن (١) أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى ، عليه السلام (٢) ، على المنبر قال : « وقع فى نفس موسى ، عليه السلام : هل ينام الله ،عز وجل ، فأرسل الله إليه ملكا ، فأرقه ثلاثا (٣) ، وأعطاه قارورتين ، فى كل يد قارورة،وأمره أن (٤) يحتفظ بهما. قال: فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان،ثم يستيقظ فيحبس إحداهما (٥) عن الأخرى،حتى نام نومه، فاصطفقت يداه فتكسَّرَت القارورتان. قال: ضرب الله له مثلا: إن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض » (٦) .

والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع ، بل من الإسرائيليات المنكرة ؛ فإن موسى ، عليه السلام، أجَلّ من أن يُجوِّز على الله ،سبحانه وتعالى،النوم،وقد أخبر الله تعالى فى كتابه العزيز بأنه: ﴿ **الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ [البقرة : ٢٥٥]. وثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسْط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل،حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (٧) .

وقد قال أبو جعفر بن جرير (٨) : حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى وائل قال : جاء رجل إلى عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ فقال : من أين جئت ؟ قال : من الشام . قال : من لقيت ؟ قال : لقيت كعبا . قال: ما حدثك كعب ؟ قال : حدثنى أن السموات تدور على منْكَب مَلَك . قال : أفصدقته أو كذبته ؟ قال : ما صدقته ولا كذبته . قال : لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحلتك ورَحْلها ، كَذَبَ كعب . إن الله تعالى يقول : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ (٩) .

وهذا إسناد صحيح إلى كعب وإلى ابن مسعود . ثم رواه ابن جرير عن ابن حميد ، عن جرير، عن مغيرة ، عن إبراهيم قال : ذهب جُنْدَب البَجَلى إلى كعب بالشام ، فذكر نحوه (١٠) . وقد رأيت فى مصنف الفقيه (١١) يحيى بن إبراهيم بن مُزَين الطليطلى ، سماه « سير الفقهاء » ، أورد هذا الأثر عن محمد بن عيسى بن الطَّبَّاع ، عن وكيع ، عن الأعمش ، به . ثم قال : وأخبرنا زونان ـ يعنى : عبد الملك بن الحسن ـ عن ابن وهب ، عن مالك أنه قال : السماء لا تدور . واحتج بهذه الآية ، وبحديث : « إن بالمغرب بابا للتوبة لا يزال مفتوحا حتى تطلع الشمس منه » .

(١) فى ت : « بسنده إلى أبى هريرة» . (٢) فى ت : « ﷺ» . (٣) فى ت : « ثلثا » .
(٤) فى ت : « بأن » . (٥) فى س : « أحدهما » .
(٦) ورواه أبو يعلى فى مسنده (١٢/ ٢١) من طريق إسحاق بن إبراهيم ، به ، وسبق أيضا تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة .
(٧) صحيح مسلم برقم (١٧٩) وليس فى صحيح البخارى ، فإن الحافظ ذكره عند تفسير الآية : ٢٥٥ من سورة البقرة فقال : « وفى الصحيح هكذا بالإفراد » .
(٨) فى ت : « وروى ابن جرير » .
(٩) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٤) .
(١٠) تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٥) .
(١١) فى س ، أ : « للفقيه » .

قلت : وهذا الحديث فى الصحيح (١) ، والله أعلم .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) ﴾ .

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم ، قبل إرسال الرسول إليهم : **﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾** أى : من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل . قاله الضحاك وغيره ، كقوله تعالى : **﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا (٢) لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾** [الأنعام : ١٥٦، ١٥٧] ، وكقوله تعالى : **﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ. لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ. فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾** [الصافات: ١٦٧ ــ ١٧٠] .

قال الله تعالى : **﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾** ــ وهو : محمد ﷺ ــ بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ، **﴿ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾** أى : ما ازدادوا (٣) إلا كفراً إلى كفرهم ، ثم بين ذلك بقوله: **﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ﴾** أى : استكبروا عن اتباع آيات الله ، **﴿وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾** أى : ومكروا بالناس فى صدّهم إياهم عن سبيل الله ، **﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾** ، [أى : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم (٤) أنفسهم دون غيرهم .

قال (٥) ابن أبى حاتم : ذكر على بن الحسين ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن أبى زكريا الكوفى عن رجل حدثه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إياك ومكر السيئ ، فإنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله] (٦) ، ولهم من الله طالب » (٧) ، وقد قال محمد بن كعب القُرَظى : ثلاث من فعلهن لم ينجُ حتى ينزل به من مكر أو بغى أو نكث ، وتصديقها فى كتاب الله : **﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾** ، **﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾** [يونس : ٢٣]، **﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾** [الفتح : ١٠].

وقوله : **﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾** يعنى : عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره (٨) ، **﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾** أى(٩): لا تغير ولا تبدل ، بل هى جارية كذلك فى كل

---

(١) لم أعثر على الحديث فى الصحيحين ، وهو فى سنن الترمذى برقم (٣٥٣٦) وصحيح ابن خزيمة برقم (١٩٣) والمسند للإمام أحمد (٤/ ٢٤٠) ما يوافق ذلك من حديث صفوان بن عسال، رضى الله عنه ، ولفظه عند ابن خزيمة : « إن بالمغرب باباً مفتوحاً للتوبة مسيرته سبعون سنة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها » نحوه .

(٢) فى ت : « أو يقولوا » . (٣) فى ت : « ما زادوهم » . (٤) فى ت : « على » .

(٥) فى ت : « روى » . (٦) زيادة من ت ، س ، أ .

(٧) وهذا مرسل ولم أجد من أخرجه غير ابن أبى حاتم ، وقد روى ابن المبارك فى الزهد برقم (٧٢٥) عن الزهرى مرسلاً نحوه .

(٨) فى ت : « على تكذيبهم أمره ومخالفتهم رسله » . (٩) فى ت : « يعنى » .

مكذب ،﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ أى : ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ ﴾ [الرعد :١١]، ولا يكشف ذلك عنهم ، ويحوله عنهم أحد .

﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة : سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل ؟ كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فَخُلِّيَتْ منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النِّعَم بعد كمال القوة ، وكثرة العدد والعُدَد ، وكثرة الأموال والأولاد ، فما أغنى ذلك شيئا ، ولا دفع (١) عنهم من عذاب الله من شيء ، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شيء ، إذا أراد كونه فى السموات والأرض ؟ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أى : عليم بجميع الكائنات ، قدير على مجموعها .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أى : لو آخذهم (٢) بجميع ذنوبهم ، لأهلك جميع أهل الأرض ، وما يملكونه من دواب وأرزاق .

قال (٣) ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن عبد الله قال : كاد الجُعَلُ أن يعذب فى جُحْره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾.

وقال سعيد بن جبير ، والسُّدىّ فى قوله : ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ أى : لما سقاهم المطر، فماتت جميع الدواب .

﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى : ولكن يُنْظِرهُم إلى يوم القيامة ، فيحاسبهم يومئذ ، ويوفى كل عامل بعمله ، فيجازى بالثواب أهلَ الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ .

آخر تفسير سورة « فاطر » ولله الحمد والمنة

---

(١) فى ت ، س : « ولا يدفع » .

(٢) فى ت ، أ : « يؤاخذهم ».

(٣) فى ت : « روى » .

تفسير سورة يس

[وهى] (١) مكية .

قال أبو عيسى الترمذى : حدثنا قتيبة وسفيان بن وَكيع ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن الرُّؤاسى ، عن الحسن بن صالح ، عن هارون أبى محمد ، عن مقاتل بن حيان ، عن قتادة (٢) ، عن أنس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن لكل شىء قلبا ، وقلب القرآن يس . ومن قرأ يس كَتَب اللّه له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » .

ثم قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حُميد بن عبد الرحمن . وهارون أبو محمد شيخ مجهول . وفى الباب عن أبى بكر الصديق ، رضى اللّه عنه ، ولا يصح لضعف إسناده ، وعن أبى هريرة منظور فيه (٣) .

أما حديث الصديق فرواه الحكيم الترمذى فى كتابه نوادر الأصول(٤) . وأما حديث أبى هريرة فقال(٥) أبو بكر البزار : حدثنا عبد الرحمن بن الفضل ،حدثنا زيد ـ هو ابن الحباب ـ حدثنا حُميد ـ هو المكى ، مولى آل علقمة ـ عن عطاء ـ هو ابن أبى رباح ـ عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ: « إن لكل شىء قلبا ، وقلب القرآن يس » .

ثم قال : لا نعلم رواه إلا زيد ، عن حميد (٦) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل ، حدثنا حجاج بن محمد ، عن هشام بن زياد ، عن الحسن قال : سمعت أبا هريرة يقول (٧) : قال رسول اللّه ﷺ : « من قرأ يس فى ليلة أصبح مغفوراً له . ومن قرأ : « حم » التى فيها الدخان أصبح مغفوراً له » . إسناد (٨) جيد (٩) .

وقال (١٠) ابن حبان فى صحيحه : حدثنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم ـ مولى ثقيف ـ حدثنا الوليد بن شجاع بن الوليد السكونى ، حدثنا أبى ، حدثنا زياد بن خَيْثَمة، حدثنا محمد بن جُحَادة ،

---

(١) زيادة من ت ، س ، أ . (٢) فى ت : « روى أبو عيسى الترمذى بإسناده » .

(٣) سنن الترمذى برقم (٢٨٨٧) وقال ابن أبى حاتم فى العلل (٢/٥٦) بعد ما ذكر الحديث : « قال أبى : مقاتل هذا هو مقاتل بن سليمان رأيت هذا الحديث فى أول كتاب وضعه مقاتل وهو حديث باطل لا أصل له . قلت لأبى : مقاتل أدرك قتادة ؟ قال : وأكبر من قتادة أبو الزبير » .

(٤) نوادر الأصول ص (٣٣٥) ورواه ابن الضريس فى فضائل القرآن برقم (٢١٧) والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (٢٤٦٥) وابن الجوزى فى الموضوعات (١/ ٢٤٧) من طرق عن إسماعيل بن أبى أويس عن محمد بن عبد الرحمن الجدعانى عن سليمان بن مرقاع عن هلال ابن الصلت عن أبى بكر ، رضى اللّه عنه . وقال ابن الجوزى : « هذا الحديث من جميع طرقه باطل لا أصل له » .

(٥) فى ت : « وروى » .

(٦) مسند البزار برقم (٢٣٠٤) « كشف الأستار » .

(٧) فى ت : « وروى الحافظ أبو يعلى عن أبى هريرة قال » . (٨) فى ت : « إسناده » .

(٩) مسند أبى يعلى (١١/ ٩٣) وفى إسناده هشام بن زياد ضعفه الأئمة ، وقال ابن حبان : « كان ممن يروى الموضوعات عن الثقات ، والمقلوبات عن الأثبات حتى يسبق إلى قلب المستمع أنه كان المعتمد لها ، لا يجوز الاحتجاج به » . والحسن لم يسمع من أبى هريرة ، وانظر التعليق على أبى يعلى عند قوله : « سمعت » .

(١٠) فى ت ، أ : « وروى » .

عن الحسن ، عن جُنْدَب بن (١) عبد اللّه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه اللّه ، غفر له » (٢) .

وقد قال (٣) الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا معتمر ، عن أبيه ، عن رجل ، عن أبيه ، عن معقل بن يَسَار ، رضى اللّه عنه ، أن رسول اللّه ﷺ قال : « البقرة سنام القرآن وذِرْوَته ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا، واستخرجت ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّوم﴾ [البقرة : ٢٥٥] من تحت العرش فوصلت بها ـ أو : فوصلت بسورة البقرة ـ ويس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد اللّه والدار الآخرة ، إلا غفر له ، واقرؤوها على موتاكم » .

وكذا رواه النسائى فى «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى ،عن معتمر بن سليمان ، به (٤).

ثم قال الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا سليمان التيمى ، عن أبى عثمان ـ وليس بالنهدى ـ عن أبيه ، عن مَعْقِل بن يَسَار قال : قال رسول اللّه ﷺ :« اقرؤوها على موتاكم » ـ يعنى : يس .

ورواه أبو داود ، والنسائى فى « اليوم والليلة » وابن ماجه من حديث عبد اللّه بن المبارك ، به(٥) إلا أن فى رواية النسائى : عن أبى عثمان ، عن معقل بن يسار .

ولهذا قال بعض العلماء : من خصائص هذه السورة : أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره اللّه . وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة ، وليسهل (٦) عليه خروج الروح ، واللّه أعلم .

قال الإمام أحمد ، رحمه اللّه : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان قال : كان المشيخة يقولون : إذا قرئت ـ يعنى يس ـ عند الميت خُفِّف عنه بها (٧) .

وقال (٨) البزار : حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان ، عن أبيه ، عن عكرِمة ، عن ابن عباس قال : قال النبى(٩) ﷺ : « لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » ـ يعنى: يس (١٠) .

---

(١) فى أ : « عن » .
(٢) صحيح ابن حبان برقم (٦٦٥) « موارد » والحسن لم يسمع من جندب ، قاله أبو حاتم .
(٣) فى ت : « وروى » .
(٤) المسند (٥/ ٢٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩١٤) وقد أعله ابن القطان كما فى التلخيص لابن حجر (٢/ ١٠٤) بثلاث علل : الاضطراب فى الإسناد ، وبالوقف ، وبجهالة حال أبى عثمان وأبيه . ثم نقل عن الدارقطنى قوله : « هذا حديث ضعيف الإسناد ، مجهول المتن ، ولا يصح فى الباب حديث » .
(٥) المسند (٥/ ٢٦) وسنن أبى داود برقم (٣١٢١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩١٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٤٤٨) .
(٦) فى ت ، س : « ولتسهل » .
(٧) المسند (٤/ ١٠٥) .
(٨) فى ت : « وروى » .
(٩) فى ت : « رسول اللّه » .
(١٠) مسند البزار برقم (٢٣٠٥) « كشف الأستار » .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يسٓ ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ④ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ⑤ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ⑥ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ⑦ ﴾ .

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول « سورة البقرة » : ورُوى عن ابن عباس وعِكْرِمة ، والضحاك ، والحسن وسفيان بن عُيينة [1] أن « يس » بمعنى : يا إنسان .

وقال سعيد بن جبير : هو كذلك فى لغة الحبشة .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو اسم من أسماء اللّه تعالى .

﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ أى : المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ﴿إِنَّكَ﴾ يامحمد ﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أى: على منهج ودين قويم ، وشرع مستقيم ، ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ أى : هذا الصراط والمنهج والدين الذى جئت به مُنَزَّل من رب العزة ، الرحيم بعباده المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] .

وقوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ يعنى بهم : العرب ؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله . وذكرهم وحدهم لا ينفى من عداهم [كما زعمه بعض النصارى] [2] ، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفى العموم . وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة فى عموم بعثته ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، عند قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨].

وقوله : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ ﴾ : قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن [اللّه قد][3] حتم عليهم فى أم الكتاب أنهم لا يؤمنون، ﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُون ﴾ باللّه، ولا يصدقون رسله.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ⑧ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ⑨ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ⑩ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ⑪ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ⑫ ﴾ .

يقول تعالى : إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جُعِل فى عنقه غُل، فجمَع يديه مع عنقه تحت ذقنه ، فارتفع رأسُه ، فصار مقمَحا ؛ ولهذا قال: ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ ، والمقمح : هو الرافع رأسه ، كما قالت أم زرْع فى كلامها : « وأشرب فأتقمَّح » أى :

(١) فى ت : « وعكرمة وغيرهما » . (٢) زيادة من أ . (٣) زيادة من ت ، س .

أشرب فأروى ، وأرفع رأسى تهنيئا وتَرَوِّيا . واكتفى بذكر الغل فى العنق عن ذكر اليدين ، وإن كانتا مرادتين ، كما قال الشاعر [(١)] :

فَمَا أدْرى إذَا يَمَّمْتُ أرْضـا أريـد الخَيْـرَ أيّـهما يَـليـنى

أألْخَيرُ الـذى أنـَا أبْتَـغـيـه أم الشَّرّ الـذى لا يَـأتَـليـنى

فاكتفى بذكر الخير عن ذكر الشر لَمَّا دل السياق والكلام عليه [(٢)] ، وكذا هذا ، لما كان الغُلّ إنما يعرف فيما جَمَعَ اليدين مع العنق ، اكتفى بذكر العنق عن اليدين .

قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله :﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ** ﴾ قال :هو كقول الله [(٣)] تعالى : ﴿ **وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ** ﴾ [الإسراء : ٢٩] يعنى بذلك : أن أيديهم موثقة [(٤)] إلى أعناقهم ، لا يستطيعون أن يبسطوها بخير .

وقال مجاهد : ﴿ **فَهُم مُّقْمَحُونَ** ﴾ قال : رافعو[(٥)] رؤوسهم ، وأيديهم موضوعة على أفواههم ، فهم مغلولون عن كل خير .

وقوله : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا** ﴾ :قال مجاهد : عن الحق ، ﴿ **وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا** ﴾ قال مجاهد : عن الحق ، فهم يترددون . وقال قتادة : الضلالات .

وقوله : ﴿ **فَأَغْشَيْنَاهُم** ﴾ أى : أغشينا أبصارهم عن الحق ، ﴿ **فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾ أى : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه .

قال ابن جرير : وروى عن ابن عباس أنه كان يقرأ : « فأعشيناهم » بالعين المهملة ، من العشا وهو داء فى العين .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : جعل الله هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان ، فهم لا يخلصون إليه ، وقرأ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ** ﴾ [يونس : ٩٦، ٩٧] ثم قال : من منعه الله لا يستطيع .

وقال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيتُ محمداً لأفعلن ولأفعلن ، فأنزلت : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً** ﴾ إلى قوله : ﴿ [**فَهُمْ**] [(٦)] **لا يُبْصِرُونَ** ﴾ ، قال : وكانوا يقولون : هذا محمد . فيقول: أين هو ؟ أين هو ؟ لا يبصره . رواه ابن جرير .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب قال : قال أبو جهل وهم جلوس : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه[(٧)] كنتم ملوكا ، فإذا متم [(٨)] بعثتم بعد موتكم ، وكانت لكم جنانٌ خير من جنان الأرْدُنَ . وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تُعذّبون بها .وخرج [عليهم] [(٩)] رسول الله ﷺ عند ذلك،وفى يده حفنة من تراب، وقد أخذ الله على أعينهم دونه ، فجعل يذُرّها على رؤوسهم ، ويقرأ : ﴿ **يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ** ﴾

(١) البيت فى تفسير الطبرى (٢٢/ ٩٨) .
(٢) فى ت : « لما دل عليه السياق » .
(٣) فى ت : « كقوله » .
(٤) فى ت : « موثوقة » .
(٥) فى ت ، س : « رافعى » .
(٦) زيادة من ت ، أ .
(٧) فى ت : « بايعتموه » .
(٨) فى ت : « أنتم » .
(٩) زيادة من أ .

حتى انتهى إلى قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته ، وباتوا رُصَداء على بابه ، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار ، فقال: ما لكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً . قال : قد خرج عليكم ، فما بقى منكم من رجل إلا [قد] (١) وضع على رأسه ترابا ، ثم ذهب لحاجته . فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب . قال : وقد بلغ النبىّ ﷺ قول أبى (٢) جهل فقال : « وأنا أقول ذلك : إن لهم منى لذبحا ، وإنه أحدهم » .

وقوله : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : قد ختم الله عليهم بالضلالة ، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به .

وقد تقدم نظيرها فى أول سورة البقرة (٣) ، وكما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ أى : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ، وهو القرآن العظيم ، ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ ﴾ أى : حيث لا يراه أحد إلا الله ، يعلم أن الله مطلع عليه ، وعالم بما يفعله ، ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أى : لذنوبه ، ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : كبير واسع حسن جميل ، كما قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك : ١٢] .

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ أى: يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيى قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة ، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ، كما قال بعد ذكر قسوة القلوب: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد: ١٧].

وقوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ أى : من الأعمال .

وفى قوله : ﴿ وَآثَارَهُمْ ﴾ قولان :

أحدهما : نكتب أعمالهم التى باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التى أثروها من بعدهم ، فنجزيهم على ذلك أيضاً ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كقوله ﷺ : « من سن فى الإسلام سنة حسنة ، كان له أجرها وأجر من عمل (٤) بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » .

رواه مسلم ، من رواية شعبة ، عن عون بن أبى جُحَيفة ، عن المنذر بن جرير ، عن أبيه جرير بن عبد الله البجلى ، رضى الله عنه ، وفيه قصة مُجْتَابى النِّمار المُضَرِيِّين (٥) . ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه ، عن يحيى بن سليمان الجعفى ، عن أبى المحياة يحيى بن يَعْلَى ، عن عبد الملك بن عمير ، عن جرير بن عبد الله ، فذكر الحديث بطوله ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾ .

وقد رواه مسلم من رواية أبى عَوَانة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن المنذر بن جرير ، عن أبيه ، فذكره (٦) .

---

(١) زيادة من أ .
(٢) فى ت : « قول أبا » وهو خطأ .
(٣) عند تفسير الآية السادسة .
(٤) فى أ : « يعمل » .
(٥، ٦) صحيح مسلم برقم (١٠١٧) .

وهكذا الحديث الآخر الذى فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا مات ابن آدم ، انقطع عمله إلا من ثلاث : من علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده » (١) .

وقال سفيان الثورى ، عن أبى سعيد قال : سمعت مجاهداً يقول فى قوله (٢) : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم** ﴾ قال : ما أورثوا من الضلالة .

وقال ابن لَهِيعة ، عن عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم** ﴾ يعنى : ما أثرُوا . يقول : ما سَنوا من سنة ، فعمل (٣) بها قوم من بعد موتهم ، فإن كان خيرا فله مثل أجورهم ، لا ينقص من أجر من عمله شيئاً ، وإن كانت شراً فعليه مثل أوزارهم ، ولا ينقص من أوزار من عمله شيئاً . ذكرهما ابن أبى حاتم .

وهذا القول هو اختيار البَغَوِىّ (٤) .

والقول الثانى : أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية .

قال ابن أبى نَجِيح وغيره ، عن مجاهد : ﴿ **مَا قَدَّمُوا** ﴾ : أعمالهم . ﴿ **وَآثَارَهُم** ﴾ قال : خطاهم بأرجلهم . وكذا قال الحسن وقتادة : ﴿ **وَآثَارَهُم** ﴾ يعنى : خطاهم . قال قتادة : لو كان اللّه تعالى (٥) مغفلاً شيئاً من شأنك يا بن آدم ، أغفل ما تعفى الرياح من هذه الآثار ، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله ، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة اللّه أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره فى طاعة اللّه ، فليفعل .

وقد وَرَدت فى هذا المعنى أحاديث :

الحديث الأول : قال (٦) الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا أبى ، حدثنا الجُرَيرى ، عن أبى نَضْرة ، عن جابر بن عبد اللّه قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول اللّه ﷺ ، فقال لهم : « إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد». قالوا : نعم ، يا رسول اللّه ، قد أردنا ذلك . فقال : « يا بنى سلمة ، دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم » .

وهكذا رواه مسلم ، من حديث سعيد الجريرى وكَهْمس بن الحسن ، كلاهما عن أبى نضرة ـ واسمه : المنذر بن مالك بن قطْعَة العَبْدى ـ عن جابر (٧) .

الحديث الثانى : قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن الوزير الواسطى ، حدثنا إسحاق الأزرق ، عن سفيان الثورى ، عن أبى سفيان ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد الخدرى قال : كانت بنو سلَمة فى ناحية من المدينة، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد، فنزلت: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ**

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٦٣١) .

(٢) فى ت : « وعن مجاهد فى قوله » .

(٣) فى أ : « يعمل » .

(٤) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٩) .

(٥) فى ت ، س ، أ : « عز وجل » .

(٦) فى ت : « رواه » .

(٧) المسند (٣/ ٣٣٢) وصحيح مسلم برقم (٦٦٥) .

مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم ﴾ فقال لهم النبى ﷺ : « إن آثاركم تكتبُ » . فلم ينتقلوا .

انفرد بإخراجه الترمذى (١) عند تفسير هذه الآية الكريمة ،عن محمد بن الوزير ، به (٢) . ثم قال: « حسن غريب من حديث الثورى » (٣) .

ورواه ابن جرير ، عن سليمان بن عمر بن خالد الرقى ، عن ابن المبارك ، عن سفيان الثورى ، عن طريف ـ وهو ابن شهاب أبو سفيان السعدى ـ عن أبى نضرة ، به (٤) .

وقد رُوِىَ من غير طريق الثورى ، فقال الحافظ أبو بكر البزار :

حدثنا عباد بن زياد الساجى ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن سعيد الجُريرى ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد قال : إن بنى سلَمة شكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد ، فنزلت : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم ﴾ ، فأقاموا فى مكانهم .

وحدثنا ابن المثنى (٥) ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا الجَريرى ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ ، بنحوه .

وفيه غرابة من حيثُ ذكْرُ نزول هذه الآية ، والسورة بكمالها مكية ، فالله أعلم .

الحديث الثالث : قال ابن جرير :

حدثنا نصر بن على الجَهْضَمى ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، حدثنا إسرائيل ، عن سماك ، عن عكْرمة ، عن (٦) ابن عباس قال : كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى المَسجد ، فنزلت : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم ﴾ ، فقالوا : نثبت مكاننا . هكذا رواه وليس فيه شىء مرفوع (٧) .

ورواه الطبرانى عن عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم ، عن محمد بن يوسف الفريابى ، عن إسرائيل ، عن سمَاك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد ، فأرادوا أن يتحولوا إلى المسجد ، فنزلت : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُم ﴾ ،فثبتوا فى منازلهم (٨) .

الحديث الرابع : قال (٩) الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنى حُيَىّ بن عبدالله ،عن أبى عبد الرحمن الحُبلى ، عن عبد الله بن عمرو قال : توفى رجل بالمدينة ، فصلى عليه النبى ﷺ وقال : « يا ليته مات فى غير مولده » . فقال رجل من الناس : ولم يا رسول الله ؟ فقال رسول الله (١٠) ﷺ : « إن الرجل إذا توفى فى غير مولده ، قيس له من مولده إلى منقطع أثره

(١) فى أ : « مسلم » .
(٢) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٦) .
(٣) فى ت : « أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن غريب » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ١٠٠) .
(٥) فى س ، أ : « وحدثناه محمد بن المثنى » .
(٦) فى ت : « رواه ابن جرير بإسناده إلى » .
(٧) تفسير الطبرى (٢٢/ ١٠٠) .
(٨) المعجم الكبير (١٢/ ٨) وشيخه عبد الله بن محمد بن سعيد بن أبى مريم ضعيف .
(٩) فى ت : « رواه » .
(١٠) فى ت ، س : « النبى » .

فى الجنة » .

ورواه النسائى عن يونس بن عبد الأعلى ، وابن ماجه عن حرملة ، كلاهما عن ابن وهب ، عن حيى بن [1] عبد الله ، به [2] .

وقال [3] ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا أبو تُمَيْلَةَ ، حدثنا الحسين ، عن ثابت قال : مشيت مع أنس فأسرعت المشى ، فأخذ بيدى فمشينا رويداً ، فلما قضينا الصلاة قال أنس : مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشى ، فقال : يا أنس ، أما شَعَرتَ أن الآثار تكتب ؟ أما شَعَرتَ أن الآثار تكتب ؟ [4] .

وهذا القول لا تنافى بينه وبين الأول ، بل فى هذا تنبيه ودلالة على ذلك [5] بطريق الأولى والأحرى ، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكتَب ، فلأن تُكتَبَ تلك التى فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾ أى : جميع الكائنات مكتوب فى كتاب مسطور مضبوط فى لوح محفوظ ، والإمام المبين هنا هو أم الكتاب . قاله مجاهد ، وقتادة ، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم ، وكذا فى قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ** ﴾ [الإسراء : ٧١] أى : بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير وشر ، كما قال تعالى : ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ** ﴾ [الزمر : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ٤٩] .

﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧)** ﴾ .

يقول تعالى : واضرب ـ يا محمد ـ لقومك الذين كذبوك ﴿ **مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ** ﴾ .

قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه ـ : إنها مدينة أنطاكية، وكان بها ملك يقال له : انطيخس بن انطيخس بن انطيخس ، وكان يعبد الأصنام ، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل ، وهم : صادق وصدوق وشلوم [6] ، فكذبهم .

---

(١) فى أ : « عن » .

(٢) المسند (٢/ ١٧٧) وسنن النسائى (٤/ ٧) وسنن ابن ماجة برقم (١٦١٤) .

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٢/ ١٠٠) .

(٥) فى أ : « ذاك » .

(٦) فى ت : « وشكوم » .

وهكذا روى عن بُرَيدة بن الحُصَيب ، وعِكْرِمة ، وقتادة ، والزهرى : أنها أنطاكية .

وقد استشكل بعضُ الأئمة كونَها أنطاكية ، بما سنذكره بعد تمام القصة ، إن شاء الله تعالى .

وقوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أى : بادروهما بالتكذيب ، ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ ،أى: قويناهم [1] وشددنا أزرهما برسول ثالث .

قال ابن جُرَيْج ، عن وهب بن سليمان ، عن شعيب الجبائى قال : كان اسم الرسولين الأولين شمعون ويوحنا ، واسم الثالث بولص ، والقرية أنطاكية .

﴿فَقَالُوا﴾ أى : لأهل تلك القرية : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ أى : من ربكم الذى خلقكم ، نأمركم بعبادته وحده لا شريك له . قاله أبو العالية .

وزعم قتادة بن دعامة : أنهم كانوا رسل المسيح ، عليه السلام ، إلى أهل أنطاكية . ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أى : فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر ، فلم لا أوحىَ إلينا مثلكم ؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة . وهذه شبه [2] كثير من الأمم المكذبة ، كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن :٦] ، فاستعجبوا [3]من ذلك وأنكروه . وقوله : ﴿ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم : ١٠] . وقوله حكاية عنهم فى قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون : ٣٤] ، ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ ؟ [الإسراء : ٩٤] . ولهذا قال هؤلاء : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ. قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ أى : أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين : الله يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كَذَبَة عليه لانتقم منا أشد الانتقام، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ[4] وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٢] .

﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ : يقولون : إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإن أطعتم كانت لكم السعادة فى الدنيا والآخرة ، وإن لم تجيبوا فستعلمون غبّ ذلك ، والله أعلم .

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) ﴾ .

فعند ذلك قال لهم أهل القرية : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُم ﴾ أى : لم نر على وجوهكم خيراً فى عيشنا .

وقال قتادة : يقولون : إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم .

وقال مجاهد : يقولون : لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها .

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ : قال قتادة : بالحجارة . وقال مجاهد : بالشتم .

---

(١) فى ت : « قويناهما بثالث » . (٢) فى ت ، س : « شبهة » . (٣) فى ت ، س : « أى استعجبوا » .

(٤) فى ت ، س ، أ ، هـ : « يعلم ما فى السموات وما فى الأرض » والصواب ما أثبتناه .

﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى :عقوبة شديدة . فقالت لهم رسلهم : ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُم ﴾ أى: مردود عليكم ، كقوله تعالى فى قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾[الأعراف : ١٣١] ، وقال قوم صالح (١) : ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾[النمل : ٤٧] . وقال قتادة ، ووهب بن منبه : أى أعمالكم معكم . وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[النساء : ٧٨] .

وقوله : ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أى : من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له ، قابلتمونا بهذا الكلام ، وتوعدتمونا وتهددتمونا ؟ بل أنتم قوم مسرفون .

وقال قتادة : أى إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ، بل أنتم قوم مسرفون .

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لايَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) ﴾ .

قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس وكعب الأحبار ووهب بن منبه ـ : إن أهل القرية هَمّوا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى ، أى : لينصرهم من قومه ـ قالوا : وهو حبيب ، وكان يعمل الجرير ـ وهو (٢) الحبال ـ وكان رجلا سقيما(٣) قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثير الصدقة، يتصدق بنصف كسبه ، مستقيم النظرة (٤) .

وقال ابن إسحاق عن رجل سماه ، عن الحكم ، عن مِقْسَم ـ أو : عن مجاهد ـ عن ابن عباس قال: [كان] (٥) اسم صاحب يس حبيب ، وكان الجذام قد أَسرع فيه .

وقال الثورى ، عن عاصم الأحول ، عن أبى مجْلَز : كان اسمه حبيب بن مرى .

وقال شبيب بن بشر (٦) ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس [أيضا](٧) قال : اسم صاحب يس حبيب النجار ، فقتله قومه .

وقال السدى : كان قَصَّارا . وقال عمر بن الحكم : كان إسكافا . وقال قتادة : كان يتعبد فى غار هناك .

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ : يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ، ﴿ اتَّبِعُوا مَن لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أى : على إبلاغ الرسالة ، ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فيما يدعونكم إليه ، من عبادة الله وحده لا شريك له .

---

(١) فى ت ، س : « لوط » وفى أ : « شعيب » . (٢) فى ت ، س ، أ : « يعنى » . (٣) فى أ : « مستقيما » .
(٤) فى أ : « الفطرة » . (٥) زيادة من ت ، س . (٦) فى أ : « بشير » .
(٧) زيادة من ت .

﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أى : وما يمنعنى من إخلاص العبادة للذى خلقنى وحده لا شريك له ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم المعاد ، فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شراً فشر.

﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ ؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ، ﴿ إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ أى : هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئا ، فإن اللّه لو أرادنى بسوء ، ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ [يونس : ١٠٧] . وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ، ولا ينقذوننى مما أنا فيه ، ﴿ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : إن اتخذتها آلهة من دون اللّه.

وقوله : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ : قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب ـ يقول لقومه : ﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذى كفرتم به ، ﴿ فَاسْمَعُونِ ﴾ أى :فاسمعوا قولى .

ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله :﴿ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أى :الذى أرسلكم ، ﴿ فَاسْمَعُونِ ﴾ أى : فاشهدوا لى بذلك عنده . وقد حكاه ابن جرير فقال : وقال آخرون : بل خاطب بذلك الرسل، وقال لهم : اسمعوا قولى ، لتشهدوا لى بما أقول لكم عند ربى ، إنى [قد] (١) آمنت بربكم واتبعتكم (٢) .

وهذا [القول] (٣) الذى حكاه هؤلاء أظهر فى المعنى ، واللّه أعلم .

قال ابن إسحاق ـ فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب ـ : فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ، ولم يكن له أحد يمنع عنه .

وقال قتادة : جعلوا يرجمونه بالحجارة ، وهو يقول : « اللهم ، اهد قومى ، فإنهم لا يعلمون». فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك ، فقتلوه ، رحمه اللّه .

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) ﴾ .

قال محمد بن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عن ابن مسعود : إنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُه من دبره وقال اللّه له : ﴿ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ ، فدخلها فهو يرزق منها ، قد أذهب اللّه عنه سُقْم الدنيا وحزنها ونَصَبها .

وقال مجاهد : قيل لحبيب النجار : ادخل الجنة . وذلك أنه قُتل فوجبت له (٤) ، فلما رأى الثواب ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحا ، لا تلقاه غاشا ؛ لَمَّا عاين [ما عاين] (٥) من كرامة اللّه

(١) زيادة من ت .
(٢) تفسير الطبرى (٢٢/١٠٤).
(٣) زيادة من ت . (٤) فى ت ، س ، أ : « له الجنة » . (٥) زيادة من ت ، أ .

﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُون . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِين﴾ . تمنى على اللّه أن يعلم قومه ما عاين من كرامة اللّه [له] (١) ، وما هجم عليه .

وقال ابن عباس : نصح قومه فى حياته بقوله : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِين ﴾ [يس : ٢٠] ، وبعد مماته فى قوله: ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُون . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِين ﴾ . رواه ابن أبى حاتم .

وقال سفيان الثورى ، عن عاصم الأحول ، عن أبى مِجْلَز : ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِين ﴾ : بإيمانى بربى ، وتصديقى المرسلين .

ومقصوده أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحمه اللّه ورضى عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه .

قال (٢) ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عبيد اللّه ، حدثنا ابن جابر ـ وهو محمد ـ عن (٣) عبد الملك ـ يعنى : ابن عمير ـ قال : قال عروة بن مسعود الثقفى للنبى ﷺ : ابعثنى إلى قومى أدعوهم إلى الإسلام . فقال رسول اللّه ﷺ : « إنى أخاف أن يقتلوك » . فقال : لو وجدونى نائما ما أيقظونى . فقال له رسول اللّه ﷺ: « انطلق » . فانطلق فمر على اللات والعزى ، فقال : لأصبحَنَّك غدا بما يسوؤك . فغضبت ثقيف ، فقال : يا معشر ثقيف ، إن اللات لا لات ، وإن العُزى لا عُزى ، أسلموا تسلموا . يا معشر الأحلاف ، إن العزى لا عزى ، وإن اللات لا لات ، أسلموا تسلموا . قال ذلك ثلاث مرات ، فرماه رجل فأصاب أكْحَله فقتله ، فبلغ رسولَ اللّه ﷺ فقال :«هذا مثله كمثل صاحب يس ، ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُون . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِين ﴾ » (٤) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن مَعْمَر بن حَزم : أنه حدث عن كعب الأحبار : أنه ذكر له حبيب بن زيد بن عاصم ـ أخو بنى مازن بن النجار ـ الذى كان مسيلمة الكذاب قَطَّعه باليمامة ، حين جعل يسأله عن رسول اللّه ﷺ ، فجعل يقول : أتشهد أن محمدا رسول اللّه ؟ فيقول: نعم . ثم يقول : أتشهد أنى رسول اللّه ؟ فيقول : لا أسمع . فيقول له مسيلمة : أتسمع هذا ولا تسمع ذاك ؟ فيقول : نعم . فجعل يُقَطِّعه عضوا عضوا ، كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات فى يديه . فقال كعب حين قيل له : اسمه حبيب ، وكان واللّه صاحب يس اسمه حبيب (٥) .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنۢ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِين﴾ : يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه ، غضباً منه تعالى عليهم ؛ لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه . ويذكر تعالى : أنه ما أنزل عليهم ، وما احتاج فى إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك . قاله ابن مسعود ، فيما رواه ابن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عنه أنه قال فى قوله: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنۢ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِين ﴾ أى : ما كاثرناهم بالجموع الأمر

(١) زيادة من أ . (٢) فى ت : « روى » . (٣) فى أ : « بن » .

(٤) ورواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٦١٥) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٧/ ١٤٨) من طريق ابن لهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة ابن الزبير ، بنحوه . ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧/ ١٤٨) من طريق موسى بن عقبة ، عن الزهرى ، بنحوه . وقال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٨٦) : « وكلاهما مرسل ، وإسنادهما حسن » .

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٢/ ١٠٣) .

كان أيسر علينا من ذلك ، ﴿ إِن كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُون ﴾ ، قال : فأهلك اللّه ذلك الملك ، وأهلك أهل أنطاكية ، فبادوا عن وجه الأرض ، فلم يبق (١) منهم باقية .

وقيل : ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِين ﴾ أى : وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكناهم ، بل نبعث عليهم عذابا يدمرهم .

وقيل : المعنى فى قوله : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِه مِنْ بَعْدِه مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من رسالة أخرى إليهم . قاله مجاهد وقتادة . قال قتادة : فلا واللّه ما عاتب اللّه قومه بعد قتله ، ﴿ إِن كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُون ﴾ .

قال ابن جرير : والأول أصح ؛ لأن الرسالة لا تسمى جنداً .

قال المفسرون : بعث اللّه إليهم جبريل ، عليه السلام ، فأخذ بعضادتى باب بلدهم ، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم ، لم تبق بهم روح تتردد فى جسد .

وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هى أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلا من عند المسيح ، عليه السلام ، كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذى لم يذكر عن (٢) واحد من متأخرى المفسرين غيره ، وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل اللّه ، عز وجل ، لا من جهة المسيح ، كما قال تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُون ﴾ إلى أن قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُون . وَمَا عَلَيْنَا إِلا الْبَلاغُ الْمُبِين﴾ [يس : ١٤ ـ ١٧] . ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح ، عليه السلام ، واللّه أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ما أَنتُمْ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [يس : ١٥] .

الثانى : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ؛ ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتى فيهن بتَارِكة ، وهن القدس لأنها بلد المسيح ، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، والإسكندرية لأن فيها (٣) اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة (٤) والشمامسة والرهابين . ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم وأطَّدَه . ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها ، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية قد ذكر اللّه تعالى أنهم كذبوا رسله (٥) ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم (٦) ، فاللّه أعلم .

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدرى وغير واحد من السلف : أن اللّه تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، ذكروه عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ ﴾ [القصص : ٤٣] . فعلى هذا يتعين أن هذه القرية

(١) فى س : « تبق » .
(٢) فى أ : « غير » .
(٣) فى ت ، س : « منها » .
(٤) فى ت ، س : « القساقسة » .
(٥) فى ت : « رسلهم » .
(٦) فى ت ، س : « أخذتهم » .

المذكورة فى القرآن [العظيم] [١] قرية أخرى غير أنطاكية ، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا .أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظا فى هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك ، واللّه ، سبحانه وتعالى ، أعلم .

فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا الحسين بن إسحاق التُّسْتَرى ، حدثنا الحسين بن أبى السرى العسقلانى ، حدثنا حُسَين الأشقر ، حدثنا ابن عيينة ، عن ابن أبى نَجِيح ، عن مجاهد ، عن [٢] ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « السُّبَّق ثلاثة : فالسابق إلى موسى يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى صاحب يس ، والسابق إلى محمد على بن أبى طالب » [٣] ، فإنه حديث منكر ، لا يعرف إلا من طريق [٤] حسين الأشقر ، وهو شيعى متروك ، [واللّه أعلم] [٥] .

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾ .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ** ﴾ أى : يا ويل العباد .

وقال قتادة : ﴿ **يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ** ﴾ : أى يا حسرة العباد على أنفسها ، على ما ضيعت من أمر اللّه ، فرطت فى جنب اللّه . قال : وفى بعض القراءة : « يا حسرة [٦] العباد على أنفسها » .

ومعنى هذا : يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب ، كيف كذبوا رسل اللّه ، وخالفوا أمر اللّه ، فإنهم كانوا فى الدار الدنيا المكذبون منهم .

﴿ **مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ أى : يكذبونه ويستهزئون به ، ويجحدون ما أرسل به من الحق .

ثم قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ** ﴾ أى : ألم يتعظوا بمن أهلك اللّه قبلهم من المكذبين للرسل ، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفَجَرتهم من [٧] قولهم : ﴿ **إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا** ﴾ [المؤمنون : ٣٧] ، وهم القائلون بالدور من الدهرية ، وهم الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها ، فرد اللّه تعالى عليهم باطلهم ، فقال : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ** ﴾ أى : وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر

---

(١) زيادة من ت .
(٢) فى ت : « رواه الحافظ الطبرانى بإسناده إلى » .
(٣) المعجم الكبير (١١/٩٣) ورواه ابن مردوية فى تفسيره ، والعقيلى فى الضعفاء كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٣/١٦٢) من طريق حسين الأشقر ، به ، وأعله العقيلى بحسين الأشعرى كما ذكر الحافظ ابن كثير هنا وقال : « إنه شيعى متروك ولا يعرف هذا إلا منجهته، وهو حديث منكر » .
(٤) فى أ : « حديث » .
(٥) زيادة من ت ، س .
(٦) فى ت ، س ، أ : « حسرة على » .
(٧) فى أ : « مثل » .

للحساب يوم القيامة بين يدى الله ، عز وجل ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، ومعنى هذه كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [هود : ١١١].

وقد اختلف القراء فى أداء هذا الحرف ؛ فمنهم من قرأ : « وَإن كل لَمَا » بالتخفيف ، فعنده أن « إن » للإثبات ، ومنهم من شدد « لَمَّا » ، وجعل « إن » نافية ، و « لَمَّا » بمعنى « إلا » تقديره : وما كل إلا جميع لدينا محضرون ، ومعنى القراءتين واحد ، والله أعلم .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ ﴾ أى: دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ ﴾ أى : إذا كانت ميتة هامدة لا شيء فيها من النبات ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال : ﴿ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ أى : جعلناه رزقا لهم ولأنعامهم ، ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ أى : جعلنا فيها أنهاراً سارحة فى أمكنة ، يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره . لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع لهم عَطَف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها .

وقوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى:وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم، ولا بحولهم وقوتهم . قاله ابن عباس وقتادة ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ ؟ أى : فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التى لا تعد ولا تحصى ؟ واختار ابن جرير ـ بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالا ـ أن « ما » فى قوله : ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ بمعنى : « الذى » ، تقديره : ليأكلوا من ثمره ومما عملته أيديهم ، أى : غرسوه ونصبوه ، قال : وهى كذلك فى قراءة ابن مسعود ﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ ﴾ أى : من زروع وثمار ونبات . ﴿ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى ، ﴿ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : من مخلوقات شتى لا يعرفونها، كما قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ .

يقول تعالى : ومن الدلالة لهم على قدرته تعالى العظيمة خلق الليل والنهار ، هذا بظلامه وهذا

بضيائه ، وجعلهما يتعاقبان ، يجىء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجىء هذا ، كما قال : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف : ٥٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ أى: نصرمه منه فيذهب ، فيقبل الليل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ ، كما جاء فى الحديث : « إذا أقبل الليل من هاهنا ، وأدبر النهار من هاهنا ، وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم » (١) .

هذا هو الظاهر من الآية ، وزعم قتادة أنها كقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ [الحج : ٦١] . وقد ضعف ابن جرير قولَ قتادة هاهنا ، وقال : إنما معنى الإيلاج : الأخذ من هذا فى هذا ، وليس هذا مراداً فى هذه الآية . وهذا الذى قاله ابن جرير حق .

وقوله: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾، فى معنى قوله: ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ قولان:

أحدهما : أن المراد : مستقرها المكانى ، وهو تحت العرش مما يلى الأرض من ذلك الجانب ، وهى أينما كانت فهى تحت العرش هى وجميع المخلوقات ؛ لأنه سقفها ، وليس بكرة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة ، وهو فوق العالم مما يلى رؤوس الناس ، فالشمس إذا كانت فى قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش ، فإذا استدارت فى فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام ، وهو وقت نصف الليل ، صارت أبعد ما تكون من العرش ، فحينئذ تسجد وتستأذن فى الطلوع ، كما جاءت بذلك الأحاديث .

قال البخارى : حدثنا أبو نُعَيم ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم [التيمى] (٢) ، عن أبيه ، عن أبى ذر ، رضى اللّه عنه ، قال : كنت مع النبى ﷺ فى المسجد عند غروب الشمس ، فقال : « يا أبا ذر ، أتدرى أين تَغربُ الشمس ؟ » قلت : اللّه ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فذلك قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ » .

حدثنا عبد اللّه بن الزبير الحُميدىّ ، حدثنا وَكِيع عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبيه ، عن أبى ذر قال : سألت رسول اللّه ﷺ عن قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾، قال : « مستقرها تحت العرش » (٣) .

كذا أورده هاهنا . وقد أخرجه فى أماكن متعددة (٤) ، ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه ، من طرق ، عن الأعمش ، به (٥) .

وقال (٦) الإمام أحمد :حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه، عن أبى ذر قال : كنت مع رسول اللّه ﷺ فى المسجد حين وجبت الشمس ، فقال : « يا أبا ذر ، تدرى أين تذهب الشمس ؟ » قلت : اللّه ورسوله أعلم . قال :« فإنها تذهب حتى تسجد بين يدى

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٩٥٤) ومسلم فى صحيحه برقم (١١٠٠) من حديث عمر رضى اللّه عنه .

(٢) زيادة من ت ، س ، أ .

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٢ ، ٤٨٠٣) .

(٤) صحيح البخارى برقم (٣١٩٩ ، ٧٤٢٤ ، ٧٤٣٣) .

(٥) صحيح مسلم برقم (١٥٩) وسنن أبى داود برقم (٤٠٠٢) وسنن الترمذى برقم (٣٢٢٧) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٠) .

(٦) فى ت : « وروى » .

ربها عز وجل ، فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها : ارجعى من حيث جئت . فترجع إلى مطلعها ، وذلك مستقرها ، ثم قرأ : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ » (١) .

وقال سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه ، عن أبى ذر ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ لأبى ذر حين غربت الشمس : « أتدرى أين هذا ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها ، وتستأذن فلا يؤذن لها ، ويقال لها : ارجعى من حيث جئت . فتطلع من مغربها، فذلك قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ » (٢) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن أبى إسحاق ، عن وهب بن جابر ، عن عبد الله بن عمرو قال فى قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ ، قال : إن الشمس تطلع فتردها ذنوب بنى آدم ، حتى إذا غربت سلَّمت وسجدت واستأذنت فيؤذن لها ، حتى إذا كان يوم غربت فسلمت وسجدت ، واستأذنت فلا يؤذن لها ، فتقول : إن المسير بعيد وإنى إلا يؤذن لى لا أبلغ ، فتحبس ما شاء الله أن تحبس ، ثم يقال لها : « اطلعى من حيث غربت » . قال : « فمن يومئذ إلى يوم القيامة لا ينفع نفساً إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيراً » (٣) .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ : هو انتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها فى السماء فى الصيف وهو أوجها ، ثم غاية انخفاضها فى الشتاء وهو الحضيض .

والقول الثانى : أن المراد بمستقرها هو : منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة ، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور ، وينتهى هذا العالم إلى غايته ، وهذا هو مستقرها الزمانى .

قال قتادة : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ أى : لوقتها ولأجل لا تعدوه .

وقيل : المراد : أنها لا تزال تنتقل فى مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها ، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس : « وَالشَّمْسُ تَجْرِى لا مُسْتَقر لَّهَا » أى : لا قرار لها ولا سكون ، بل هى سائرة ليلا ونهاراً ، لا تفتر ولا تقف . كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم : ٣٣] أى : لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة .

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ أى : الذى لا يخالَف ولا يُمانَع ، ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بجميع الحركات والسكنات، وقد قدر ذلك وقنَّنه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس ، كما قال تعالى : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] . وهكذا ختم آية (٤) «حم السجدة » بقوله : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت : ١٢] .

ثم قال: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ أى: جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضى الشهور، كما أن

---

(١) المسند (٥/١٥٢) .

(٢) رواية سفيان فى صحيح البخارى برقم (٣١٩٩) .

(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/١١٥) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٦٢٨) من طريق عبد الرزاق .

(٤) فى ت : « ختم آخر آية » .

الشمس يعرف بها الليل والنهار ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩] ، وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ الآية [يونس :٥]، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ [الإسراء : ١٢]، فجعل الشمس لها ضوء يخصها ، والقمر (١) له نور يخصه ، وفاوت بين سير هذه وهذا ، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب فى آخره على ضوء واحد ، ولكن تنتقل فى مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء ، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ،ثم يطول الليل ويقصر النهار ، وجعل سلطانها بالنهار ، فهى كوكب نهارى . وأما القمر ، فقدره منازل ، يطلع فى أول ليلة من الشهر ضئيلا قليل النور، ثم يزداد نوراً فى الليلة الثانية ، ويرتفع (٢) منزلة ، ثم كلما ارتفع ازداد ضياء ، وإن كان مقتبساً من الشمس ، حتى يتكامل نوره (٣) فى الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع فى النقص إلى آخر الشهر ، حتى يصير كالعرجون القديم .

قال ابن عباس : وهو أصل العِذْق .

وقال مجاهد : العرجون القديم : أى العذق اليابس .

يعنى ابن عباس : أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى ، وكذا قال غيرهما . ثم بعد هذا يبديه اللّه جديداً فى أول الشهر الآخر ، والعرب تسمى كل ثلاث (٤) ليال من الشهر باسم باعتبار القمر ، فيسمون الثلاث الأول « غُرَر » واللواتى بعدها « نُفَل » ، واللواتى بعدها « تُسع » ؛ لأن أخراهن التاسعة ، واللواتى بعدها « عُشَر » ؛ لأن أولاهن العاشرة ، واللواتى بعدها « البيض» ؛ لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، واللواتى بعدهن « دُرَع » جمع دَرْعاء ؛ لأن أولهن سُود (٥) ؛ لتأخر القمر فى أولهن ، ومنه الشاة الدرعاء وهى التى رأسها أسود . وبعدهن ثلاث « ظُلَم » ثم ثلاث «حَنَادس » ، وثلاث « دآدئ » (٦) ، وثلاث « محَاق » ؛ لانمحاق القمر أواخر الشهر فيهن . وكان أبو عبُيد (٧) ينكر التُسَع والعُشَر . كذا قال فى كتاب « غريب المصنف » .

وقوله : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ : قال مجاهد: لكل منهما حد لا يعدوه ولا يُقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن الحسن فى قوله : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ قال : ذلك ليلة الهلال .

وروى ابن أبى حاتم هاهنا عن عبد اللّه بن المبارك أنه قال : إن للريح جناحاً ، وإن القمر يأوى إلى غلاف من الماء .

وقال الثورى ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن أبى (٨) صالح : لا يدرك هذا ضوء هذا ، ولا هذا ضوء هذا (٩) .

---

(١) فى س : « وللقمر » . (٢) فى ت : « فترتفع » . (٣) فى أ : « ضوؤه » .
(٤) فى ت : « ثلاثة » وهو خطأ . (٥) فى ت ، أ : « أسود » . (٦) فى أ : « درارى » .
(٧) فى أ : « أبو عبيدة » . (٨) فى ت ، س : « أبو » .
(٩) فى س : « لا يدرك هذا ضر هذا ولا هذا ضر هذا » .

وقال عكرمة [فى قوله] [(١)] : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ : يعنى : أن لكل منهما سلطانا ، فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل .

وقوله : ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ : يقول : لا ينبغى إذا كان الليلُ أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار ، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل .

وقال الضحاك : لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجىء النهار من هاهنا . وأومأ بيده إلى المشرق .

وقال مجاهد : ﴿ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ : يَطَّلبان حثيثين ، ينسلخ أحدهما من الآخر .

والمعنى فى هذا : أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطالبان طلباً حثيثاً .

وقوله : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يعنى : الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كلهم يسبحون ، أى : يدورون فى فلك السماء . قاله ابن عباس ، وعِكْرِمة ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، وعطاء الخراسانى [(٢)] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : فى فلك بين السماء والأرض . رواه ابن أبى حاتم ، وهو غريب جداً ، بل منكر .

قال ابن عباس وغير واحد من السلف : فى فَلْكة كفَلْكَة المغْزَل .

وقال مجاهد : الفَلَك كحديدة الرّحَى ، أو كفلكة المغزل ،لا يدور المغزل إلا بها،ولا تدور إلا به.

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) ﴾ .

يقول تعالى : ودلالة لهم أيضا على قدرته تعالى : تسخيره البحر ليحمل [(٣)] السفن ، فمن ذلك ـ بل أوله ـ سفينة نوح ، عليه السلام ، التى أنجاه اللّه فيها بمن معه من المؤمنين ، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم ؛ ولهذا قال : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أى : آباءهم ، ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أى : فى السفينة [الموقرة] [(٤)] المملوءة من الأمتعة والحيوانات ، التى أمره اللّه أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

قال ابن عباس:المشحون :المُوقَر.وكذا قال سعيد بن جبير ، والشعبى ، وقتادة ، [والضحاك][(٥)]، والسدى .

وقال الضحاك ، وقتادة ، وابن زيد : وهى سفينة نوح ، عليه السلام .

وقوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ :قال العوفى ، عن ابن عباس : يعنى بذلك : الإبل، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ـ فى رواية ـ وعبد اللّه بن شَدّاد ، وغيرهم [(٦)] .

وقال السدى ـ فى رواية ـ : هى الأنعام .

---

(١) زيادة من أ . (٢) فى ت : « قاله ابن عباس وغيره » . (٣) فى أ : « ليحمل فيه » .
(٤) زيادة من ت ، أ . (٥) زيادة من أ . (٦) فى ت : « عكرمة وغيره » .

وقال ابن جرير : حدثنا الفضل بن الصباح ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن عطاء ، عن سعيد بن جُبَير[١] ، عن ابن عباس قال : تدرون ما ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ؟قلنا : لا. قال : هى السفن ، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها .

وكذا قال [غير واحد و][٢] أبو مالك ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو صالح ، والسدى أيضاً : [المراد بقوله] [٣]: ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ : أى السفن .

ويُقَوى هذا المذهب فى المعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ. لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] .

وقوله : ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُم ﴾ يعنى : الذين فى السفن ، ﴿فَلا صَرِيخَ لَهُم ﴾ أى : فلا مغيث لهم مما هم فيه ، ﴿وَلا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أى :مما أصابهم ، ﴿ إِلا رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ .وهذا استثناء منقطع ، تقديره: لكن برحمتنا نسيركم فى البر والبحر ، ونُسَلّمكم إلى أجل مسمى ؛ ولهذا قال : ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى : إلى وقت معلوم عند اللّه .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٤٧) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن تمادى المشركين فى غيهم وضلالهم ، وعدم اكتراثهم بذنوبهم التى أسلفوها، وما هم يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال مجاهد : من الذنوب . وقال غيره بالعكس ، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أى : لعل اللّه باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه . وتقدير كلامه : أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه . واكتفى عن ذلك بقوله : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى : على التوحيد وصدق الرسل ﴿إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أى : لا يتأملونها ولا ينتفعون[٤] بها .

وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى: وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم اللّه على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى: عن الذين آمنوا من الفقراء ، أى: قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾ أى : هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم ، لو شاء اللّه لأغناهم ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة اللّه فيهم ، ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُّبِين ﴾ أى : فى أمركم لنا بذلك .

قال ابن جرير : ويحتمل أن يكون من قول اللّه للكفار حين ناظروا المسلمين[٥]وردوا عليهم،فقال لهم : ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [٦] ، وفى هذا نظر .

---

(١) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده » .
(٢) زيادة من ت .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى أ : « ولا يشعرون » .
(٥) فى أ : « المؤمنين » .
(٦) تفسير الطبرى (٢٣/٩) .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة فى قولهم: ﴿ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ [إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ][1] ﴾؟ ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى :١٨] ، قال اللّه تعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أى : ما ينتظرون [2] إلا صيحة واحدة ، وهذه ــ واللّه أعلم ــ نفخة الفزع ، ينفخ فى الصور نفخة الفزع ، والناس فى أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فبينما هم كذلك إذ أمر اللّه تعالى إسرافيل فنفخ فى الصور نفخة يُطوِّلها ويَمُدُّها ، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتاً ، ورفع ليتاً ـ وهى[3] صفحة العنق ـ يتسمع الصوت من قبل السماء . ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار ، تحيط بهم من جوانبهم ؛ ولهذا قال: ﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أى : على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ، ﴿ وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

وقد وردت هاهنا آثار وأحاديث ذكرناها فى موضع آخر[4] ، ثم تكون [5] بعد هذا نفخة الصعق ، التى تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحى القيوم ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) ﴾ .

هذه هى النفخة الثالثة [6] ، وهى نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور ؛ ولهذا قال: ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ ، والنَّسلان هو : المشى السريع ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣] .

﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ؟ يعنون : [من] [7] قبورهم التى كانوا يعتقدون فى الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوه فى محشرهم ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ، وهذا لا ينفى عذابهم فى قبورهم ؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده فى الشدة كالرقاد .

وقال أُبى بن كعب ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : ينامون نومة قبل البعث .

قال قتادة : وذلك بين النفختين .

فلذلك يقولون : ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ـ قاله غير واحد من

---

(١) زيادة من أ .　(٢) فى أ : « ما ينظرون » .　(٣) فى أ : « وهو » .
(٤) عند تفسير الآية : ٧٣ من سورة الأنعام .
(٥) فى ت ، س ، أ : « ثم يكون » .　(٦) فى ت : « الثانية »　(٧) زيادة من ت .

السلف ـ : ﴿ **هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُون** ﴾.

وقال الحسن : إنما يجيبهم بذلك الملائكة .

ولا منافاة إذ الجمع ممكن ، والله أعلم .

وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار : ﴿ **يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُون** ﴾ .

نقله ابن جرير ، واختار الأول ، وهو أصح [١] ، وذلك كقوله تعالى فى الصافات : ﴿ **وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ . هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ** ﴾ [الصافات : ٢٠ ، ٢١] ، وقال [الله][٢] تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُون . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم : ٥٥ ، ٥٦] .

وقوله : ﴿ **إِن كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ** ﴾ ، كقوله : ﴿ **إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ** ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ**[٣] ﴾ [النحل : ٧٧] ، وقال : ﴿ **يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلا قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٥٢] .

أى : إنما نأمرهم أمراً واحداً ، فإذا الجميع محضرون ، ﴿ **فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا** ﴾ أى : من عملها ، ﴿ **وَلا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُون** ﴾ .

﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة : أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العَرَصات فنزلوا فى رَوْضات الجنات: أنهم ﴿ **فِي شُغُلٍ** [**فَاكِهُون** ﴾ أى : فى شغل] [٤] عن غيرهم ، بما هم فيه من النعيم المقيم ، والفوز العظيم .

قال الحسن البصرى : وإسماعيل بن أبى خالد : ﴿ **فِي شُغُلٍ** ﴾ عما فيه أهل النار من العذاب .

وقال مجاهد : ﴿ **فِي شُغُلٍ فَاكِهُون** ﴾ أى : فى نعيم معجبون ، أى : به . وكذا قال قتادة .

وقال ابن عباس : ﴿ **فَاكِهُون** ﴾ : أى فرحون .

وقال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المَسيب ، وعكْرِمة ، والحسن ، وقتادة ، والأعمش ، وسليمان التيمى ، والأوزاعى فى قوله : ﴿ **إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُون** ﴾ قالوا : **شغلهم افتضاض الأبكار** .

---

(١) فى أ : « وهو صحيح » .
(٢) زيادة من أ .
(٣) فى ت : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر أو هو أقرب » وهو خطأ .
(٤) زيادة من ت ، أ .

وقال ابن عباس ـ فى رواية عنه [١] ـ : ﴿ **فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ** ﴾ : أى بسماع الأوتار .

وقال أبو حاتم : لعله غلط من المستمع ، وإنما هو افتضاض الأبكار .

وقوله :﴿ **هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ** ﴾ :قال مجاهد :وحلائلهم ﴿ **فِي ظِلَالٍ** ﴾ أى : فى ظلال الأشجار ﴿ **عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ** ﴾ .

قال ابن عباس ، ومجاهد وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والحسن ، وقتادة ، والسُّدِّىّ ، وخُصَيْف [٢] :﴿ **الْأَرَائِكِ** ﴾ :هى السرر تحت الحجال .

قلت : نظيره فى الدنيا هذه التخوت [٣] تحت البشاخين ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ** ﴾ أى : من جميع أنواعها ، ﴿ **وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ** ﴾ أى : مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عوف الحمصى ، حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار ، حدثنا محمد بن مهاجر ، عن الضحاك المَعَافرى ، عن سليمان [٤] بن موسى ، حدثنى كُرَيْب ؛ أنه سمع أسامة بن زيد يقول [٥] : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل مُشَمِّر إلى الجنة ؟ فإن الجنة لا خَطَر لها، هى ـ ورب الكعبة ـ نوركلها يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مَشيد ، ونهر مُطَّرِد ، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد ، فى دار سلامة ، وفاكهة خضرة وحَبْرَة ونعمة ، ومحلة عالية بَهِيَّة » . قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمرون لها . قال : «قولوا: إن شاء الله » . قال القوم : إن شاء الله .

وكذا رواه ابن ماجه فى « كتاب الزهد » من سننه ، من حديث الوليد بن مسلم ، عن محمد بن مُهَاجر ، به [٦].

وقوله :﴿ **سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ : قال ابن جريج: قال ابن عباس فى قوله : ﴿ **سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ : فإن الله نفسه سلام على أهل الجنة .

وهذا الذى قاله ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ** ﴾ [الأحزاب : ٤٤] .

وقد روى ابن أبى حاتم هاهنا حديثا فى إسناده نظر ، فإنه قال : حدثنا موسى بن يوسف ، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ، حدثنا أبو عاصم العَبَّادانى ، حدثنا الفضل الرَّقاشىّ ، عن محمد بن المُنْكَدِر ، عن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أهل الجنة فى نعيمهم ، إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة . فذلك قوله : ﴿ **سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ** ﴾ » . قال : «فينظر إليهم وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه ، حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم وفى ديارهم » .

---

(١) فى ت : « وفى رواية عن ابن عباس » . (٢) فى ت : « ومحمد بن كعب وغيرهم » .

(٣) فى أ : « النحوت » . (٤) فى أ : « سليم » . (٥) فى ت : « روى ابن أبى حاتم عن أسامة بن زيد قال » .

(٦) سنن ابن ماجة برقم (٤٣٣٢) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٣٢٥) : « هذا إسناد فيه مقال ، الضحاك المعافرى ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال الذهبى فى طبقات التهذيب : مجهول وسليمان الأموى مختلف فيه وباقى رجال الإسناد ثقات » .

ورواه ابن ماجه فى « كتاب السنة » من سننه [(١)] ، عن محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب[(٢)]، به .

وقال[(٣)] ابن جرير : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، حدثنا حَرْمَلَة ، عن سليمان بن حُمَيد قال : سمعت محمد بن كعب القُرَظى يحدّث عن عمر بن عبد العزيز قال : إذا فرغ اللّه من أهل الجنة والنار ، أقبل فى ظُلَل من الغمام والملائكة ، قال : فيسلم على أهل الجنة ، فيردون عليه السلام ـ قال القرظى : وهذا فى كتاب اللّه ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ ـ فيقول : سلونى. فيقولون : ماذا نسألك أىْ ربّ ؟ قال : بلى سلونى . قالوا : نسألك ـ أىْ رب ـ رضاك . قال: رضائى أحلكم دار كرامتى . قالوا : يا رب ، فما الذى نسألك ، فوعزتك وجلالك وارتفاع مكانك ، لو قسمت علينا رزق الثقلين لأطعمناهم ولأسقيناهم ولألبسناهم ولأخدمناهم ، لا ينقصنا ذلك شيئاً . قال : إن لدىّ مزيداً . قال : فيفعل ذلك بهم فى درجهم ، حتى يستوى فى مجلسه . قال : ثم تأتيهم التحف من اللّه ، عز وجل ، تحملها إليهم الملائكة . ثم ذكر نحوه .

وهذا أثر غريب ، أورده ابن جرير من طرق [(٤)].

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا ، بمعنى [(٥)] : يتميزون عن المؤمنين فى موقفهم ، كقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم :١٤] ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : ٤٣] أى : يصيرون صدْعَين فرقتين ، ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ : هذا تقريع من اللّه للكفرة من بنى آدم ، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذى خلقهم ورزقهم ؛ولهذا قال: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى : قد أمرتكم فى دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتى ، وهذا هو الصراط المستقيم ، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً ﴾ ، يقال : «جِبِلا» بكسر الجيم ، وتشديد اللام. ويقال : « جُبُلاً » بضم الجيم والباء ، وتخفيف اللام . ومنهم من يسكن الباء . والمراد

(١) فى ت : « رواه ابن ماجة فى سننه » .

(٢) سنن ابن ماجة برقم (١٨٤) وقال البوصيرى فى الزوائد (١/ ٨٦) : « هذا إسناد ضعيف لضعف الفضل بن عيسى بن أبان القرشى ».

(٣) فى ت : « وروى » .

(٤) تفسير الطبرى (٢٣/ ١٥) .

(٥) فى ت : « يعنى » .

بذلك : الخلق الكثير ، قاله مجاهد ، والسُّدِّىّ ، وقتادة ، وسفيان بن عيينة .

وقوله : ﴿ **أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ** ﴾ ؟ أى : أفما [١] كان لكم عقل فى مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته [٢] وحده لا شريك له ، وعُدُولكم إلى اتباع الشيطان ؟!

قال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، عن إسماعيل بن رافع ، عمن حدثه عن محمد بن كعب القرظى [٣] ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة أمر الله جهنم فيخرج منها عنُق ساطع مظلم ، يقول [٤] : ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ . هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ امتازوا اليوم أيها المجرمون . فيتميز الناس ويجثون ، وهى التى يقول الله تعالى : ﴿ **وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ » [٥] [الجاثية : ٢٨] .

﴿ **هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ (٦٧)** ﴾ .

يقال للكفرة من بنى آدم يوم القيامة ، وقد برزَت الجحيم لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿ **هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ أى: هذه التى حذرتكم الرسل فكذبتموهم ، ﴿ **اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ. أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ** ﴾[الطور : ١٣ ـ ١٥] .

وقوله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ : هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة ، حين ينكرون ما اجترموه فى الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم بما عملت .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو شيبة إبراهيم بن عبد الله بن أبى شيبة ، حدثنا منْجاب بن الحارث التميمى ، حدثنا أبو عامر الأسدى ، حدثنا سفيان ، عن عبيد المُكتب ، عن الفُضَيل بن عمرو ، عن الشعبى [٦] ، عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبى ﷺ ، فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : «أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول: رب [٧] ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجيز على إلا شاهداً من نفسى .

---

(١) فى ت ، س : « أما » .
(٢) فى ت ، س : « عبادة الله » .
(٣) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده » .
(٤) فى ت ، س ، أ : « ثم يقول » .
(٥) تفسير الطبرى (١٦/٢٣) .
(٦) فى ت : « روى النسائى ومسلم » .
(٧) فى ت ، س : « يا رب » .

فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حَسيباً ، وبالكرام الكاتبين (١) شهودا . فيختم على فيه ، ويُقال لأركانه : انطقى . فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعداً لكن وسُحقاً ، فعنكنّ كنتُ أناضل» .

وقد رواه مسلم والنسائى ، كلاهما عن أبى بكر بن أبى النضر ، عن أبى النضر ، عن عُبيد الله ابن عبد الرحمن الأشجعى ، عن سفيان ـ هو الثورى ـ به (٢) . ثم قال النسائى : [لا أعلم (٣) أحداً روى هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعى ، وهو حديث غريب ، والله تعالى أعلم .

كذا قال،وقد تقدم من رواية أبى عامر عبد الملك بن عمرو الأسدى ـ وهو العَقَدِىّ ـ عن سفيان .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن بَهز(٤) بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبى ﷺ قال : « إنكم تُدعَون مُفَدَّمة (٥) أفواهكم بالفدَام ، فأول ما يسأل عن أحدكم فخذه وكتفه » . رواه النسائى] (٦) عن محمد بن رافع ، عن عبد الرَزاق ، به (٧) .

وقال سفيان بن عيينة ، عن سُهيَل ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ فى حديث القيامة الطويل ، قال فيه : « ثم يلقى (٨) الثالث فيقول : ما أنت ؟ فيقول : أنا عبدك ، آمنت بك وبنبيك وبكتابك ، وصمت وصليت وتصدقت ـ ويثنى بخير ما استطاع ـ قال : فيقال له : ألا نبعث عليك شاهدنا (٩) ؟ قال : فيفكر فى نفسه ، من الذى يشهد عليه ، فيختَم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقى . فتنطق (١٠) فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل ، وذلك المنافق ، وذلك ليعذر من نفسه . وذلك الذى سخط الله عليه » .

ورواه مسلم وأبو داود ، من حديث سفيان بن عيينة ، به بطوله(١١) .

ثم قال ابن أبى حاتم ، رحمه الله : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، حدثنا ضَمْضَم بن زُرْعَة عن شُرَيْح بن عبيد(١٢) ، عن عقبة بن عامر ؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :«إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختَم على الأفواه ، فَخذُه من الرجل اليسرى (١٣)» .

ورواه ابن جرير عن محمد بن عوف ، عن عبد الله بن المبارك ، عن إسماعيل بن عياش ، به مثله (١٤) .

وقد جَوَّد إسناده الإمام أحمد ، رحمه الله ، فقال : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا إسماعيل بن عَيَّاش ، عن ضَمضَم بن زُرْعَةَ ، عن شُرَيح بن عُبَيد الحَضْرَمى ، عمن حَدَّثه عن عقبة بن عامر ؛ أنه

---

(١) فى ت : « الكاتبين عليك » .
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٦٥٣) .
(٣) فى س : « ما أعلم » . (٤) فى ت ، س : « يزيد » ، وفى أ : « زيد » . (٥) فى س : «مفدما» .
(٦) زيادة من ت ، س ، والسنن الكبرى .
(٧) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٦٩) .
(٨) فى ت : « يأتى » . (٩) فى ت ، أ : « شاهداً » . (١٠) فى ت ، س : « قال فتنطق » .
(١١) صحيح مسلم برقم (٢٩٦٨) وسنن أبى داود برقم (٤٧٣٠) .
(١٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد » . (١٣) فى ت : « الشمال » .
(١٤) تفسير الطبرى (١٧/٢٣) .

سمع رسول اللّه ﷺ يقول : « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختَم على الأفواه ، فَخذه من الرجل الشمال »[١] .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، حدثنا يونس بن عُبَيد ، عن حُميد ابن هلال قال : قال أبو بردة : قال أبو موسى [٢] ــ هو الأشعرى ، رضى اللّه عنه ــ : يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة ، فَيَعرضُ عليه[٣] رَبه عمله فيما بينه وبينه ، فيعترف [٤] فيقول : نعم أىْ رب ، عملتُ عملتُ عملت . قال :فيغفر اللّه له ذنوبه ، ويستره منها . قال:فما على الأرض خلَيقة ترى [٥] من تلك الذنوب شيئاً ، وتبدو حسناته ،فَوَدَّ أن الناس كلهم يرونها ،ويدعى الكافر والمنافق للحساب، فيعرض ربه عليه عمله ، فيجحد فيقول : أى رب ، وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل . فيقول له الملك : أما عملت كذا ، فى يوم كذا ، فى مكان كذا ؟ فيقول : لا ، وعزتك أىْ رب ما عملتُه . فإذا فعل ذلك خُتِم على فيه . قال أبو موسى الأشعرى : فإنى أحسب أول ما ينطق منه الفخذ [٦] اليمنى ، ثم تلا : ﴿ **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [٧] .

وقوله : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ** ﴾ : قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى تفسيرها : يقول : ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى ، فكيف يهتدون ؟ وقال مرة[٨]: أعميناهم .

وقال الحسن البصرى : لو شاء اللّه لطمس على أعينهم ، فجعلهم عُمياً يترددون .

وقال السدى : لو شِئْنا أعمينا أبصارهم .

قال مجاهد ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدى : ﴿ **فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ** ﴾ يعنى : الطريق .

وقال ابن زيد : يعنى بالصراط هاهنا : الحق ، ﴿ **فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ** ﴾ وقد طمسنا على أعينهم ؟

وقال العَوفى ، عن ابن عباس : ﴿ **فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ** ﴾[يقول] [٩]: لا يبصرون الحق .

وقوله : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ** ﴾ : قال العوفى عن ابن عباس : أهلكناهم .

وقال السدى : يعنى : لغيرنا خَلْقهم .

وقال أبو صالح : لجعلناهم حجارة .

وقال الحسن البصرى ، وقتادة : لأقعدهم على أرجلهم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا** ﴾ أى : إلى أمام ، ﴿ **وَلَا يَرْجِعُونَ** ﴾ أى : إلى وراء ، بل يلزمون حالا واحداً ، لا يتقدمون ولا يتأخرون .

---

(١) المسند (٤/ ١٥١) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٣٥١) :« إسناده جيد » .

(٢) فى ت : « وروى ابن جرير بإسناده عن أبى موسى » .

(٣) فى ت ، أ : « على » .

(٤) فى ت : « فيعرف » .

(٥) فى ت : « يرى » .

(٦) فى ت ، س : « لفخذه » .

(٧) تفسير الطبرى (٢٣/ ١٧) .

(٨) فى أ : « غيره » .

(٩) زيادة من أ .

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) ﴾ .

يخبر تعالى عن ابن [١] آدم أنه كلما طال عمره رُدّ إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤] . وقال : ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [الحج : ٥] .

والمراد من هذا ـ واللّه أعلم ـ الإخبارُ عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلا يَعْقِلُونَ ﴾ أى : يتفكرون بعقولهم فى ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى [نفس][٢] الشَّبيبَة ، ثم إلى الشيخوخة ؛ ليعلموا أنهم خُلقوا لدار أخرى ، لا زوال لها ولا انتقال منها ، ولا محيد عنها ، وهى الدار الآخرة .

وقوله : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ : يقول تعالى مخبراً عن نبيه محمد ﷺ [٣] : أنه ما علمه الشعر ، ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ أى : وما هو فى طبعه ، فلا يحسنه ولا يحبه ، ولا تقتضيه جبلَّته؛ ولهذا ورَدَ أنه ، عليه الصلاة والسلام، كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم ، بل إن أنشده زَحَّفه أَو لم يتمه .

وقال أبو زُرْعة الرازى : حُدِّثت عن إسماعيل بن مجالد ، عن أبيه ، عن الشعبى أنه قال : ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر ، إلا رسول اللّه ﷺ . ذكره ابن عساكر فى ترجمة «عتبة بن أبى لهب » الذى أكله السَّبُع بالزرقاء [٤] .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو سلمة ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن على بن زيد ، عن الحسن [٥] ـ هو البصرى ـ قال : إن رسول اللّه ﷺ كان يتمثل بهذا البيت :

كَفى بالإِسْلاَم والشيْب للمرْء نَاهياً

فقال أبو بكر : يا رسول اللّه :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

قال أبو بكر ،أو عمر :أشهد أنك رسول اللّه ، يقول اللّه:﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ [٦].

وهكذا روى البيهقى فى الدلائل : أن رسول اللّه ﷺ قال : للعباس بن مرداس السلمى : « أنت القائل : أتجعل نَهبى ونَهْب العُبَيد بينَ الأقرع وعيينة » .

فقال : إنما هو : « بين عيينة والأقرع » فقال : « الكل سواء » [٧] .

---

(١) فى أ : « بنى » . (٢) زيادة من أ . (٣) فى أ : « صلوات اللّه وسلامه عليه » .

(٤) لم أجد ترجمته فيما بين يدى من تاريخ دمشق ، ولا فى المختصر لابن منظور .

(٥) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن الحسن » .

(٦) ورواه ابن سعد فى الطبقات (١ / ٣٨٢) من طريق عارم عن حماد بن زيد عن على بن زيد عن الحسن به مرسلاً .

(٧) دلائل النبوة للبيهقى (٥/ ١٨١) .

يعنى : فى المعنى ، صلوات اللّه وسلامه عليه .

وقد ذكر السهيلى فى « الروض الأنف » لهذا التقديم والتأخير الذى وقع فى كلامه ، عليه السلام، فى هذا البيت مناسبة أغرب فيها ، حاصلها شَرَفُ الأقرع بن حابس على عُيَيْنَةَ بن بَدْر الفزارى؛ لأنه ارتد أيام الصديق ، بخلاف ذاك ، واللّه أعلم .

وهكذا روى الأموى فى مغازيه : أن رسول اللّه ﷺ جعل يمشى بين القتلى يوم بدر ، وهو يقول: « نُفلق هَاماً .... ».

فيقول الصديق ، رضى الله عنه ، متمماً للبيت :

...... مِنْ رِجَال أعزَّةٍ   عَلَينَا وهُمْ كَانُوا أعَقَّ وأظلما

وهذا لبعض شعراء العرب فى قصيدة له ، وهى فى الحماسة (١).

وقال الإمام أحمد : حدثنا هُشَيْم ، حدثنا مغيرة ، عن(٢) الشعبى ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها، قالت : كان رسول اللّه إذا استراث الخبر ، تمثل فيه بيت طَرَفَةَ :

وَيَأتيك بالأخْبار مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وهكذا رواه النسائى فى « اليوم والليلة » من طريق إبراهيم بن مهاجر ، عن الشعبى (٣) ، عنها . ورواه الترمذى والنسائى أيضاً من حديث المقدام بن شُرَيْح بن هانئ ، عن أبيه ، عن عائشة ، رضى اللّه عنها ، كذلك . ثم قال (٤) الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٥) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أسامة ، عن زائدة ، عن سِمَاك ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس قال : كان رسول اللّه ﷺ يتمثل من الأشعار :

وَيَأتيكَ بالأخْبَار مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

ثم قال :رواه (٦) غير زائدة ، عن سِمَاك ، عن عكرمة ، عن عائشة (٧) .

وهذا فى شعر طرفة بن العبد ،فى معلقته المشهورة ،وهذا المذكور [هو عجز بيت] (٨) منها،أوله:

سَتُبْدى لكَ الأيامُ مَا كُنْتَ جَاهلا   وَيَأتيك بالأخْبَار مـنْ لَمْ تـُزَوِّدِ

وَيَأتيكَ بالأخْبَار مَنْ لَمْ تَبـع لـهُ   بَتَاتا ولم تَضـرب له وَقْت مَوْعد(٩)

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد اللّه الحافظ ، حدثنا أبو حفص عمر بن أحمد بن

---

(١) الحماسة لأبى تمام (١٠٧/١) .

(٢) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده إلى » .

(٣) المسند (٣١/٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٨٣٤) .

(٤) فى ت : « وقال » .

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٨٤٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٨٣٥) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٦) فى س : « ورواه » .

(٧) رواه ابن سعد فى الطبقات (٣٨٣/١) من طريق الوليد بن أبى ثور عن سماك عن عكرمة قال : سئلت عائشة فذكره نحوه .

(٨) زيادة من أ .

(٩) انظر ديوان طَرَفَةَ بن العبد ص (٦٦) .

نعيم ـ وكيل المتّقى ببغداد ـ حدثنا أبو محمد عبد الله بن هلال النحوى الضرير ، حدثنا على بن عمرو الأنصارى ، حدثنا سفيان بن عيينة (١) ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط ، إلا بيتاً واحدا (٢) .

تَفَاءلْ بما تَهْوَى يكُنْ فَلَقَلَّمَا ... يُقَالُ لشىء كَانَ إلا تَحقَّقَا (٣)

سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزّى عن هذا الحديث ، فقال : هو منكر . ولم يعرف شيخ الحاكم ، ولا الضرير .

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة عن قتادة : قيل لعائشة : هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشىء من الشعر ؟ قالت: كان أبغضَ الحديث إليه ، غير أنه كان يتمثل ببيت أخى بنى قيس ، فيجعل أوله آخره، وآخره أوله . فقال أبو بكر ليس هكذا . فقال رسول الله ﷺ : « إنى والله ما أنا بشاعر ولا ينبغى لى » . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ، وهذا لفظه (٤) .

وقال معمر عن قتادة : بلغنى أن عائشة سُئلت :هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشىء من الشعر ؟ فقالت : لا ، إلا بيت طَرَفَةَ :

سَتُبْدى لكَ الأيامُ مَا كُنْتَ جَاهلا ... ويَأتيكَ بالأخبَار مَنْ لم تُزَوِّدِ

فجعل يقول : « من لم تُزَوّد بالأخبار » . فقال أبو بكر : ليس هذا هكذا . فقال : « إنى لست بشاعر ، ولا ينبغى لى » (٥) .

وثبت فى الصحيحين أنه ، عليه الصلاة والسلام ، تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة ، ولكن تبعاً لقول أصحابه ، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون ، فيقولون :

لاهُـمّ لولا أنت (٦) مَا اهْتَدَيْنَا ... ولاَ تَصـدَّقْنَا ولاَ صَلَّيناَ

فـأنْزلَنْ سكينَة علَيْنَـا ... وثَبّت الأقْدَام إنْ لاقـَينَا

إنّ الأُلـى قَدْ بَغَـوا عـلَيـنَا ... إذا أرَادُوا فـتـْنـَة أبَـينـَا

ويرفع صوته بقوله : « أبينا » ويمدها(٧) . وقد روى هذا بزحاف فى الصحيح أيضاً . وكذلك ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب البغلة ، يُقدم بها فى نحور العدو :

أنا النبىّ لا كَذبْ ... أنا ابنُ عَبْد المُطَّلبْ (٨)

لكن قالوا :هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر ، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه .

وكذلك ما ثبت فى الصحيحين عن جُنْدَب بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى غار

---

(١) فى س : « حاشية بخط جمال الدين المزى هذا موضوع على ابن عيينة » . (٢) فى أ : « واحدا فقال » .
(٣) السنن الكبرى للبيهقى (٧/٤٣) وقال : « لم أكتبه إلا بهذا الإسناد ، وفيهم من يجهل حاله » .
(٤) تفسير الطبرى (٢٣/١٩) .
(٥) رواه عبد الرزاق فى تفسيره (٢/١١٧) عن معمر عن قتادة ، به .
(٦) فى ت : « لولا الله » .
(٧) صحيح البخارى برقم (٧٢٣٦) وصحيح مسلم برقم (١٨٠٣) من حديث البراء بن عازب ، رضى الله عنه .
(٨) صحيح البخارى برقم (٢٨٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٧٧٦) .

فَنَكِبت أصبعه ، فقال :

هَلْ أنْت إلا إصْبَع دَميت وفى سبَيل اللّه مَا لَقِيت(١)

وسيأتى عند قوله تعالى : ﴿ إلا اللَّمَمَ ﴾ [النجم : ٣٢] إنشاد(٢)

إنْ تَغْفر اللّهُمّ تَغْفرْ جَماً وَأى عَبْد لكَ مَا أَلَمَّا

وكل هذا لا ينافى كونه ﷺ ما عُلّم شعراً ولا ينبغى له ؛ فإن اللّه تعالى إنما علمه القرآن العظيم، ﴿الذى لا يأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيد﴾ [فصلت : ٤٢] . وليس هو(٣) بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ، ولا كهانة ، ولا مفتعل ، ولا سحر يُؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضُلاَّل(٤) وآراء الجُهَّال . وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً ، كما رواه أبو داود قال :

حدثنا عبيد اللّه بن عُمَر ، حدثنا عبد اللّه بن يزيد ، حدثنا سعيد بن أبى أيوب ، حدثنا شرحبيل ابن يزيد المَعَافرى ، عن عبد الرحمن(٥) بن رافع التَّنُوخى قال : سمعت عبد اللّه بن عمرو يقول(٦) : [سمعت رسول اللّه ﷺ يقول] (٧) : « ما أبالى ما أوتيت إن أنا شَرِبت ترياقا ، أو تعلقت تميمة ، أو قلت الشعر من قبل نفسى » . تفرد به أبو داود (٨) .

وقال (٩) الإمام أحمد ، رحمه اللّه : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن الأسود بن شيبان ، عن أبى نوفل قال : سألتُ عائشة : أكان رسول اللّه ﷺ يتسامع عنده الشعر ؟ فقالت : كان أبغض الحديث إليه . وقال عن عائشة : كان رسول اللّه ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء ، ويدع ما بين ذلك(١٠) .

وقال أبو داود : حدثنا أبو الوليد الطيالسى ، حدثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، رضى اللّه عنه ، عن النبى ﷺ : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ، خير له من أن يمتلئ شعراً » . تفرد به من هذا الوجه ، وإسناده على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه (١١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بريد ، حدثنا قَزَعَةُ بن سُوَيْد الباهلى ، عن عاصم بن مَخْلَد ، عن أبى الأشعث الصنعانى (ح) وحدثنا الأشيب فقال : عن ابن عاصم ، عن [أبى] (١٢) الأشعث(١٣) ، عن شَدّاد بن أوس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من قرض بيت شعر بعد العشاء الآخرة ، لم تقبل له(١٤) صلاة تلك الليلة» (١٥) .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٢٨٠٢) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٦) .
(٢) فى أ : « إنشاده » . (٣) فى أ : « هذا » . (٤) فى ت : « أقوال أهل الضلال ».
(٥) فى أ : « عبد اللّه » . (٦) فى ت : « كما رواه أبو داود عن عبد اللّه بن عمرو قال » .
(٧) زيادة من ت ، س ، وأبى داود .
(٨) سنن أبى داود برقم (٣٨٦٩) .
(٩) فى ت : « وروى » .
(١٠) المسند (١٤٨/٦) .
(١١) سنن أبى داود برقم (٥٠٠٩).
(١٢) زيادة من ت ، س ، والمسند . (١٣) فى ت : « وروى الإمام أحمد بإسناده ». (١٤) فى ت : « لم يقبل اللّه له».
(١٥) المسند (١٢٥/٤) .

وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة . والمراد بذلك نظمه لا إنشاده ، والله أعلم . على أن الشعر فيه ما هو مشروع ، وهو هجاء المشركين الذى كان يتعاطاه شعراء الإسلام ، كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رَوَاحة ، وأمثالهم وأضرابهم ، رضى الله عنهم أجمعين . ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب ، كما يوجد فى شعر جماعة من الجاهلية ، ومنهم أمية بن أبى الصلت الذى قال فيه النبى ﷺ : « آمن شعره وكفر قلبه»[1] . وقد أنشد بعض الصحابة منه للنبى ﷺ مائة بيت ، يقول عقب كل بيت : « هيه » . يعنى يستطعمه ، فيزيده من ذلك [2] .

وقد روى أبو داود من حديث أُبى بن كعب ، وبُريدة بن الحُصَيب[3] ، وعبد الله بن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حكما » [4] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ما علمه الله شعراً ، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أى : وما يصلح له ،﴿ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أى : ما هذا الذى علمناه ، ﴿إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أى: بين واضح جلى لمن تأمله وتدبره . ولهذا قال : ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ أى: لينذر هذا القرآن البيّن كلّ حى على وجه الأرض ، كقوله :﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩]،وقال:﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾[هود : ١٧] . وإنما ينتفع بنذارته من هو حَيّ القلب ، مستنير البصيرة ، كما قال قتادة :حى القلب ، حى البصر . وقال الضحاك : يعنىّ : عاقلا ، ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى : هو رحمة للمؤمن ، وحجة على الكافر .

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التى سخرها لهم ، ﴿ فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ . قال قتادة : مطيقون [5] أى : جعلهم يقهرونها [6] وهى ذليلة لهم ، لا تمتنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذاك ذليل منقاد معه . وكذا لو كان القطَارُ مائة بعير أو أكثر ، لسار الجميع بسير صغير .

وقوله : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أى : منها ما يركبون فى الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال ، إلى سائر الجهات والأقطار . ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ إذا شاؤوا نحروا واجتزروا ، ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أى : من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ، ﴿ وَمَشَارِبُ﴾ أى : من ألبانها وأبوالها لمن يتداوى ، ونحو ذلك . ﴿ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴾ ؟ أى : أفلا يُوحّدُون خالق ذلك ومسخره ، ولا يشركون به غيره ؟

(١) رواه ابن عبد البر فى التمهيد (٤/٧) من طريق أبى بكر الهذلى عن عكرمة عن ابن عباس ، رضى الله عنه .
(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٥٥) من حديث الشريد ، رضى الله عنه .
(٣) فى أ : « الخصيف » .
(٤) سنن أبى داود برقم (٥٠١٠ ـ ٥٠١٢) .
(٥) فى أ : « مطيعون » .
(٦) فى أ : « يرونها » .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) ﴾ .

يقول تعالى منكراً على المشركين فى اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله ، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى . قال الله تعالى : ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أى : لا تقدر الآلهة على نصر [١] عابديها ، بل هى أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدخر ، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل .

وقوله : ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ : قال مجاهد : يعنى : عند الحساب ، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة ، محضرة عند حساب عابديها ؛ ليكون ذلك أبلغ فى خِزْيهم ، وأدل عليهم فى إقامة الحجة عليهم .

وقال قتادة : ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يعنى : الآلهة ، ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ ، والمشركون يغضبون للآلهة فى الدنيا وهى لا تسوق إليهم خيراً ، ولا تدفع عنهم سوءاً ، إنما هى أصنام .

وهكذا قال الحسن البصرى . وهذا القول حسن ، وهو اختيار ابن جرير ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أى : تكذيبهم لك [٢] وكفرهم بالله ، ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى : نحن نعلم جميع ما هم عليه ، وسنجزيهم وصْفَهم ونعاملهم [٣] على ذلك ، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلا ولا حقيراً ، ولا صغيراً ولا كبيراً ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) ﴾ .

قال مجاهد ، وعكْرِمة ، وعروة بن الزبير ، والسُّدِّى . وقتادة : جاء أُبى بن خلف [لعنه الله][٤] إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم وهو يُفَتِّتُه ويذريه [٥] فى الهواء ، وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال : « نعم ، يميتك الله ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار » . ونزلت هذه الآيات من آخر « يس » : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ ، إلى آخرهن .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا محمد بن العلاء ، حدثنا عثمان ابن سعيد الزيات ، عن هُشَيْم ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جُبير [٦] ، عن ابن عباس ، أن العاصى[٧] بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتّه بيده ، ثم قال لرسول الله ﷺ : أيحيى الله تعالى هذا بعد ما أرى ؟ [٨] فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، يميتك الله ثم يحييك ، ثم يدخلك جهنم » . قال:

---

(١) فى أ : « نصرة » . (٢) فى أ : « ذلك » . (٣) فى أ : « ونقابلهم » .
(٤) زيادة من س ، أ . (٥) فى أ : « ويذروه » .
(٦) فى ت : « وروى ابن أبى حاتم بسنده » . (٧) فى ت ، س ، أ : « العاص » . (٨) فى أ : « أرم » .

ونزلت الآيات من آخر « يس » .

ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم ، عن هُشَيم ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، فذكره ولم يذكر « ابن عباس » (١) .

وروى من طريق العَوفى ، عن ابن عباس قال : جاء عبد الله بن أُبى بعظم ففته وذكر نحو ما تقدم .

وهذا منكر ؛ لأن السورة مكية ، وعبد الله بن أبى بن سلول إنما كان بالمدينة . وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات نزلت فى أبى بن خلف ، أو [فى] (٢) العاص [بن وائل] (٣) ، أو فيهما ، فهى عامة فى كل من أنكر البعث . والألف واللام فى قوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ ﴾ للجنس ، يعم كل (٤) منكر للبعث .

﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ أى :أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين ، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ .فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ. إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [المرسلات : ٢٠ــ ٢٢] ، وقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان : ٢] أى : من نطفة من أخلاط متفرقة، فالذى خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ؟ كما قال (٥) الإمام أحمد فى مسنده :

حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا حَريز ، حدثنى عبد الرحمن بن مَيْسَرة ، عن جُبَيْر بن نفير ، عن بُسْر ابن جَحَّاش ؛ أن رسول الله ﷺ بَصق يوماً فى كفه ، فوضع عليها أصبعه ، ثم قال : « قال الله تعالى : ابن آدم ، أنَّى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سَوّيتك وعَدَلْتك ، مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بَلَغَت التراقى قلت : أتصدق وأنّى أوان الصدقة ؟ » .

ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يزيد بن هارون ، عن حَريز بن عثمان ، به (٦) .

ولهذا قال : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ؟ أى : استبعد إعادة الله تعالى ـ ذى القدرة العظيمة التى خلقت (٧) السموات والأرض ـ للأجساد والعظام الرميمة ، ونسى نفسه ، وأن الله خلقه من العدم ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : يعلم العظام فى سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت ، وأين تفرقت وتمزقت .

قال (٨) الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عَوَانة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن ربْعىّ قال: قال عقبة بن عمرو لحذيفة : ألا تحدثُنا ما سمعتَ من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعته يقول : «إن رجلا حضره الموت ، فلما أيس من الحياة أوصى أهله : إذا أنا متّ فاجمعوا لى حَطَبا كثيراً

(١) تفسير الطبرى (٢٣/ ٢١) .
(٢) زيادة من أ . (٣) زيادة من س . (٤) فى س : « لكل » . (٥) فى ت : « كما روى » .
(٦) المسند (٤/ ٣١٠) وسنن ابن ماجة برقم (٢٧٠٧) وقال البوصيرى فى الزوائد (٢/ ٣٦٤) : « إسناد حديثه صحيح ورجاله ثقات » .
(٧) فى أ : « الذى خلق » . (٨) فى ت : « روى » .

جزَلاً ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا [أكلت] (١) لحمى وخَلصت إلى عظمى فامتُحشْتُ ، فخذوها فَذَرَوَها في اليم . ففعلوا ، فجمعه اللّه إليه فقال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك . فغفر اللّه له » . فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته يقول ذلك ، وكان نَبَّاشا (٢) .

وقد أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث عبد الملك بن عمير ، بألفاظ كثيرة (٣) ، منها : أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ، ثم يذْرُوا نصفه فى البر ونصفه فى البحر ، فى يوم رائح (٤) ، أى : كثير الهواء ـ ففعلوا ذلك . فأمر اللّه البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ،ثم قال له: كن . فإذا هو رجل قائم . فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : مخافتك وأنت أعلم . فما تلافاه أن غفر له » .

وقوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُون ﴾ أى : الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خَضراً نَضراً ذا ثمر ويَنْع ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً ،توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد لا يمنعه شىء .

قال قتادة فى قوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُون ﴾ يقول : الذى أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر أن يبعثه .

وقيل : المراد بذلك سَرْح المرخ والعفَار ، ينبت فى أرض الحجاز فيأتى من أراد قَدْح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح (٥) أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ، كالزناد سواء . روى هذا عن ابن عباس ، رضى اللّه عنهما (٦) . وفى المثل (٧) : لكل شجر نار ، واستمجد المَرْخُ والعفَار (٨) . وقال الحكماء : فى كل شجر نار إلا الغاب (٩) .

﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾ .

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة فى خلق السموات السبع ، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال ، وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] . وقال هاهنا : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ أى : مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم . قاله ابن جرير (١٠) .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ

(١) زيادة من ت ، س ، والمسند .
(٢) المسند (٥/٣٩٥) .
(٣) صحيح البخارى برقم (٦٤٨٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٥٦) .
(٤) فى س ، أ : « راح » . (٥) فى أ : « فيحك » . (٦) فى ت ، س : « عنه » . (٧) فى أ : « الراجز » .
(٨) مجمع الأمثال للميدانى برقم (٢٧٥٢) .
(٩) فى أ : « العتاب » .
(١٠) تفسير الطبرى (٢٣/ ٢١) .

عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف :٣٣] ، وقال : ﴿ **بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ أى : يأمر بالشىء أمراً واحداً ، لا يحتاج إلى تكرار :

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لهُ « كُنْ » قَوْلَة فَيَكُونُ (١)

وقال (٢) الإمام أحمد : حدثنا ابن نُمْيرٍ ، حدثنا موسى بن المسَيَّب ، عن شَهْر ، عن عبد الرحمن بن غَنْم ، عن أبى ذَر ، رضى اللّه عنه ، أن رسول اللّه ﷺ قال : « إن اللّه يقول : يا عبادى ، كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم . وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إنى جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون » (٣) .

وقوله : ﴿ **فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون** ﴾ أى : تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحى القيوم ، الذى بيده مقاليد السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر، وإليه نرجع العباد يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله ، وهو العادل المتفضل .

ومعنى قوله : ﴿ **فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ **قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ** (٤) ﴾ [المؤمنون : ٨٨] ، وكقوله تعالى : ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ** ﴾ [الملك : ١] ، فالملك والملكوت واحد فى المعنى ، كرحمة ورَحَمُوت ، ورَهْبَة ورهبوت ، وجَبْر وجَبَروت . ومن الناس من زعم أن المُلْك هو عالم الأجساد (٥) ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والأول هو الصحيح ، وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

قال (٦) الإمام أحمد : حدثنا حماد ، عن عبد الملك بن عمير ، حدثنى ابن عم لحذيفة ، عن حذيفة ـ وهو ابن اليمان ـ رضى اللّه عنه ، قال : قمت مع رسول اللّه ﷺ ذات ليلة ، فقرأ السبع الطُّوَل (٧) فى سبع ركعات ، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال : « سمع اللّه لمن حمده » . ثم قال: « الحمد لذى (٨) ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه ، فأنصرف وقد كادت تنكسر رجلاى (٩) .

وقد روى أبو داود ، والترمذى فى الشمائل ، والنسائى ، من حديث شعبة ، عن عمرو بن مُرة، عن أبى حَمْزة ـ مولى الأنصار ـ عن رجل من بنى عَبْس ، عن حذيفة ؛ أنه رأى رسول اللّه ﷺ من الليل ، وكان يقول : « اللّه أكبر ـ ثلاثاً ـ ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » . ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع فكان ركوعه نحوا من قيامه ، وكان يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » . ثم رفع رأسه من الركوع ، فكان قيامه نحوا من [ركوعه ، يقول : « لربى الحمد » . ثم سجد ، فكان سجوده نحوا من] (١٠) قيامه ، وكان يقول فى سجوده : « سبحان ربى الأعلى » . ثم رفع

(١) انظر البيت عند تفسير الآية : ٤٠ من سورة النحل .
(٢) فى ت : « وروى » .
(٣) المسند (٥/١٧٧).
(٤) فى ت : « قل من بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » وهو خطأ .
(٥) فى ت ، س : « الأجسام » .
(٦) فى ت : « وروى ».
(٧) فى ت : « الطوال » .
(٨) فى ت ، س : « للّه » .
(٩) المسند (٥/ ٣٨٨) .
(١٠) زيادة من ت ، وأبى داود .

رأسه من السجود ، وكان يقعد فيما بين السجدتين نحوا من سجوده ، وكان يقول : « رب ، اغفر لى، رب اغفر لى » . فصلى أربع ركعات ، فقرأ فيهن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ـ أو الأنعام[١]ـ شك شعبة ـ هذا لفظ أبى داود [٢] .

وقال النسائى : « أبو حمزة عندنا : طلحة بن يزيد ، وهذا الرجل يشبه أن يكون صلة » . كذا قال . والأشبه أن يكون ابن عم حذيفة ، كما تقدم فى رواية الإمام أحمد ، [والله أعلم] [٣] . فأما رواية صلة بن زفر ، عن حذيفة ، فإنها فى صحيح مسلم ، ولكن ليس فيها ذكر الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة .

وقال [٤] أبو داود : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى معاوية بن صالح ، عن عمرو بن قيس ، عن عاصم بن حُميد ، عن عوف بن مالك الأشجعى قال : قمتُ مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة ، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوّذ . قال : ثم ركع بقدر قيامه ، يقول فى ركوعه : « سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ». ثم سجد بقدر قيامه ، ثم قال فى سجوده مثل ذلك ، ثم قام فقرأ بآل عمران ، ثم قرأ سورة سورة .

ورواه الترمذى فى الشمائل ، والنسائى ، من حديث معاوية بن صالح ، به [٥] .

[آخر تفسير سورة « يس » ولله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً] [٦]

(١) فى ت : « والأنعام » .
(٢) سنن أبى داود برقم (٨٧٤) والشمائل للترمذى برقم (٢٦٠) وسنن النسائى (٢/ ١٩٩) .
(٣) زيادة من س . (٤) فى ت : « وروى » .
(٥) سنن أبى داود برقم (٨٧٣) والشمائل للترمذى برقم (٢٩٦) وسنن النسائى (٢/ ١٩١) .
(٦) زيادة من س .

فهرس السور

محققة عن نسخة خطية كاملة، وعن مطبوعة الشعب وأكثر من عشر نسخ خطية أخرى يستوعب مجموعها التفسير كله.

تفسير القرآن العظيم

للحافظ

أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي

(٧٠٠ - ٧٧٤ هـ)

تحقيق

سامي بن محمد السلامة

الجزء السابع

الصافات - الواقعة

دار طيبة للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

الطبعة الثانية
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

(تم فيها استدراك السقط الحاصل بالمجلد الأول من طبعة الشعب)

دار طيبة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية – الرياض – السويدي – ش. السويدي العام – غرب النفق

ص.ب: ٧٦١٢ – رمز بريدي: ١١٤٧٢ – ت: ٤٢٥٣٧٣٧ – فاكس: ٤٢٥٨٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسیر القرآن العظیم

تفسير سورة الصافات

[وهى] [١]مكية.

قال النسائى: أخبرنا إسماعيل بن مسعود، حدثنا خالد ـ يعنى ابن الحارث ـ عن ابن أبى ذئب قال: أخبرنى الحارث بن عبد الرحمن، عن سالم بن عبد الله، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما، قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا [٢]بالتخفيف، ويؤمنا بالصافات. تفرد به النسائى[٣].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥)﴾.

قال سفيان الثورى، عن الأعمش، عن أبى الضُّحَى، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، أنه قال: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ وهى: الملائكة، ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ وهى: الملائكة، ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ ، هى: الملائكة.

وكذا قال ابن عباس، ومسروق، وسعيد بن جُبَيْر، وعِكْرِمة، ومجاهد، والسُّدِّىّ، وقتادة، والربيع بن أنس.

قال قتادة: الملائكة صفوف فى السماء.

وقال[٤] مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبى شَيْبَة، حدثنا محمد بن فُضَيْل، عن أبى مالك الأشجعى، عن رِبْعِىّ، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً [٥] وجُعلت لنا تُربتها [٦]طهوراً إذا لم نجد الماء»[٧] .

وقد روى مسلم أيضاً، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، من حديث الأعمش، عن المُسَيَّب بن رافع، عن تميم بن طَرَفة، عن جابر بن سَمُرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تَصُفُّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: «يُتمون الصفوف المتقدمة ويَتَراصون فى الصف»[٨].

وقال السدى وغيره: معنى قوله: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ : أنها تزجر السحاب.

وقال الربيع بن أنس: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ : ما زجر الله عنه فى القرآن. وكذا رَوَى مالك، عن

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى ت: «يأمر».
(٣) سنن النسائى (٢/ ٩٥).
(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى س: «مسجدا وطهورا». (٦) فى ت، س: «تربتها لنا».
(٧) صحيح مسلم برقم (٥٢٢).
(٨) صحيح مسلم برقم (٤٣٠) وسنن أبى داود برقم (٦٦١) وسنن النسائى (٢/ ٩٢) وسنن ابن ماجه برقم (٩٢٢).

زيد بن أسلم.

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ قال السدي: الملائكة يجيئون بالكتاب، والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا .عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٥، ٦].

وقوله: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾، هذا هو المقسم عليه؛ أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: من المخلوقات، ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾أي: هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب(١) ثوابت، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب. واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه. وقد صرح بذلك في قوله: ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]. وقال في الآية الأخرى: ﴿رَبُّ المشرقين ورب المغربين﴾ [الرحمن: ١٧]، يعني: في الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) ﴾ .

يخبر تعالى أنه زَين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض﴿ بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾، قرئ بالإضافة وبالبدل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوؤها جرمَ السماء الشفاف، فتضيء(٢) لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٥]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ ـ ١٨].

وقوله هاهنا: ﴿ وَحِفْظًا﴾ تقديره: وحفظناها حفظاً، ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾يعني: المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع، أتاه شهاب ثاقب فأحرقه؛ ولهذا قال: ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى﴾ أي: لئلا يصلوا(٣) إلى الملأ الأعلى، وهي السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحيه الله مما يقوله من شرعه وقدره، كما تقدم بيان ذلك في الأحاديث التي أوردناها عند قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣].

ولهذا قال: ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي: يرمون، ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي: من كل جهة يقصدون السماء منها، ﴿دُحُورًا﴾ أي: رجما يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر، كما قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾[الملك: ٥].

وقوله: ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهي الكلمة يسمعها

---

(١) في ت: «الكواكب». (٢) في ت، س: «فيضيء». (٣) في ت، س: «يصلون».

من السماء فيلقيها إلى الذى تحته، ويلقيها الآخر إلى الذى تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها بقدر الله قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن، كما تقدم فى الحديث؛ ولهذا قال: ﴿إلا منْ خطفَ الْخطْفَةَ فَأَتْبعَهُ شهَابٌ ثَاقبٌ﴾ أى: مستنير.

قال[١] ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكِيع، عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: كانت للشياطين مقاعد فى السماء فكانوا[٢] يستمعون الوحى. قال: وكانت النجوم لا تجرى، وكانت الشياطين لا تُرْمى. قال: فإذا سمعوا[٣] الوحى نزلوا إلى الأرض، فزادوا فى الكلمة تسعاً. قال: فلما بعث رسول الله ﷺ، جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاء شهاب فلم يُخْطئه حتى يُحرقَه. قال: فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هو إلا من أمْر حدث. قال: فَبَثّ جنوده، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى بين جبلى نخلة ـ قال وكيع: يعنى بطن نخلة ـ قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذى حدث[٤].

وستأتى الأحاديث الواردة مع الآثار فى هذا المعنى عند قوله تعالى إخبارا عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا . وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨ ـ ١٠].

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩)﴾ .

يقول تعالى: فَسَل هؤلاء المنكرين للبعث: أيما أشد خلقاً هم أم[٥] السموات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ ـ وقرأ ابن مسعود: «أم من عددنا» ـ فإنهم يُقرّون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا[٦]، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

ثم بين أنهم خُلقوا من شىء ضعيف، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ﴾،

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك: هو الجيّد الذى يلتزق بعضه ببعض. وقال ابن

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى ت، س: «قال: فكانوا». (٣) فى أ: «استمعوا».
(٤) تفسير الطبرى (٢٣/ ٢٥).
(٥) فى س: «أو». (٦) فى ت، أ: «أنكروه».

عباس، وعكرمة: هو اللزج. وقال قتادة: هو الذى يلزق باليد.

وقوله: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أى: بل عجبت ـ يا محمد ـ من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها. وهم بخلاف أمرك، من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك.

قال قتادة: عجب محمد ﷺ، وسَخِر ضُلاَّل بنى آدم.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ أى: دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ قال مجاهد، وقتادة: يستهزئون.

﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: إن هذا الذى جئت به إلا سحر مبين، ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به، ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أى: قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابا وعظاما، ﴿وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أى: حقيرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ثم قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ أى: إنما هو أمر واحد من الله عز وجل، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم [قيام][(١)] بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

يخبر تعالى عن قِيلِ الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة، ويعترفون بأنهم[(٢)] كانوا ظالمين لأنفسهم فى الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة نَدمُوا كلَّ الندم حيث لا ينفعهم الندم، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ، ويأمر الله الملائكة أن تُميزَ الكفار من المؤمنين فى الموقف فى محشرهم ومنشرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال النعمان ابن بشير[(٣)]، رضى الله عنه: يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن

(١) زيادة من ت، س، أ.

(٢) فى ت: «أنهم».

(٣) فى أ: «بشر».

جُبَيْر، وعِكْرِمة ومجاهد، والسُّدِّى، وأبو صالح، وأبو العالية، وزيد بن أسلم [وغيرهم](١).

وقال سفيان الثورى، عن سِمَاك، عن النعمان بن بشير(٢)، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: إخوانهم(٣).

وقال شريك، عن سماك، عن النعمان قال: سمعت عمر يقول: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: أشباههم. قال: يجىء صاحب الربا مع أصحاب الربا، وصاحب(٤) الزّنا مع أصحاب الزّنا، وصاحب(٥) الخمر مع أصحاب الخمر.

وقال خُصَيْف، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾: نساءهم.

وهذا غريب، والمعروف عنه الأول، كما رواه مجاهد وسعيد بن جبير، عنه: ﴿أَزْوَاجَهُمْ﴾: قُرَناءهم(٦).

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، تحشر معهم فى أماكنهم.

وقوله: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أى: أرشدوهم إلى طريق جهنم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ أى: قفوهم حتى يُسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التى صدرت عنهم فى الدار الدنيا كما قال الضحاك، عن ابن عباس: يعنى احبسوهم إنهم محاسبون.

وقال ابن أبى حاتم(٧): حدثنا أبى، حدثنا النُّفَيلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت ليثا يُحدّث عن بشر، عن أنس بن مالك [رضى الله عنه](٨) قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما داع دعا إلى شىء كان موقوفاً معه إلى يوم القيامة، لا يغادره ولا يفارقه، وإن دعا رجل رجلا»، ثم قرأ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾.

ورواه الترمذى، من حديث ليث بن أبى سليم(٩). ورواه ابن جرير، عن يعقوب بن إبراهيم، عن معتمر، عن ليث، عن رجل، عن أنس مرفوعا(١٠).

وقال عبد الله بن المبارك: سمعت عثمان بن زَائِدَةَ يقول: إن أول ما يُسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أى: كما(١١) زعمتم أنكم جميع منتصر، ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أى: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه.

(١) زيادة من ت.
(٢) فى أ: «بشر».
(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٣١).
(٤، ٥) فى ت، س، أ: «أصحاب».
(٦) فى س: «قرباؤهم».
(٧) فى ت: «الترمذى».
(٨) زيادة من ت.
(٩) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٨).
(١٠) تفسير الطبرى (٢٣/ ٣٢).
(١١) فى ت: «كلما».

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون فى عرصات القيامة، كما يتخاصمون فى دركات النار، ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ [١] مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ .وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ـ٣٣]. قالوا لهم هاهنا: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: يقولون: كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا؛ لأنا[٢] كنا أذلاء وكنتم أعزاء.

وقال مجاهد: يعنى: عن الحق، الكفار تقوله[٣] للشياطين.

وقال قتادة: قالت الإنس للجن: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال: من قبل الخير، فتنهونا عنه وتبطئونا عنه.

وقال السدى: تأتوننا [عن اليمين][٤] من قبل الحق، تزينون[٥] لنا الباطل، وتصدونا عن الحق.

وقال الحسن فى قوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ إى والله، يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه.

وقال ابن زيد: معناه تحولون بيننا وبين الخير، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذى أمرنا به.

وقال يزيد الرِشْك: من قبل «لا إله إلا الله». وقال خُصيف: يعنون من قبل ميامنهم. وقال

(١) فى ت، س: «المجرمون». (٢) فى أ: «لأننا». (٣) فى ت: «بقوله».
(٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «وتزينوا».

عكرمة: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ ،قال: من حيث نأمنكم.

وقوله: ﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ : تقول القادة من الجن، والإنس للأتباع: ما الأمر كما تزعمون؟ بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان، قابلة للكفر والعصيان، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم[1] مِّن سُلْطَانٍ﴾ أى: من حجة على صحة ما دعوناكم إليه، ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أى: بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق؛ فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذى جاءتكم به الأنبياء، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به، فخالفتموهم.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ . فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾، يقول الكبراء للمستضعفين: حقت علينا كلمة الله[2]: إنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة، ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾ أى: دعوناكم إلى الضلالة، ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أى: دعوناكم[3] إلى ما نحن فيه، فاستجبتم لنا، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أى: الجميع فى النار، كل بحسبه، ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: يستكبرون أن يقولوها، كما يقولها المؤمنون.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وَهْب، حدثنا عمى، حدثنا الليث، عن ابن مُسافر ـ يعنى عبد الرحمن بن خالد ـ عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هُرَيرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله، وأنزل الله فى كتابه ـ وذكر قوما استكبروا ـ فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾»[4].

وقال[5] ابن أبى حاتم أيضا: حدثنا أبى، حدثنا أبو سلمة موسى بن إسماعيل، حدثنا حمَّاد، عن سعيد الجُرَيرى، عن أبى العلاء قال: يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: الله وعُزَيراً. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال، ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: نعبد الله والمسيح. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال. ثم يؤتى بالمشركين فيقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون. ثم يقال لهم: «لا إله إلا الله»، فيستكبرون. ثم يقال لهم: «لا إله إلا الله» فيستكبرون. فيقال لهم: خذوا ذات الشمال ـ قال أبو نضرة: فينطلقون أسرع من الطير ـ قال أبوالعلاء: ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد الله. فيقال لهم: هل تعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم. فيقال لهم: فكيف تعرفونه ولم تروه؟ قالوا: نعلم أنه لا عِدْلَ له. قال: فيتعرف لهم تبارك وتعالى، وينجى الله المؤمنين.

(١) فى ت: «لكم علينا». (٢) فى أ: «كلمة ربك».

(٣) فى ت، س: «فدعوناكم».

(٤) وقد رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢١) بدون ذكر الآية من طريق يونس عن الزهرى به.

(٥) فى ت: «وروى».

﴿ويَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ أى: أنحن(١) نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول [هذا](٢) الشاعر المجنون، يعنون رسول الله ﷺ؟! قال الله تعالى تكذيبا لهم، وردا عليهم: ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ﴾، يعنى رسول الله ﷺ جاء بالحق فى جميع شرْعة(٣) الله له من الإخبار والطلب، ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: صدّقهم فيما أخبروه(٤) عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله فى شرعه [وقدره](٥) وأمره كما أخبروا، ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [فصلت: ٤٣].

﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٩) ﴾.

يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الأَلِيمِ . وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ١ـ٣].

وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٤ـ٦]، وقال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا . ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ. إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩]؛ولهذا قال هاهنا: ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون فى الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله من التضعيف.

وقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ قال قتادة، والسدى: يعنى الجنة. ثم فسره بقوله تعالى: ﴿فَوَاكِهُ﴾ أى: متنوعة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ أى: يُخْدمون [ويرزقون](٦) ويرفهون وينعمون، ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم فى قفا بعض.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يحيى بن عبدك(٧) القزوينى، حدثنا حسان بن حسان(٨)، حدثنا إبراهيم ابن بشر(٩)، حدثنا يحيى بن معين، حدثنا إبراهيم القرشى، عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبى أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ ينظر بعضهم إلى بعض.

---

(١) فى ت: «نحن». (٢) زيادة من ت، س. (٣) فى أ: «ما شرعه».
(٤) فى ت، س: «أخبروا». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) زيادة من أ.
(٧) فى أ: «عبد الله». (٨) فى أ: «حبان». (٩) فى أ: «بشير».

حديث غريب[(١)].

وقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ. بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ. لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ . لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ١٩]، فنزه الله خمر الآخرة[(٢)] عن الآفات التى فى خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن ـ وهو الغول ـ وذهابها بالعقل جملة، فقال هاهنا:﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أى: بخمر من أنهار جارية، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها.

قال مالك، عن زيد بن أسلم: خمر جارية[(٣)] بيضاء، أى: لونها مشرق حسن بهى لا كخمر الدنيا فى منظرها البشع الردىء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة[(٤)]، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم.

وقوله: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ أى: طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا فى جميع ذلك.

وقوله: ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾ يعنى: لا تؤثر فيهم غولا ـ وهو وجع البطن. قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد ـ كما تفعله خمر الدنيا من القُولَنْج ونحوه، لكثرة مائيتها.

وقيل: المراد بالغول هاهنا: صداع الرأس. وروى هكذا عن ابن عباس.

وقال قتادة: هو صداع الرأس، ووجع البطن. وعنه، وعن السدى: لا تغتال عقولهم، كما قال الشاعر:

فما زَالَتِ الكأسُ تَغْتَالُنا ... وتَذْهبُ بالأوَّل الأوَّل[(٥)] [(٦)]

وقال سعيد بن جبير: لا مكروه فيها ولا أذى. والصحيح قول مجاهد: أنه وجع البطن.

وقوله: ﴿وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم، وكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب، والحسن، وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى، والسدى، وغيرهم.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: فى الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول. فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال، كما ذكر فى سورة «الصافات» [(٧)].

وقوله: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن. كذا قال ابن

---

(١) ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (٣/ ٣٨٦) فى ترجمة زيد بن أبى أوفى من طريق حسان بن حسان به، وقال: «لا يتابع عليه».
(٢) فى ت، س: «الجنة». (٣) فى ت، س: «جارى». (٤) فى ت: «كدرة».
(٥) فى ت: «فالأول».
(٦) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/ ٣٥).
(٧) فى ت: «والصافات».

عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وقتادة، والسدى، وغيرهم.

وقوله: ﴿عِينٌ﴾ أى: حسان الأعين. وقيل: ضخام الأعين. وهو يرجع إلى الأول، وهى النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا فى يوسف حين جملته وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمنه وأكبرنه، وظنن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أى: هو مع هذا الجمال عفيف تقى نقى، [فأرتهن جماله الظاهر وأخبرتهن بجماله الباطن][1]. وهكذا الحور العين ﴿ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن: ٧٠]، ولهذا قال: ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ .

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾: وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، رضى الله عنهما: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون.

وينشد هاهنا بيت أبى دهبل الشاعر فى قصيدة له:

وَهْىَ زَهْرَاء مثْلَ لؤلؤة الغوّ ... اص مُيِّزَتْ مِن جوهر مكْنُون[2]

وقال الحسن: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يعنى: محصون[3] لم تمسه الأيدى.

وقال السدى: البيض فى عشه مكنون.

وقال سعيد بن جبير: ﴿[كَأَنَّهُنَّ][4]بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾، يعنى: بطن البيض[5].

وقال عطاء الخراسانى: هو السحاء الذى يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة.

وقال السدى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ يقول: بياض البيض حين ينزع قشره. واختاره ابن جرير لقوله: ﴿ مَّكْنُونٌ﴾، قال: والقشرة العليا يمسها جناح الطير والعش، وتنالها الأيدى بخلاف داخلها، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنا محمد بن الفرج الصدفى الدمياطى، عن عمرو بن هاشم، عن ابن أبى كريمة، عن هشام، عن الحسن، عن أمه، عن أم سلمة[6]، رضى الله عنها، قلت[7]: يا رسول الله، أخبرنى عن قول الله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[8] قال: «رقتهن كرقة الجلدة التى رأيتها فى داخل البيضة، التى تلى القشر، وهى الغِرْقِئ»[9].

(١) زيادة من ت.
(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/ ٣٧).
(٣) فى ت: «مصون». (٤) زيادة من ت. (٥) فى ت: «العين».
(٦) فى ت: « وروى ابن جرير بإسناده عن أم سلمة». (٧) فى ت: «عنها قالت: قلت».
(٨) فى ت، س: « أخبرنى عن قول الله : ﴿حور عين﴾ قال: « العين : الضخام العيون، شفر الحوراء مثل جناح النسر». قلت: يا رسول الله، أخبرنى عن قول الله : ﴿كأنهن بيض مكنون﴾.
(٩) تفسير الطبرى (٢٣/ ٣٧) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٣/ ٣٦٧) حدثنا بكر بن سهل الدمياطى حدثنا عمرو بن هاشم به، قال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١١٩): «فيه سليمان بن أبى كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدى».

وقال[١] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى: حدثنا أبو غسان النهدى، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن ليث، عن الربيع بن أنس، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حبسوا، لواء الحمد يومئذ بيدى، وأنا أكرم ولد آدم على ربى عز وجل ولا فخر، يطوف على ألف خادم كأنهن البيض المكنون ـ أو: اللؤلؤ المكنون»[٢].

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أى: عن أحوالهم، وكيف كانوا فى الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها؟ وذلك من حديثهم على شرابهم[٣]، واجتماعهم فى تنادمهم وعشرتهم فى مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويجيؤون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ **قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ** ﴾ قال مجاهد: يعنى شيطانا.

وقال العوفى، عن ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان فى الدنيا.

ولا تنافى بين كلام مجاهد، وابن عباس؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس فى النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاما تسمعه الأذنان، وكلاهما متعاديان[٤]، قال الله تعالى: ﴿ **يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا** ﴾ [الأنعام: ١١٢]. وكل منهما يوسوس، كما قال [٥] تعالى: ﴿ **[قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ . إِلَٰهِ النَّاسِ]**[٦] **. مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** ﴾ [سورة الناس]؛ ولهذا ﴿ **قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ** ﴾ أى: أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعنى: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد، ﴿ **أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ** ﴾ قال مجاهد، والسدى: لمحاسبون؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظى: لمجزيون بأعمالنا؟

---

(١) فى ت: «وروى».

(٢) ورواه البيهقى فى دلائل النبوة (٥/٤٨٣) من طريق منصور بن أبى الأسود عن ليث عن الربيع بن أنس به، ثم رواه من طريق حبان بن على عن ليث عن عبيد الله بن زحر عن الربيع عن أنس به، وقال: «تابعه ـ أى الليث ـ محمد بن فضيل عن عبيد الله بن زحر».

(٣) فى أ: «سراتهم». (٤) فى ت، س: «متعاونان». (٥) فى ت: «قال الله تعالى».

(٦) زيادة من ت، س، أ .

قال: ﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أى: مشرفون. يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة. ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾. قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وخليد العصرى وقتادة، والسدى، وعطاء الخراسانى [وغيرهم][(١)]: يعنى فى وسط الجحيم.

وقال الحسن البصرى: فى وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد.

وقال قتادة: ذكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلى. وذكر لنا أن كعب الأحبار قال: فى الجنة كوى إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه فى النار اطلع فيها، فازداد شكرا.

﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾، يقول المؤمن مخاطبا للكافر: والله إن كدت لتهلكنى لو أطعتك، ﴿ وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أى: ولولا فضل الله على لكنت مثلك فى سواء الجحيم حيث أنت، محضر معك فى العذاب، ولكنه تفضل [علىّ][(٢)] ورحمنى فهدانى للإيمان، وأرشدنى إلى توحيده، ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقوله: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، هذا من كلام المؤمن مغبطا نفسه بما أعطاه الله من الخلد فى الجنة[(٣)] والإقامة فى دار الكرامة، لا موت فيها ولا عذاب؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

قال[(٤)] ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهرانى، حدثنا حفص بن عمر العَدَنى، حدثنا الحكم ابن أبان، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضى الله عنهما، فى قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الطور: ١٩]، قال ابن عباس، رضى الله عنهما: قوله: ﴿هَنِيئًا﴾ أى: لا يموتون[(٥)] فيها. فعندها قالوا: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾.

وقال الحسن البصرى: علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه، فقالوا: ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلا مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، قيل [لهم][(٦)]: لا. قالوا: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾.

وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ قال قتادة: هذا من كلام أهل الجنة.

وقال ابن جرير: هو من كلام الله تعالى، ومعناه: لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون فى الدنيا، ليصيروا إليه فى الآخرة[(٧)].

وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين فى بنى إسرائيل، تدخل فى ضمن عموم هذه الآية الكريمة.

قال أبو جعفر بن جرير: حدثنى إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، حدثنا عتاب بن بشير، عن خصيف، عن فرات بن ثعلبة البهرانى فى قوله: ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ قال: إن رجلين كانا

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من س، أ. (٣) فى ت: «فى الجنة من الخلد».
(٤) فى ت: «روى». (٥) فى ت، س: «لا تموتون». (٦) زيادة من ت، أ.
(٧) تفسير الطبرى (٢٣/ ٤٠).

شريكين، فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار، وكان أحدهما له حرفة، والآخر ليس له حرفة، فقال الذى له حرفة للآخر: ليس عندك حرفة، ما أرانى إلا مفارقك ومقاسمك، فقاسمه وفارقه، ثم إن الرجل اشترى دارًا بألف دينار كانت لملك، مات، فدعا صاحبه فأراه فقال: كيف[١] ترى هذه الدار؟ ابتعتها بألف دينار؟ قال: ما أحسنها! فلما خرج قال: اللهم، إن صاحبى ابتاع[٢] هذه الدار بألف دينار، وإنى أسألك دارا من دور الجنة، فتصدق بألف دينار، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث، ثم إنه تزوج بامرأة[٣] بألف دينار، فدعاه وصنع له طعاما. فلما أتاه قال: إنى تزوجت امرأة بألف دينار. قال: ما أحسن هذا! فلما انصرف قال: يارب، إن صاحبى تزوج امرأة بألف دينار، وإنى أسألك امرأة من الحور العين. فتصدق بألف دينار، ثم إنه مكث ما شاء الله أن يمكث. ثم اشترى بستانين بألفى دينار، ثم دعاه فأراه فقال: إنى ابتعت هذين البستانين[٤]. فقال: ما أحسن هذا! فلما خرج قال: يارب، إن صاحبى قد اشترى بستانين بألفى دينار، وأنا أسألك بستانين فى الجنة. فتصدق بألفى دينار، ثم إن الملك أتاهما فتوفاهما، ثم انطلق بهذا المتصدق، فأدخله دارا تعجبه، وإذا امرأة تطلع يضىء ما تحتها من حسنها، ثم أدخله بستانين وشيئا الله به عليم[٥]، فقال عند ذلك: ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا. قال: فإنه ذاك، ولك هذا المنزل والبستانان والمرأة. قال: فإنه كان لى صاحب يقول: أئنك لمن المصدقين؟ قيل له: فإنه فى الجحيم. قال: هل أنتم مطلعون؟ فاطلع فرآه فى سواء الجحيم. فقال عند ذلك: ﴿ **تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ .وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**﴾ الآيات.

قال ابن جرير: وهذا يقوى قراءة من قرأ: «أئنك لمن الْمُصَّدِّقِينَ» بالتشديد.

وقال[٦] ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن الأبار أبو حفص قال: سألت إسماعيل السدى عن هذه الآية: ﴿ **قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ**﴾ ؟ قال: فقال لى: ما ذكرك هذا؟ قلت: قرأته آنفا فأحببت أن أسألك عنه؟ فقال: أما فاحفظ، كان شريكان فى بنى إسرائيل، أحدهما مؤمن والآخر كافر، فافترقا على ستة آلاف دينار، كل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت فى مالك؟ أضربت به شيئا؟ أتجرت به فى شىء؟ فقال له المؤمن: لا، فما صنعت أنت؟ فقال: اشتريت به أرضا ونخلا وثمارا وأنهارا[٧] قال: فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلى، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلانا ـ يعنى شريكه الكافر ـ اشترى أرضا ونخلا وثمارا وأنهارا بألف دينار، ثم يموت غدا ويتركها، اللهم إنى اشتريت منك بهذه الألف دينار[٨] أرضا ونخلا وثمارا وأنهارا فى الجنة. قال: ثم أصبح فقسمها فى المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر

---

(١) فى ت، س: «فكيف». (٢) فى ت، س: «إن صاحبى هذا قد ابتاع». (٣) فى ت، س: «امرأة».
(٤) فى ت، أ: «البستانين بألفى دينار». (٥) فى ت: «وفيهما ما الله به عليم». (٦) فى ت: «وروى».
(٧) فى ت، س: «وأنهار بألف دينار». (٨) فى س: «الدينار».

للمؤمن: ما صنعت فى مالك، أضربت به فى شىء؟ أتجرت به فى شىء؟ قال: لا، فما صنعت أنت. قال: كانت ضيعتى قد اشتد على مؤنتها، فاشتريت رقيقا بألف دينار، يقومون بى[١] فيها، ويعملون لى فيها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. قال: فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلى، فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه، ثم قال: اللهم إن فلانا ـ يعنى شريكه الكافر ـ اشترى رقيقا من رقيق الدنيا بألف دينار، يموت غدا ويتركهم، أو يموتون فيتركونه، اللهم، وإنى أشترى منك بهذه الألف الدينار رقيقا فى الجنة. ثم أصبح فقسمها فى المساكين. قال: ثم مكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن: ما صنعت فى مالك؟ أضربت به فى شىء؟ أتجرت به فى شىء؟ قال: لا، فما صنعت أنت؟ قال: أمرى كله قد تم إلا شيئا واحدا، فلانة قد مات عنها زوجها، فأصدقتها ألف دينار، فجاءتنى بها ومثلها معها. فقال له المؤمن: أو فعلت؟ قال: نعم. فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله أن يصلى، فلما انصرف أخذ الألف الدينار الباقية، فوضعها بين يديه، وقال: اللهم إن فلانا ـ يعنى شريكه الكافر ـ تزوج زوجة من أزواج الدنيا[٢]، فيموت غدا فيتركها، أو يموت فتتركه، اللهم وإنى أخطب إليك بهذه الألف الدينار[٣] حوراء عيناء فى الجنة. ثم[٥] أصبح فقسمها بين المساكين. قال: فبقى المؤمن ليس عنده شىء. قال: فلبس قميصا من قطن، وكساء من صوف، ثم أخذ مَرًّا فجعله على رقبته، يعمل الشىء ويحفر الشىء بقوته. قال: فجاءه رجل فقال: يا عبد الله، أتؤاجرنى نفسك مشاهرة، شهرا بشهر، تقوم على دواب لى تعلفها وتكنس سَرْقينها؟ قال: نعم. قال: فواجره نفسه مشاهرة، شهرا بشهر، يقوم على دوابه. قال: فكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه، فإذا رأى منها دابة ضامرة، أخذ برأسه فوجأ عنقه، ثم يقول له: سرقت شعير هذه[٥] البارحة؟ فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال: لآتين شريكى الكافر، فلأعملن فى أرضه فيطعمنى هذه الكسرة يوما[٦]، ويكسونى هذين الثوبين إذا بليا. قال: فانطلق يريده، فلما انتهى إلى بابه وهو ممس، فإذا قصر مشيد فى السماء، وإذا حوله البوابون، فقال لهم: استأذنوا لى[٧] صاحب هذا القصر، فإنكم إذا فعلتم سره ذلك، فقالوا له: انطلق إن كنت صادقا فنم فى ناحية، فإذا أصبحت فتعرض له. قال: فانطلق المؤمن، فألقى نصف كسائه تحته، ونصفه فوقه، ثم نام. فلما أصبح أتى شريكه فتعرض له، فخرج شريكه الكافر وهو راكب، فلما رآه عرفه فوقف عليه وسلم عليه وصافحه، ثم قال له: ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت؟ قال: بلى وهذه حالى[٨] وهذه حالك. قال: أخبرنى ما صنعت فى مالك؟ قال: لا تسألنى عنه. قال: فما جاء بك؟ قال: جئت أعمل فى أرضك هذه، فتطعمنى هذه الكسرة يوما بيوم، وتكسونى هذين الثوبين إذا بليا. قال: لا، ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا، ولكن لا ترى منى خيرا حتى تخبرنى ما صنعت فى مالك؟ قال: أقرضته: قال: من؟ قال: الملىء الوفى. قال: من؟ قال: الله ربى. قال: وهو

(١) فى ت، س، أ: «لى».
(٢) فى ت، س: «الدنيا بألف دينار».
(٣) فى ت: «دينار».
(٤)فى ت، س: «قال: ثم».
(٥) فى ت: «هذه الدابة».
(٦) فى ت، س: «يوما بيوم».
(٧) فى ت، س: «لى على».
(٨) فى ت: «حالتى».

مصافحه، فانتزع يده من يده، ثم قال: ﴿أئنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون﴾ ـ قال السدى: محاسبون ـ قال: فانطلق[1] الكافر وتركه. قال: فلما رآه المؤمن ليس يلوى عليه، رجع وتركه، يعيش المؤمن فى شدة من الزمان، ويعيش الكافر فى رخاء من الزمان. قال: فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله المؤمن الجنة، يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار، فيقول: لمن هذا [2]؟ فيقال: هذا لك. فيقول: يا سبحان الله! أوَ بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يمر فإذا هو برقيق لا تحصى عدتهم، فيقول: لمن هذا؟ فيقال: هؤلاء لك. فيقول: ياسبحان الله! أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يمر فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة، فيها حوراء عيناء، فيقول: لمن هذه؟ فيقال: هذه لك. فيقول: يا سبحان الله! أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا؟! قال: ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر فيقول: ﴿إني كان لي قرين . يقول أئنك لمن المصدقين. أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون﴾ قال: فالجنة عالية، والنار هاوية. قال: فيريه الله شريكه فى وسط الجحيم، من بين أهل النار، فإذا رآه المؤمن عرفه، فيقول: ﴿تالله إن كدت لتردين. ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين. أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين. إن هذا لهو الفوز العظيم .لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ : بمثل ما [3] منَّ عليه. قال: فيتذكر المؤمن ما مر عليه فى الدنيا من الشدة، فلا يذكر مما مر عليه فى الدنيا من الشدة، أشد عليه من الموت[4].

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠)﴾ .

يقول الله تعالى: أهذا الذى ذكره[5] من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ ـ خير ضيافة وعطاء ﴿أم شجرة الزقوم﴾؟ أى: التى فى جهنم.

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، كما قال بعضهم من أنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم كما أن شجرة طوبى ما من دار فى الجنة إلا وفيها منها غصن.

وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر، يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعنى الزيتونة. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢].

وقوله: ﴿إنا جعلناها فتنة للظالمين﴾، قال قتادة: ذكرت شجرة الزقوم، فافتتن بها أهل الضلالة،

(١) فى ت، س: «وانطلق».   (٢) فى أ: «هذه».   (٣) فى ت، س: «ما قد».
(٤) وهذا من أخبار بنى إسرائيل التى لا يعتمد عليها.   (٥) فى أ: «ذكرته».

وقالوا: صاحبكم ينبئكم أن فى النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فأنزل الله عز وجل: ﴿**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ**﴾ غذت من النار، ومنها خلقت.

وقال مجاهد: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ**﴾، قال أبو جهل ـ لعنه الله ـ: إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه.

قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختبارا تختبر[1] به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب، كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء : ٦٠].

وقوله: ﴿ **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ**﴾ أى: أصل منبتها فى قرار النار، ﴿ **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**﴾ تبشيع [لها][2] وتكريه لذكرها.

قال وهب بن منبه: شعور الشياطين قائمة إلى السماء.

وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر.

وقيل: المراد بذلك ضرب من الحيات، رؤوسها بشعة المنظر.

وقيل: جنس من النبات، طلعه فى غاية الفحاشة.

وفى هذين الاحتمالين نظر، وقد ذكرهما ابن جرير، والأول أقوى وأولى، والله أعلم.

وقوله: ﴿ **فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ**﴾، ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التى لا أبشع منها، ولا أقبح من منظرها، مع ما هى عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما[3] فى معناها، كما قال [تعالى][4]: ﴿ **لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ . لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ**﴾ [الغاشية: ٦، ٧].

وقال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا شعبة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟».

ورواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، من حديث شعبة[5]، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ**﴾ قال ابن عباس: يعنى شرب الحميم على الزقوم.

---

(١) فى ت، س: «تختبر».
(٢) زيادة من ت، س، أ.
(٣) فى ت، س: «أو ما هو».
(٤) زيادة من ت، س.
(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٨٥) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٠٧٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٥).

وقال في رواية عنه: ﴿ شَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ : مزجا من حميم.

وقال غيره: يعني يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم.

وقال[١] ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا حَيْوَة بن شُرَيح الحضرمي، حدثنا بَقِيَّة بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، أخبرني عبيد الله بن بسر[٢] عن[٣] أبي أمامة الباهلي، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه كان يقول: «يقرب ـ يعني إلى أهل النار ـ ماء فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه فيه[٤]. فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره»[٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا يعقوب بن عبد الله، عن جعفر وهارون بن عنترة[٦]، عن سعيد بن جبير قال: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم [فيها][٧]، فلو أن مارا يمر بهم يعرفهم لعرف وجوههم فيها، ثم يصب عليهم العطش، فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ـ وهو الذي قد انتهى حره ـ فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود، ويصهر ما في بطونهم، فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم، ثم يضربون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حياله، يدعون بالثبور.

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أي: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة في هذا وتارة في هذا، كما قال تعالى: ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]. هكذا تلا قتادة هذه الآية عند هذه الآية، وهو تفسير حسن قوي.

وقال السدي في قراءة عبد الله: « ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم» وكان عبد الله يقول: والذي نفسي بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار. ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٤].

وروى الثوري، عن ميسرة، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ويقيل هؤلاء. قال سفيان: أراه، ثم قرأ: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾، «ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم».

قلت: على هذا التفسير تكون «ثم» عاطفة لخبر على خبر.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أي: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ قال

---

(١) في ت: «وروى». (٢) في س، أ: «بشير». (٣) في ت: «بإسناده».

(٤) في ت، أ: «فروة رأسه في فيه».

(٥) ورواه أحمد في مسنده (٥/ ٢٦٥) والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٥١) من طريق عبد الله بن المبارك عن صفوان بن عمرو به.

(٦) في ت: «وروى أيضا بإسناده». (٧) زيادة من ت.

مجاهد: شبيهة بالهرولة. وقال سعيد بن جبير: يسفهون.

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ(٧٤) ﴾ .

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى. وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، ينذرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم. فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم؛ ولهذا قال: ﴿ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ . إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ** ﴾.

﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (٧٨) سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٨٢) ﴾ .

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلا، فذكر نوحا، عليه السلام، وما لقى من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة، [فإنه][1] لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعى ربه أنى مغلوب فانتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: ﴿ **وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ** ﴾ أى: فلنعم المجيبون[2] له، ﴿ **وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ** ﴾، وهو التكذيب والأذى، ﴿ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ** ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام.

وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة فى قوله: ﴿ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ** ﴾ قال: الناس كلهم من ذرية نوح [عليه السلام][3].

وقد روى الترمذى، وابن جرير، وابن أبى حاتم، من حديث سعيد بن بشير، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ** ﴾، قال: «سام، وحام، ويافث».

وقال[4] الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة؛ أن نبى الله[5] ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم».

ورواه الترمذى عن بشر بن معاذ العَقَدىّ، عن يزيد بن زُرَيع، عن سعيد ـ وهو ابن أبى عروبة ـ

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت، س،أ: «المجيبون كنا له». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى ت: «النبى».

عن قتادة، به[١].

قال الحافظ أبو عمر بن عبد البرّ: وقد روى عن عمران[٢] بن حُصين، عن النبى ﷺ مثله[٣]. والمراد بالروم هاهنا: هم الروم الأوَل، وهم اليونان المنتسبون إلى رومى بن ليطى بن يونان بن يافث ابن نوح، عليه السلام. ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب قال: ولد نوح ثلاثة: سام وحام ويافث، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة، فولد سامُ العربَ وفارسَ والرومَ، وولد يافثُ التركَ والصقالبةَ ويأجوج ومأجوج، وولد حامُ القبطَ والسودان والبربر. وروى عن وهب بن منبه نحو هذا[٤]، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾، قال ابن عباس: يذكر بخير.

وقال مجاهد: يعنى لسان صدق للأنبياء كلهم.

وقال قتادة والسدى: أبقى الله عليه الثناء الحسن فى الآخرين. قال الضحاك: السلام والثناء الحسن.

وقوله تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه فى جميع الطوائف والأمم.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: هكذا نجزى من أحسن من العباد فى طاعة الله، نجعل[٥] له لسانَ صدْق يذكر به بعده بحسب مرتبته فى ذلك.

ثم قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: المصدقين الموحدين الموقنين، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ أى: أهلكناهم، فلم تبْق[٦] منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧)﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ يقول: من أهل دينه. وقال مجاهد: على منهاجه وسنته.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يعنى: شهادة أن لا إله إلا الله.

---

(١) المسند (٥/ ٩) وسنن الترمذى برقم (٣٩٣١) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن».

(٢) فى س: «عمر».

(٣) حديث عمران بن حصين: رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٨/ ١٤٦) من طريق سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن عمران بن حصين وسمرة بن جندب به.

(٤) فى ت: «مثله». (٥) فى ت، س: «يجعل». (٦) فى ت، أ: «يبق».

وقال [١]ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشَجّ، حدثنا أبو أسامة، عن عَوْف: قلت لمحمد بن سِيرين: ما القلب السليم؟ قال: يعلم [٢]أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور.

وقال الحسن: سليم من الشرك، وقال عروة: لا يكون لعانا.

وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾: أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد؛ ولهذا قال: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال قتادة: [يعنى][٣]: ما[٤]ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره؟!

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ (٩٨) ﴾ .

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك؛ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه كان قد أزف خروجُهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلى بآلهتهم فيكسرها، فقال لهم كلاما هو حق فى نفس الأمر، فَهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه، ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ قال قتادة: والعرب تقول لمن تفكر: نظر فى النجوم: يعنى قتادة: أنه نظر فى[٥] السماء متفكرا فيما يلهيهم[٦] به، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أى: ضعيف.

فأما الحديث الذى رواه ابن جرير هاهنا: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو أسامة، حدثنى هشام، عن محمد، عن أبى هريرة[٧]؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، غير ثلاث كذبات: ثنتين فى ذات الله، قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾[الأنبياء: ٦٣]، وقوله فى سارة: هى أختى»[٨].فهو حديث مخرج فى الصحاح[٩] والسنن من طرق [١٠]، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله، حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا

(١) فى ت: «وروى». (٢) فى ت: «تعلم». (٣) زيادة من س، أ.
(٤) فى ت: «فما». (٥) فى ت، س: «إلى». (٦) فى س: «يكيدهم».
(٧) فى ت: « فأما الحديث الذى رواه البخارى وأهل السنن عن أبى هريرة»
(٨) تفسير الطبرى (٢٣/ ٤٥) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٣٧٤) من طريق حماد بن أسامة به.
(٩) فى ت: «الصحيح».
(١٠) جاء من طريق أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة: رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٠٨٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣٧١) من طريق جرير بن حازم به، ورواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٣٥٨) من طريق حماد بن زيد به. وجاء من طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة: رواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٦٦) من طريق محمد بن إسحاق به، ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٣٧٥) من طريق شعيب بن أبى حمزة به.

تجوزا، وإنما هو من المعاريض فى الكلام لمقصد شرعى دينى، كما جاء فى الحديث: «إن [فى][١] المعاريض لمندوحة عن الكذب»[٢].

وقال[٣] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان، عن على بن زيد بن جدعان، عن أبى نَضْرَة[٤]، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ فى كلمات إبراهيم الثلاث التى قال: «ما منها كلمة إلا ما حمَل بها عن دين الله تعالى، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقال: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، وقال للملك حين أراد المرأة: هى أختى»[٥].

قال سفيان فى قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ يعنى: طعين. وكانوا يفرون من المطعون، فأراد أن يخلو بآلهتهم. وكذا قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ.فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، فقالوا له وهو فى بيت آلهتهم: اخرج. فقال: إنى مطعون، فتركوه مخافة الطاعون.

وقال قتادة، عن سعيد بن المسيب: رأى نجما طلع فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ كابد نبى الله عن دينه[٦] ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾.

وقال آخرون: فقال[٧]: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل، يعنى: مرض الموت.

وقيل: أراد ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ﴾أى: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله عز وجل.

وقال الحسن البصرى: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم، فأرادوه على الخروج، فاضطجع على ظهره وقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وجعل ينظر فى السماء، فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها. رواه ابن أبى حاتم.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ أى: إلى عيدهم، ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ أى: ذهب إليها بعد أن خرجوا فى سرعة واختفاء، ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتُبرِّك لهم فيه.

قال السدى: دخل إبراهيم، عليه السلام، إلى بيت الآلهة، فإذا هم[٨] فى بَهْوٍ عظيم، وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم، إلى جنبه [صنم آخر][٩] أصغر منه، بعضها إلى جنب بعض، كل صنم يليه أصغر منه، حتى بلغوا باب البهو، وإذا هم قد جعلوا طعاما وضعوه بين أيدى الآلهة، وقالوا: إذا كان حين نرجع وقد بَرَكَت الآلهةُ فى طعامنا أكلنا، فلما نظر إبراهيم، عليه السلام، إلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾؟!

(١) زيادة من ت، س، أ.

(٢) رواه البيهقى فى السنن الكبرى (١٠/ ١٩٩) من طريق داود بن الزبرقان عن سعيد عن قتادة عن زرارة عن عمران بن الحصين مرفوعًا.

ورواه أيضًا من طريق عبد الوهاب بن عطاء عن سعيد عن قتادة عن مطرف عن عمران بن الحصين موقوفًا وقال: «هذا هو الصحيح موقوفًا».

(٣) فى ت: «وروى». (٤) فى ت: «بإسناده».

(٥) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٤٨) حدثنا ابن أبى عمر عن سفيان به فذكر حديث الشفاعة مطولاً، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح» وعلى بن زيد بن جدعان أجمع الأئمة على ضعفه.

(٦) فى ت، أ: «ذنبه». (٧) فى ت، س: «أراد». (٨) فى أ: «هن».

(٩) زيادة من ت، أ.

وقوله: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾: قال الفراء: معناه مال عليهم ضربا باليمين.

وقال قتادة والجوهرى: فأقبل عليهم ضربا باليمين.

وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى؛ ولهذا تركهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم فى سورة الأنبياء تفسير ذلك.

وقوله هاهنا: ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾: قال مجاهد وغير واحد: أى يسرعون.

وهذه القصة هاهنا مختصرة، وفى سورة الأنبياء مبسوطة، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم، عليه السلام، هو الذى فعل ذلك. فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ فى تأنيبهم وعيبهم، فقال: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ؟! أى: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟! ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحتمل أن تكون «ما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى «الذى» تقديره: والله خلقكم والذى تعملونه. وكلا القولين متلازم، والأول أظهر؛ لما رواه البخارى فى كتاب «أفعال العباد»، عن على بن المدينى، عن مروان [(١)] بن معاوية، عن أبى مالك، عن رِبْعِىّ بن حراش، عن حذيفة مرفوعا قال: «إن الله يصنع كل صانع وصنعته»[(٢)]. وقرأ بعضهم: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه فى سورة الأنبياء، ونجاه الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾.

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ(١١٣) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم [عليه السلام][(٣)]: أنه بعد ما نصره الله على قومه وأيس من

(١) فى ت، س: «هارون».
(٢) خلق أفعال العباد (ص٧٣).
(٣) زيادة من ت، س.

إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ . رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعنى: أولادا مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم. قال الله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أولُ ولد بشر به إبراهيم، عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل فى نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ ولإبراهيم، عليه السلام، ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمْر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفى نسخة: بكْره، فأقحموا هاهنا كذبا وبهتانا «إسحاق»، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق» لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحرّفوا وحيدك، بمعنى الذى ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب[1] مكة . وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: «وحيد» إلا لمن ليس له غيره، وأيضا فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ فى الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكى ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضا، وليس ذلك فى كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تُلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلما من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، أى: يولد له فى حياتهما ولد يسمى يعقوب، فيكون من ذريته عقب ونسل. وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير؛ لأن الله [تعالى][2] قد وعدهما بأنه سيعقب، ويكون له نسل، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرا، وإسماعيل وصف هاهنا بالحلم؛ لأنه مناسب لهذا المقام.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أى: كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشى معه. وقد كان إبراهيم، عليه السلام، يذهب فى كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد «فاران» وينظر فى أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعا إلى هناك، فالله أعلم.

وعن ابن عباس، ومجاهد، وعكْرِمة، وسعيد بن جُبَيْر، وعطاء الخراسانى، وزيد بن أسلم، وغيرهم: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ يعنى: شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل، ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وَحْى، ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو عبد الملك الكرندى، حدثنا

---

(١) فى ت: «حيث».

(٢) زيادة من ت.

سفيان بن عيينة، عن إسرائيل بن يونس، عن سِمَاك، عن عكرمة[١]، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رؤيا الأنبياء فى المنام وَحْى» ليس هو فى شىء من الكتب الستة من هذا الوجه[٢].

وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه.

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أى: امض لما أمرك[٣] الله من ذبحى، ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أى: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل. وصدق، صلوات الله وسلامه عليه، فيما وعد؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥]. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أى: فلما تشهدا وذكرا الله تعالى[٤]: إبراهيم على الذبح والولد على شهادة الموت. وقيل: ﴿أَسْلَمَا﴾، [يعنى][٥]: استسلما وانقادا؛ إبراهيم امتثل أمْرَ الله، وإسماعيل طاعة الله وأبيه. قاله مجاهد، وعكرمة والسدى، وقتادة، وابن إسحاق، وغيرهم.

ومعنى ﴿تَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أى: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه، ليكون أهون عليه، قال ابن عباس، ومجاهد[٦]، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة: ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾: أكبه على وجهه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج[٧] ويونس قالا: حدثنا حماد بن سلمة، عن أبى عاصم الغَنَوِىّ، عن أبى الطفيل[٨]، عن ابن عباس أنه قال: لما أمر إبراهيم بالمناسك[٩] عَرَض له الشيطان عند السعى، فسابقه فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، وثَمّ تَلَّه للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره، فاخلعه حتى تكفننى فيه. فعالجه ليخلعه، فنُودىَ من خلفه: ﴿أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين. قال ابن عباس: لقد رأيتنا نتبع ذلك الضرب من الكباش.

وذكر تمام الحديث فى «المناسك» بطوله[١٠]. ثم رواه أحمد بطوله عن يونس، عن حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير[١١]، عن ابن عباس، فذكر نحوه إلا أنه قال: «إسحاق»[١٢]. فعن ابن عباس فى تسمية الذبيح[١٣] روايتان، والأظهر عنه إسماعيل، لما سيأتى بيانه.

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».
(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٦/١٢) من وجه آخر عن سماك: فرواه من طريق الفريابى عن سفيان عن سماك بن حرب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.
(٣) فى أ: «أنزل».
(٤) فى ت، س، أ: «عز وجل».
(٥) زيادة من ت، وفى أ: «بمعنى».
(٦) فى ت: «ومجاهد وغيرهما».
(٧) فى أ: «شريح».
(٨) فى ت: «بإسناده».
(٩) فى أ: «لما أمر الله إبراهيم عليه السلام بالمناسك».
(١٠) المسند (١/٢٩٧).
(١١) فى ت: «بسنده».
(١٢) المسند (١/٣٠٦).
(١٣) فى أ: «الذبح».

وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، عن قتادة، عن جعفر بن إياس، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: خرج عليه كبش من الجنة. قد رعى قبل ذلك أربعين خريفاً، فأرسل إبراهيم ابنه واتبع الكبش، فأخرجه إلى الجمرة الأولى، فرماه بسبع حصيات فأفلتَه عندها، فجاء الجمرةَ الوسطى فأخرجه عندها، فرماه بسبع حصيات ثم أفلته[١] فأدركه عند الجمرة الكبرى، فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها. ثم أخذه، فأتى به المنحر من منى فذبحه، فوالذى نفسُ ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام، وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه فى ميزاب الكعبة قد حَشَّ[٢]، يعنى: يبس.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، أخبرنا القاسم قال: اجتمع أبو هريرة وكعب، فجعل أبو هريرة يحدث عن النبى ﷺ، وجعل كعب يحدث عن الكُتُب، فقال أبو هريرة: قال النبى ﷺ: «إن لكل نبى دعوة مستجابة، وإنى قد خَبَأتُ دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة». فقال له كعب: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: فداك أبى وأمى ـ أو: فداه أبى وأمى ـ أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه السلام؟ إنه لما أُرِىَ ذَبْح ابنه إسحاق قال الشيطان: إن لم أفتن هؤلاء عند هذه لم أفتنهم أبدا. فخرج إبراهيم بابنه ليذبحه، فذهب الشيطان فدخل على سارة، فقال: أين ذهب إبراهيم بابنك؟ قالت: غدا به لبعض حاجته. قال: لم يغد لحاجة، وإنما ذهب به ليذبحه. قالت: ولِم يذبحه؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قالت: فقد أحسن أن يطيع ربه. فذهب الشيطان فى أثرهما فقال للغلام: أين يذهب بك أبوك؟ قال: لبعض حاجته. قال[٣]: إنه[٤] لا يذهب بك لحاجة، ولكنه يذهب بك ليذبحك. قال: ولم يذبحنى؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمره بذلك ليفعلن. قال: فيئس منه فلحق[٥] بإبراهيم، فقال: أين غدوت بابنك؟ قال: لحاجة. قال: فإنك لم تغد به لحاجة، وإنما غدوت به لتذبحه قال: ولَم أذْبَحه؟ قال: تزعم أن ربك أمرك بذلك. قال: فوالله لئن كان الله أمرنى[٦] بذلك لأفعلن. قال: فتركه ويئس أن يطاع[٧].

وقد رواه ابن جرير عن يونس، عن ابن وَهْب، عن يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، أن عمرو ابن أبى سفيان بن أسيد[٨] بن جَارِيَةَ الثقفى أخبره، أن كعباً قال لأبى هريرة... فذكره بطوله، وقال فى آخره: وأوحى الله إلى إسحاق أنى أعطيتك دعوة أستجيب لك فيها. قال إسحاق: اللهم، إنى أدعو [٩]أن تستجيب لى: أيُّما عَبْد لقيك من الأولين والآخرين، لا يشرك بك شيئاً، فأدخله الجنة[١٠].

---

(١) فى س: «فأفلته». (٢) فى س: «وشح». (٣) فى أ: «فقال».
(٤) فى س: «فإنه». (٥) فى ت، س: «فيئس منه فتركه فلحق».
(٦) فى أ: «كان أمرنى ربى».
(٧) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٢٣).
(٨) فى أ: «أسد».
(٩) فى ت، س: «أدعوك».
(١٠) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٢).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقى، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عطاء بن يسار(١)، عن أبى هريرة [رضى الله عنه](٢)قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خيرنى بين أن يغفر لنصف أمتى، وبين أن أختبئ شفاعتى، فاختبأت شفاعتى، ورجوت أن تكفر الجَمّ(٣) لأمتى، ولولا الذى سبقنى إليه العبد الصالح لتعجلت فيها دعوتى، إن الله لما فرج عن إسحاق كرْبَ الذبح قيل له: يا إسحاق، سَلْ تُعْطَهْ. فقال: أما والذى نفسى بيده لأتعجلنها قبل نزغات الشيطان، اللهم من مات لا يشرك بك شيئا فاغفر له وأدخله الجنة».

هذا حديث غريب منكر(٤). وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث، وأخشى أن يكون فى الحديث زيادة مُدْرَجَة، وهى قوله: «إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق» إلى آخره، والله أعلم. فهذا إن كان محفوظاً فالأشبه أن السياق إنما هو عن «إسماعيل»، وإنما حرفوه بإسحاق؛ حَسَداً منهم كما تقدم، وإلا فالمناسك والذبائح إنما محلها بمنى من أرض مكة، حيث كان إسماعيل لا إسحاق [عليهما السلام](٥)، فإنه إنما كان ببلاد كنعان من أرض الشام.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ.قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾ أى: قد حصل المقصودُ من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح.

وذكر السدى وغيره أنه أمَرّ السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس، ونودى إبراهيم، عليه السلام، عند ذلك: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا﴾.

وقوله: ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل، خلافا لطائفة من المعتزلة، والدلالة من هذه ظاهرة، لأن الله تعالى شرع لإبراهيم ذَبْحَ ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء، وإنما كان المقصود من شرعه أولا إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴾ أى: الاختبار الواضح الجلى؛ حيث أمر بذبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلما لأمر الله، منقادا لطاعته؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

---

(١) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده». (٢) زيادة من ت.
(٣) فى أ: «أن تكون أعم».
(٤) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٦٠٣) وابن عدى فى الكامل (٤/ ٢٧٢) من طريق الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم به، وذكره ابن أبى حاتم فى العلل (٢/ ٢١٩) وقال: «سألت أبى، فقال: هذا حديث منكر».
(٥) زيادة من أ.

وقوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال سفيان الثورى، عن جابر الجُعْفى، عن أبى الطفيل، عن على، رضى الله عنه: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: بكبش أبيض أعين أقرن، قد ربط بسمرة ـ قال أبو الطفيل وجدوه مربوطاً بسُمَرة فى ثَبِير[١].

وقال الثورى أيضا، عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفاً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار، حدثنا داود العَطّار، عن ابن خثيم[٢]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الصخرة التى بمنى بأصل ثَبِير هى الصخرة التى ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء، فذبحه، وهو الكبش الذى قَرّبه ابن آدم فتقبل منه، فكان مخزونا حتى فدى به إسحاق.

وروى أيضا عن سعيد بن جبير أنه قال: كان الكبش يرتع فى الجنة حتى تَشَقَق عنه ثبير، وكان عليه عِهْن أحمر.

وعن الحسن البصرى: أنه كان اسم كبش إبراهيم: جرير.

وقال ابن جُرَيْج: قال عبيد بن عمير: ذبحه بالمقام. وقال مجاهد: ذبحه بمنى عند المنحر[٣]. وقال هُشَيْم، عن سيار، عن عكرمة؛ أنّ ابن عباس كان أفتى الذى جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه، فأمره بمائة من الإبل. ثم قال بعد ذلك: لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشا، فإن الله تعالى قال فى كتابه: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه فُدى بكبش. وقال الثورى، عن رجل، عن أبى صالح، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ قال: وَعْلٌ.

وقال محمد بن إسحاق، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن أنه كان يقول: ما فدى إسماعيل إلا بتيس من الأرْوَى، أهبط عليه من ثبير[٤].

وقد قال[٥] الإمام أحمد: حدثنا سفيان، حدثنا منصور، عن خاله مُسافع[٦]، عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتنى امرأة من بنى سليم ـ وَلَدت عامة أهل دارنا ـ أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان ابن طلحة ـ وقال[٧] مرة: إنها سألت عثمان: لم دعاك النبى ﷺ؟ قال: قال: «إنى كنتُ رأيتُ قرنى الكبش، حين دخلت البيت، فنسيت أن آمرك أن تخمرهما، فَخَمِّرْهما، فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى». قال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقين[٨] فى البيت حتى احترق البيت، فاحترقا[٩].

(١) فى أ: «ثبين». (٢) فى أ: «خيثم». (٣) فى أ: «النحر».
(٤) فى أ: «ثبين». (٥) فى ت: «وروى». (٦) فى أ: «شافع».
(٧) فى أ: «وقالت». (٨) فى أ: «معلقة».
(٩) المسند (٤/٦٨).

وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل، عليه السلام، فإن قريشا توارثوا قرنى الكبش الذى فدى به إبراهيم (١)خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل، إلى أن بعث الله رسوله ﷺ.

فصل فى ذكر الآثار الواردة عن السلف فى أن الذبيح من هو؟:

ذكر من قال :هو إسحاق [عليه السلام](٢):

قال حمزة الزيات، عن أبى ميسرة، رحمه الله، قال: قال يوسف، عليه السلام، للملك فى وجهه: ترغب أن تأكل معى، وأنا ـ والله ـ يوسف بن يعقوب نبى الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله.

وقال الثورى، عن أبى سنان، عن ابن أبى الهذيل: إن يوسف، عليه السلام، قال للملك كذلك أيضا.

وقال سفيان الثورى، عن زيد بن أسلم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عن أبيه قال: «قال موسى: يارب، يقولون: يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فبم قالوا ذلك؟ قال: إن إبراهيم لم يعدل بى شىء قط إلا اختارنى عليه. وإن إسحاق جاد لى بالذبح، وهو بغير ذلك أجود. وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادنى حسن ظن».

وقال شعبة، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص قال: افتخر رجل عند ابن مسعود فقال: أنا فلان بن فلان، ابن الأشياخ الكرام. فقال عبد الله: ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله [صلوات الله وسلامه عليهم](٣).

وهذا صحيح إلى ابن مسعود، وكذا روى عكرمة، عن ابن عباس أنه إسحاق. وعن أبيه العباس، وعلى بن أبى طالب مثل ذلك. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والشعبى، وعبيد بن عمير، وأبو ميسرة، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن شقيق، والزهرى، والقاسم بن أبى بزة، ومكحول، وعثمان بن حاضر، والسدى، والحسن، وقتادة، وأبو الهذيل، وابن سابط. وهو اختيار ابن جرير. وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق.

وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر، عن الزهرى، عن أبى سفيان بن العلاء بن جارية(٤)، عن أبى هريرة، عن كعب الأحبار، أنه قال: هو إسحاق(٥).

وهذه الأقوال ـ والله أعلم ـ كلها مأخوذة عن كعب الأحبار، فإنه لما أسلم فى الدولة العمرية جعل يحدث عمر، رضى الله عنه، عن كتبه، فربما استمع له عمر، رضى الله عنه، فترخص الناس فى استماع ما عنده، ونقلوا عنه غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة ـ والله أعلم ـ حاجة إلى حرف

---

(١) فى ت: «إسماعيل». (٢) زيادة من ت، س. (٣) زيادة من ت.

(٤) فى أ: «والعلاء بن حارث».

(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٣/ ٥٢).

واحد مما عنده. وقد حكى البغوى هذا القول بأنه إسحاق عن عمر، وعلى، وابن مسعود، والعباس، ومن التابعين عن كعب الأحبار، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، ومقاتل، وعطاء، والزهرى، والسدى ـ قال: وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس(١).

وقد ورد فى ذلك حديث ـ لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين، ولكن لم يصح سنده ـ قال ابن جرير:

حدثنا أبو كريب، حدثنا زيد بن حباب، عن الحسن بن دينار، عن على بن زيد بن جدعان، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس، عن العباس بن عبد المطلب، عن النبى ﷺ فى حديث ذكره قال: هو إسحاق(٢).

ففى إسناده ضعيفان(٣)، وهما الحسن بن دينار البصرى، متروك. وعلى بن زيد بن جدعان منكر الحدث. وقد رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن مسلم بن إبراهيم، عن حماد بن سلمة، عن على بن زيد بن جدعان، به مرفوعا (٤). ثم قال: قد رواه مبارك بن فضالة، عن الحسن، عن الأحنف، عن العباس قوله، وهذا(٥) أشبه وأصح.

[ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهو الصحيح المقطوع به](٦):

قد تقدمت الرواية عن ابن عباس أنه إسحاق. قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبى، ويوسف بن مهران، ومجاهد، وعطاء، وغير واحد، عن ابن عباس، هو إسماعيل عليه السلام.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن قيس، عن عطاء بن أبى رباح(٧)، عن ابن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل، عليه السلام، وزعمت اليهود أنه إسحاق، وكذبت اليهود(٨).

وقال إسرائيل، عن ثور، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: الذبيح إسماعيل.

وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: هو إسماعيل. وكذا قال يوسف بن مهران.

وقال الشعبى: هو إسماعيل، عليه السلام، وقد رأيت قرنى الكبش فى الكعبة.

وقال(٩) محمد بن إسحاق، عن الحسن بن دينار، وعمرو بن عبيد، عن الحسن البصرى: أنه كان لا يشك فى ذلك: أن الذى أمر بذبحه من ابنى إبراهيم إسماعيل.

قال ابن إسحاق: وسمعت محمد بن كعب القرظى وهو يقول: إن الذى أمر الله إبراهيم بذبحه

---

(١) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٤٦).
(٢) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٢).
(٣) فى ت: «لأن فى سنده ضعيفين».
(٤) فى ت: « مرفوعا قال: هو إسحاق».
(٥) فى ت: «وهو».
(٦) زيادة من ت، س.
(٧) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده».
(٨) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٢).
(٩) فى ت: «وروى».

من ابنيه إسماعيل. وإنا لنجد ذلك في كتاب الله، وذلك أن الله حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. يقول الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾، يقول: بابن وابن ابن، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من [الله][1] الموعود بما وعده[2]، وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل.

وقال ابن إسحاق، عن بريدة بن سفيان بن فروة[3] الأسلمي، عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم؛ أنه[4] ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام، فقال له عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت. ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم، فسأله عمر بن عبد العزيز عن ذلك ـ قال محمد ابن كعب: وأنا عند عمر بن عبد العزيز ـ فقال له عمر: أيُّ ابني إبراهيم أُمِر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن يهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب، على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك، ويزعمون أنه إسحاق، بكون[5] إسحاق أبوهم، والله أعلم أيهما كان، وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل[6].

وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: سألت أبي عن الذبيح، من هو؟ إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: إسماعيل. ذكره في كتاب الزهد.

وقال ابن أبي حاتم: وسمعت أبي يقول: الصحيح أن الذبيح إسماعيل، عليه السلام. قال: وروى عن علي، وابن عمر، وأبي هريرة، وأبي الطفيل، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، والشعبي، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي جعفر محمد بن علي، وأبي صالح أنهم قالوا: الذبيح إسماعيل.

وقال البغوي في تفسيره: وإليه ذهب عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، والسدي، والحسن البصري، ومجاهد، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي، وهو رواية عن ابن عباس، وحكاه أيضا عن أبي عمرو بن العلاء[7].

وقد روى ابن جرير في ذلك حديثا غريبا فقال: حدثني محمد بن عمار الرازي، حدثنا إسماعيل ابن عبيد بن أبي كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي، عن عبيد الله بن محمد العتبي ـ من ولد عتبة بن أبي سفيان ـ عن أبيه: حدثني عبد الله بن سعيد، عن الصنابحي قال: كنا عند معاوية بن

(١) زيادة من أ. (٢) في أ: «ما أوعده». (٣) في أ: «بردة».
(٤) في ت: «به». (٥) في أ: «لأن».
(٦) رواه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٥٤).
(٧) معالم التنزيل للبغوي (٧/ ٤٧).

أبى سفيان، فذكروا الذبيح: إسماعيل أو إسحاق؟ فقال: على الخبير[١] سقطتم، كنا عند رسول الله ﷺ، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عُدْ على مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين. فضحك رسول الله ﷺ، فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله أمرها عليه، ليذبحن أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله وقالوا: افد ابنك بمائة من الإبل. ففداه بمائة من الإبل، وإسماعيل الثانى[٢].

وهذا حديث غريب جدا. وقد رواه الأموى فى مغازيه: حدثنا بعض أصحابنا، أخبرنا إسماعيل ابن عبيد بن أبى كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن القرشى، حدثنا عبيد الله[٣] بن محمد العتبى ـ من ولد عتبة بن أبى سفيان ـ حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا الصنابحى قال: حضرنا مجلس معاوية، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق، وذكره. كذا كتبته من نسخة مغلوطة[٤].

وإنما عول ابن جرير فى اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ ، فجعل هذه البشارة هى البشارة بإسحاق فى قوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعى، أى العمل. ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا. قال: وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد الشام. قال: وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك. هذا ما اعتمد عليه فى تفسيره، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جدا، والذى استدل به محمد بن كعب القرظى على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم[٥].

وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾، لما تقدمت البشارة بالذبيح ـ وهو إسماعيل ـ عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت فى سورتى[٦] «هود» و «الحجر»[٧].

وقوله: ﴿ نَبِيًّا ﴾ حال مقدرة، أى: سيصير منه نبى من الصالحين.

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن علية، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضى الله عنهما: الذبيح إسحاق. قال: وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بشر بنبوته. قال: وقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣] قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته.

وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت داود يحدث، عن عكرمة، عن ابن عباس فى هذه الآية: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: إنما بشر به نبيا حين فداه الله من الذبح، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده[٨].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان الثورى، عن داود، عن عكرمة،

(١) فى س: «الخبر» .
(٢) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٤).
(٣) فى أ: «عبد الله».
(٤) فى أ: «من نسخة كذا والله أعلم».
(٥) وقد حرر هذه المسألة الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى الفتاوى. انظر المواضع فى: الفهرس العام (٣٦/ ٣٢).
(٦) فى ت: «سورة».
(٧) سورة هود، الآية: ٧١، وسورة الحجر، الآية: ٥٣ .
(٨) تفسير الطبرى (٢٣/ ٥٧) .

عن ابن عباس: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بشر به حين ولد، وحين نبئ.

وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة في قوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال: بعد ما كان من أمره، لما جاد لله بنفسه، وقال الله: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾.

وقوله: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨].

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢)﴾.

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمده في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس الأشياء. ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم. ثم أنزل الله على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وقال هاهنا: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ. وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: في[1] الأقوال والأفعال، ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: أبقينا لها[2] من بعدهما ذكرا جميلا وثناء حسنا، ثم فسره بقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ. إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾.

قال[3] قتادة، ومحمد بن إسحاق، يقال: إلياس هو إدريس.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبيدة ابن ربيعة[4]، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: إلياس هو إدريس. وكذا قال الضحاك..

---

(١) في أ: «من».

(٢) في ت، س: «لهما».

(٣) في ت: «وروى».

(٤) في ت: «وقال ابن أبي حاتم بإسناده».

وقال وَهْب بن منبِّه: هو إلياس بن ياسين[١] بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، بعثه الله فى بنى إسرائيل بعد حزقيل، عليهما السلام، وكانوا قد عبدوا صنما يقال له: «بعل»، فدعاهم إلى الله، ونهاهم عن عبادة ما سواه. وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد[٢]، واستمروا على ضلالتهم، ولم يؤمن به منهم أحد. فدعا الله عليهم، فحبس عنهم القطر ثلاث سنين، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم، ووعدوه[٣] الإيمان به إن هم أصابهم المطر. فدعا الله لهم، فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر، فسأل الله أن يقبضه إليه. وكان قد نشأ على يديه اليسع بن أخطوب، عليه السلام، فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا، فمهما جاءه فليركبه ولا يهبه، فجاءته فرس من نار فركب[٤]، وألبسه الله النور وكساه الريش، وكان يطير مع الملائكة ملكا إنسيا سماويا أرضيا، هكذا حكاه وهب عن أهل الكتاب، والله أعلم بصحته.

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ أى: ألا تخافون الله فى عبادتكم غيره؟ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدى: ﴿بَعْلاً﴾ يعنى: ربا.

قال قتادة وعكرمة: وهى لغة أهل اليمن. وفى رواية عن قتادة قال: هى لغة أزد شنوءة.

وقال ابن إسحاق: أخبرنى بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها: «بعل».

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها: «بعلبك»، غربى دمشق.

وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه.

وقوله: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلاً﴾ أى: أتعبدون صنما؟ ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ أى: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أى للعذاب يوم الحساب، ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: الموحدين منهم. وهذا استثناء منقطع من مثبت.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾ أى: ثناء جميلا، ﴿سَلامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ كما يقال فى إسماعيل: إسماعين. وهى لغة بنى أسد. وأنشد بعض بنى نمير فى ضَبٍّ صَادَه.

يَقُولُ رَبُّ السوق لما جينا هذا وربِّ البيت إسْرَائينا[٥]

ويقال: ميكال، وميكائيل، وميكائين، وإبراهيم وإبراهام، وإسرائيل وإسرائين، وطور سيناء، وطور سينين. وهو موضع واحد، وكل هذا سائغ[٦].

وقرأ آخرون: «سلام على إدراسين»، وهى قراءة عبد الله بن مسعود. وآخرون: «سَلامٌ عَلَىٰ آلْ يَاسِين»، يعنى: آل محمد ﷺ.

وقوله: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ قد تقدم تفسيره[٧].

---

(١) فى ت: «شبى» وفى س: «تبى».

(٢) فى ت: «ارتدوا».

(٣) فى ت، س: «فوعدوه».

(٤) فى ت، س: «فركبه».

(٥) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/٥٧).

(٦) فى أ: «شائع».

(٧) فى ت: «كما تقدم من تفسيرها».

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ(١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ(١٣٨) ﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام، أنه بعثه إلى قومه فكذبوه، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله، إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾: أى: أفلا تعتبرون بهم، كيف دمر الله عليهم، وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ(١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾ .

قد تقدمت قصة يونس، عليه السلام، فى سورة الأنبياء. وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغى لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى ونَسَبَه إلى أمه»(١)، وفى رواية قيل: «إلى أبيه».

وقوله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ قال ابن عباس: هو الموقر، أى: المملوء بالأمتعة.

﴿فَسَاهَمَ﴾ أى: قارع، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أى: المغلوبين. وذلك أن السفينة تَلَعَّبَت(٢) بها الأمواج من كل جانب، وأشرفوا على الغرق، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى فى البحر، لتخف بهم السفينة، فوقعت القرعة على نبى الله يونس، عليه الصلاة والسلام(٣)، ثلاث مرات، وهم يضنون(٤) به أن يلقى من بينهم، فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك. وأمر الله تعالى حوتا من البحر الأخضر أن يشق البحار، وأن يلتقم يونس، عليه السلام، فلا يَهْشِمُ له لحما، ولا يكسر له عظما(٥). فجاء ذلك الحوت وألقى يونس، عليه السلام، نفسه، فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس فى بطن الحوت، حسب أنه قد مات، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حى، فقام يصلى فى بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: «يا رب، اتخذتُ لك مسجدا فى موضع لم يبلغه أحد من الناس» واختلفوا فى مقدار ما لبث فى بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام، قاله قتادة. وقيل: جُمْعَة(٦)، قاله جعفر الصادق. وقيل: أربعين يوما، قاله أبو مالك.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٣٣٩٥) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٧).
(٢) فى أ: «تلعب». (٣) فى ت: «عليه السلام». (٤) فى ت: «يظنون».
(٥) فى س: «فلا تهشم له لحما ولا تكسر له عظما». (٦) فى ت، س، أ: «سبعة».

وقال مُجَالد[١]، عن الشعبى: التقمه ضحى، وقذفه[٢] عشية.

والله أعلم بمقدار ذلك. وفى شعر أمية بن أبى الصلت:

وَأَنْتَ بفَضلٍ منْكَ نَجَّيتَ يُونُساً وَقَدْ بَاتَ فِى أضْعَاف حُوتٍ ليَاليا[٣]

وقوله: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، قيل: لولا ما تقدم له من العمل فى الرخاء. قاله الضحاك بن قيس، وأبو العالية، ووهَب بن مُنَبِّه، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقد ورد فى الحديث الذى سنورده ما يدل على ذلك إن صح الخبر. وفى حديث عن ابن عباس: «تَعَرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة»[٤].

وقال ابن عباس، وسعيد بن جُبَيْر، والضحاك، وعطاء بن السائب، والسدى، والحسن، وقتادة: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾، يعنى: المصلين.

وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك. وقال بعضهم: كان من المسبحين فى جوف أبويه.

وقيل: المراد: ﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾، هو قوله: ﴿ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، قاله سعيد بن جبير وغيره.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا أبو صخر[٥]: أن يزيد الرّقاشى حَدّثه: أنه سمع أنس بن مالك ـ ولا أعلم إلا أنّ أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ «أن يونس النبى ﷺ[٦] حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات، وهو فى بطن الحوت، فقال: اللهم، لا إله إلا أنت سبحانك، إنى كنت من الظالمين. فأقبلت الدعوة تحف بالعرش، قالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟ قال: عبدى يونس. قالوا: عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مستجابة؟ قالوا: يا رب، أو لا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجِّيه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه بالعَراء».

ورواه ابن جرير، عن يونس، عن ابن وهب، به[٧][٨]. زاد ابن أبى حاتم: قال أبو صخر حُمَيد ابن زياد: فأخبرنى ابن قُسَيط وأنا أحدثه هذا الحديث: أنه سمع أبا هريرة يقول: طرح بالعراء، وأنبت الله عليه اليقطينة. قلنا: يا أبا هريرة، وما اليقطينة، قال: شجرة الدُّبَّاء. قال أبو هريرة: وَهَيَّأ الله له أرْوِيَّة وحشية تأكل من خشاش الأرض ـ أو قال: هشاش الأرض ـ قال: فَتَتَفشَّح[٩] عليه فَتَرْويه من لبنها كل عَشيَّة وبُكرةٍ حتى نَبَت.

---

(١) فى ت: «مجاهد». (٢) فى أ: «ونقله».
(٣) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢٨).
(٤) سيأتى تخريجه عند الآية: ٣٨ من سورة الزمر.
(٥) فى ت: «بإسناده». (٦) فى ت، س: «عليه السلام». (٧) بياض فى س.
(٨) تفسير الطبرى (٢٣/ ٦٤).
(٩) فى ت ، س: «فتتفشخ» .

وقال أمية بن أبى الصلت فى ذلك بيتا من شعره:

فَأنْبَتَ يَقْطيناً عَلَيه برَحْمَةٍ   مِن الله، لَولا اللهُ ألفى ضَاحيا[١]

وقد تقدم حديث أبى هريرة مسنداً مرفوعا فى تفسير سورة «الأنبياء»[٢].

ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ﴾ أى: ألقيناه ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ قال ابن عباس، وغيره: وهى الأرض التى ليس بها نبت ولا بناء. قيل: على جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. فالله أعلم.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أى: ضعيف البدن. قال ابن مسعود، رضى الله عنه: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. وقال السدى: كهيئة الصبى[٣]: حين يولد، وهو المنفوس. وقاله ابن عباس، وابن زيد أيضا.

﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾: قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ووهب بن منبه، وهلال بن يَسَاف، وعبد الله بن طاوس، والسدى، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراسانى[٤]، وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع.

وقال هُشَيم، عن القاسم بن أبى أيوب، عن سعيد بن جبَيْر: كل شجرة لا ساق لها فهى من اليقطين.

وفى رواية عنه: كل شجرة تَهْلك من[٥] عَامِها فهى من اليقطين.

وذكر بعضهم فى القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليلُ ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئا ومطبوخا بلبه وقشره أيضا. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يُحِبّ الدُّبَّاء، ويتتبعه[٦] من حَوَاشى الصَّحْفة[٧][٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾: روى شَهْر بن حَوْشَب، عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت. رواه ابن جرير: حدثنى الحارث قال: حدثنا الحسن قال: حدثنا أبو[٩] هلال، عن شهر، به.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت.

قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولا، أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وآمنوا به. وحكى البغوى أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت، كانوا مائة ألف أو يزيدون.

وقوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ قال ابن عباس ـ فى رواية عنه ـ: بل يزيدون، وكانوا مائة وثلاثين ألفا.

---

(١) البيت فى السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٢٨).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

(٣) فى أ: «الصبى يعنى».

(٤) فى ت: «وابن عباس وغيرهما من التابعين».

(٥) فى ت: «فى».

(٦) فى أ: «ويتبعه».

(٧) فى ت: «القصعة».

(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٤٣٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٩) فى أ: «ابن».

وعنه: مائة ألف وبضعةً وثلاثين ألفا. وعنه: مائة ألف وبضعةً وأربعين ألفا.

وقال سعيد بن جبير: يزيدون سبعين ألفا.

وقال مكحول: كانوا مائة ألف وعشرة آلاف. رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البَرْقى[(١)]، حدثنا عمرو بن أبى سلمة قال: سمعت زُهَيراً عمن سمع أبا العالية قال: حدثنى أبى بن كعب: أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، قال: «يزيدون عشرين ألفا»[(٢)].

ورواه الترمذى عن على بن حُجْر، عن الوليد بن مسلم، عن زُهَير، عن رجل، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب، به، وقال: غريب. ورواه ابن أبى حاتم من حديث زهير، به[(٣)].

قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول فى ذلك: معناه إلى المائة الألف[(٤)]، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم.

وهكذا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[النجم: ٩] أن المراد ليس أنقص من ذلك، بل أزيد.

وقوله: ﴿فَآمَنُوا﴾ أى: فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس، عليه السلام، جميعهم. ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى: إلى وقت آجالهم، كقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)﴾.

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين فى جعلهم لله البنات، سبحانه، ولهم ما يشتهون، أى: من الذكور، أى: يَودّون لأنفسهم الجيد. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨] أى: يسوؤه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول تعالى: فكيف نسبوا إلى الله

(١) فى أ: «الرقى».
(٢) تفسير الطبرى (٢٣/ ٦٧).
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٢٢٩).
(٤) فى أ: «ألف».

[تعالى][(١)] القسم الذى لا يختارونه لأنفسهم؟ ولهذا قال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أى: سلهم على سبيل الإنكار عليهم: ﴿أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ كقوله: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

وقوله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ أى: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم؟ كقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] أى: يسألون عن ذلك يوم القيامة.

وقوله: ﴿أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ أى: من كذبهم ﴿لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ﴾أى: صدر منه الولد ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، فذكر الله عنهم فى الملائكة ثلاثة أقوال فى غاية الكفر والكذب، فأولا جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولداً. وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله. وكل منها كاف فى التخليد فى نار جهنم.

ثم قال منكرا عليهم: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ أى: أىّ شىء يحمله عن[(٢)] أن يختار البنات دون البنين؟ كقوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]؛ ولهـذا قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أى: ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون؟ ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ .أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أى: حجة على ما تقولونه، ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: هاتوا برهانا على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب مُنَزّل من السماء عن الله: أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده[(٣)] إلى عقل، بل لا يُجَوّزُه العقل بالكلية.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال مجاهد: قال المشركون: الملائكةُ بناتُ الله. فسأل أبو بكر، رضى الله عنه: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سَرَوات الجن. وكذا قال قتادة، وابن زيد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أى: الذين نسبوا إليهم ذلك: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أى: إن الذين قالوا ذلك لمحضرون فى العذاب يوم الحساب لكذبهم فى ذلك وافترائهم، وقولهم الباطل بلا علم.

وقال العوفى: عن[(٤)] ابن عباس فى قوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان. حكاه ابن جرير[(٥)].

وقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علوا كبيرا.

وقوله: ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ استثناء منقطع، وهو من مثبت، إلا أن يكون الضمير فى قوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائد إلى جميع الناس ثم استثنى منهم المخلصين، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبى ومرسل. وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ.إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، وفى هذا الذى قاله نظر.

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى أ: «على».
(٣) فى س: «إسناده».
(٤) فى ت: «وعن».
(٥) تفسير الطبرى (٢٣/ ٦٩).

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) ﴾.

يقول تعالى مخاطبا للمشركين: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ أى: ما ينقاد[١] لمقالكم وما[٢] أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة إلا من هو أضل منكم ممن ذُرِى للنار. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. فهذا الضرب من الناس هو الذى ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ . يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩] أى: إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل.

ثم قال تعالى مُنَزّها للملائكة مما نَسبَوا[٣] إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أى: له موضع مخصوص فى السماوات ومقامات العبادة[٤] لا يتجاوزه ولا يتعداه[٥].

وقال ابن عساكر فى ترجمته لمحمد بن خالد، بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد[٦]، عن أبيه ـ وكان ممن بايع يوم الفتح ـ أن رسول الله ﷺ قال يوما لجلسائه: «أطَّت السماء وحُقّ لها أن تئطّ، ليس فيها موضع قَدَم إلا عليه ملك راكع أو ساجد». ثم قرأ: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾[٧].

وقال الضحاك فى تفسيره: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ قال: كان مسروق يَرْوى عن عائشة، رضى الله عنها، أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم». فذلك قوله: ﴿وَمَا مِنَّا إلا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾[٨].

وقال الأعمش، عن أبى إسحاق، عن مسروق: عن[٩] ابن مسعود، رضى الله عنه، قال: إن فى السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماه، ثم قرأ عبد الله: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ . وكذا قال سعيد بن جبير.

وقال قتادة: كانوا يُصَلُّون الرجال والنساء جميعاً، حتى نزلت: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾، فتقدم الرجال وتأخر النساء.

---

(١) فى أ: «منقاد». (٢) فى س: «ولما». (٣) فى أ: «نسبوهم».
(٤) فى ت، س، أ: «العبادات». (٥) فى س: «لا نتجاوزه ولا نتعداه». (٦) فى أ: «سعيد».
(٧) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٥/ ٢٧٧ «القسم المخطوط»).
(٨) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٥٠٨) والمروزى فى تعظيم قدر الصلاة برقم (٢٥٣) من طريق عبيد بن سليمان عن الضحاك به.
(٩) فى ت: «وعن».

﴿ وَإِنَّا لَنحنُ الصَّافُّونَ﴾ أى: نقف صفوفاً فى الطاعة، كما تقدم عند قوله: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾. قال ابن جُرَيْج، عن الوليد بن عبد الله بن أبى مغيث قال: كانوا لا يصفون فى الصلاة حتى نزلت: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾، فصفوا.

وقال أبو نَضْرَة: كان عمر إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استووا قياماً، يريد الله بكم هدى الملائكة، ثم يقول: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾، تأخر يا فلان، تقدم يا فلان، ثم يتقدم فيكبر، رضى الله عنه. رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير.

وفى صحيح مسلم عن حذيفة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجداً، وتربتها طهورا» الحديث[1].

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ أى: نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه.

وقال ابن عباس، ومجاهد: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ : الملائكة، ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾: الملائكة، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾: الملائكة يسبحون الله عز وجل.

وقال قتادة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ ، يعنى: المصلون، يثبتون[2] بمكانهم من العبادة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ. وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

وقوله: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ . لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أى: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]، وقال: ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم ـ سبحانه وتعالى ـ وتكذيبهم ـ رسوله ﷺ[3].

---

(١) سبق تخريجه فى أول السورة.

(٢) فى ت: «ينبثون».

(٣) فى أ: « ﷺ تسليمًا».

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: تقدم فى الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة. كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أى: تكون لهم العاقبة. وقوله جل وعلا: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى: اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر؛ ولهذا قال بعضهم: غَيَّى(١) ذلك إلى يوم بدر. وما بعدها أيضاً فى معناها.

وقوله: ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أى: انظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال على مخالفتك(٢) وتكذيبك؛ ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾. ثم قال عز وجل: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم(٣)، فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضا كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ أى: فإذا نزل العذاب بمحلتهم، فبئس ذلك اليوم يومُهم، بإهلاكهم ودمارهم(٤).

قال السدى: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يعنى: بدارهم، ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ أى: فبئس ما يصبحون، أى: بئس الصباح صباحهم؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين من حديث إسماعيل بن عُلَيَّةَ، عن عبد العزيز بن صُهَيْب، عن أنس، رضى الله عنه، قال: صَبَّح رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا [وهم](٥) يقولون: محمد والله، محمد والخميس. فقال النبى ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»(٦).

ورواه البخارى من حديث مالك، عن حُميد، عن أنس(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا رَوح، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن أبى طلحة قال: لما صَبَّح رسول الله ﷺ خيبر، وقد أخذوا مساحيهم وغَدَوا إلى حروثهم

(١) فى أ: «عنا». (٢) فى ت، أ: «بمخالفتك». (٣) فى أ: «لتكذيبك وكفرهم بك».
(٤) فى أ: «وبإدمارهم». (٥) زيادة من أ.
(٦) صحيح البخارى برقم (٣٧١) وصحيح مسلم برقم (١٣٦٥).
(٧) صحيح البخارى برقم (٤١٩٧).

وأرضيهم، فلما رأوا النبى ﷺ ولوا[١] مدبرين، فقال نبى الله ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[٢].

لم يخرجوه من هذه الوجه، وهو صحيح على شرط الشيخين.

وقوله: ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢) ﴾.

ينزه تعالى نفسه الكريمة ويقدسها ويبرئها عما يقوله الظالمون المكذبون المعتدون ـ تعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً ـ ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ ، أى: ذى العزة التى لا تُرَام، ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: عن قول هؤلاء المعتدين المفترين، ﴿وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: سلام الله عليهم فى الدنيا والآخرة، لسلامة ما قالوه فى ربهم، وصحته وحقيته[٣]، ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: له الحمد فى الأولى والآخرة فى كل حال. ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة[٤] من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه من النقص ـ قرن بينهما في هذا الموضع، وفى مواضع كثيرة من القرآن؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ .وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم علىَّ فسلموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين».

هكذا رواه ابن جرير، وابن أبى حاتم، من حديث سعيد، عنه كذلك[٥].

وقد أسنده ابن أبى حاتم، رحمه الله، فقال: حدثنا على بن الحسين بن الجنيد، حدثنا أبو بكر الأعين، ومحمد بن عبد الرحيم صاعقة قالا: حدثنا حسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة قال: حدث أنس بن مالك، عن أبى طلحة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سلمتم علىّ فسلموا على المرسلين»[٦].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبى بكر، حدثنا نوح، حدثنا أبو هارون، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا سلم[٧] قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلامٌ عَلَى

(١) فى س، أ: «نكصوا».
(٢) المسند (٢/ ٢٨).
(٣) فى أ: «وحقيقته». (٤) فى أ: «والتنزيه».
(٥) تفسير الطبرى (٢٣/ ٧٤).
(٦) ورواه ابن مردويه وابن سعد كما فى الدر المنثور (٧/ ١٤٠) من طريق سعيد عن قتادة عن أنس عن أبى طلحة به مرفوعا.
(٧) فى س، أ: «إذا أراد أن يسلم».

﴿الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم يسلم. إسناده ضعيف[١].

وقال[٢] ابن أبى حاتم: حدثنا عمار بن خالد الواسطى، حدثنا شبابة، عن يونس بن[٣] أبى إسحاق[٤]، عن الشعبى قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٥].

وروى من وجه آخر متصل موقوف على[٦] على، رضى الله عنه.

قال أبو محمد البغوى فى تفسيره: أخبرنا أبو سعيد أحمد بن شريح، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبى، أخبرنى ابن فنجويه، حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان، حدثنا إبراهيم بن سهلويه، حدثنا على بن محمد الطنافسى، حدثنا وكيع، عن ثابت بن أبى صفية، عن الأصبغ بن نباتة، عن على، رضى الله عنه، قال: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه فى مجلسه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٧].

وروى الطبرانى من طريق عبد الله بن صخر بن أنس[٨]، عن عبد الله بن زيد بن أرقم، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال دبر كل صلاة: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثلاث مرات، فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر»[٩].

وقد وردت أحاديث فى كفارة المجلس: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. وقد أفردت لها جزءا على حدة، فلتكتب هاهنا إن شاء الله تعالى[١٠].

آخر تفسير سورة الصافات

---

(١) وفى إسناده عمارة بن جوين - أبو هارون العبدى - متروك الحديث، ورواه أبو يعلى فى مسنده (٢/ ٣٦٣) فقال: حدثنا إسحاق، حدثنا حماد، عن أبى هارون بنحوه.

(٢) فى ت: «وروى». (٣) فى أ: «عن». (٤) فى ت: «بسنده».

(٥) وذكره السيوطى فى الدر (٧/ ١٤١) ولم يعزه لغيره، وهو مرسل.

(٦) فى ت: «بسنده».

(٧) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٦٦) ورواه الواحدى فى الوسيط (٣/ ٥٣٦) عن الأصبغ بن نباتة به، والأصبغ بن نباتة ضعفه الأئمة.

(٨) فى أ: «الأنسى».

(٩) المعجم الكبير (٥/ ٢١١) من طريق عبد المنعم بن بشير عن عبد الله بن محمد الأنسى عن عبد الله بن زيد بن أرقم عن أبيه مرفوعا. قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٠٣): «فيه عبد المنعم بن بشير، وهو ضعيف جدا».

(١٠) كذا ولم أجد إثباته فى النسخ، والأحاديث التى وردت فى كفارة المجلس جاءت عن جمع من الصحابة والتابعين وهم:

١ - أبو هريرة:

قال الترمذى فى سننه برقم (٣٤٣٣): أخبرنا أبو عبيدة بن أبى السفر الكوفى - أحمد بن عبد الله الهمدانى - حدثنا حجاج بن محمد قال: قال ابن جريج: أخبرنى موسى بن عقبة عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان فى مجلسه ذلك».

ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٣٠)، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٣٦) من طريق ابن جريج به، وقال الترمذى: حسن صحيح»، وقال الحاكم: «إسناد على شرط مسلم إلا أن البخارى علله».

=

. . . .

قال الحافظ ابن كثير: «علله الإمام أحمد والبخارى ومسلم وأبو حاتم وأبو زرعة والدارقطنى وغيرهم، ونسبوا الوهم فيه إلى ابن جريج»، على أن أبا داود قد رواه فى سننه برقم (٤٨٥٨) من طريق عبد الرحمن بن أبى عمرو عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة بنحوه.

٢ ـ أبو برزة الأسلمى:

قال أبو داود فى السنن برقم (٤٨٥٩): حدثنا محمد بن حاتم الجرجرائى وعثمان بن أبى شيبة، أن عبدة بن سليمان أخبرهم عن الحجاج بن دينار عن أبى هاشم عن أبى العالية عن أبى برزة الأسلمى قال: كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولا ما كنت تقوله فيما مضى، قال: «كفارة لما يكون فى المجلس»، ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٥٩)، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٣٧) من طريق الحجاج بن دينار به.

٣ ـ رافع بن خديج:

قال النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٦٠): أخبرنا عبيد الله بن إبراهيم بن سعد قال: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا مصعب بن حيان ـ أخو مقاتل بن حيان ـ عن مقاتل بن حيان، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية الرياحى، عن رافع بن خديج قال: كان رسول الله ﷺ بأخرة إذا اجتمع إليه أصحابه فأراد أن ينهض قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، عملت سوءا، وظلمت نفسى، فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، قال: فقلنا يا رسول الله، إن هذه كلمات أحدثتهن؟ قال: «أجل جاءنى جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، هن كفارات المجلس»، ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٣٧) من طريق يونس بن محمد به.

٤ ـ عبد الله بن عمرو بن العاص:

قال أبو داود فى السنن برقم (٤٨٥٧): حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب قال: أخبرنى عمرو أن سعيد بن هلال حدثه أن سعيد بن أبى سعيد المقبرى حدثه عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال: كلمات لا يتكلم بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن فى مجلس خير ومجلس ذكر إلا ختم له بهن عليه كما يختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

هكذا رواه أبو داود موقوفا، وقد رواه الطبرانى من وجه آخر مرفوعا، قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٤٢): «وفيه محمد بن جامع العطار وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح.

٥ ـ عبد الله بن مسعود:

قال الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/ ٢٠٣): حدثنا أحمد بن زهير التسترى، حدثنا عثمان بن حفص التومنى، حدثنا يحيى ابن كثير، عن عطاء بن السائب، عن أبى عبد الرحمن السلمى، عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كفارة المجلس أن يقول العبد: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا الله، أستغفرك وأتوب إليك» .

٦ ـ عائشة:

قال الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٦١١) «مجمع البحرين»: حدثنا محمد بن أحمد الرقام، حدثنا أحمد بن المقدام العجلى، حدثنا النضر بن أبى النضر، عن عمرو بن عبد الجبار، عن الحكم بن عتيبة، عن مسروق، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه إلى سقف البيت قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك» قالت عائشة: فسألته عنهن، فقال: «أمرت بهن».

قال الطبرانى: لم يروه عن الحكم إلا عمرو، ولا عنه إلا النضر تفرد به أبو الأشعث.

وفى إسناده من لا يعرف.

ورواه النسائى فى عمل اليوم والليلة من وجه آخر، فرواه من طريق سعيد بن الحكم، عن خلاد بن سليمان، عن خالد بن أبى عمران، عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: ما جلس رسول الله ﷺ مجلسا، ولا تلا قرآنا إلا ختم ذلك بكلمات، فقلت: يا رسول الله أراك ما تجلس مجلسا، ولا تتلو قرآنا، ولا تصلى إلا ختمت بهؤلاء الكلمات قال: «نعم، من قال خيرا كان له طابعا على ذلك الخير، ومن قال شرا كن كفارة له: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

٧ ـ جبير بن مطعم:

قال الطبرانى فى المعجم الكبير (٢/ ١٣٨): حدثنا العباس بن حمدان الحنفى، حدثنا عبد الجبار بن العلاء، حدثنا =

. . . .

=سفيان، حدثنى ابن عجلان عن مسلم بن أبى مريم، عن نافع بن جبير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، فقالها فى مجلس ذكر؛ كان كالطابع يطبع عليه، ومن قالها فى مجلس لغو؛ كانت كفارة له»، ثم رواه من طريق خالد بن يزيد العمرى، عن داود بن قيس، عن نافع ابن جبير بنحوه.

٨ ـ الزبير بن العوام:

قال الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٦٠٦) «مجمع البحرين»: حدثنا محمد بن على الطرائفى الرقى، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحسن بن محمد بن أعين قال: كتب محمد بن سلمة النصيبى يذكر أن عبد العزيز بن صهيب حدثه عن خباب مولى الزبير بن العوام عن الزبير قال: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا قمنا من عندك أخذنا فى حديث الجاهلية فقال: «إذا جلستم تلك المجالس التى تخافون فيها على أنفسكم فقولوا عند مقامكم: سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك، يكفر عنكم ما أصبتم» قال الطبرانى: لا يروى عن الزبير إلا بهذا الإسناد، تفرد به محمد بن على. وفى إسناده مَن لا يعرف.

٩ ـ أنس بن مالك:

قال البزار فى مسنده برقم (٣١٢٣) «كشف الأستار»: حدثنا عمر بن موسى الشامى، حدثنا عثمان بن مطر، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارة المجلس أن تقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك»، قال البزار: لا نعلمه يروى عن أنس إلا من هذا الوجه، وعثمان لين الحديث روى عنه مسلم وغيره، ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٤٦١٠) «مجمع البحرين» من طريق عثمان بن مطر به.

١٠ ـ أم سلمة:

قال الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٦٠٩) «مجمع البحرين»: حدثنا عبد الرحمن بن سلم، حدثنا سهل بن عثمان، حدثنا حفص بن غياث، عن عاصم، عن الشعبى، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله ﷺ قبل أن يموت يكثر أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك، قلت: يا رسول الله، إنى أراك تكثر أن تقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك قال: «إنى أمرت بأمر فقرأ: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح**﴾» قال الطبرانى: لم يروه عن عاصم إلا حفص تفرد به سهل.

١١ ـ السائب بن يزيد:

قال الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٤٥٠): حدثنا يونس، عن ليث، عن يزيد ـ يعنى ابن الهاد ـ عن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: «ما من إنسان يكون فى مجلس فيقول حين يريد أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك؛ إلا غفر له ما كان فى ذلك المجلس»، فحدثت هذا الحديث يزيد بن خصيفة، قال: هكذا حدثنى السائب بن يزيد عن رسول الله ﷺ. ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٧/ ١٥٤) من طريق الليث به.

وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٤١): «رجالهما رجال الصحيح».

١٢ ـ إسماعيل بن عبد الله بن جعفر:

وسياق حديثه فى الذى قبله وهو مرسل.

١٣ ـ عمر بن الخطاب:

لم أقع على إسناده، وقد ذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير سورة الطور، وعزاه للإسماعيلى.

١٤ ـ جبير بن نفير:

لم أقع على إسناده، وقد ساقه المتقى الهندى فى كنز العمال برقم (٢٥٤٦٩) ولفظه: «كفارة المجلس ألا يقوم أحد حتى يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، تب علىَّ، واغفر لى، يقولها ثلاث مرات، فإن كان فى مجلس لغو، كانت كفارته، وإن كان فى مجلس ذكر، كان طابعا عليه»، وعزاه لابن النجار.

١٥ ـ أبو عثمان الفقير:

قال عبد الرزاق فى المصنف برقم (١٩٧٩٦): أخبرنا معمر، عن عبد الكريم الجزرى عن أبى عثمان الفقير أن جبريل علَّم =

. . . .

= النبى ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

قال معمر: وسمعت غيره يقول: هذا القول كفارة المجلس.

١٦ ـ أبو العالية الرياحى:

قال النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٢٦١): أخبرنا محمد بن بشار، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا سفيان، عن منصور، عن زياد بن حصين، عن أبى العالية الرياحى قال: قالوا: يا رسول الله ما كلمات سمعناك تقولهن؟ قال: «كلمات علمنيهن جبريل عليه السلام كفارة المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك» .

ثم رواه من طريق فضيل بن عمر وعاصم عن زياد بن حصين به مرسلا.

تفسير سورة ص

[وهى][(١)] مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣)﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أى: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم فى المعاش والمعاد.

قال الضحاك فى قوله: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أى: تذكيركم. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير.

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإسماعيل بن أبى خالد، وابن عيينة، وأبو[(٢)] حصين، وأبوصالح، والسدى[(٣)]: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾: ذى الشرف، أى: ذى الشأن والمكانة.

ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار.

واختلفوا فى جواب هذا القسم، فقال بعضهم: هو قوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤]. وقيل قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]، حكاهما[(٤)] ابن جرير، وهذا الثانى فيه بعد كبير، وضعفه ابن جرير.

وقال قتادة: جوابه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، واختاره ابن جرير.

وقيل: جوابه ما تضمنه سياق السورة بكمالها، والله أعلم.

ثم حكى ابن جرير عن بعض أهل العلم[(٥)] أنه قال: جوابه «ص» بمعنى: صدق حق والقرآن ذى الذكر.

وقوله: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أى: إن فى هذا القرآن لذكرًا لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر. وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أى: استكبار عنه وحمية، ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أى: مخالفة له ومعاندة ومفارقة.

ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من

(١) زيادة من ت، س. (٢) فى أ: «ابن». (٣) فى ت: «وخلق غيرهما».
(٤) فى س: «رواهما». (٥) فى أ: «العربية».

السماء، فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أى: من أمة مكذبة، ﴿فَنَادَوْا﴾ أى[1]: حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله. وليس ذلك بمُجْدٍ عنهم شيئا. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢] أى: يهربون، ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٣].

قال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن أبى إسحاق، عن التميمى قال: سألت ابن عباس عن قول الله: ﴿فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، قال: ليس بحين نداء، ولا نَزْو، ولا فرار[2].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ليس بحين مغاث.

وقال شبيب بن بشر[3]، عن عكرمة، عن[4] ابن عباس: نادوا النداء حين لا ينفعهم، وأنشد:

تَذَكَّر ليلى لاتَ حين تذكُّرٍ[5]

وقال محمد بن كعب فى قوله: ﴿فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، يقول: نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم، واستناصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم.

وقال قتادة: لما رأوا العذاب أرادوا التوبة فى غير حين النداء.

وقال مجاهد: ﴿فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ليس بحين فرار ولا إجابة.

وقد روى نحو هذا عن عكرمة، وسعيد بن جبير، وأبى مالك، والضحاك، وزيد بن أسلم، والحسن، وقتادة.

وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، ولا نداء فى غير حين النداء.

وهذه الكلمة وهى «لات»، هى «لا» التى للنفى، زيدت معها «التاء»، كما تزاد فى «ثم»، فيقولون: «ثمت»، و«رب» فيقولون: «ربت». وهى مفصولة، والوقف عليها. ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره [ابن جرير][6] أنها متصلة بحين: «ولا تحين مناص». والمشهور الأول. ثم قرأ الجمهور بنصب «حين»، تقديره: وليس الحين حين مناص. ومنهم من جوز النصب بها، وأنشد:

تَذَكَّر حُب ليلى لاتَ حينا   وأَضْحَى الشَّيْبُ قد قَطَع القَرِينا[7]

ومنهم من جوز الجر بها، وأنشد:

طَلَبُوا صُلْحَنَا ولاتَ أوانٍ   فأجَبْنَا أن ليس حينُ بقاءِ[8]

---

(١) فى ت: «إلى».
(٢) وقد رواه الطستى فى مسائل نافع بن الأزرق أنه سأل ابن عباس فذكره.
(٣) فى أ: «بشير».   (٤) فى ت: «سئل».
(٥) البيت للأعشى، وعجزه: وقد تبت عنها والمناص بعيد.
(٦) ما بين المعقوفتين بياض فى س.
(٧) البيت فى تفسير الطبرى (٢٣/ ٧٧).
(٨) البيت لأبى زبيد الطائى، وهو فى تفسير الطبرى (٢٣/ ٧٧) .

وأنشد بعضهم أيضا:

وَلاتَ سَاعةَ مَنْدَم

بخفض الساعة. وأهل اللغة يقولون: النوص: التأخر، والبوص: التقدم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أى: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب.

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥) وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧) أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (٨) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ (١٠) جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ (١١) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى تعجبهم من بعثة الرسول بشرا، كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢]. وقال هاهنا: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أى: بشر مثلهم، ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أى: أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟! أنكر المشركون ذلك ـ قبحهم الله تعالى ـ وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الله[1] بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ﴾، وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿ [أَنِ][2] امْشُوا﴾ أى: استمروا على دينكم ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد.

وقوله: ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ . قال ابن جرير: إن هذا الذى يدعونا[3] إليه محمد من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم، والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا مجيبيه إليه.

ذكر سبب نزول هذه الآيات :

قال السدى: إن أناسا من قريش اجتمعوا، فيهم: أبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، فى نفر من مشيخة قريش، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبى طالب فلنكلمه فيه، فلينصفنا منه، فليكف عن شتم آلهتنا، وندعه وإلهه الذى يعبده؛ فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون منا إليه شيء. فتعيرنا [به][4] العرب، يقولون:

(١) فى ت، س، أ: «الإله».
(٢) زيادة من أ.
(٣) فى ت: «يدعوا».
(٤) زيادة من ت، س، أ.

«تركوه حتى إذا مات عنه[١] تناولوه». فبعثوا رجلا منهم يقال له[٢]: «المطلب»، فاستأذن لهم على أبى طالب، فقال: هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك. قال: أدخلهم. فلما دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه. قال: فبعث إليه أبو طالب، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال: يا ابن أخى، هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم، وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك. قال: «يا عم، أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟»، قال: وإلام تدعوهم؟ قال: «أدعوهم [إلى][٣] أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها العجم». فقال أبو جهل من بين القوم: ما هى وأبيك؟ لنعطينها[٤] وعشرة أمثالها. قال: تقولون: «لا إله إلا الله». فنفر وقال: سلنا غير هذا[٥]. قال: «لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى، ما سألتكم غيرها». فقاموا من عنده غضابا، وقالوا: والله لنشتمنك وإلهك الذى أمرك[٦] بهذا. ﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير، وزاد: فلما خرجوا دعا رسول الله ﷺ عمه إلى قول: «لا إله إلا الله»، فأبى وقال: بل على دين الأشياخ. ونزلت: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص: ٥٦][٧].

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كريب وابن وكيع قالا: حدثنا أبو أسامة، حدثنا الأعمش، حدثنا عباد، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته؟ فبعث إليه، فجاء النبى ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبى طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشى أبو جهل إن جلس إلى جنب أبى طالب أن يكون أرقّ له عليه. فوثب فجلس فى ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلسا قرب عمه، فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب: أى ابن أخى، ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: «يا عم، إنى أريدهم على كلمة واحدة! يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية»، ففزعوا لكلمته ولقوله، وقالوا[٨]: كلمة واحدة! نعم وأبيك عشرا، فقالوا: وما هى؟ وقال أبو طالب: وأى كلمة هى يا ابن أخى؟ فقال: «لا إله إلا الله»، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾، قال: ونزلت من [٩] هذا الموضع إلى قوله: ﴿لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ لفظ أبى كريب[١٠].

وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائى، من حديث محمد بن عبد الله بن نُمَيْر، كلاهما عن أبى أسامة، عن الأعمش، عن عباد، غير منسوب، به نحوه[١١]، ورواه الترمذى، والنسائى، وابن أبى حاتم، وابن جرير أيضا، كلهم فى تفاسيرهم من حديث سفيان الثورى، عن الأعمش، عن يحيى بن عُمَارة

---

(١) فى أ: «عمه»، وكذا فى الطبرى. (٢) فى ت، س، أ: «يدعى». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت، س، أ: «لنعطينكما». (٥) فى ت، س، أ: «غيرها». (٦) فى أ: «يأمرك».
(٧) تفسير الطبرى (٢٣/ ٨٠).
(٨) فى ت، س، أ: «فقال القوم». (٩) فى أ: «فى».
(١٠) تفسير الطبرى (٢٣/ ٧٩).
(١١) المسند (١/ ٣٦٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٧).

الكوفى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكر نحوه. وقال الترمذى[(١)] :حسن[(٢)].

وقولهم: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾ أى: ما سمعنا بهذا الذى يدعونا إليه محمد من التوحيد فى الملة الآخرة.

قال مجاهد، وقتادة، وابن[(٣)] زيد: يعنون دين قريش.

وقال غيرهم: يعنون النصرانية، قاله محمد بن كعب، والسدى.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾، يعنى: النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقا أخبرتنا به النصارى.

﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴾: قال مجاهد، وقتادة: كذب، وقال ابن عباس: تخرص.

وقولهم: ﴿ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعنى: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم،كما قالوا فى الآية الأخرى: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ ولهذا لما قالوا هذا الذى دل على جهلهم وقلة عقلهم، فى استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: ﴿ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أى: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذابَ الله ونقمته، سيعلمون غِبّ ما قالوا، وما كذبوا به، يوم يُدَعّون إلى نار جهنم دعًا.

ثم قال مبينا أنه المتصرف فى ملكه، الفعال لما يشاء، الذى يعطى من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحد من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئا من الأمر، وليس إليهم من التصرف فى الملك ولا مثقال ذرة، وما يملكون من قطمير؛ ولهذا قال تعالى منكرا عليهم: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ أى: العزيز الذى لا يرام جنابه، الوهاب الذى يعطى ما يريد لمن يريد.

وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا . فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٣ـ ٥٥]،وقوله: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشرى، وكما أخبر تعالى عن قوم صالح [عليه السلام][(٤)] حين قالوا: ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٥، ٢٦].

---

(١) فى ت: «ورواه الترمذى وقال: حديث حسن».

(٢) سنن الترمذى برقم (٣٢٣٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٦) وتفسير الطبرى (٢٣/ ٧٩).

(٣) فى ت: «وأبو». (٤) زيادة من أ.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾ أى: إن كان لهم ذلك فليصعدوا فى الأسباب.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغيرهم: يعنى طرق السماء.

وقال الضحاك: فليصعدوا إلى السماء السابعة.

ثم قال: ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾ أى: هؤلاء الجند المكذبون الذين هم فى عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويُكبَتُون، كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين، وهذه كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾وكان ذلك يوم بدر، ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٤ـ ٤٦].

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ (١٥) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات فى مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء .وقد تقدمت قصصهم مبسوطة فى أماكن متعددة.

وقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ ﴾ أى: كانوا أكثر منكم وأشد قوة،وأكثر أموالا وأولاداً، فما دافع[١] ذلك عنهم من عذاب الله من شيء، لما جاء أمر ربك[٢]؛ ولهذا قال: ﴿ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر.

وقوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ[٣]إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾: قال مالك، عن زيد بن أسلم:أى ليس لها مَثْنَوية، أى: ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها، أى:قد اقتربت ودنت وأزفت، وهذه الصيحة هى نفخة الفزع التى يأمر الله إسرافيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع،إلا من استثنى[٤] الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ هذا إنكار من الله على المشركين فى دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القط هو الكتاب وقيل: هو الحظ والنصيب.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وغير واحد:سألوا تعجيل العذاب ـ زاد قتادة: كما قالوا: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

(١) فى ت،أ:«دفع»، وفى س:«لما دفع».
(٢) فى أ:«الله».
(٣) فى أ:«وما ينظرون» وهو خطأ.
(٤) فى أ:«شاء».

وقيل: سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة، إن كانت موجودة أن يلقوا[١] ذاك فى الدنيا. وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب.

وقال ابن جرير: سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر فى الدنيا، وهذا الذى قاله جيد، وعليه يدور كلام الضحاك، وإسماعيل بن أبى خالد، والله أعلم.

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بالصبر على أذاهم، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر[٢] والظفر.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠)﴾.

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود، عليه السلام: أنه كان ذا أيد، والأيد: القوة فى العلم والعمل.

قال [ابن عباس][٣] وابن زيد والسدى: الأيد: القوة، وقرأ ابن زيد: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وقال مجاهد: الأيد: القوة فى الطاعة.

وقال قتادة: أعطى داود [عليه السلام][٤] قوة فى العبادة، وفقها فى الإسلام، وقد ذكر لنا أنه، عليه السلام، كان يقوم ثلث الليل، ويصوم نصف الدهر.

وهذا ثابت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوما ويفطر يوما، ولا يفر إذا لاقى»[٥]. وإنه كان أوابا، وهو الرجاع إلى الله عز وجل فى جميع أموره وشؤونه.

وقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ أى: إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]. وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه، وترجع بترجيعه، إذا مر به الطير وهو سابح فى الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور، لا تستطيع الذهاب، بل تقف فى الهواء، وتسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات، ترجع معه، وتسبح تبعا له.

قال[٦] ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا محمد بن بشر، عن مِسْعَر، عن عبد الكريم، عن

(١) فى أ: «يسلموا». (٢) فى أ: «والنصرة». (٣) زيادة من ت، س.
(٤) زيادة من ت، س، أ.
(٥) صحيح البخارى برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩).
(٦) فى ت: «وروى».

موسى بن أبى كثير[١]، عن ابن عباس [٢] أنه بلغه: أن أم هانئ ذكرت أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة صلى الضحى ثمانى ركعات، قال[٣] ابن عباس: قد ظننت أن لهذه الساعة صلاة، يقول الله تعالى: ﴿ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾[٤].

ثم رواه من حديث سعيد بن أبى عروبة، عن أبى المتوكل، عن أيوب بن صفوان، عن مولاه عبدالله بن الحارث بن[٥] نوفل، أن ابن عباس كان لا يصلى الضحى، قال: فأدخلته على أم هانئ فقلت: أخبرى هذا ما أخبرتنى به. فقالت أم هانئ: دخل على رسول الله ﷺ يوم الفتح فى بيتى، ثم أمر بماء صب فى قصعة، ثم أمر بثوب، فأخذ بينى وبينه، فاغتسل ثم رش ناحية البيت، فصلى ثمان ركعات، وذلك من الضحى، قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلوسهن سواء، قريب بعضهن من بعض، فخرج ابن عباس وهو يقول: لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن: ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾، وكنت أقول: أين صلاة الإشراق، وكان بعد يقول: صلاة الإشراق[٦].

ولهذا قال : ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أى : محبوسة فى الهواء، ﴿كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ أى: مطيع يسبح تبعا له.

قال سعيد بن جبير، وقتادة، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ أى: مطيع.

[وقوله][٧]: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أى: جعلنا له ملكا كاملا من جميع ما يحتاج إليه الملوك.

قال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: كان أشد أهل الدنيا سلطاناً.

وقال السدى: كان يحرسه فى كل يوم أربعة آلاف.

وقال بعض السلف: بلغنى أنه كان حَرَسُه فى كل ليلة ثلاثة وثلاثين ألفاً، لا تدور عليهم النوبة إلى مثلها من العام القابل.

وقال غيره: أربعون ألفا مشتملون[٨] بالسلاح.

وقد ذكر[٩] ابن جرير، وابن أبى حاتم، من رواية عِلْباء بن أحمر، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: أن نفرين من بنى إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود، عليه السلام، أنه اغتصبه بقرًا، فأنكر الآخر، ولم يكن[١٠] للمدعى بينة، فأرجأ أمرهما، فلما كان الليل أمر داود، عليه السلام، فى المنام بقتل المدعى، فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدعى، فقال: يا نبى الله، علام تقتلنى وقد اغتصبنى هذا بقرى؟ فقال: إن الله عز وجل أمرنى بقتلك، فأنا قاتلك لا محالة. فقال: والله يا نبى

---

(١) فى ت: «بإسناده».
(٢) فى أ: «ابن عباس رضى الله عنهما».
(٣) فى ت: «فقال».
(٤) تفسير الطبرى (٢٣/ ٨٧).
(٥) فى أ: «عن».
(٦) تفسير الطبرى (٢٣/ ٨٧).
(٧) زيادة من ت، س، أ.
(٨) فى ت، س، أ: «مشتكون».
(٩) فى ت: «وروى».
(١٠) فى س: «تكن».

الله إن الله لم يأمرك بقتلى لأجل هذا الذى ادعيت عليه، وإنى لصادق فيما ادعيت، ولكنى كنت قد اغتلت أباه وقتلته، ولم يشعر بذلك أحد، فأمر به داود [عليه السلام][١] فقتل.

قال ابن عباس: فاشتدت هيبته فى بنى إسرائيل، وهو الذى يقول الله عز وجل: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ قال مجاهد: يعنى: الفهم والعقل والفطنة. وقال مرة: الحكمة والعدل. وقال مرة: الصواب.

وقال قتادة: كتاب الله واتباع ما فيه.

وقال السدى: ﴿الْحِكْمَةَ﴾: النبوة.

وقوله: ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ قال شريح القاضى، والشعبى: فصل الخطاب: الشهود والأيمان.

وقال قتادة: شاهدان على المدعى، أو يمين المدعى عليه، هو فصل الخطاب الذى فصل به الأنبياء والرسل ـ أو قال: المؤمنون والصالحون ـ وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة، وكذا قال أبو عبدالرحمن السلمى.

وقال مجاهد، والسدى: هو إصابة القضاء وفهمه.

وقال مجاهد أيضا: هو الفصل فى الكلام وفى الحكم[٢].

وهذا يشمل هذا كله، وهو المراد، واختاره ابن جرير.

وقال[٣] ابن أبى حاتم: حدثنا عمر بن شبة النميرى، حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنى عبد العزيز ابن أبى ثابت، عن عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن أبيه، عن بلال بن أبى بردة، عن أبيه[٤]، عن أبى موسى، رضى الله عنه، قال: أول من قال: «أما بعد» داود ،عليه السلام، وهو فصل الخطاب.

وكذا قال الشعبى: فصل الخطاب: « أما بعد».

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) ﴾.

---

(١) زيادة من س، ت، أ.
(٢) فى ت: «فى القضاء والحكم».
(٣) فى ت: « ورواه».
(٤) فى ت: «بإسناده».

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشى، عن أنس ـ ويزيد وإن كان من الصالحين ـ لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن[١] يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل؛ فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضا.

وقوله: ﴿ [إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ][٢] فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾، إنما كان ذلك لأنه كان فى محرابه، وهو أشرف مكان فى داره، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تَسَوَّرا عليه المحراب، أى: احتاطا به يسألانه عن شأنهما.

وقوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أى: غَلَبنى. يقال: عز يعز: إذا قهر وغلب.

وقوله: ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى اختبرناه.

وقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أى: ساجدا ﴿وَأَنَابَ ﴾. ويحتمل أنه ركع أولا، ثم سجد بعد ذلك، وقد ذكر أنه استمر ساجداً أربعين صباحا، ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ أى: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد اختلف الأئمة، رضى الله عنهم[٣]، فى سجدة «ص»، هل هى من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعى، رحمه الله، أنها ليست من عزائم السجود، بلى هى سجدة شكر. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد حيث قال:

حدثنا إسماعيل ـ وهو ابن علية ـ عن أيوب، عن ابن عباس[٤] أنه قال فى السجود فى «ص»: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها.

ورواه البخارى، وأبو داود، والترمذى، والنسائى فى تفسيره، من حديث أيوب، به[٥] .وقال الترمذى: حسن[٦] صحيح.

وقال[٧] النسائى أيضا عند تفسير هذه الآية: أخبرني إبراهيم بن الحسن ـ هو المقسمى ـ حدثنا حجاج بن محمد، عن عمرو[٨] بن ذر، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، أن النبى ﷺ سجد فى «ص»، وقال: «سجدها داود، عليه السلام، توبة، ونسجدها شكرا».

تفرد بروايته النسائى[٩]، ورجال إسناده كلهم ثقات، وقد أخبرنى شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى قراءة عليه وأنا أسمع:

---

(١) فى ت: «أنه». (٢) زيادة من ت، أ.

(٣) فى أ: «رحمهم الله».

(٤) فى أ: «عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس»، وفى ت: «ما رواه الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس» زيادة من أ.

(٥) المسند (١/ ٣٦٠) وصحيح البخارى برقم (١٠٦٩) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٩) وسنن الترمذى برقم (٥٧٧).

(٦) فى أ: «حديث حسن». (٧) فى ت: «وروى». (٨) فى أ: «عمر».

(٩) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٣٨).

أخبرنا أبو إسحاق المدرجى[١]، أخبرنا زاهر بن أبى طاهر الثقفى، أخبرنا زاهر بن طاهر الشحامى، أخبرنا أبو سعد الكَنْجَرُوذى، أخبرنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ، أخبرنا أبوالعباس السراج، حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا محمد بن يزيد بن خُنَيْس، عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبى يزيد قال: قال لى ابن جريج: يا حسن، حدثنى جدك عبيد الله[٢] بن أبى يزيد، عن ابن عباس قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة، فقرأت السجدة، فسجدتُ فسجدت الشجرة لسجودى، فسمعتها تقول وهى ساجدة: اللهم، اكتب لى بها عندك أجرا، واجعلها لى عندك ذخرا، وضع عنى بها وزرا، واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود.

قال ابن عباس: فرأيت النبى ﷺ قام فقرأ السجدة، ثم سجد، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة[٣].

رواه الترمذى عن قتيبة، وابن ماجه عن أبى بكر بن خلاد، كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس[٤]، نحوه. وقال الترمذى: غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه[٥].

وقال البخارى عند تفسيرها أيضا: حدثنا محمد بن عبد الله، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسى، عن العوام قال: سألت مجاهدا عن سجدة «ص» فقال[٦]: سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾[الأنعام: ٨٤]، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ[٧] فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩]، فكان داود، عليه السلام، ممن[٨] أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به، فسجدها داود، عليه السلام، فسجدها رسول الله ﷺ[٩].

وقال[١٠] الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا يزيد بن زُرَيع، حدثنا حميد، حدثنا بكر ـ هو ابن عبد الله المزنى ـ أنه أخبره[١١]: أن أبا سعيد الخدرى[١٢] رأى رؤيا أنه يكتب «ص»، فلما بلغ إلى التى يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شىء بحضرته انقلب ساجدا، قال: فقصها على النبى ﷺ، فلم يزل يسجد بها بعد. تفرد به [الإمام][١٣] أحمد[١٤].

وقال[١٥] أبو داود: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث، عن سعيد بن أبى هلال، عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبى سرح، عن أبى سعيد الخدرى، رضى

(١) فى أ: «أبو إسحاق بن المدرجى».
(٢) فى أ: «عبد الله».
(٣) رواه المزى فى تهذيب الكمال (٦/ ٣١٤).
(٤) فى أ: «يزيد بن حبيش» .
(٥) سنن الترمذى برقم (٥٧٩) وسنن ابن ماجة برقم (١٠٥٣) .
(٦) فى ت: «بإسناده إلى مجاهد قال».
(٧) فى ت، س، أ: «هداهم» وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.
(٨) فى ت، س: «فيمن».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٧) .
(١٠) فى ت: «وروى».
(١١) فى ت: «بإسناده».
(١٢) فى أ: «الخدرى رضى الله عنه».
(١٣) زيادة من أ.
(١٤) المسند (٣/ ٧٨).
(١٥) فى ت: «وروى».

الله عنه، قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص»، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تَشَزّن[١] الناس للسجود، فقال: «إنما هى توبة نبى، ولكنى رأيتكم تَشَزّنْتُم». فنزل وسجد، وسجدوا.

تفرد به أبو داود[٢]، وإسناده على شرط الصحيح.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العاليات فى الجنة، لتوبته[٣] وعدله التام فى ملكه، كما جاء فى الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون فى أهليهم وما ولوا»[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا فضيل، عن عطية[٥]، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا، إمام عادل[٦]. وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا، إمام جائر».

ورواه الترمذى من حديث فضيل ـ وهو ابن مرزوق الأغر ـ عن عطية، به[٧]. وقال: لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه.

وقال[٨] ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عبد الله بن أبى زياد، حدثنا سيار، حدثنا جعفر ابن سليمان: سمعت مالك بن دينار فى قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾، قال: يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش، ثم يقول: يا داود، مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى به فى الدنيا. فيقول: وكيف وقد سلبته؟ فيقول: إنى أرده عليك اليوم. قال: فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان.

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾.

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله[٩]. وقد توعد [الله][١٠] تعالى من ضل عن سبيله،

---

(١) فى ت: «تشدد».

(٢) سنن أبى داود برقم (١٤١٠) .

(٣) فى ت، س: «لنبوته».

(٤) صحيح مسلم برقم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنه.

(٥) فى ت: «وروى الترمذى». (٦) فى أ: «عدل».

(٧) المسند (٣/ ٢٢) وسنن الترمذى برقم (١٣٢٩).

(٨) فى ت: «وروى». (٩) فى أ: «سبيل الله». (١٠) زيادة من أ.

وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد.

قال[١] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا مروان بن جناح، حدثنى إبراهيم أبو زرعة ـ وكان قد قرأ الكتاب ـ أن الوليد بن عبد الملك قال له[٢]: أيحاسب الخليفة، فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أقول؟ قال: قل فى أمان. قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود؟ إن الله ـ عز وجل ـ جمع له النبوة والخلافة، ثم توعده فى كتابه فقال: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ** ﴾ الآية.

وقال عكرمة: ﴿**لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾، هذا من المقدم والمؤخر، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا.

وقال السدى: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب.

وهذا القول أمشى على ظاهر الآية، فالله أعلم.

﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٩)** ﴾.

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثا، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه، ثم يجمعهم[٣] ليوم الجمع، فيثيب المطيع ويعذب الكافر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ أى: الذين لا يرون بعثا ولا معادا، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط، ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**﴾، أى: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم.

ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوى بين المؤمن والكافر، فقال: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾ أى: لا نفعل ذلك، ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى، يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب[٤] فيها هذا الفاجر[٥]. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لابد من معاد وجزاء، فإنا نرى الظالم الباغى يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده، فلابد فى حكمة الحكيم العليم العادل، الذى لا يظلم مثقال ذرة، من إنصاف هذا من هذا. وإذا لم يقع هذا فى هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة، قال: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ أى: ذوو العقول، وهى الألباب، جمع لب، وهو العقل.

---

(١) فى ت: «روى». (٢) فى ت: «لأبى ورعة». (٣) فى ت، س: «جمعهم».
(٤) فى ت: «ويعذب». (٥) فى س: «العاصى».

قال الحسن البصرى: والله ما تَدَبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن [كله][١] ،ما يرى له القرآنُ فى خلق ولا عمل. رواه ابن أبى حاتم.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣)﴾.

يقول تعالى مخبرا أنه وهب لداود سليمان، أى: نبيا، كما قال: **﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾** [النمل: ١٦] أى: فى النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر.

وقوله: **﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾**، ثناء على سليمان، عليه السلام، بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل.

قال[٢] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمود بن خالد، حدثنا الوليد، حدثنا[٣] مكحول قال: لما وهب الله لداود سليمان، عليه[٤] السلام، قال له: يا بنى، ما أحسن؟ قال: سكينة الله وإيمان. قال: فما أقبح؟ قال: كفر بعد إيمان. قال: فما أحلى؟ قال: روح الله بين عباده. قال: فما أبرد؟ قال: عفو الله عن الناس، وعفو الناس بعضهم عن بعض. قال داود، عليه السلام: فأنت نبى.

وقوله: **﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾** أى: إذ عرض على سليمان فى حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات.

قال مجاهد: وهى التى تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد: السراع. وكذا قال غير واحد من السلف.

وقال[٥] ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مُؤَمَّل، حدثنا سفيان، عن أبيه سعيد بن مسروق، عن إبراهيم التيمى فى قوله: **﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِىِ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾** قال: كانت عشرين فرسا ذات أجنحة. كذا رواه ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا ابن أبى زائدة، أخبرنى إسرائيل، عن سعيد بن مسروق[٦]، عن إبراهيم التيمى قال: كانت الخيل التى شغلت سليمان، عليه الصلاة والسلام، عشرين ألف فرس ،فعقرها. وهذا أشبه[٧]، والله أعلم.

وقال[٨] أبو داود: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن أبى مريم، أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثنى عُمَارة بن غَزِيَّة: أن محمد بن إبراهيم حدثه، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن[٩]، عن عائشة،

---

(١) زيادة من ت، س، أ.
(٢) فى ت: «روى».
(٣) فى ت: «بإسناده».
(٤) فى ت، س: «عليهما».
(٥) فى ت: «روى».
(٦) فى ت: «بإسناده».
(٧) فى أ: «الأشبه».
(٨) فى ت: «وروى».
(٩) فى ت: «بإسناده».

رضى الله عنها، قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك ـ أو خيبر ـ وفى سهوتها ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة ـ لُعَب ـ فقال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: بناتى. ورأى بينهن فرسا له[١] جناحان من رقاع، فقال: «ما هذا[٢] الذى أرى وسطهن؟». قالت: فرس. قال: «وما هذا الذى عليه؟». قالت: جناحان قال: «فرس له جناحان؟!» قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ[٣].

وقوله: ﴿ فَقَالَ[٤] إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت[٥] صلاة العصر، والذى يقطع به أنه لم يتركها عمدا بل نسيانا، كما شغل النبى ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب[٦]، وذلك ثابت فى الصحيحين من غير وجه، من ذلك عن جابر قال: جاء عمر، رضى الله عنه، يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله ﷺ: «والله ما صليتها». فقال[٧]: فقمنا إلى بُطْحَان فتوضأ للصلاة وتوضأنا[٨] لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب[٩].

ويحتمل أنه كان[١٠] سائغا فى ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال. والخيل تراد للقتال. وقد ادعى طائفة[١١] من العلماء أن هذا كان مشروعا فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك فى حال المسايفة والمضايقة، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود، كما فعل الصحابة، رضى الله عنهم، في فتح تستر، وهو منقول عن مكحول، والأوزاعى، وغيرهما. والأول أقرب؛ لأنه قال بعدها: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾.

قال الحسن البصرى. قال: لا، والله لا تشغلينى عن عبادة ربى آخر ما[١٢] عليك. ثم أمر بها فعقرت. وكذا قال قتادة.

وقال السدى: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقيبها حبالها.

وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنه لم يكن ليعذب حيوانا بالعرقبة، ويهلك مالا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها. وهذا الذى رجح به ابن جرير فيه نظر؛ لأنه قد يكون فى شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضبا لله عز وجل بسبب أنه

---

(١) فى أ: «لها». (٢) فى أ: «ما هذا يا عائشة».
(٣) سنن أبى داود برقم (٤٩٣٢).
(٤) فى ت، س: «قال». (٥) فى ت، أ: «عن وقت». (٦) فى أ: «المغرب».
(٧) فى ت: «قال». (٨) فى ت: «فتوضأنا».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤١١٢) وصحيح مسلم برقم (٦٣١).
(١٠) فى أ: «ادعى هذا طائفة». (١١) فى س، أ: «أنه قد كان». (١٢) فى أ: «أحرً ما».

اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة؛ ولهذا لما خرج عنها لله تعالى[١] عوضه الله تعالى ما[٢] هو خير منها، وهى[٣] الريح التى تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل[٤].

وقال[٥] الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال[٦]، عن أبى قتادة وأبى الدهماء ـ وكانا يكثران السفر نحو البيت ـ قالا: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوى: أخذ بيدى رسول الله ﷺ فجعل يعلمنى مما علمه الله تعالى، وقال: «إنك لا تدع شيئا اتقاء الله[٧] ـ عز وجل ـ إلا أعطاك الله خيرا منه»[٨].

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أى: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ : قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم: يعنى شيطانا. ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أى[٩]: رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته.

قال ابن جرير: وكان اسم ذلك الشيطان صخرا. قاله ابن عباس، وقتادة. وقيل: آصف. قاله مجاهد. وقيل: أصروا. قاله مجاهد أيضا. وقيل: حبقيق. قاله السدى. وقد ذكروا هذه القصة مبسوطة ومختصرة.

وقد قال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة: قال أمر سليمان، عليه السلام، ببناء بيت المقدس، فقيل له: ابنه ولا يُسمَعُ فيه صوت حديد. فقال: فطلب ذلك فلم يقدر عليه. فقيل له: إن شيطانا فى البحر يقال له: «صخر» شبه المارد. قال: فطلبه وكانت عين فى البحر يَردُها فى كل سبعة أيام مرة، فنزح ماؤها وجعل فيها خَمْر، فجاء يوم ورْده فإذا هو بالخمر، فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلا. ثم رجع حتى عطش عطشاً شديدا، ثم أتاها[١٠] فقال: إنك لشراب طيب، إلا أنك تصبين الحليم، وتزيدين الجاهل جهلا. ثم شربها حتى غلبت على عقله، قال: فأرى الخاتم، أو ختم به بين كتفيه فَذَلَّ. قال: وكان ملكه فى خاتمه، فأتى به سليمان فقال: إنه

---

(١) فى ت، س: «عز وجل». (٢) فى ت، س: «بما». (٣) فى ت، س، أ: «وهو».

(٤) وهذا هو الصواب، وانظر كلام القرطبى فى: الجامع لأحكام القرآن (١٥/ ١٩٥، ١٩٦).

(٥) فى ت: «وروى».

(٦) فى ت: «وروى الإمام أحمد بإسناده». (٧) فى أ: «لله».

(٨) المسند (٥/ ٧٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٩٦): «رجاله رجال الصحيح».

(٩) فى ت، س: «ثم». (١٠) فى أ: «أتاه».

قد أمرنا ببناء هذا البيت، وقيل لنا: لا يسمعن فيه صوت حديد. قال: فأتى ببيض الهدهد فجعل عليه زجاجة، فجاء الهدهد فدار حولها، فجعل يَرَى بيضه ولا يقدر عليه، فذهب فجاء بالماس فوضعه عليه، فقطعها به، حتى أفضى إلى بيضه. فأخذ الماس، فجعلوا يقطعون به الحجارة. وكان سليمان [عليه السلام](١) إذا أراد أن يدخل الخلاء ـ أو: الحمام ـ لم يدخل بخاتمه فانطلق يوما إلى الحمام، وذلك الشيطان صخر معه، وذلك عند مقارفة قارف فيه(٢) بعض نسائه. قال: فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه، فألقاه فى البحر، فالتقمته سمكة، ونُزِع مُلك سليمان منه، وألقى على الشيطان شَبَه سليمان. قال: فجاء فقعد على كرسيه وسريره، وسُلِّط على ملك سليمان كله غير نسائه. قال: فجعل يقضى بينهم، وجعلوا ينكرون منه أشياء، حتى قالوا: لقد فتن نبى الله. وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب فى القوة فقال: والله لأجربنه. قال: فقال: يا نبى(٣) الله ـ وهو لا يرى إلا أنه نبى الله ـ أحدنا تصيبه الجنابة فى الليلة الباردة، فيدع الغسل عمدا حتى تطلع الشمس، أترى(٤) عليه بأسا؟ فقال(٥): لا. قال: فبينا هو كذلك أربعين ليلة حتى وجد نبى الله خاتمه فى بطن سمكة، فأقبل فجعل لا يستقبله جنى ولا طير إلا سجد له، حتى انتهى إليهم، ﴿**وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا**﴾، قال: هو الشيطان صخر(٦).

وقال السدى: ﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ**﴾ أى: ابتلينا سليمان، ﴿**وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا**﴾ قال: جلس الشيطان على كرسيه أربعين يوما. قال: وكان لسليمان، عليه السلام، مائة امرأة، وكانت امرأة منهن يقال لها: «جرادة»، وهى آثر نسائه وآمَنَهُن عنده، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة(٧) نزع خاتمه، ولم يأتمن(٨) عليه أحدا من الناس غيرها، فأعطاها يوما خاتمه ودخل الخلاء، فخرج الشيطان فى صورته، فقال: هاتى الخاتم. فأعطته، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه قبل؟ قال: لا. وخرج مكانه تائها. قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوما، قال: فأنكر الناس أحكامه، فاجتمع قراء بنى إسرائيل وعلماؤهم، فجاؤوا حتى دخلوا على نسائه، فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان فقد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه. قال: فبكى النساء عند ذلك، قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوا(٩)، فأحدقوا به ثم نشروا التوراة فقرؤوا. قال: فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة، والخاتم معه. ثم طار حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه فى البحر، فابتلعه حوت من حيتان البحر. قال: وأقبل سليمان فى حاله التى كان فيها، حتى انتهى إلى صياد من صيادى(١٠) البحر، وهو جائع، وقد اشتد جوعه. فاستطعمهم من صيدهم، وقال: إنى أنا سليمان. فقام إليه بعضهم فضربه بعصا فشجَّه، فجعل يغسل دمه وهو على شاطئ البحر، فلام الصيادون صاحبهم الذى ضربه، فقالوا بئس ما صنعت حيث ضربته. قال: إنه

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «فيها». (٣) فى أ: «أنبى».
(٤) فى ت: «ترى». (٥) فى ت، س: «قال».
(٦) تفسير الطبرى (٢٣/ ١٠١).
(٧) فى أ: «حاجته». (٨) فى ت: «يأمن». (٩) فى أ: «أتوه».
(١٠) فى ت، س، أ: «صيادين».

إنه زعم أنه سليمان. قال: فأعطوه سمكتين مما قد مذر عندهم، فلم يشغله ما كان به من الضرب حتى قام إلى شط البحر، فشق بطونهما، فجعل يغسل [دمه][١]، فوجد خاتمه فى بطن إحداهما، فأخذه فلبسه، فرد الله عليه بهاءه وملكه، وجاءت الطير حتى حامت عليه فعرف القوم أنه سليمان، عليه السلام، فقام القوم يعتذرون مما صنعوا [به][٢]، فقال: ما أحمدكم على عذركم، ولا ألومكم على ما كان منكم، كان هذا الأمر لابد منه. قال: فجاء حتى أتى ملكه، وأرسل إلى الشيطان، فجيء به فأمر به فجعل فى صندوق من حديد، ثم أطبق عليه، وقفل عليه بقفل، وختم عليه بخاتمه، ثم أمر به فألقى فى البحر، فهو فيه حتى تقوم الساعة. وكان اسمه حبقيق. قال: وسخر[٣] له الريح، ولم تكن سخرت له قبل ذلك، وهو قوله: ﴿ **وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** ﴾[٤].

وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد قوله: ﴿**وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا**﴾ قال: شيطانا يقال له: آصف. فقال له سليمان: كيف تفتنون الناس؟ قال: أرنى خاتمك أخبرك. فلما أعطاه إياه نبذه آصف فى البحر، فساح سليمان وذهب ملكه، وقعد آصف على كرسيه، ومنعه الله نساء سليمان فلم يقربهن ـ ولم يقربنه وأنكرنه. قال: فكان سليمان يستطعم، فيقول: أتعرفونى؟ أطعمونى، أنا سليمان. فيكذبونه، حتى أعطته امرأة يوما حوتا فجعل يطيب بطنه، فوجد خاتمه فى بطنه، فرجع إليه ملكه، وفر آصف، فدخل البحر فارا.

وهذه كلها من الإسرائيليات، ومن أنكرها ما قال ابن أبى حاتم:

حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء وعثمان بن أبى شيبة وعلى بن محمد قالوا: حدثنا أبو معاوية، أخبرنا الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس [رضى الله عنهما][٥]: ﴿ **وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثم أناب** ﴾، قال: أراد سليمان أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة خاتمه ـ وكانت الجرادة[٦] امرأته، وكانت أحب نسائه إليه ـ فجاء الشيطان فى صورة سليمان، فقال لها: هاتى خاتمى. فأعطته إياه. فلما لبسه دانت له الإنس والجن[٧] والشياطين، فلما خرج سليمان من الخلاء قال لها: هاتى خاتمى. قالت: قد أعطيته سليمان. قال: أنا سليمان. قالت: كذبت، لست سليمان[٨]، فجعل لا يأتى أحداً فيقول له: «أنا سليمان»، إلا كذبه، حتى جعل[٩] الصبيان يرمونه بالحجارة. فلما رأى ذلك عَرَف أنه من أمر الله عز وجل. قال: وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله أن يرد على سليمان سلطانه، ألقى فى قلوب الناس إنكارَ ذلك الشيطان. قال: فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن: أتنكرن من سليمان شيئاً؟ قلن: نعم، إنه يأتينا ونحن حُيَّض، وما كان يأتينا قبل ذلك. فلما رأى الشيطان أنْ قد فُطن له[١٠]، ظن أن أمره قد انقطع، فكتبوا كتباً فيها سحر وكفر، فدفنوها تحت كرسى سليمان، ثم أثاروها وقرؤوها على الناس. وقالوا:

(١، ٢) زيادة من أ. (٣) فى ت، أ: «وسخرت».
(٤) تفسير الطبرى (٢٣/ ١٠١).
(٥) زيادة من أ. (٦) فى ت: «جرادة». (٧) فى أ: «والجن والطير».
(٨) فى ت: «بسليمان». (٩) فى أ: «جاء». (١٠) فى ت: «أنه فطن له».

بهذا كان يظهر سليمان على الناس [ويغلبهم][(١)]. فأكفر الناس سليمان، عليه السلام، فلم يزالوا يكفرونه، وبعث ذلك الشيطانُ بالخاتم فطرحه فى البحر، فتلقته سمكة فأخذته. وكان سليمان يحمل على شط البحر بالأجر، فجاء رجل فاشترى سمكاً فيه تلك السمكة التى فى بطنها الخاتم، فدعا سليمان فقال: تحمل لى هذا السمك؟ فقال: نعم. قال: بكم؟ قال بسمكة من هذا السمك. قال: فحمل سليمان، عليه السلام، السمك، ثم انطلق به إلى منزله، فلما انتهى الرجل إلى بابه أعطاه تلك السمكة التى فى بطنها الخاتم، فأخذها سليمان فشق بطنها، فإذا الخاتم فى جوفها، فأخذه فلبسه. قال: فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين، وعاد إلى حاله، وهَرَب الشيطان حتى دخل جزيرة[(٢)] من جزائر البحر، فأرسل سليمان فى طلبه، وكان شيطاناً مريداً، فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه، حتى وجدوه يوماً نائماً، فجاؤوا فبنوا عليه بنياناً من رصاص، فاستيقظ فوثب فجعل لا يثب فى مكان من البيت إلا انماط معه الرصاص، قال: فأخذوه فأوثقوه، وجاؤوا به إلى سليمان، فأمر به فنقر[(٣)] له تخت من رخام، ثم أدخل فى جوفه، ثم سد بالنحاس، ثم أمر به فطرح فى البحر، فذلك قوله: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾، قال: يعنى الشيطان الذى كان سلط عليه.

إسناده إلى ابن عباس قوى، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس ـ إن صح عنه ـ من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان، عليه السلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه؛ ولهذا كان فى السياق منكرات من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور أن[(٤)] ذلك الجنى لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمهن الله منه، تشريفاً وتكريماً لنبيه ﷺ، وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف، كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، وكلها متُلقَّاة من قصص أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب.

وقال يحيى بن أبى عمرو السيبانى: وجد سليمان خاتمه فى عسقلان، فمشى فى خرقة[(٥)] إلى بيت المقدس، تواضعاً لله عز وجل، رواه ابن أبى حاتم.

وقد روى ابن أبى حاتم عن كعب الأحبار فى صفة كرسى سليمان، عليه الصلاة والسلام، خبرا عجيبا، فقال: حدثنا أبى، رحمه الله، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، أخبرنى أبو إسحاق المصرى، عن كعب الأحبار؛ أنه لما فرغ من حديث «إرم ذات العماد» قال له معاوية: يا أبا إسحاق، أخبرنى عن كرسى سليمان بن داود، وما كان عليه؛ ومن أى شىء هو؟ فقال: كان كرسى سليمان من أنياب الفيلة مُفَصّصاً بالدر والياقوت والزبرجد واللؤلؤ. وقد جُعل له درجة منها مُفَصّصة بالدر والياقوت والزبرجد، ثم أمر بالكرسى فحُفّ من جانبيه بالنخل، نخل من ذهب، شماريخها من ياقوت وزبرجد ولؤلؤ. وجعل على رؤوس النخل التى عن يمين الكرسى طواويس من ذهب، ثم جُعل على رؤوس النخل التى على يسار الكرسى نسور من ذهب مقابلة الطواويس، وجعل على يمين الدرجة الأولى

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «الحق بجزيرة». (٣) فى ت: «فثقب».
(٤) فى أ: «فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من السلف أن».
(٥) فى أ: «بحرقة».

شجرتا صنوبر من ذهب، وعن يسارها أسَدَان من ذهب، وعلى رؤوس الأسدين عمودان من زبرجد، وجعل من جانبى الكرسى شجرتا كرم من ذهب، قد أظلتا الكرسى، وجعل عناقيدهما درا وياقوتا أحمر. ثم جعل فوق دَرَج الكرسى أسدان عظيمان من ذهب مجوفان محشوان مسكا وعنبرا. فإذا أراد سليمان أن يصعد على كرسيه استدار الأسدان ساعة، ثم يقعان[١] فينضحان ما فى أجوافهما من المسك والعنبر حول كرسى سليمان، عليه السلام، ثم يوضع منبران من ذهب، واحد لخليفته، والآخر لرئيس أحبار بنى إسرائيل ذلك الزمان. ثم يوضع أمام كرسيه سبعون منبرا من ذهب، يقعد عليها سبعون قاضيا من بنى إسرائيل وعلمائهم، وأهل الشرف منهم والطول، ومن خلف تلك المنابر كلها خمسة وثلاثون منبرا من ذهب، ليس عليها أحد، فإذا أراد أن يصعد على كرسيه وضع قدميه على الدرجة السفلى، فاستدار الكرسى كله بما فيه وما عليه، ويبسط الأسد يده اليمنى وينشر النسر جناحه الأيسر، ثم يصعد [سليمان][٢] على الدرجة الثانية، فيبسط الأسد يده اليسرى، وينشر النسر جناحه الأيمن، فإذا استوى سليمان على الدرجة الثالثة وقعد على الكرسى، أخذ نسر من تلك النسور عظيم تاج سليمان فوضعه على رأسه، فإذا وضعه على رأسه استدار الكرسى بما فيه كما تدور الرحى المسرعة. فقال معاوية، رضى الله عنه: وما الذى يديره يا أبا إسحاق؟ قال: تنين من ذهب، ذلك الكرسى عليه وهو عظيم مما عمله صخر الجنى، فإذا أحست بدورانه تلك النسور والأُسْدُ والطواويس التى فى أسفل الكرسى دُرْنَ إلى أعلاه، فإذا وقف وقفن كلهن منكسات رؤوسهن على رأس سليمان [ابن داود][٣] عليه[٤] السلام وهو جالس، ثم ينضحن جميعاً ما فى أجوافهن من المسك والعنبر على رأس سليمان، عليه السلام. ثم تتناول حمامة من ذهب واقفة على عمود من جوهر، التوراةَ فتجعلها فى يده، فيقرؤها سليمان على الناس.

وذكر تمام الخبر[٥]، وهو غريب جدا.

﴿**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾، قال بعضهم: معناه: لا ينبغى لأحد من بعدى، أى: لا يصلح لأحد أن يسلبنيه، كما كان من قضية[٦] الجسد الذى ألقى على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس. والصحيح أنه سأل من الله ملكا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبه[٧] وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ.

قال[٨] البخارى عند تفسير هذه الآية: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا روح ومحمد بن جعفر، عن شعبة، عن محمد بن زياد[٩]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «إن عفريتا من الجن تَفَلَّت علىّ البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع على الصلاة، فأمكننى الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تُصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخى سليمان: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي**﴾».

---

(١) فى ت: «يقفان». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) زيادة من أ.
(٤) فى أ: «عليهما». (٥) فى ت: «الحديث». (٦) فى ت: «فى قصة»، وفى أ: «من قصة».
(٧) فى ت، س، أ: «وبذلك». (٨) فى ت: «فروى». (٩) فى ت: «بإسناده».

قال روح: فرده خاسئا[١].

وكذا رواه مسلم والنسائي، من حديث شعبة، به[٢].

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا محمد بن سلمة المُرَادي، حدثنا عبد الله بن وهب، عن معاوية ابن صالح، حدثني ربيعة بن يَزيد، عن أبي إدريس الخولاني[٣]، عن أبي الدرداء قال: قام رسول الله ﷺ يصلي، فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك». ثم قال: «ألعنك بلعنة الله» ـ ثلاثا ـ وبسط يَدَه كأنه يتناول شيئا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك؟ قال: «إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ـ ثلاث مرات ـ ثم قلت: ألعنك بلعنة الله التامة. فلم يستأخر ثلاث مرات، ثم أردت أخْذَه والله لولا دعوة أخينا سليمان، لأصبح موثقا يلعب به صبيان[٤] أهل المدينة»[٥].

وقال[٦] الإمام أحمد: حدثنا أبو أحمد، حدثنا ميسرة بن معبد، حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال: رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائما يصلي، فذهبت أمر بين يديه فردني، ثم قال[٧]: حدثني[٨] أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام يصلي[٩] صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبست عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «لو رأيتموني وإبليس، فأهويت بيدي، فما زلت أخنقه حتى وجدت بَرْدَ لعابه بين إصبعي هاتين ـ الإبهام والتي تليها ـ ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح[١٠] مربوطا بسارية من سواري المسجد، يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل».

وقد روى أبو داود منه: «من استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل»، عن أحمد ابن أبي سُرَيج، عن أبي أحمد الزبيري، به[١١].

وقال[١٢] الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري، حدثنا الأوزاعي، حدثني ربيعة بن يزيد[١٣]، عن عبد الله الديلمي قال: دخلت على عبد الله بن عمرو، وهو في حائط له بالطائف يقال له: «الوهط»، وهو مُخَاصر فتى من قريش يُزَنّ بشُرْب الخمر، فقلت: بلغني عنك حديث أنه «من شرب شربة خَمْر لم يقبل الله، عز وجل، له توبَةً أربعين صباحاً، وإن الشقي من شقي في بطن أمه، وإنه من أتى بيت المقدس لا يَنْهَزه إلا الصلاة فيه، خرج

---

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨٠٨).

(٢) صحيح مسلم برقم (٥٤١) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٤٤٠).

(٣) في ت: «بإسناده». (٤) في ت، س، أ: «ولدان».

(٥) صحيح مسلم برقم (٥٤٢).

(٦) في ت: «وروى». (٧) في ت: «بإسناده». (٨) في ت: «عن».

(٩) في ت: «فصلى».

(١٠) في ت: «أصبح».

(١١) المسند (٣/٨٣) وسنن أبي داود برقم (٦٩٩).

(١٢) في ت: «وروى». (١٣) في ت: «بإسناده».

من خطيئته مثل يوم ولدته أمه، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده، ثم انطلق. فقال عبدالله بن عمرو [١]: إنى لا أحل لأحد أن يقول عَلَىّ ما لم أقل، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرب من الخمر شربة، لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن[٢] عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحا، فإن تاب تاب الله عليه. فإن عاد ـ قال: فلا أدرى فى الثالثة أو الرابعة ـ فإن عاد كان حقا على الله أن يسقيه من رَدْغَة الخبال يوم القيامة». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق خلقه فى ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك[٣] أقول: جف القلم على علم الله عز وجل». وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن سليمان سأل الله تعالى ثلاثا، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سأله حكما يصادف حكمه، فأعطاه إياه، وسأله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسأله أيّما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة فى هذا المسجد، خرج من خطيئته كيوم[٤] ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى[٥] قد أعطانا إياها»[٦].

وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائى وابن ماجه من طرق، عن عبد الله بن فيروز الديلمى، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه، عز وجل، خلالا ثلاثا. . .» وذكره[٧].

وقد روى من حديث رافع بن عمير، رضى الله عنه، بإسناد وسياق غريبين، فقال الطبرانى:

حدثنا محمد بن الحسن بن قُتَيْبة العسقلانى، حدثنا محمد بن أيوب بن سُوَيْد، حدثنى أبى، حدثنا إبراهيم بن أبى عَبْلَة، عن أبى الزاهرية[٨]، عن رافع بن عمير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل لداود، عليه السلام: ابن لى بيتاً فى الأرض. فبنى داود [٩] بيتاً لنفسه قبل البيت الذى أمر به، فأوحى الله إليه: يا داود، نصبت بيتك قبل بيتى؟ قال: يا رب، هكذا قضيت[١٠]، من ملك استأثر. ثم أخذ فى بناء المسجد، فلما تم السور سقط، ثلاثا، فشكا ذلك إلى الله عز وجل، فقال: يا داود[١١]، إنك لا تصلح أن تبنى لى بيتاً. قال: ولم يا رب؟ قال: لما جرى على يديك من الدماء. قال: يا رب، أو ما كان[١٢] ذلك فى هواك ومحبتك؟ قال: بلى، ولكنهم عبادى، وأنا أرحمهم. فشق ذلك عليه، فأوحى الله إليه: لا تحزن، فإنى سأقضى بناءه على يدى ابنك سليمان. فلما مات داود أخذ سليمان فى بنائه فلما تم قرب القرابين، وذبح الذبائح، وجمع بنى إسرائيل، فأوحى الله إليه: قد أرى سرورك ببنيان بيتى، فسلنى أعطك. قال: أسألك ثلاث خصال: حكما يصادف حكمك، وملكا لا ينبغى لأحد من بعدى، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه

(١) فى أ: «عمرو رضى الله عنهما». (٢) فى أ: «وإن». (٣) فى أ: «ولذلك».
(٤) فى ت، س، أ: «مثل يوم». (٥) فى ت، س، أ: «عز وجل».
(٦) المسند (٢/١٧٦).
(٧) سنن النسائى (٢/٤٣) وسنن ابن ماجة برقم (١٤٠٨).
(٨) فى ت: «وروى الطبرانى بإسناده». (٩) فى ت: «داود عليه السلام».
(١٠) فى ت، س، أ: «هكذا قلت فيما قضيت». (١١) فى ت، أ: «فأوحى الله إليه».
(١٢) فى ت، س، أ: «أو لم يكن».

خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». قال رسول الله ﷺ: «أما ثنتان فقد أعطيهما، وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة»[١].

وقال[٢] الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عُمَر بن راشد اليمامى، حدثنا إياس بن سلمة ابن الأكوع، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ دعا دعاءً إلا استفتحه بـ «سبحان الله ربى الأعلى العلى الوهاب»[٣].

وقد قال[٤] أبو عبيد: حدثنا على بن ثابت، عن جعفر بن بَرْقان، عن صالح بن مسمار قال: لما مات نبى الله داود أوحى الله إلى ابنه سليمان، عليهما[٥] السلام: أن سلنى حاجتك. قال: أسألك أن تجعل لى قلبا يخشاك، كما كان قلب أبى، وأن تجعل قلبى يحبك كما كان قلب أبى. فقال الله: أرسلت إلى عبدى وسألته[٦] حاجته، فكانت [حاجته][٧] أن أجعل قلبه يخشانى، وأن أجعل قلبه يحبنى. لأهَبَنّ له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده. قال الله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، والتى بعدها، قال: فأعطاه [الله][٨] ما أعطاه، وفى الآخرة لا حساب عليه.

هكذا أورده أبو القاسم ابن عساكر فى ترجمة سليمان، عليه السلام ، فى تاريخه[٩].

وروى عن بعض السلف أنه قال: بلغنى عن داود [عليه السلام][١٠] أنه قال: «إلهى، كن لسليمان كما كنت لى»: فأوحى الله إليه: أن قل لسليمان: يكون لى كما كنت لى، أكون له كما كنتُ لك.

وقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾: قال الحسن البصرى، رحمه الله: لما عقر سليمان الخيل غضبا لله، عز وجل، عوضه الله ما هو خير منها وأسرع، الريح التى غدوها شهر ورواحها شهر.

وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أى: حيث أراد من البلاد.

وقوله: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ أى: منهم من هو مستعمل فى الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التى لا يقدر عليها البشر، وطائفة غواصون فى البحار يستخرجون مما[١١] فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التى لا توجد إلا فيها، ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أى: موثوقون فى الأغلال والأكبال، ممن قد تَمَرَّد وعصى وامتنع من العمل وأبى، أو قد أساء فى صنيعه واعتدى.

---

(١) المعجم الكبير (٥/ ٢٤) قال الهيثمى فى المجمع (٨/٤): «فيه محمد بن أيوب بن سويد الرملى وهو متهم بالوضع».

(٢) فى ت: «وروى».

(٣) المسند (٤/ ٥٤) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٥٦): «فيه عمر بن راشد اليمامى وثقه غير واحد، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى ت، أ: «عليه». (٦) فى ت، س: «أسأله».

(٧) زيادة من ت، س. (٨) زيادة من أ.

(٩) تاريخ دمشق (٧/ ٥٦٩ «القسم المخطوط».

(١٠) زيادة من ت، س، أ. (١١) فى ت: «ما».

وقوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: هذا الذى أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا، فأعط من شئت واحرم من شئت، لا حساب عليك، أى: مهما فعلتَ فهو جائز لك، احكم بما شئت فهو صواب.

وقد ثبت فى الصحيحين[1] أن رسول الله ﷺ لما خُيِّر بين أن يكون عبداً رسولا ـ وهو الذى يفعل ما يؤمر به، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس ما أمره الله به ـ وبين أن يكون ملكا نبيا، يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح، اختار المنزلة الأولى بعد ما استشار جبريل، فقال له: تواضع. فاختار المنزلة الأولى؛ لأنها أرفع قدرا عند الله وأعلى منزلة فى المعاد. وإن كانت المنزلة الثانية وهى النبوة مع الملك عظيمة أيضا فى الدنيا وفى الآخرة؛ ولهذا لما ذكر تعالى ما أعطى سليمان فى الدنيا نبه على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضا، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أى: فى الدار الآخرة.

﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ(٤٤) ﴾ .

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب، عليه السلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر فى جسده وماله وولده، حتى لم يبق من جسده مَغْرز إبرة سليما سوى قلبه، ولم يبق له من حال الدنيا شىء يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة[2] وتطعمه، وتخدمه نحوا من ثمانى عشرة سنة. وقد كان قبل ذلك فى مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا، فَسُلبَ جميعَ ذلك، حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته، رضى الله عنها، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً و[لا][3] مساء إلا بسبب خدمة الناس، ثم تعود إليه قريباً. فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر المقدور، وتم الأجل المقدر، تضرع[4] إلى رب العالمين وإله المرسلين، فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٣]، وفى هذه الآية الكريمة قال: رَبِّ، إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب، قيل: بنصب فى بدنى، وعذاب فى مالى وولدى. فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين، وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله. ففعل فأنبع الله عينا وأمره أن يغتسل منها، فأذهب جميع ما كان فى بدنه من الأذى[5]. ثم أمره فضرب الأرض فى مكان آخر، فأنبع له عينا أخرى وأمره أن يشرب منها، فأذهبت ما كان فى باطنه[6] من السوء، وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

(١) فى أ: «الصحيح». (٢) فى أ: «بالأجر». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت، س: «ضرع». (٥) فى ت، س: «ما كان به من الأذى». (٦) فى أ: «بباطنه».

قال[١] ابن جرير، وابن أبي حاتم جميعاً: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى نافع بن يزيد، عن عقيل، عن ابن شهاب[٢]، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبى الله أيوب، عليه السلام، لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم ـ والله ـ لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: من ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله، فيكشفَ ما به [٣]. فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له. فقال أيوب: لا أدرى ما تقول، غير أن الله يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله، عز وجل، فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما، كراهية أن يذكرا الله إلا فى حق. قال: وكان[٤] يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحى الله تعالى إلى أيوب، عليه السلام، أن ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ، فاستبطأته، فتلقته تنظر، فأقبل[٥] عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان. فلما رأته قالت: أى بارك الله فيك، هل رأيت نبى الله هذا المبتلى. فوالله على ذلك، ما رأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحا. قال: فإنى[٦] أنا هو. قال: وكان له أندران، أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير حتى فاض. هذا لفظ ابن جرير رحمه الله[٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا[٨] أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عريانا، خَرَّ عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحثو فى ثوبه، فناداه ربه[٩]: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى بى عن بركتك».

انفرد بإخراجه البخارى، من حديث عبد الرزاق، به[١٠].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ، قال الحسن، وقتادة: أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ أى: به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته، ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أى: لذوى العقول، ليعلموا أن عاقبةَ الصبر الفرجُ والمخرجُ والراحة.

---

(١) فى ت: «روى». (٢) فى ت: «بسندهما». (٣) فى أ: «ما به من مرضه».
(٤) فى أ: «وكان أيوب». (٥) فى أ: «وأقبل». (٦) فى أ: «فقال إنى».
(٧) تفسير الطبرى (٢٣/ ١٠٧) ورواه البزار فى مسنده (٢٣٥٧) «كشف الأستار»، وأبو نعيم فى الحلية (٣/ ٣٧٤) من طريق سعيد ابن أبى مريم عن نافع بن يزيد به. قال البزار: «لا نعلم رواه عن الزهرى عن أنس إلا عقيل، ولا عنه إلا نافع، ورواه عن نافع غير واحد»، وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٢٠٨): «رجال البزار رجال الصحيح».
(٨) فى ت: «وروى القارى». (٩) فى ت، س، أ: «ربه عز وجل».
(١٠) المسند (٢/ ٣١٤) وصحيح البخارى برقم (٢٧٨).

وقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ﴾، وذلك أن أيوب، عليه السلام، كان قد غضب على زوجته، ووَجَد عليها في أمر فعلته. قيل: [إنها][(١)] باعت ضفيرتها [(٢)] بخبز فأطعمته إياه، فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة. وقيل: لغير ذلك من الأسباب. فلما شفاه الله وعافاه، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله، عز وجل، أن يأخذ ضغثاً ـ وهو: الشِّمراخ ـ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة، وقد برّت يمينه، وخرج من حنثه ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب﴾ أي: رَجَّاع منيب؛ ولهذا قال تعالى:﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقد استدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل في الإيمان وغيرها، وأخذوها[(٣)] بمقتضاها، [ومنعت طائفة أخرى من الفقهاء من ذلك وقالوا: لم يثبت أن الكفارة كانت مشروعة في شرع أيوب ،عليه السلام، فلذلك رخص له في ذلك، وقد أغنى الله هذه الأمة بالكفارة][(٤)].

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ (٤٨) هَذَا ذِكْرٌ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين:﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾ يعني بذلك: العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿أُوْلِي الأَيْدِي﴾ يقول: أولي القوة،﴿وَالأَبْصَارِ﴾ يقول: الفقه في الدين.

وقال مجاهد: ﴿ أُوْلِي الأَيْدِي﴾،يعني: القوة في طاعة الله، ﴿وَالأَبْصَارِ﴾ يعني: البصر[(٥)] في الحق.

وقال قتادة والسدي: أعطُوا قوة في العبادة وبَصراً في الدين.

[وقوله][(٦)]: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ قال مجاهد: أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هَمّ غيرها. وكذا قال السدي: ذكرهم للآخرة وعملهم لها.

وقال مالك بن دينار: نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها. وكذا قال عطاء الخراساني.

(١) زيادة من ت، أ. (٢) في أ: «ضفيرتيها». (٣) في ت، س: «وأخذوا».
(٤) زيادة من ت، أ. (٥) في أ: «البصير». (٦) زيادة من ت، س، أ.

وقال سعيد بن جُبَيْر: يعنى بالدار الجنة، يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها[١]، وقال فى رواية أخرى: ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾: عقبى الدار.

وقال قتادة: كانوا يذكّرون الناس الدار الآخرة والعمل لها.

وقال ابن زيد: جعل لهم[٢] خاصةً أفضل شىء فى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ أى: لمن المختارين المجتبين الأخيار، فهم أخيار مختارون.

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾، قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة فى سورة «الأنبياء» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ أى: هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر.

وقال السدى: يعنى القرآن.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤)﴾.

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء، أن لهم فى [الدار][٣] الآخرة ﴿لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ وهو: المرجع والمنقلب. ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أى: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب.

والألف واللام هنا[٤] بمعنى الإضافة، كأنه يقول: «مفتحة لهم أبوابها» أى: إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها.

قال[٥] ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن ثواب الهَبَّارى، حدثنا عبد الله بن نُمَيْر، حدثنا عبد الله ابن مسلم ـ يعنى: ابن هرمز ـ عن ابن سابط[٦]، عن عبد الله بن عمرو [رضى الله عنهما][٧] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة قصرا يقال له: «عدن»، حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب، عند كل باب خمسة آلاف حبَرَة لا يدخله ـ أو: لا يسكنه ـ إلا نبى أو صديق أو شهيد أو إمام عدل»[٨].

وقد ورد فى [ذكر][٩] أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾: قيل: متربعين فيها على سرر[١٠] تحت الحجال، ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ

---

(١) فى ت: «أخلصناهم بذكرهم لها». (٢) فى ت: «لها». (٣) زيادة من س، أ.
(٤) فى ت: «هاهنا». (٥) فى ت: «روى». (٦) فى ت: «بإسناده».
(٧) زيادة من أ.
(٨) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٥٩١) «كشف الأستار» من طريق محمد بن ثواب به، وقال الهيثمى فى المجمع (١٩٦/٥): «فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز وهو ضعيف».
(٩) زيادة من ت، أ. (١٠) فى أ: «سرير».

﴿كَثِيرَةٍ﴾ أى: مهما طلبوا وجدوا، وحضر كما أرادوا. ﴿وَشَرَابٍ﴾ أى: من أى أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدام﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٨].

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾أى: عن غير أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن، ﴿أَتْرَابٌ﴾ أى: متساويات فى السن والعمر. هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب، والسدّى.

﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى: هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة التى(١) وعدها لعباده المتقين، التى(٢) يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار.

ثم أخبر عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وكقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، وكقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أى: غير مقطوع، وكقوله: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥] والآيات فى هذا كثيرة جدا.

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) ﴾.

لما ذكر تعالى مآل السعداء، ثنّى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم فى دار معادهم وحسابهم، فقال: ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ ﴾ وهم: الخارجون عن طاعة الله، المخالفون لرسل الله، ﴿ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ أى: لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أى: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم، ﴿ فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أما الحميم فهو: الحار الذى قد انتهى حره، وأما الغَسَّاق فهو: ضده، وهو البارد الذى لا يستطاع من شدة برده المؤلم؛ ولهذا قال: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ أى: وأشياء من هذا القبيل، الشىء وضده يعاقبون بها.

قال(٣) الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا درّاج، عن أبى الهيثم(٤)، عن أبى سعيد (٥) ،عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن دَلْواً من غسَّاق يهراق فى الدنيا، لأنتن أهل الدنيا»(٦).

---

(١) فى ت، س، أ: «الجنة هى التى». (٢) فى أ: «الذين». (٣) فى ت: «روى».
(٤) فى ت: «بسنده». (٥) فى أ: «سعيد رضى الله عنه» .
(٦) المسند (٣/٢٨).

ورواه الترمذى، عن سُوَيْد بن نصر، عن ابن المبارك، عن رِشْدين بن سعد، عن عمرو بن الحارث، عن دَرّاج، به. ثم قال: «لا نعرفه إلا من حديث رشدين»[١]. كذا قال: وقد تقدم من غير حديثه. ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن عمرو بن الحارث، به[٢].

وقال كعب الأحبار: غساق: عين فى جهنم، يسيل إليها حُمَة كل ذات حُمَة من حية وعقرب وغير ذلك، فيستنقع، فيؤتى بالآدمى فيغمس فيها غمسة واحدة، فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه فى كعبيه وعقبيه، ويُجَر لحمه كما يَجُر الرجل ثوبه. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾: ألوان من العذاب.

وقال غيره: كالزمهرير، والسموم، وشرب الحميم، وأكل الزقوم، والصعود والهوى، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة[٣]، والجميع مما يعذبون به، ويهانون بسببه.

وقوله: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾، هذا إخبار عن قيل أهل النار بعضهم لبعض، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، يعنى بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون[٤]، ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التى تدخل قبل الأخرى، إذا أقبلت التى بعدها مع الخزنة من الزبانية: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ أى: داخل معكم، ﴿لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ [أى][٥]: لأنهم من أهل جهنم[٦]. ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ أى: فيقول لهم الداخلون: ﴿بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أى: أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير، ﴿فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أى: فبئس المنزل والمستقر والمصير. ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾، كما قال عز وجل[٧]: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، أى: لكل منكم عذاب بحسبه، ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ. أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾، هذا إخبار عن الكفار فى النار أنهم يفقدون رجالا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة، وهم المؤمنون فى زعمهم، قالوا: ما لنا لا نراهم معنا فى النار؟

قال[٨] مجاهد: هذا قول أبى جهل، يقول: ما لى لا أرى بلالا وعمارا وصهيبا وفلانا وفلانا.

وهذا مثل ضرب، وإلا فكل الكفار هذا حالهم: يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم، فقالوا: ﴿مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ. أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أى: فى الدنيا[٩]، ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾، يسلون أنفسهم بالمحال، يقولون: أو لعلهم

---

(١) سنن الترمذى برقم (٢٥٨٤).
(٢) تفسير الطبرى (٢٣/ ١١٤).
(٣) فى ت، س: «المتضاضة والمتخالفة».
(٤) فى ت: «ويتجاذبون».
(٥) زيادة من ت، س.
(٦) فى ت: «النار».
(٧) فى ت، س: «تعالى».
(٨) فى ت: «وقال».
(٩) فى أ: «دار الدنيا».

معنا فى جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات[١]، وهو[٢] قوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿[وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ . أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ] [٣] ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤ ـ ٤٩].

وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ أى: إن هذا الذى أخبرناك به يا محمد، من تخاصم أهل النار بعضهم فى بعض، ولعن بعضهم لبعض، لحق لا مرية فيه ولا شك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠)﴾ .

يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ[٤] أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر[٥] لست كما تزعمون، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أى: هو[٦] وحده قد قهر كل شىء وغلبه. ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه، ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أى: غفار مع عزته وعظمته.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أى: خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله إياى إليكم، ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أى: غافلون.

قال مجاهد، وشريح القاضى، والسدى فى قوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ يعنى: القرآن.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أى: لولا الوحى من أين كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى؟ يعنى: فى شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه فى تفضيله عليه.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا جهضم اليمامى، عن يحيى بن أبى كثير، عن زيد بن أبى سلام، عن أبى سلام، عن عبد الرحمن بن عائش، عن مالك بن يخامر، عن معاذ، رضى الله عنه، قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح، حتى كدنا نتراءى قرن الشمس. فخرج رسول الله ﷺ سريعا، فَثَوّب بالصلاة فصلى، وتَجوّز فى صلاته، فلما سلم قال: «كما أنتم على مصافكم». ثم أقبل إلينا فقال: «إنى سأحدثكم ما حبسنى عنكم الغداة، إنى قمت من الليل فصليت ما قُدّر لى، فنعست فى صلاتى حتى استيقظت، فإذا أنا بربى[٧] فى أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟

---

(١) فى ت: «العلا». (٢) فى أ: «وهى». (٣) زيادة من ت، س.
(٤) فى س: «صلوات الله وسلامه عليه». (٥) فى أ: «نذير مبين». (٦) فى ت: «وهو».
(٧) فى ت، س، أ: «بربى عز وجل».

قلت: لا أدرى رب ـ أعادها ثلاثا ـ فرأيته وضع كفه بين كتفى، حتى وجدت برد أنامله بين صدرى، فتجلى لى كل شىء وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: فى الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت[١]: نقل الأقدام إلى الجمعات[٢]، والجلوس[٣] فى المساجد بعد الصلوات، وإسباغ الوضوء عند الكريهات. قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة والناس نيام. قال: سل. قلت: اللهم، إنى أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لى وترحمنى، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفنى غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربنى إلى حبك». وقال رسول الله ﷺ: «إنها حق فادرسوها وتعلموها»[٤]، فهو حديث المنام المشهور، ومن جعله يقظة فقد غلط، وهو فى السنن من طرق.

وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذى من حديث «جهضم بن عبد الله اليمامى» به. وقال: «حسن صحيح»[٥] وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور فى القرآن[٦] إن هذا قد فسر، وأما الاختصام الذى فى القرآن فقد فسر بعد هذا، وهو قوله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) ﴾ .

هذه القصة ذكرها الله، تعالى، فى سورة «البقرة»، وفى أول «الأعراف»، وفى سورة «الحجر»، و[فى][٧] «سبحان»، و«الكهف»، وهاهنا. وهى أن الله، سبحانه، أعلم الملائكة قبل خلق آدم، عليه السلام، بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراما وإعظاما واحتراما، وامتثالا لأمر الله عز وجل. فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس، ولم يكن منهم جنسا؛ كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه، فاستنكف[٨] عن السجود لآدم، وخاصم ربه عز وجل فيه، وادعى[٩] أنه خير من آدم؛ فإنه مخلوق

(١) فى أ: «قال». (٢) فى ت، أ: «الجماعات». (٣) فى ت، س، أ: «وجلوس».
(٤) المسند (٥/ ٢٤٣).
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٢٣٥) وقال: «سألت محمد بن إسماعيل ـ يعنى: عن هذا الحديث ـ فقال: «حسن صحيح».
(٦) فى ت: «المذكور فى الآية الكريمة فى القرآن».
(٧) زيادة من ت. (٨) فى أ: «فاستأنف». (٩) فى ت: «فادعى».

من نار وآدم خلق من طين، والنار خير من الطين، فى زعمه. وقد أخطأ فى ذلك، وخالف أمر الله، وكفر بذلك، فأبعده الله وأرغم أنفه، وطرده عن[1] باب رحمته ومحل أنسه، وحضرة قدسه، وسماه «إبليس»، إعلاما له بأنه قد أبْلَس من الرحمة، وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذى لا يَعْجَل على من عصاه. فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى، وقال: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ كما قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢]، وهؤلاء هم المستثنون فى الآية الأخرى، وهى[2] قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٥].

وقوله: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ . لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع «الحق» الأولى[3]، وفسره مجاهد بأن معناه: أنا الحق، والحق أقول. وفى رواية عنه: الحق منى، وأقول الحق.

وقرأ آخرون بنصبهما.

قال السدى: هو قسم أقسم الله به.

قلت: وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣].

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أى: وما أزيد على ما أرسلنى الله به، ولا أبتغى زيادة عليه، بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه، وإنما أبتغى بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة.

قال سفيان الثورى، عن الأعمش ومنصور، عن أبى الضحى، عن مسروق قال: أتينا عبد الله بن مسعود قال: يأيها الناس، من علم شيئا فليقل به، ومن لا[4] يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: الله أعلم، فإن الله[5] قال لنبيكم ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. أخرجاه[6] من حديث الأعمش، به[7].

---

(١) فى أ: «لم». (٢) فى أ: «الله عز وجل». (٣) فى أ: «من».
(٤) فى أ: «وهو». (٥) فى أ: «الأول».
(٦) فى ت: «أخرجه البخارى ومسلم».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨).

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يعني: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس. ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن أبي غسان مالك بن إسماعيل: حدثنا قيس، عن عطاء ابن السائب، عن سعيد بن جبير[١]، عن[٢] ابن عباس في قوله: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: الجن والإنس.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، [وكقوله][٣]: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: خبره وصدقه ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ أي: عن قريب.

قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعني يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين؛ فإن من مات فقد[٤] دخل في حكم القيامة.

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾: قال الحسن: يا بن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

آخر تفسير سورة «ص»، ولله الحمد والمنة

(١) في ت: «بإسناده».
(٢) في ت: «إلى».
(٣) زيادة من أ.
(٤) في ت، س، أ: «قد».

تفسير سورة الزمر

وهى مكية .

قال النسائى: حدثنا محمد بن النضر بن مساور، حدثنا حماد، عن مروان أبى لبابة(١)، عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر. ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم. وكان يقرأ فى كل ليلة بنى إسرائيل والزمر(٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) ﴾ .

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب ـ وهو القرآن العظيم ـ من عنده، تبارك وتعالى، فهو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ـ ١٩٥]. وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]. وقال هاهنا: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ أى: المنيع الجناب، ﴿الْحَكِيمِ﴾ أى: فى أقواله وأفعاله، وشرعه، وقدره.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أى: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له [وحده](٣)، وأنه(٤) ليس له شريك ولا عديل ولا نديد؛ ولهذا قال: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أى: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده، لا شريك له.

وقال قتادة فى قوله: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾: شهادة أن لا إله إلا الله.

ثم أخبر تعالى عن عُبّاد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أى: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين فى زعمهم، فعبدوا(٥) تلك الصور تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله فى

---

(١) فى ت: «روى النسائى بإسناده عن عائشة» .

(٢) النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٤٤).

(٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى ت: «فإنه» . (٥) فى أ: «فعدوا».

نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر[١] الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به.

قال قتادة، والسدى، ومالك عن زيد بن أسلم، وابن زيد: ﴿إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أى: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة.

ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم إذا حجوا فى جاهليتهم: «لبيك لا شريك لك[٢]، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك». وهذه الشبهة هى التى اعتمدها المشركون فى قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بردها والنهى عنها، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شىء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضى به، بل أبغضه ونهى عنه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وأخبر أن الملائكة التى فى السموات من المقربين وغيرهم، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه، ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، تعالى الله عن ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزى كل عامل بعمله، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ[٣] لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أى: لا يرشد إلى الهداية من قصده[٤] الكذب والافتراء على الله، وقلبه كفار يجحد بآياته [وحججه][٥] وبراهينه.

ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين فى الملائكة، والمعاندون[٦] من اليهود والنصارى فى العزير وعيسى، فقال: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون[٧]. وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم[٨] فيما ادعوه وزعموه، كما قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم.

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أى: تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى كل شىء عبد لديه، فقير إليه، وهو الغنى عما سواه، الذى قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت.

---

(١) فى س، أ: «أمور». (٢) فى أ: «لك لبيك». (٣) فى أ: «نقول».
(٤) فى أ: «قصد». (٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «المعاندين».
(٧) فى س: «تزعمون». (٨) فى أ: «بجهلهم».

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦) ﴾.

يخبر تعالى أنه الخالق لما فى السموات والأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وأنه مالك الملك المتصرف فيه، يقلب ليله ونهاره، ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أى: سخرهما يجريان[(١)] متعاقبين لا يقران[(٢)]، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، كقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] هذا معنى ما روى عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: إلى مدة معلومة عند الله ثم تنقضى يوم القيامة. ﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أى: مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه.

وقوله: ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أى: خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة، وهو آدم، عليه السلام، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وهى حواء، عليهما السلام، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

وقوله: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أى: وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج، وهى المذكورة فى سورة الأنعام: ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، ﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وقوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ[(٣)] فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أى: قدركم[(٤)] فى بطون أمهاتكم ﴿خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾أى: يكون أحدكم أولا نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحما وعظما وعصبا وعروقا، وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾ يعنى: ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة[(٥)] ـ التى هى كالغشاوة والوقاية على الولد ـ وظلمة البطن. كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو مالك، والضحاك، وقتادة، والسدى، وابن[(٦)] زيد [وغيرهم][(٧)].

وقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أى: هذا الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم[(٨)]، هو الرب له الملك والتصرف[(٩)] فى جميع ذلك، ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أى: الذى لا تنبغى

---

(١) فى س: «تجريان».
(٢) فى أ: «لا يفتران».
(٣) فى ت، س: «يذرأكم».
(٤) فى ت، س: «يخلقكم»، وفى أ: «يذرأكم».
(٥) فى ت، س: «الشيمة».
(٦) فى ت، س: «وأبو».
(٧) زيادة من ت.
(٨) فى أ: «آباءكم وإياكم».
(٩) فى أ: «والتصريف».

العبادة إلا له وحده، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يُذْهَبُ بعقولكم؟!

﴿ إن تكفُرُوا فإنَّ اللَّهَ غنيٌّ عنكُمْ ولا يرْضَىٰ لعباده الْكُفْرَ وإن تشْكُرُوا يرْضهُ لكُمْ ولا تزرُ وازرةٌ وزْر أُخْرَىٰ ثُمَّ إلَىٰ ربِّكُم مَّرْجعُكُمْ فيُنبِّئُكُم بما كُنتُمْ تعْملُون إنَّهُ عليمٌ بذات الصُّدُور ﴿٧﴾ وإذا مسَّ الإنسان ضُرٌّ دعا ربَّهُ مُنيبًا إليْه ثُمَّ إذا خوَّلهُ نعْمةً مّنْهُ نسي ما كان يدْعُو إليْه من قبْلُ وجعل للَّه أندادًا لّيُضلَّ عن سبيله قُلْ تمتَّعْ بكُفْرك قليلاً إنَّك منْ أصْحاب النَّار ﴿٨﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن نفسه تعالى: أنه[1] الغنى عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى: ﴿إن تكْفُرُوا أنتُمْ ومن في الأرْض جميعًا فإنَّ اللَّه لغنيٌّ حميدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] .

وفى صحيح مسلم: «يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكى شيئا»[2].

وقوله ﴿ولا يرْضَىٰ لعباده الْكُفْر﴾ أى: لا يحبه ولا يأمر به، ﴿وإن تشْكُرُوا يرْضهُ لكُمْ﴾ أى: يحبه منكم ويزدكم[3] من فضله.

﴿ولا تزرُ وازرةٌ وزْر أُخْرَىٰ﴾ أى: لا تحمل نفس عن نفس شيئا، بل كل مطالب بأمر نفسه، ﴿ ثُمَّ إلَىٰ ربِّكُم مَّرْجعُكُمْ فيُنبِّئُكُم بما كُنتُمْ تعْملُون إنَّهُ عليمٌ بذات الصُّدُور ﴾ أى: فلا تخفى عليه خافية.

وقوله: ﴿ وإذا مسَّ الإنسان ضُرٌّ دعا ربَّهُ مُنيبًا إليْه ﴾ أى: عند الحاجة يضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ وإذا مسَّكُمُ الضُّرُّ في الْبحْر ضلَّ من تدْعُون إلاَّ إيَّاهُ فلمَّا نجَّاكُمْ إلى الْبرِّ أعْرضْتُمْ وكان الإنسانُ كفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]. ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ إذا خوَّلهُ نعْمةً مّنْهُ نسي ما كان يدْعُو إليْه من قبْلُ﴾ أى: فى حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال تعالى: ﴿ وإذا مسَّ الإنسان الضُّرُّ دعانا لجنْبه أوْ قاعدًا أوْ قائمًا فلمَّا كشفْنا عنْهُ ضُرَّهُ مرَّ كأن لَّمْ يدْعُنا إلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

﴿ وجعل للَّه أندادًا لّيُضلَّ عن سبيله ﴾ أى: فى حال العافية يشرك بالله، ويجعل له[4] أندادا. ﴿ قُلْ تمتَّعْ بكُفْرك قليلاً إنَّك منْ أصْحاب النَّار﴾ أى: قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه: تمتع بكفرك قليلا. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، كقوله: ﴿ قُلْ تمتَّعُوا فإنَّ مصيركُمْ إلى النَّار﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿نُمتّعُهُمْ قليلاً ثُمَّ نضْطرُّهُمْ إلَىٰ عذابٍ غليظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿ أمَّنْ هُو قانتٌ آناء اللَّيْل ساجدًا وقائمًا يحْذرُ الآخرة ويرْجُو رحْمة ربّه قُلْ هلْ يسْتوي الَّذين يعْلمُون والَّذين لا يعْلمُون إنَّما يتذكَّرُ أُولُوا الألْباب ﴿٩﴾ ﴾.

---

(١) فى ت، أ: «بأنه».

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧) من حديث أبى ذر رضى الله عنه.

(٣) فى أ: «ويزيدكم». (٤) فى ت: «لله».

يقول تعالى: أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له[(١)] أندادا؟ لا يستوون عند الله، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال هاهنا: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ أى: فى حال سجوده وفى حال قيامه؛ ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع فى الصلاة، ليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه آخرون.

قال الثورى، عن فراس، عن الشعبى، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: القانت: المطيع لله ولرسوله.

وقال ابن عباس، والحسن، والسدى، وابن زيد: ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: جوف الليل.

وقال الثورى، عن منصور: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء.

وقال الحسن، وقتادة: ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾: أوله وأوسطه وآخره.

وقوله: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ أى: فى حال عبادته خائف راج[(٢)]، ولابد فى العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف فى مدة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه، كما قال[(٣)] الإمام عبد بن حميد فى مسنده.

حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا ثابت، عن أنس قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى الموت، فقال له: «كيف تجدك[(٤)]؟» قال: أرجو وأخاف. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذى يرجو، وأمنه الذى يخافه».

ورواه الترمذى والنسائى فى «اليوم والليلة»، وابن ماجه، من حديث سَيَّار بن حاتم، عن جعفر بن سليمان، به[(٥)]. وقال الترمذى: «غريب. وقد رواه بعضهم عن ثابت، عن أنس، عن النبى ﷺ مرسلا».

وقال[(٦)] ابن أبى حاتم، حدثنا عمر بن شبَّة[(٧)]، عن عبيدة النميرى، حدثنا أبو خَلَف عبد الله بن عيسى الخَزَّاز، حدثنا[(٨)] يحيى البَكَّاء، أنه سمع ابن عمر قرأ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾؛ قال ابن عمر: ذاك عثمان بن عفان، رضى الله عنه.

وإنما قال ابن عمر ذلك؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن فى ركعة، كما روى ذلك أبو عبيدة عنه، رضى الله عنه[(٩)]، وقال الشاعر[(١٠)].

---

(١) فى أ: «لله». (٢) فى ت: «خائفا راجيا». (٣) فى ت: «روى»

(٤) فى أ: «تجدر».

(٥) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١٣٦٨) وسنن الترمذى برقم (٩٨٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٢٦١) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٩٠١).

(٦) فى ت: «روى». (٧) فى أ: «شيبة». (٨) فى ت: «عن».

(٩) فى ت: «عنهما».

(١٠) هو حسان بن ثابت الأنصارى، والبيت فى ديوانه (ص ٢٤٨).

ضَحُّوا بأشْمَطَ عُنوانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّع الليلَ تَسْبيحا وقُرآنا

وقال[١] الإمام أحمد: كتب إلى الربيع بن نافع: حدثنا الهيثم بن حميد، عن زيد بن واقد، عن سليمان بن موسى، عن كثير بن مرة[٢]، عن تميم الدارى قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بمائة آية فى ليلة، كتب له قنوت ليلة».

وكذا رواه النسائى فى «اليوم والليلة» عن إبراهيم بن يعقوب، عن عبد الله بن يوسف والربيع بن نافع، كلاهما عن الهيثم بن حميد، به[٣].

وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: هل يستوى هذا والذى قبله ممن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله؟! ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾ أى: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل.

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) ﴾.

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أى: لمن أحسن العمل فى هذه الدنيا حسنة فى دنياهم وأخراهم.

وقوله: ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾: قال مجاهد: فهاجروا فيها، وجاهدوا، واعتزلوا الأوثان.

وقال شريك، عن منصور، عن عطاء فى قوله: ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ قال: إذا دعيتم إلى المعصية فاهربوا، ثم قرأ: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] .

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾، قال الأوزاعى: ليس يوزن لهم ولا يكال[٤]، إنما يغرف لهم غرفا.

وقال ابن جريج: بلغنى أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزادون[٥] على ذلك.

وقال السدى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: يعنى فى الجنة.

وقوله: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ أى: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾، قال السدى: يعنى من أمته ﷺ.

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا

---

(١) فى ت: «روى». (٢) فى ت: «بإسناده».
(٣) المسند (١٠٣/٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٥٥٣) .
(٤) فى ت، أ: «يكال لهم». (٥) فى ت: «يزدادون».

ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد وأنت رسول الله: ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، وهو يوم القيامة. وهذا شَرْط، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى، ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ ﴾، وهذا أيضا تهديد وتَبَرّ[1] منهم، ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى: إنما الخاسرون كل الخسران[2] ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى: تفارقوا فلا التقاء لهم أبدا، سواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور، ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ أى: هذا هو الخسار البين الظاهر الواضح.

ثم وصف حالهم فى النار فقال: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾، كما قال: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال: ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وقوله: ﴿ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ أى: إنما يَقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده، لينزجروا عن المحارم والمآثم.

وقوله: ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ أى: اخشوا بأسى وسطوتى، وعذابى ونقمتى.

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ (١٨) ﴾

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ نزلت فى زيد بن عمرو بن نُفَيل، وأبى ذر، وسلمان الفارسى.

والصحيح أنها شاملةٌ لهم ولغيرهم، ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن. فهؤلاء هم الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

ثم قال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ أى: يفهمونه ويعملون بما فيه، كقوله تعالى لموسى حين آتاه التوراة: ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أى: المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله فى الدنيا والآخرة[3]، أى: ذوو العقول الصحيحة، والفطَر المستقيمة.

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) ﴾.

---

(١) فى أ: «وتبرى». (٢) فى ت، س: «الخاسرون». (٣) فى س: «والأخرى».

يقول تعالى: أفمن كتب الله أنه شَقِى تَقْدرُ تُنْقذُه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أى: لا يهديه أحد من بعد الله ؛لأنه من يضلل الله فلا هادى له، ومن يهده فلا مضل له.

ثم أخبر عن عباده السعداء أنهم لهم غرف فى الجنة، وهى القصور الشاهقة، ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ ،أى: طباق فوق طباق، مَبْنيات محكمات مزخرفات عاليات.

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا عباد بن يعقوب الأسدى، حدثنا محمد بن فضيل، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن النعمان بن سعد، عن على، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة لغرفاً يُرَى بطونها من ظهورها، وظهورها من بطونها». فقال أعرابى: لمن هى يا رسول الله؟ قال: «لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى لله بالليل والناس نيام».

ورواه الترمذى من حديث عبد الرحمن بن إسحاق[١]، وقال: «حسن غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم فيه من قبَل حفظه».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن يحيى بن أبى كثير، عن ابن مُعانق ـ أو: أبى مُعَانق ـ عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة لغرفة[٢] يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام».

تفرد به أحمد من حديث عبد الله بن مُعَانق الأشعرى، عن أبى مالك، به[٣].

وقال[٤] الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن أبى حازم[٥]، عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء». قال: فحدثتُ بذلك النعمان بن أبى عياش، فقال: سمعت أبا سعيد الخدرى يقول: «كما تراءون الكوكب الدرى[٦] فى الأفق الشرقى أو الغربى».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث أبى حازم[٧]، وأخرجاه أيضاً فى الصحيحين من حديث مالك، عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ[٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا فَزارة، أخبرنى فُلَيح، عن هلال بن على، عن عطاء بن يسار، عن أبى هريرة، رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون فى الجنة أهل الغرف، كما تراءون الكوكب الدرى الغارب فى الأفق الطالع، فى تفاضل أهل الدرجات». فقالوا: يا رسول الله، أولئك النبيون؟ فقال: «بلى، والذى نفسى بيده، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل».

(١) زوائد عبد الله على المسند (١/ ١٥٥) وسنن الترمذى برقم (١٩٨٤).
(٢) فى س، أ: «غرفة».
(٣) المسند (٥/ ٣٤٣).
(٤) فى ت: «وروى». (٥) فى ت: «بإسناده».
(٦) فى س، أ: «الذى».
(٧) المسند (٥/ ٣٤٠) وصحيح البخارى برقم (٦٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٠).
(٨) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣١).

ورواه الترمذى عن سُويد[١]، عن ابن المبارك، عن فُلَيح، به[٢]، وقال: حسن صحيح.

وقال[٣] الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو كامل[٤] قالا: حدثنا زهير، حدثنا سعد الطائى، حدثنا أبو المدلَّه ـ مولى أم المؤمنين ـ أنه سمع أبا هريرة يقول: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشَممْنَا النساء والأولاد. قال: «لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التى أنتم عليها عندى، لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم فى بيوتكم. ولو لم تُذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كى يغفر لهم» قلنا: يا رسول الله، حَدِّثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةٌ ذهب ولَبِنَةُ فضّة، وملاطها المسك الأذْفَر، وحَصْباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يَبْأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه. ثلاثة لا تُرَدَّ دعوتُهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تُحمَل على الغَمام، وتفتح لها أبواب السموات، ويقول الرب: وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين»[٥].

وروى الترمذى، وابنُ ماجه بعضَه، من حديث سعد[٦] أبى مجاهد الطائى ـ وكان ثقة ـ عن أبى المُدلَّه ـ وكان ثقة ـ به[٧].

وقوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى: تسلك[٨] الأنهار بين خلال ذلك، كما يشاؤوا[٩] وأين أرادوا، ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ أى: هذا الذى ذكرناه وَعْدٌ وعَدَه الله عباده المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾.

يخبر تعالى: أن أصل الماء فى الأرض من السماء كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، فإذا أنزل الماء من السماء كَمَن فى الأرض، ثم يصرفه تعالى فى أجزاء الأرض كما يشاء، ويُنبعهُ عيوناً ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها؛ ولهذا قال: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾.

قال[١٠] ابن أبى حاتم ـ رحمه الله ـ: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عمرو بن على، حدثنا أبوقتيبة عتبة بن يقظان، عن عكرمة[١١]، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾، قال: ليس فى الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق فى الأرض

---

(١) فى أ: «يزيد».

(٢) المسند (٢/ ٣٣٩) وسنن الترمذى برقم (٢٥٥٦).

(٣) فى ت: «وروى». (٤) فى أ: «وأبو عامر».

(٥) المسند (٢/ ٣٠٤).

(٦) فى أ: «سعيد».

(٧) سنن الترمذى برقم (٣٥٩٨) وسنن ابن ماجه برقم (١٧٥٢) قال الترمذى: «هذا حديث حسن»، ثم أشار إلى رواية أحمد المطولة.

(٨) فى ت: «تلك». (٩) فى أ: «يشاؤون». (١٠) فى ت: «روى». (١١) فى ت: «بسنده».

تغيره، فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾، فمن سره أن يعود الملح عذاب فليصعده.

وكذا قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبى: أن كل ماء فى الأرض فأصله من السماء.

وقال سعيد بن جبير: أصله من الثلج، يعنى: أن الثلج يتراكم على الجبال، فيسكن فى قرارها، فتنبع العيون من أسافلها.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أى: ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعا ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ أى: أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أى: بعد نضارته وشبابه يكتهل[(١)] ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾، قد خالطه اليُبْس، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾ أى: ثم يعود يابسا يتحطم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ أى: الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خَضِرةً نضرةً حسناء، ثم تعود عَجُوزا شوهاء، والشاب يعود شيخا هَرِما كبيرا ضعيفا [قد خالطه اليبس][(٢)]، وبعد ذلك كله الموت. فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زروعا وثمارا، ثم يكون بعد ذلك حُطاما، كما قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أى: هل يستوى هذا ومن هو قاسى القلب بعيد من الحق؟! كقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: فلا تلين عند ذكره[(٣)]، ولا تخشع ولا تعى ولا تفهم، ﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)﴾.

هذا مَدْحٌ من الله ـ عز وجل ـ لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ قال مجاهد: يعنى القرآن كله متشابه مثانى.

وقال قتادة: الآية تشبه الآية، والحرف يشبه الحرف.

وقال الضحاك: ﴿مَّثَانِيَ﴾: ترديد القول ليفهموا عن ربهم عز وجل.

وقال عكرمة، والحسن: ثنَّى الله فيه القضاء ـ زاد الحسن: تكون السورة فيها آية، وفى السورة الأخرى آية تشبهها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَّثَانِيَ﴾: مُرَدَّد، رُدِّد موسى فى القرآن، وصالح وهود

(١) فى ت، أ: «يتكهل». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «ذكر الله».

والأنبياء، عليهم السلام، فى أمكنة كثيرة.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿مَّثَانِيَ﴾ قال: القرآن يشبه بعضه بعضا، ويُرَدُّ[1] بعضه على بعض.

وقال بعض العلماء: ويُرْوى عن سفيان بن عيينة معنى قوله: ﴿مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾: أنّ سياقات القرآن تارةً تكونُ فى معنى واحد، فهذا من المتشابه، وتارةً تكونُ بذكر الشىء وضده، كذكر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثانى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وكقوله: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، إلى أن قال: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾[ص: ٤٩]. إلى أن قال: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥]، ونحو هذا من السياقات، فهذا كله من[2] المثانى، أى: فى معنيين اثنين، وأما إذا كان السياق كله فى معنى واحد يشبه بعضه بعضا، فهو المتشابه وليس هذا من المتشابه المذكور فى قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، ذلك معنى آخر.

وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد. والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويُؤمِّلون من رحمته[3] ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار[4] من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نَغَمات لأبيات، من أصوات القَيْنات.

الثانى: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبُكيا، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] أى: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم [أى يرون غيرهم قد سجد فيسجدون تبعا له][5].

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة، رضى الله عنهم، عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخُون ولا يتكلّفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد فى ذلك؛ ولهذا فازوا بالقدح المُعلّى فى الدنيا والآخرة.

قال عبد الرزاق: حدثنا مَعْمَر قال: تلا قتادة، رحمه الله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

(١) فى أ: «يردد». (٢) فى أ: «فى». (٣) فى ت: «من رحمة الله».
(٤) فى ت، س، أ: «الفجار». (٥) زيادة من أ.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكى أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا فى أهل البدع، وهذا من الشيطان.

وقال السُّدِّى: **﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾** أى: إلى وعد الله.

وقوله: **﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾** أى: هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله، **﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾** [الرعد: ٣٣].

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٢٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦)﴾.

يقول تعالى: **﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**، ويُقَرَّعُ فيقال له ولأمثاله من الظالمين: **﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾**، كمن يأتى آمنا يوم القيامة؟! كما قال تعالى: **﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [الملك: ٢٢]، وقال: **﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾** [القمر: ٤٨]، وقال [تعالى](١): **﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** [فصلت: ٤٠]، واكتفى فى هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر، كقول الشاعر(٢):

فَمَا أدْرى إذَا يَمَّمْتُ أرْضاً ... أريدُ الخيرَ: أيّهما يَلينى؟

يعنى: الخير أو الشر.

وقوله: **﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾** يعنى: القرون الماضية المكذبة للرسل، أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق.

وقوله: **﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** أى: بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفى(٣) المؤمنين بهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل، وخاتم الأنبياء، والذى أعده الله لهم فى الآخرة من العذاب الشديد أعظمُ مما أصابهم فى الدنيا؛ ولهذا قال: **﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾**.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾ .

---

(١) زيادة من ت.

(٢) البيت فى تفسير الطبرى (٢٢/٩٨).

(٣) فى س، أ: «يشفى».

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أى: بينا للناس فيه بضرب الأمثال، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ، فإن المثل يُقَرِّب المعنى إلى الأذهان، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] أى: تعلمونه من أنفسكم، وقال: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أى: هو قرآن بلسان عربى مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله [عز وجل][١] كذلك، وأنزله بذلك، ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما[٢] فيه من الوعد[٣].

ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ أى: يتنازعون فى ذلك العبد المشترك بينهم، ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أى: خالصا لرجل، لا يملكه أحد غيره، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ أى: لا يستوى هذا وهذا. كذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذى لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له. فأين هذا من هذا؟

قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلا للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثلُ ظاهرا بَيِّنا جليا، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى: على إقامة الحجة عليهم، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا يشركون بالله.

وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾: هذه الآية من الآيات التى استشهد بها الصديق [رضى الله عنه][٤] عند موت الرسول[٥] ﷺ، حتى تحقق الناس موته، مع قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ومعنى هذه الآية: ستنقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله فى الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه فى الدنيا من التوحيد والشرك بين يدى الله عز وجل، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتاح العليم، فينجى المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

ثم إن هذه الآية ـ وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين، وذِكْر الخصومة بينهم فى الدار الآخرة ـ فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة فى الدار الآخرة.

قال[٦] ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن محمد بن عمرو، عن ابن حاطب ـ يعنى يحيى بن عبد الرحمن ـ عن ابن الزبير، عن الزبير قال: لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة؟ قال: «نعم». قال: إن الأمر إذاً لشديد.

وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان، وعنده زيادة: ولما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت، أ: «لما». (٣) فى ت، أ: «الوعيد».
(٤) زيادة من ت. (٥) فى ت: «رسول الله». (٦) فى ت: «روى».

[التكاثر: ٨] قال الزبير: أى رسول الله، أى نعيم نسأل عنه؟ وإنما ـ يعنى: هما[١] الأسودان: التمر والماء ـ قال: «أما إن ذلك سيكون».

وقد روى هذه الزيادة الترمذى وابن ماجه، من حديث سفيان، به[٢]. وقال الترمذى: حسن.

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا ابن نمير، حدثنا محمد ـ يعنى ابن عمرو ـ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير، عن الزبير بن العوام[٣] قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: أى رسول الله، أيكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم، ليكررن عليكم، حتى يُؤدَّى إلى كل ذى حق حقه». قال الزبير: والله إن الأمر لشديد.

ورواه الترمذى من حديث محمد بن عمرو، به[٤] وقال: حسن صحيح.

وقال[٥] الإمام أحمد: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لَهِيعة، عن أبى عُشَّانة، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أول الخصمين يوم القيامة جاران». تفرد به أحمد[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج، عن أبى الهيثم[٧]، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنه ليختصم[٨]، حتى الشاتان فيما انتطحتا» تفرد به أحمد[٩].

وفى المسند عن أبى ذر، رضى الله عنه [أنه][١٠] قال: رأى رسول الله ﷺ شاتين ينتطحان، فقال: «أتدرى فيم ينتطحان يا أبا ذر؟» قلت: لا. قال: «لكن الله يدرى وسيحكم بينهما»[١١].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا سهل بن بحر، حدثنا حيان بن أغلب، حدثنا أبى، حدثنا ثابت عن أنس[١٢] [رضى الله عنه][١٣]، قال: قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالإمام الخائن[١٤] يوم القيامة، فتخاصمه الرعية فيفلجون عليه، فيقال له: سد ركنا من أركان جهنم».

ثم قال: الأغلب بن تميم ليس بالحافظ[١٥].

(١) فى أ: «بهما».
(٢) المسند (١/ ١٦٤) وسنن الترمذى برقم (٣٣٥٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٥٩).
(٣) فى م: «العوام رضى الله عنه».
(٤) المسند (١/ ١٦٧) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٦).
(٥) فى ت: «وروى».
(٦) المسند (٤/ ١٥١) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٧/ ٣٠٣) من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبى عشانة به.
(٧) فى ت: «وروى أيضا». (٨) فى أ: «يختصم».
(٩) المسند (٣/ ٢٩) ودراج أبو السمح عن أبى الهيثم ضعيف.
(١٠) زيادة من ت.
(١١) المسند (٥/ ١٦٢).
(١٢) فى ت: «وروى الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن أنس». (١٣) زيادة من أ. (١٤) فى أ: «الجائر».
(١٥) مسند البزار برقم (١٦٤٤) «كشف الأستار» ولفظه: «يجاء بالإمام الجائر يوم القيامة فيخاصمه الرعية، فيفلحوا عليه.» ثم ذكر بقية الحديث كما هو هنا.